

دراسة في الأدب العربي

العصر العباسي

الدكتور محمد غزلون سلام
أستاذ اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



الناشر: **مستشار** / **مستشار** / **مستشار**
بجالات حري وشركاه

دراسة في الأدب العربي

العصر العباسي

الدكتور محمد فلول سلام
أستاذة اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر / منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حوزي وشركاه

القسم الاول

شعراء من القرن الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه دراسة حول مجموعة مختارة من شعراء العصر العباسي وأدبائه أردت أن تكون جامعة لنماذج من الاتجاهات الادبية المختلفة خلال هذا العصر الزاخر من عصور الحضارة العربية الزاهرة ، وفي قرنين مع الزمان بعد قيام الدولة أى حتى أوائل القرن السابع الهجرى أو حول منتصفه -

وقد شهدت هذه المرحلة الادبية تلك النهضة الكبيرة التى ظلت أصدائها تتجاوب فى دراسات الادب والعلم على مدى العصور -

ونجد بين هؤلاء الذين تناولهم بالدراسة جماعة من المشهورين الكبار ممن كثرت حولهم الاحاديث ، وقد لا يجد القارئ جديدا فيما نقول عنهم - لكنه سيجد عرضا لعله أقل ايجازا وأكثر المأما بخصائصهم ، وربما غلبت عليه اللمعات الدالة أكثر من التفصيل -

وعلى هذه الدراسات يبدو طابع الاختيار للرجال والنصوص - ويتفاوت تناول بين واحد وآخر ، فقد تجد شاعرا أو كاتباً تطيل معه الوقفة ، وتطيل الشرح ، وتكثر الاختيار ، وقد تمر على الآخر مرا سريعا -

وليس من سبب وراء هذا أو ذاك سوى ميل لاطالة الصحبة يغري به فن الشاعر وشخصه ، أو كتابة الاديب وروحه أو عكس ذلك ، يزهد فيه ، فينقض القلم منه نفسه ويعجل بطلى الورق -

وقد لا يغرى بالاطالة كذلك نقص المادة ، أو كثرة ما
قليل وليس من جديد لتفاد عطاء من كثر حوله القول -

وغاية هذه الدراسة أن تضع بين يدي ناشئة الادب ومريديها
تصورا يغريهم بقراءة من قدمناهم ، وزيادة القريبى منهم أو من
يختارون ميلا وهوى -

والله بعد هذا الموفق والمسدد للخير . . .

محمد زغلول

البيئة

المكان والعصر والمجتمع

الحديث عن الادب يستتبع بالضرورة الحديث عن المسرح الذى دار فيه ونبع منه ، بصورته الجغرافية ، والبشرية ، او الحيوية عامة ، وما اتاحته هذه الصورة للادب من فرص للنمو والتطور . وما عكسته عليه من الالوان ، وبثت فى ثناياه من المعالم والملامح .

والحديث عن الادب العباسى يستتبع بالضرورة حديثا عن مكانه او أمكنته ، واذا كان الادب الاسلامى والادب الاموى يتخذ ميادين رئيسية له فى الحجاز ومدنه مكة والمدينة التى نشأ فيها الاسلام . وتبع الخلافة الى انشام فصارت دمشق مورد الاديام ومصدرهم . فان الادب العباسى انتقل الى العراق واتخذ من عواصمه الثلاث الكبرى : الكوفة والبصرة وبغداد مقلا وملاذا .

وليس معنى هذا أن العراق لم يكن موئلا لادب أو نشاط أدبى قبل عصر العباسيين ، بل ان العراق كان حافلا بالنشاط الادبى كذلك فى العصر الاموى ، ولكن ثقل هذا النشاط كان بالحجاز والشام كما ذكرنا ، وعاد فى عصر العباسيين بالعراق .

ونبدأ حديثنا بالكوفة لأنها كانت ملاذ العباسيين ، وموطن دعوتهم ، وكانت كذلك عاصمتهم الاولى ، خرجوا منها الى بغداد .

والكوفة مدينة داخلية بعيدة عن البحر ، قريبة الى الجزيرة العربية أو الى عمق الجزيرة ، وهى بيئة غلبت عليها

الثقافة العراقية القديمة ، وأحاطت بها آثار المسيحية في صور
الاديرة والبيع المنتشرة بالعيرة .

ومن هنا كانت الكوفة أكثر انغلاقا ، وتأثرا أو حفاظا على
القديم ، لأنها ليست من الثغور ، ومن ثم قلست مجالا للاختلاط بين
الاجناس والثقافات التي قد تغلف على التراث أو تتغول عليه
وتمحوه .

البصرة :

وتختلف في موقعها وبيئتها عن الكوفة ، فهي مدينة بحرية
مفتوحة للثقافات المختلفة التي يمكن لها كونها ثغرا على البحر
يفد اليه الناس من اجناس متباينة عبر الخليج وبحر الهند
والصين . وموقع البصرة كان وما زال من المواقع البحرية
التاريخية الهامة التي تصل الشرق بالغرب .

ولذلك كانت البصرة تتلقى الاثار التي تفد عليها من
هنا ومن هناك على ظهور السفن وتسند ظهرها الى الصحراء
بيئة العرب .

وبالبصرة عربية النشأة نزلتها قبائل العرب بعد فتح
فارس وأقامت فيها ، وعاشت بها بعض القبائل المربية الكبيرة .
وكانت تنقسم أخماسا كل خمس يسكنه بطن أو فرع .

وأهم قبائل العرب بالبصرة أهل العالية وأكثرها تميم ويكر
ابن وائل وعبد القيس والازد . ويعنى تعبير أهل العالية كل
من كان من جهة نجد من المدينة وقراها وعماثرها الى تهامة

وتتضم قبائل قريش ، وكنانة وبجيلة وخثعم وقيس عيلان .
وكانوا أكثر قبائلها عددا . رمزينة وآسد .

وتعد تميم المؤسس الحقيقي للبصرة . ومن يقرأ كتاب
ملبقات ابن سعد يتضح له أن معظم قادة الفكر والدين والسياسة
في البصرة بالقرن الاول كانوا من تميم (١) . وحصل هؤلاء
الثقافة العربية وكانوا عمادها .

وضمت البصرة مجموعة أخرى من العناصر والاجناس
كالنبط . ويطلق العرب هذا الاسم على الاراميين من سكان
العراق أو « السواد » دون تمييز . وتمتد أصولهم الى الكلدانيين
سكان العراق القدماء .

ووقف النبط موقفا وسطا بين العرب والفرس في النزاع
الذي دار بينهم ، وكانت له مظاهره المختلفة . ويمثل الفرس
سادتهم السابقين بينما كان العرب سادتهم الحاليين .

واشتغل معظم النبط بالزراعة والحرف البسيطة ، وظلوا
مواطنين من الدرجة الثانية ينظر اليهم العرب والفرس نظرة
احتقار .

وكان الفرس من الموالي ومن أبناء الامصار ممن لا يرقون
الى مستوى العرب في الدولة . وظلوا يشعرون بالمهانة في ظل
الدولة الاموية الى أن شاركوا في الاطاحة بها . وجاءت الدولة
العباسية في حمى سيوفهم وتعت راياتهم فكان لهم في ظلها

١ - راجع « بيئة البصرة وتكوين الجاهل لشارل بلا ، ص ٥٤ :

٢ - شخصية بشار ص ١٤٦ .

شأن ، وزاحموا العرب وغالبوهم ، وفاغروهم ، بل وتعالوا عليهم وناصروا الشموية التي حاولت الاضرار بالعرب وأصولهم وتقاليدهم وعقائدهم وتراثهم جميعا .

وأثرت الثقافة الفارسية في المجتمعات العربية أولا عن طريق اللغة وتسرب بعض الانفاظ الفارسية الى المجتمعات وخاصة مجتمع مدن العراق .

وكانت البصرة مثلا لظهور اللغة الفارسية في حياة الناس وأحاديثهم ومخاطبتهم كما مثلت اللغة الفارسية جانبا من ثقافة بعض العلماء وظهرت أنفاظها في شعر الشعراء وكتابة الكتاب نظرفا وتملحا أو ادلالا بالمعرفة والتحضر .

وأشاع العصر الفارسي كثيرا من التقاليد والعادات ، وصور السلوك الفارسية في المسكن والمطعم والمأكل - وغزت أفكار الديانات الفارسية القديمة من مزدكية وماتونية وغيرها عقول الناس وظهرت آثارها على الادب والشعر .

وتمثل طبقة الكادحين في البصرة أجناس من العبيد والمكدين من بلاد مختلفة ، وقد كثر بينهم الزنج لعاجة ملاك الاراضي وأصحاب البساتين اليهم فيما تتطلبه من العمل الشاق . وأكثرهم من زنج ساحل أفريقيا الشرقي .

وتضخمت هذه الطبقة ، وشكلت خطورة كبيرة في المجتمع البصري بل وهددت الخلافة العباسية بما قامت به من ثورات كان أخطرها ثورة الزنج المشهورة في القرن الثالث (من سنة ٢٥٥ هـ الى سنة ٢٧٠ هـ) . وقد اختلفت نظرات المؤرخين اليها .

ومن سكان البصرة « الزط » أو أهل السند والهند ، وكان أكثرهم يعمل بالحرف الصغيرة والصيرفة - واختصرت فيهم الثورة أيضا أخريات القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، وأثاروا المتاعب في البصرة للخلافة العباسية مما اضطر المأمون سنة ٢٠٥ هـ إلى حرقهم - وانتقطعت بعدها أخبار ثورتهم إلى أن ولي المعتصم فبعث بأحد قادته إليهم سنة ٢١٩ هـ وكانوا قد قطعوا الطريق إلى البصرة -

ورغم قلة العنصر الرومي نسبيا في البصرة إلا أن الثقافة اليونانية كانت بها ذات شأن ، وكان القائلون عليها من عناصر النساطرة الذين حافظوا على هذه الثقافة بالحيرة والعراق ، ويمكن لهذا أن يقال أن الثقافة اليونانية كانت أقدم في هذا الاقليم من الثقافة العربية - ولعلها ترجع إلى زمن الاسكندر المقدوني حين جاء إلى هذه البلاد وأنشأ المدن وترك جاليات يونانية استوطنتها - ولا شك أنها طبعت الحياة بطابعها وخلقت آثارا واضحة في تراث البلاد إلى أن قامت المسيحية فتبنت الثقافة اليونانية وتشربتها ، واستعانت بها في جدلها ضد الديانات الوطنية أو فيما بينها وبين الطوائف المسيحية المختلفة - واعتمدت الفلسفة اليونانية والمنطق خاصة في تلك النصوصات -

وأعادت طائفة المعتزلة الحياة إلى تلك الثقافة وبعثتها من جديد ، ودعت إلى الاهتمام بها لأنها اتخذت منها وسيلة للرد على المعارضين للإسلام والدعوة له في الآفاق ، كما اتخذ المتكلمون عامة من الفلسفة والمنطق وسائل للبحث في كثير من القضايا الدينية -

ولعبت الترجمة دورا هاما في نقل علوم اليونان الأخرى

كالطب والهندسة والطبيعة والحساب الى العربية - وساهم النقلة من السريان والنساطرة بجهود جلية في هذا الشأن ، وخاصة منذ آخريات القرن الثاني وحوال القرن الثالث . وقد شجع المأمون هذه الحركة وشارك فيها ببغداد بعد البصرة حتى صارت بغداد مركزا نشطا للترجمة عن اليونانية وغيرها .

بغداد :

وهي المدينة المدورة التي بناها ابو جعفر المنصور على نهر دجلة سنة ١٤٥ هـ وسمّاها دار السلام . وكانت دولة بني العباس يادى أمرها قائمة بالكوفة ، ثم انتقل خلقاؤها بعد المنصور الى بغداد .

وبغداد أقرب في موقعها الى الكوفة منها الى البصرة ، ولهذا كان للكوفة أثر كبير على الحياة والفكر والادب في بغداد . وقد أثر خلفاء العباسيين ثقافة الكوفة على ثقافة البصرة . فقلّبوا علماء الكوفة على علماء البصرة في قصورهم ، وفضلوهم في تربية أبنائهم .

واشتهر من علماء الكوفة ببغداد جماعة من رواة الأدب وعلماء اللغة أمثال المنفل الضبي معلم الخليفة المهدي، والكسائي معلم الأمين ومؤديه . كذلك اشتهر بها من الكوفيين أبو العباس ثعلب .

وظلت بغداد كذلك يغلب عليها الطابع الكوفى حتى تغير الامر في عهد الخلفاء العباسيين ممن ولوا الخلافة في القرن الثالث الهجرى أعنى المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ومن بعدهم .

فإن عناصر بصرية بدأت تغزو الحياة الفكرية والأدبية في بغداد ، حتى سيطرت على مجالس الخلفاء وكبار رجال الدولة . وتذكر على رأسهم أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وأبا العباس المبرد .

واختلطت الثقافة البصرية بالثقافة الكوفية ، ومازج الثقافتين عناصر أخرى وافدة ، وخرج منها جيما ثقافة جديدة يمكن أن تمثل طابع بغداد .

ومن هنا بدأت تظهر في تاريخ الثقافة العربية مذاهب بغدادية في النحو واللغة والأدب والفكر عامة تقابل مذهبي البصرة والكوفة بل وتجمع بينهما أحيانا وتوفق في كثير من الأحيان .

وقد غلب على بغداد العنصر الفارسي ، وبدأت مظاهر الحضارة الفارسية في وضوح وخاصة في نظم العيش والإدارة . وفي اللباس وعادات الناس . فغلبت القلنسوة الفارسية على المماة العربية .

ولم يقتصر الأمر على الفرس بل جمعت بغداد عناصر أخرى ، وبدأ الروم والأتراك يزدادون شيئا فشيئا في قصور الخلفاء وكبار القوم ، وخاصة بعد أن استكثر منهم الخليفة المعتصم وأثرهم للمخدمة والجيش على غيرهم .

وكانت هذه العناصر من الترك مصدر متاعب كثيرة للخلافة لشراساتهم وشفبهم . وقد بلغ بعضهم مكانة مرموقة في قصور الخلفاء ، وسيطروا من خلالها على شخص الخليفة نفسه فكان لا يملك معهم شيئا .

المجتمع العباسي :

كان المجتمع العباسي يتكون من طبقتين كبيرتين أو فعاليتين الطبقة العليا أو « الارستقراطية » ، وهي طبقة الاشراف وتضم الخلفاء والامراء والقواد وكبار الرؤساء والوزراء والكتاب وكبار التجار وزعماء القبائل . والطبقة الثانية الطبقة الدنيا مع الكادحين من الاكرة ورقيق الارض وأصحاب المهن والحرف الصغيرة .

ولا يعنى ذلك انعدام الطبقة الوسطى ، لكنها لم تكن متماسكة أو متضامنة فعالة كما هي الحال في المجتمعات الحديثة ، والتي تحتل فيها هذه الطبقة مكان الصدارة وهي مصدر النشاط والابداع ، بل ومصدر الثورات والتغيرات المستمرة في المجتمعات وكانت مصدر الثورة الفرنسية الكبيرة في القرن الثامن عشر الميلادي .

ويمكن أن يقال ان الطبقة الوسطى في المجتمع العباسي كانت تتكون من مجموعة من صغار التجار ومتوسطيهم ، ومن صغار الموظفين في الدواوين ورجال الشرطة ، وغيرهم ممن يحصلون على رواتب معلومة لسد حوائجهم تكاد تكفي حاجاتهم اليومية ، ولا فائض لديهم لحياة الدعة والترف .

وكان للطبقة العليا أثرها الاكبر في المجتمع ، كما شاركت الطبقة الدنيا في الاحداث .

والى جانب تقسيم المجتمع الى طبقات يمكن تحليل عناصره الى مجموعة من الاصول ذات الثقافات المختلفة ، بعضها واقد من الشرق وبعضها واقد من الغرب ، تمازجت تقاليدھا ، وافكارھا .

وصارت كل فئة مشهورة بأشياء خاصة في طبع أو في فن أو علم .

وتحدث أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عن هذه الميزات فقال عن الزنج مثلاً : وهم طبقة رقيق الأرض في إقليم البصرة خاصة . انهم أطيع الخلق على الرقتن والطرب بالطبل على الايقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم . وليس في الأرض أحسن أخلاقاً منهم .

وقال عن الصينيين « وميزة سكان الصين الصناعة ، فهم أصحاب السبر والصباغة ، والاصباغ العجيبة ، والنحت والتصوير والنسج » وعن اليونانيين قال : « انهم يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وميزتهم الحكم والآداب » . وأما القرم فميزتهم مباشرة الملك والسياسة . وبرع الأتراك في الحروب ، واشتهر أهل السند بالصيرفة والعلم بالعقاقير . قال الجاحظ : « لا ترى بالبصرة صيرفياً الا وصاحب كيسه سدى » . وقل صيدلاني عندنا الا وله غلام سدى فبلغوا أيضاً في الخبرة والمعرفة بالعقاقير وفي صحة واجتلاب الحرفاء مبلغاً حسناً .

كذلك كان لكل بلد في العالم الاسلامي آنذاك شهرته الخاصة ، ينطبع بها أهله ويعرفون في كل مكان . فكانت شهرة مرو وخرسان البنخل . قال ثمامة بن أثرس : ما رأيت الديك قط في بلدة الا وهو يدعو الدجاج ويشير الحب اليها ويلطف بها الا في مرو فاني رأيته يأكل وحده ، فعلمت أن لؤمهم في المأكول . ورأيت في مرو طفلاً صغيراً في يده بيضة ، فقلت له : أعطني هذه البيضة . فقال : « ليس تسع يدك » فعلمت أن اللؤم والمنع منهم بالطبع .

كذلك عرف اليمينيون بالعشق ، والحجازيون بالذل .
والعراقيون أو البغداديون خاصة بالظرف ، وهكذا -

وكان لكثرة العناصر غير العربية فى المجتمع الاسلامى
آثارها الاجتماعية ، وأبلغ تلك الآثار ظاهرة الموالى والولاء
وأدت الى قيام المشكلة أسباب عدة • منها عصبية العرب لعروبيتهم
وتمسكهم بأنسابهم واعتبارهم كل من لا يمت بنسب أو من لا
يمتد نسيه ويعرق دعيا •

وكانوا يعتبرون أنفسهم فى الدرجة الاولى ، والعناصر
الثانية بعدهم فى الدرجة الثانية • وانتشر الموالى من أبناء
الامصار ممن استعربوا أو من أبناء الاماء الذين اختلطت
دمائهم وانتشر هؤلاء ومؤلاء وعرقوا بالموالى ، والعثوا بالقبائل
العربية ، وفرضت كل قبيلة حمايتها على جماعة منهم فى كل
مصر من الامصار •

وتروى عن ظاهرة تمصب العرب لدمائهم أخبار ونوادير
كثيرة فى كتب الادب والتاريخ ، منها ما رواه الميرد عن شيخ من
الازد عن رجل منهم أنه كان يعنوف بالبيت وهو يدعو لابييه فقال
له : لم لا تدعو لامك ؟ فقال : أنها تميمية •

وكان العرب يكرهون أبناء الاماء من الفرس وغيرهم حتى
تشأت من الموالى طبقة من أبناء الاماء من الفرس كانوا فى
مقدمة الفضلاء وأهل العلم والتقوى والادب مثل الحسن
البصرى ومحمد بن سيرين ومحمد بن جبير وعطاء بن يسار
وربيعة الرأى وابن جريج • وأمثال على بن الحسين والقاسم
ابن محمد ، وسالم بن عبد الله من فقهاء المدينة الذين فاقوا أهلها
فقها وعلماء وورعا •

وشعر المولودون أو الموالي باحتقار العرب لهم . فأحسوا
في نفوسهم بالضيق ، وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقا ،
ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفأ للعرب لا يقلون عنهم من
حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم . بل لهم
يفوقونهم في التاريخ القديم .

ومع هنا نشأت مشكلة الشعوبية التي أثرت تأثيرا كبيرا في
الادب والعلم ، والحياة . وظلت أصدائها تتجاوب في أنحاء الأمة
الإسلامية مدة مديدة من الزمن .

الشعوبية :

والاصل في الشعوبية المساواة بين شعوب الأمة الإسلامية
في الحقوق والواجبات . وتطور مفهوم الكلمة بتقدم الزمن
وأصبحت الشعوبية تعني العداوة للعرب . وكان أكثر الناس
مناصرة لهم بالعداء الفرس ، وأكثرهم تعريضا بهم ، وأظهارا له
عامتهم . يقول ابن قتيبة :

« ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصيا
للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ،
فأما أشراف المعجم وذوو الاخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون
ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا » .

ويقول : « وان ممن ذهب مذهب الشعوبية أقواما تحلو
بحلية الآداب ، فجالسوا الأشراف ، وأقواما اتسموا بميسم
الكتابة ففربوا من السلطان ، فدخلتهم الانفة لأدائهم والفضاضة
لافتقارهم مع لؤم مفارستهم وخبث عناصرهم » .

وبدأ العداء للمعرب بين الفرس منذ آخريات العصر
الاموي ، ولكن الامويين قابلوه بقوة لتعصيبهم للمعرب ، ولذلك
كره الشمويون الحكم الاموي وعملوا ضده . فأعانوا العباسيين
وانخرطوا في سلك دعوتهم .

وسمع يذكر من شعراء الشموية في عصر بني أمية اسماعيل
ابن يسار . دخل مرة على هشام بن عبد الملك فأنشده قصيدة يفخر
فيها بمصبيته ، ويمجد تاريخ الفرس وملوكهم يقول فيها :

اني وجدك ما عودى بذى خور	عند الحفاظ ولا حوضي بمهلوم
أصلي كريم ومجلس لا يقاس به	ولي حسام كعند السيف مسموم
أحصى به مجد القوام ذوى حسب	من كل قوم يشاق الملك مغموم
جعاجح سادة يلج مرزابة	جرد عتاق مساميح مظالمهم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا	والهرمزان لفخر أو لتعتليم

فغضب هشام وقال : أعلي تفخر بأعلاج قومك ؟ . غطوه
في الماء . فغطوه في البركة حتى كادت تخرج نفسه . ثم أمر
بإخراجه ونفاه الى الحجاز من وقته .

وفي مطلع الدولة العباسية انتشرت حركة الشموية ،
ونطق بلسانها جماعة من العلماء والادباء والشعراء بينهم بشار
ابن برد . وكان ديك الجن من الشعراء المتعصبين الى العرب .
ذكر أبو الفرج في الاغانى أنه كان يقول : « ما للمعرب علينا
فضل ، » .

واتهم أبو عبيدة معمر بن المثنى العالم الراوية المشهور
بالشموية ، وبأنه ألف الكتب في مثالب العرب ورجالهم .

وأدت هذه الحركة الى أن يدافع العرب عن أنفسهم فقاوموا
وألغوا كذلك الكتب التي تتحدث عن مآثرهم كما نظم شعراؤهم
في فضائلهم ومثالب الفرس وغيرهم مع الشعوب .

وكانت نتيجة هذا كله زاد من الكتب والقصائد بقي لنا
وامثلة كثيرة من المفاخرات والمناظرات حفظتها كتب الأدب
والاخبار .

الزندقة :

وإذا كانت الشعوب نتيجة لقلّة العناصر في العربية
وخاصة الفارسية في المجتمع العربي فإن هذا أيضا ، كان
مع آثاره تلك الحركة الفكرية والاجتماعية التي عرفت بالزندقة
وكان من رجالها وروادها الاوائل جماعة من الموالي الفرس ومن
الشموبية غالبا .

والزندقة هذه كلمة قد ترجع في أصولها الى الفارسية ،
ولكنها كانت تعني غالبا معاني كثيرة ، فهناك زندقة فكرية ،
وزندقة دينية ، وزندقة اجتماعية .

فأما الزندقة الفكرية فهي الاعتقاد ببعض عقائد الفرس
القدماء ، وان كانت لا تعني بالضرورة الخروج عن الاسلام الى
الالحاد والتوقف عن العبادات .

وأما الزندقة الدينية فهي معاداة الديق الاسلامي ، والتهجم
على القرآن ، تمظيم الديانات الفارسية القديمة ومحاولة التحدث
عن فضائلها . وما الى ذلك ، كالحديث عن النار والطين وفضل
النار على الطين . . وقد تكون الزندقة هنا كذلك الاعتقاد في
المانوية أو الزرادشية أو المزدكية .

وأما الزندقة الاجتماعية فهي الخروج عن حدود الاسلام
والمجتمع الاسلامي والاخلاق الاسلامية ، والاسراف في ذلك
والتجاهل بالاثم ، أو التحرر وعدم التحرج في ارتكاب بعض
المحرمات ، والتهتك ، أو اظهار الاستهتار بالقيم والمقدسات .

ووجد بين الادياء والشعراء من وسموا بالزندقة الفكرية
أمثال ابن المقفع وصالح ابن عبد القدوس .

ومنهم من رمى بالزندقة الاجتماعية أمثال عصبية المجان
التي كانت تضم والبة بن الحباب والحسين بن الضحاك ، ومطيع
ابن اياس ، ويحيى بن زياد وأبا نواس .

واشتهر هؤلاء بالظرف ، وضرب بهم المثل فيه حتى قال
شاعرهم :

« تبه مفن وظرف زنديق »

وأتيح لهؤلاء وهؤلاء فرصة الحرية التي نعم بها الناس أيام
الدولة العباسية ، وخاصة بعد أبي جعفر المنصور أي في أيام
المهدي والرشيد والأمين والمأمون . فأسرفوا في استغلال هذه
الحرية ، وجأهروا بالمعصية حتى قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بعاجته وفاز بالطيبات الفاتك الهج

وقال سلم الخامر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

ونادى أبو نواس بالجهر في شرب الخمر وترك التستر :

الافسقتي خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

وكان من آثار هذا التحرر في القول والفعل في المجتمع

العباسي ميل الناس الى المتعة وخاصة لما اشاعتها الحقتارة
المادية المزدهرة بينهم من الرغبة في الحياة والاقبال عليها
والميل من لذاتها -

وأصبح الناس يقبلون على الدنيا ويدينون « باللايقورية »
أو مذهب الاستمتاع بالحياة الدنيا لانها فترة قصيرة ونزهة
عارضة من الحماقة الا يفتنهم الانسان قبل قوا الاوان - وهي
ليست جديرة بأن تقضى في طلب المستحيل أو الممتنع -

وتفنن الناس في ضروب الاستمتاع أو التلذذ ، في المأكول
والملبس والمشراب في السماع والفناء ، والاستمتاع بالخمر
والنساء ، وبالخدم والجواري وكل ما تتيحه الحضارة -

الجواري والحياة :

أثرت الجواري في المجتمع العباسي أثارا متعددة ، فقد
ساعدت على ما سرى في المجتمع من روح العبث وان كانت قد
دفعت الشعراء الى لون من الشعر لم يكن معهودا من قبل هو ذلك
الغزل الظريف ، أو الغزل الرقيق الذي تحس فيه يروح الحضارة
والرفاهية - وكانت الجواري تشيع في المجتمع حب الجمال في
صوره المختلفة ، بما يلتزم منه من التجميل في الملبس والزينة ،
وبما يحرضن عليه من الاهتمام بالزهر والطيب ، وكذلك رققن
طباع الناس في المعاملة وآداب السلوك في الشراب والطعام -

وتأثر الادب بالجواري أثارا عدة فقد كن وحيا للشعراء ،
كانوا يتمشقون المفاتيح وينظمون الشعر الجميل فيهن - كان

بشار يعشق جارية تغنى ويضطرب لفنائها وصوتها فيصل صوتها
الى قلبه قبل أن يجلس اليها •

قالوا بمن لا ترى تهنى فقلت لهم الاذن تعشق قبل العين احيانا

وكان الجوارى أنفسهن أدبيات يعرفن الاخيار والاسمار
ويحفظن الشعر ويروينه، بل كان منهن من يتظمنه مثل عريب
جارية المأمون • وكانت مع أعظم جوارى العصر •

بشار بن برد

ولد بالبصرة حوالى سنة ٧٧ هـ وتوفي
فى خلافة المهدي سنة ١٦٨ هـ

ولد بشار فى البصرة ابان الدولة الاموية فى خلافة عبد الملك
ابن مروان من أحد كبار خلفائها (١)، ودماتها (توفى عبد الملك
سنة ٨٦ هـ) - او الوليد ابنه من أب (برد) فارسى الاصل من
موالى بنى عقيل بالبصرة -

ونشأ فى حجر هذا البيت العربى العريق ، وكان يفخر
بولائه فيهم ، ويدا أخذه عنهم من الفصاحة - يقول :

اننى من بنى عقيل بن كعب موضع السيف من طلائع الامن

وبنو عقيل من بنى عامر من « قيس عيلان » لهذا اعتبر
شاعر قيس كلها - وبهذا خاطبه القيسى بهذا اللقب ، ونبهه
الى خطورته ، وما ينبئ عليه من المحافظة عليه - يقول محمد
ابن حازم الياهمى :

اتق الله انت شاعر قيس لا تكن وصمة على شعراء (٢)

وفخر بقيس فيقول :

أمنت مصرة القضاء انى	أرى قيسا تضر ولا تضار
كان الناس حين تغيب عنهم	نبات الأرض أخطاه القطار
وقد كانت بتدثر خيل قيس	فكان تلطم فيها نمار
يعنى من بنى عيلان شوس	يسير الموت حيث يقال ساروا
وما نلقاهم الا صردنا	برى منهم وهم حرار

(١) يختلف الناس فى مولده -

(٢) راجع الاغانى ، وكتاب « بشار بن برد » لحسين منصور ص ٢ ، طبع

القاهرة ١٩٣٠ -

فبشار اذا يشارك في هذا الصراع القبلي الذي احتدم
ابان العصر الاموي بين القيسية واليمانية ، وياخذ جانب القيسية ،
لولائه ، ولانه اعتبر شاعر قيس بالبصرة ، وبخاصة بعد موت جرير
والفرزدق (١) -

وتنازعتة المصيبة الفارسية ، فلم ينج من الفخر بها ، اذا
ما اثاره أحد أو غمزه في شبه غامز - وتراه يجمع بين
الولاء بين ، فيفخر بعرويته ولاء ، وبأصله الفارسي ، وقد بلغ به
بعض الناسيين ، ورواه الاغانى الى أحد ملوك الفرس القدماء
وهو « جستاسب » ، ويشير الى هذا التسبب العريق في شعره ، حين
يشمخ به فيقول (٢) :

ورب نى تاج كريم الجدد كأل كسرى وكأل بمررد
فصلته عن ماله والولد

ويقول :

ونبتت قوما بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم
الا ايها السائل جاهدا ليحرفنى أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش المعجم

فالشاعر اذا متقسم النفس بين الولاء للعرب ، الذين ترعرع
فيهم ونشأ ولقن الفصاحة والشعر ، والولاء للفرس الذي يجرى
دمهم في عروقه ، وهو في هذا وذاك ينظر الى نفسه فيجد
المتناقضات ، وهو شاعر موهوب ، من أصل عريق ، فمن حقه أن
ينزل بين الناس منزلة كريمة رفيعة ، لكنه لا يجد في الوقت نفسه

(١) الاغانى - دار الكتب ، ج ٣ ، ص ١٣٩ -

(٢) من أرجوزته المشهورة في عقبة بن سلم -

تلك المكانة التي يرجوها ، ويأبى القدر الا أن يزيد في تعاسته ،
والا أن يباعد بين ما هو عليه من واقع الحال، وما كان يصبو
اليه ، فيولد قبيح الوجه بالعمى ، ويأبى الا أن يضاعف هذا
القبح فيصاب بالجدرى فيزيده تشوها ، ويشب ضخم البجته
كالفيل أو كالثور ، فيما يصفه الرواة - وكان جاحظ العينين
يقشاهما لحم أحمر زاد في قبحه حتى صار يضرب به المثل ،
يقول مغلد بن علي السلمي في هجاء ابراهيم بن المديري :
اراني الله وجهك جاحظيا وعينك عين بشار بن برد

ومما روى في صفاته - قال الأصمعي : « وصف لي بشار
فكان أقبح الناس عمى ، وأفظمهم منظرا » ، وقال : « كان بشار
ضخما عظيم الخلق والوجه مجدورا ، جاحظ المقلتين ، وقد
تفشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظمهم منظرا ،
وكان اذا أراد ان ينشد صفق بيديه وتحنج وبصق عن يمينه
وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب » .

وكان لشكل بشار وضخامة جثته أثر على نفسه ، فكان يخشى
الناس أن يتبذوه به ، وكان يقف منهم اذا ما تعرضوا لصورته
موقفين ، فيهيج تارة ويثور اذا ما رأى ضعف من أمامه من شاعر
أو غيره ، فاذا كانت امرأة سلقها بلسان خبيث ، وأما اذا خشي
من أمامه أن يشهر به ساله وضعف أمامه .

وكان بشار يلقب بالمرعث ، لانه كان يلبس رعثين أو
قرطلين في أذنيه كمادة القرس القدماء - ويكنى بأبى معاذ .

ويحلل بعض الباحثين - الدكتور النويهي - شخصية بشار
ابح برد في ضوء علم النفس وعلى أساس ما عرف من صفاته

وأخلاقه ، وسلوكه الاجتماعي ، فإراه أعمى دميما ، مولى مضطهدا
منجوسا حساسا أبيبا مشاكسا ، سليطا فاجرا ، متشككا ممقوتا ،
كارها للبشر ، الى جانب بعض الصفات الخيرة ، فقد كان بارا
بأهله وولده وبعض أصدقائه ، كريما ، صدوقا فى صداقته ،
صفوحا أحيانا ، فكها شجاع القلب والرأى ، عنيدا -

وحاول النويهي أن يكشف عن أثر بيئته فى طبيعه ، من خلال
تلك الصفات التى ركبت منها شخصيته ، وهو يرى أن العوامل
الاساسية فى اصطلاح شخصيته بتلك الصفات الصارخة هى
خلقته : عماء ، ودمايته ، وحدة شعوره ، وتهتكه الجنسى * وهو
مهما تكن البيئة التى يعيش فيها فلا بد من أن يتمدب قدرا من
العذاب بسبب حرمانه البصر ، وقبح منظره *

وكان يشار ميالا الى الميت منذ صغره ، فزاعا الى الهجاء
والسخرية بالناس * وقد بدأ قول الشعر فى صباه ، وناش
بلسانه مع وقع فى طريقه ، فلجأوا الى والده لينهاء فكان يضربه ،
فلما ضاق به وزجره لكثرة شكوى الناس منه قال له بشار : يا
أبت ان هذا الذى يشكونه اليك منى هو قول الشعر ، وانى ان
أتممت عليه أغنييتك وسائر أهلى - فاذا شكوتنى اليك فقل لهم :
أليس الله عز وجل يقول : (ليس على الأعمى حرج) * فلما أعادوا
الشكوى الى أبيه قال لهم ما ذكره ابنه فانصرفوا قائلين : والله
لفقه برد أغيظ لنا من شعر بشار *

وكان عابثا لا يرمى حدود الدين ، والمجتمع ، أو التقاليد

ولا يرعوى من زجر ، ويجرى مع رغباته • كما يقول :
« ولقد جريت مع الصبا طلق الصبا »

ويدعو الى اقتحام اللذات فيقول :
من راقب الناس لم يظفر بعاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهب

وفي شعره دعوة صارخة الى الاباحة وعدم مراعاة الحرم في
النساء يقول :

لا يؤسئك من معجبة قول تغلظه وان جرحا
عسر النساء الى مياسرة والصعب يسهل بعدما جمعا

وكان يضع من الشعر السهل في الغزل الفاضح ما يستهوى
قلوب النساء وشباب البصرة فيجري على كل لسان ، مما دعا
منامها ونسائها يشورون به • ويطاردونه قرة على الدين
والاخلاق في بلدهم • وكانوا يقولون أنهم لا يخشون شيئا على
شباب البصرة أشد من شعر هذا الاوصى لانه دعوة للفجور سافرة •

ويبدو أن بشارا لم يكن يكتفى من الامر بالقول ، بل كان
يتبعه بالفعل - وكان له في منزله مجلسان أحدهما قريب المدخل ،
ويجلس فيه وصحابته مساء يشربون ويسعدون الفناء من
القيثات ، ومجلس آخر في داخل المنزل يجتمع فيه بمن يرى
الاجتماع به من الرجال والنساء ، وكانت بعض النسوة يأتينه
ليسمعن الشعر ، أو ليصنع لهن الشعر فيحطن به ويسجل أنباء
المجلسين وهما « الرقيق » و « البردان » ، فيقول ويحكى زيارة جماعة
من النسوة له في بيته ، وتأنيب الحسن البصري - وكان يسمى
القص - اياه في مجلسه :

لما طلعت من الرقيق	على بالبردان خمسا
وكانهن أهله	تعت الثياب زفن شمس
باكرن عطر لطيفة	وفمن في الجاني غمسا
لما طلعت حفتها	واصغن ما يهمن همسا
وسالني : من في البيو	ت ؟ فقلت ما يلوين انسا
ليت الميون الطارقسا	ت طمنن عنا اليوم طمسا
لولا تعرضهن لي	يا قس كنت كانت قسا

وكان لتهتكه قصص تروى ، وهو لا يروعى ، يشرب جهارا ،
ويأتي من الافعال المنكرة ، ما يشير عقلاء الناس ، فيسمع وهو
يؤذن في غير وقت الصلاة ، ويخرج مع الناس ، متظاهرا بقضاء
الفريضة ، فيجئ الى بيت اللتيان يتضى فيه وصاحبها له أوقات
الحج حتى اذا عاد الحجيج الى البصرة لحقا بمواكبه فيظن الناس
أنهما حبا ولم يحبا الا الى اللهو والشراب .

ويسجل صاحبه في هذه الزورة « سعد بن القعقاع » ذلك
فيقول فيما يروى عنه : « قال يوما لبشار وهو يتادمه : ويحك
يا أبا معاذ ، قد تسبنا الناس الى الزندقة فهل لك أن تحج بنا
حجة تنفي ذلك عنا ؟

— قال نعم ما رأيت .

فاشتريا بعيرا ومحملا ومركبا ، فلما مرا بمكان يقال له
زرارة ، قال له : ويحك يا أبا معاذ ! ثلاثمائة فرسخ متي
نقطعها ، مل بنا الى زرارة نتنعم فيها فاذا قفل الحاج عارضناهم
بالقادية وجززنا رؤوسنا فلا يشك الناس أنا جئنا من الحج .

فقال بشار : نعم ما رأيت لولا خبث لسانك ، واني أخاف
تفضحنا . قال : لا تخف .

فملا الى زرارة ، وما زالا يشربان الخمر حتى نزل الحجاج
بالقادية راجعين ، فآخذا بصيرا ومحملا ، وجزا رؤوسهما
واقبلا فتلقاهما الناس فقال في ذلك صاحبه سعد :

الم ترني وبشارا حججتا	وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبي سفر بعيد	فمال بنا الطريق الى زرارة
فاب الناس قد حجوا وبروا	وأبنا موقرين من الغسارة

ولم يقلع بشار عن هذه الزندقة الاجتماعية ، أو الإباحية ،
والمجون ، حتى في أخريات حياته ، وكان المهدي الخليفة فيورا
على الحريم فمنه مع ذكر النساء والغزل عامة لاستهتاره .

ويقول في ذلك :

يا منظرنا حسنا رأيته	من وجهه جارية فديته
بعثت الي تسومني	ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد	ما ان غلوت ولا نويته
أمسكت عنه ورهبنا	عرض البلاد وما ابتقيته
ان الخليفة قد أبى	واذا أبى شيئا أبىته
ونهانى الملك الهمام	عن النساء فما عصيته
بل قد وقبت ولم أضغ	عهدا ولا رأيا رأيته

الى أن يقول :

ويشوقني بيت الحبيب	ب إذا غلوت وأين بيته
حال الخليفة دونه	فصبرت عنه وما ثقيته

ويقول من أبيات :

قد عشت بين الريحان والراح	والمزهر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين هفق	بور الى القيروان واليمن

شعرا تصل له العواتق والنبي — ب صلاة الفواة للوثن
ثم نهاني المهدي فانصرفت نفسي صنيع الموفق اللقن
ولكنه لم يرتدع تماما *

ولقد عاداه كما قلت جماعة من نساك البصرة وعلمائها
لهذا المسلك ولذاك الشعر الاياحي الماخن ، حتى ان واصل ابن
عطام ضاق به مع أنه كان صاحبه زمنا يجلس معه في مجالس
المعلم ، لكنه خرج عن وقاره فاضطره الى معاداته ، وقال لاصحابه :
أما لهذا الملحد الاعمي المكني بأبي معاذ من يقتله ؟ « أما والله
لولا أن الفيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبيع بطيه
على مصبحة ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله ، ثم لا يتولى
ذلك منه الا عقيلي أو سدوسي » وكان يقول : « ان لمن أخدع
جبال الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الاعمي » *

وانتهى الامر بينهما الى أن نفاه واصل مع البصرة حوالى
سنة ١٢٠ هـ والشاعر في أوج رجولته فقصده الى حران حيث
سليمان بن هشام بن عبد الملك . وظل طريدا من البصرة الى
سنة ١٣١ هـ قبيل استيلاء العباسيين بعام واحد فقد توفي في
هذا العام واصل بن عطام *

وكان موقف مالك بن دينار كموقف الحسن البصري
وواصل بن عطام ، تعرض لبشار مثلها لاستهتاره . وكان مالك
يقول : ما مع شيء أدعى لاهل هذه المدينة الى الفسق من أشعار
هذا الاعمي *

وأصبح مالك يوما فقرع على بشار بأبه فقال بشار :
— يا جارية ، أنتظرى من هذا ؟

فرجعت وقالت - مالك بن دينار -

فقال - ما هو من أحزابي ولا أشكالي - أدخله -

فدخل مالك وقال : يا بشار أتشتم أعراض الناس وتشيب
بنسائهم -

فقال بشار : لن أعود - وما أن ولاء ظهره حتى عاد لما كان
عليه وأنشد :

غدا مالك بعلاماته	على وما كان من بالية
تناول خودا هضم العشا	من الحور معطوطة خالیه
فقلت دع اللوم في حياها	فقبلك إعييت عذاليه

وقد فرق بشار في لهوه ، وكان يوقر لنفسه المتعة في
السكن والحياة ، يسكن دارا يجمع فيها كل ما يلذذ ، ويقتنى
الخدم والرقيق من الفلمان والجوارى ، ويقتنى المقنيات أو
يدعوهم للحضور الى مجالسه للسمع مع أصحابه ورفاقه ،
فيشربون الخمر على السماع ويتممون بأطيب الطعام -

وكان يلبس حلة الشاعر من الديباج ، وحين يطرب يصفق
ببيديه -

ويغشى دور القيان بالبصرة ، وفي شمره تسجيل لمجالس
الغناء - ومنه تلك القصيدة التي يصف فيها مغنية تنشد بلحن
مشهور - يقول :

وذا ذل كان الحسن صورتها	باتت تغنى عميد القلب مكرانا
(ان الميون التي في طرفها حور	قتلتنا ثم لم يحين قتلانا)
	(لجرير)
فقلت أحسنت يا سؤى ويا سكنى	فاسمعيني جزاك الله احسانا
(يا حبذا جبل الريان من جبل	وحبذا ساكن الريان من كانا)
	(لجرير)

قالت: فهلا فدتك النفس أحسن من
(يا قوم اذنى لبعض الحي عاشقة
هذا لمن كان صب القلب حيوانا
والاذن تعشق قيل القلب أحيانا)
(لبشار)

فقلت أحسنت أنت الشمس طاعة
فاسمعي صوتا مطربا هزجا
يا ليتني كنت تقاحا مقلجة
حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها
فحركت عودها ثم انتثت طريا
(أصبحت أطوع خلق الله كثيهم
فقلت أطويتنا يا زين مجلسنا
فكنت الشرب صوتا مودعا رهلا
(لا ينتل الله من دامت مودته
أضربت في القلب والاحشاء نيرانا
يزيد صببا محبا فيك أشجانا
أو كنت من قضب الريحان ريحانا
ونحن في خلوة مثلت أفسانا
تسبوا ثم لا تغفيه كتماننا
لاكنر الخلق في حبيك عصيانا)
فها أنك بالأحسان أولانا
يذكر السرور ويبكي العين أولانا
والله يقتل أهل الغدر أحيانا)

وإذا ما تركنا هذا الجانب من حياة بشار إلى جانب آخر ،
أكثر جدية ، وجدناه عالما فقيها أدبيا جامعا يرتاد مجالس
العلماء ، ويصحب جماعة من المعتزلة أمثال واصل ابن عطاء
وعمر بن عبيد زمنا ، ويسجل صداقته لزعيم المعتزلة في
البصرة بجملة من القصائد قبل أن تسوء الحال بينهما -

يقول بشار ممتدحا واصل بن عطاء في خطبته المشهورة
التي أسقط فيها الرأى للثغة في لسانه ، فجلى على من حضر من
الخطباء :

فقام مرتجلا تقل يدايته
وجانب الرأى لم يشعر به أحد
كمرجل القين لما حف باللهب
قبل التصقح والاغراق في الطلب

وقال مرة أخرى :

أيا حذيفة لقد أوتيت معجزة
وان قولاً يروى الخالدين معا
من خطبة يدهت من غير تقدير
أسكت مخسرس عن كل تعبير

ولكن الخلاف بينهما لم يكن فيما يبدو قاصرا على استهتار
بشار أو بسبب شعره الماخن في النساء بل كان كذلك للخلاف في
المقيدة ، ولما جاء به لسان الشاعر من أشياء تخالف اتجاه المعتزلة ،
كالقول « بالجبر » وهم القائلون بالاختيار ، وكتناوله لرجال
الدين والصحابة بكثير من السخرية وعدم الاحترام لاقدارهم ،
ولقوله كذلك بمذهب الديصانية والرجمة ، وتفضيل النار على
الطين ، والاعتقاد بالثنوية الفارسية ، والهين للنور والظلمة *

ومما يثبتون به جبرية بشار قوله :

طبت علي ما في غير غير	هوى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطي وأعطي ولم أرد	وقصر علمي أن ينال الغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر	وأعفى وما أعقبت إلا التعجبا

وفي الطين والنار ، والظلمة والنور يقول :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وفي تفضيل ايليس على آدم لانه من النار يقول :

أبليس خير من أبيكم آدم	فتنبهوا يا معشر القجار
أبليس من نار وآدم طينة	والارض لا تسمو سمو النار

لهذا رماه المعتزلة بالكفر والزندقة ، ولم يكن بشار فيما
ورد من أخباره أو ذكر من شعره داعية الحاد أو زندقة فكرية ، بل
ربما زلقت على لسانه بعض الآراء والافكار التي علقها فسي

(١) يروى أن بشارا زعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله
عليه وسلم قيل له : وعلى أيضا فقال :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تمبجينا

دراساته ومعارفه التي استقاها من علمه بالمذاهب والفرق
المختلفة ، وقد كان الرجل المثقف الذكي الواسع الاطلاع •

ومهما يكن من أمر فإن العداء بينه وبين المعتزلة خلفه لنا
من شعره قصائد في هجاء واصل بن عطاء ، لثمقه اياه ونفيه
من البصرة • فما قال فيه :

ما لي منيت بغزال له عنق كنتنق الذ ان ولى وان مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم تكفرون رجلا كفروا رجلا

يريد أن المعتزلة كفروا الخوارج لانهم بدورهم كفروا عليا ،
وسمى واصل الغزال لانه كان يسكن حى الغزالين بالبصرة
فعرف بهذا اللقب •

ورد أحد شعراء المعتزلة وهو « صفوان الانصارى » أحد
أصدقاء واصل بن عطاء بقصيدة طويلة أنشدها عقب موت واصل
ابن عطاء وعودة بشار الى البصرة • قال (١) :

رجعت الى الامصار من بعد واصل وكنت شريدا فى التهانم والنجد

يقول فيها مشيرا الى عقيدة بشار التي عاداه من أجلها
ابن عطاء :

زعمت بان النار اكرم منصرا وفى الارض تحمى بالعجاجة والزند
ويخلق فى ارحامها وأرومها اعاجيب لا تحصى يحفظ ولا عقد

ويعمد فضائل الأرض وما فيها من الخيرات والنعم الكبرى
ثم يقول :

١) . راجع القصيدة بتمامها ص ١٠١ - ١٠٢ بشار بن برد لحسين منصور •

وفيها مقام الغل والركن والصفاء ومستلم الحجاج من جنة الخلد
* * *

مفاخر اللطيف الذي كان اصلنا ونعني بنوء غير شك ولا مجد
وذلك تدبير ونفع وحكمة واوضح يرهان على الواحد الفرد
* * *

ويقول :

انجعل عمرا والنطاسي واصلا كاتباع ديسان وهم قمش المد(١)
* * *

فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى وابعد خلق الله من طرق الرشد
اتهجو أبا بكر وتخلع بصدده عليا وتعزو كل ذاك الى يره
كانك غضبان على الدين كله وطالب دخل لا يث على حقد

ويرمونه بالشعوبية كما رمى بالزندقة والكفر والالحاد ،
وكانت هذه الاتهامات في ذلك العصر تعلق على الرعوس ، من
يستحق ، ومع لا يستحق لمجرد شبهة ، أو قول يؤول على غير
وجهته .

وقد رمى قوم بالشعوبية ومعاداة العرب ، ومن بينهم جماعة
مع كبار العلماء أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى * وأخذ على
بشار تهجمه على العرب وافتخاره بالفرس وتفضيلهم ويروون على
رأس الاتهام من الأدلة قوله :

ساخبر فاخر الامراب عنى وعنه حين تاذن بالغبار
أحين كسيت بعد العرى خزا وثامت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الاحرار حسبك من خسار

الى آخر القصيدة .

(١) قمش المد : غشاء السيل .

وهي أبيات رد بها على أحد الأعراب ، وكان قد سخر به في مجلس أحد أعيان البصرة إذ دخل بشار وعليه بزة الشاعر فقال الاعرابي : من الرجل ؟ فقيل له شاعر فقال : أمولى هو أم عربى ؟ فقيل له : مولى هو - فقال : وما للموالى وقول الشعر ففاظد بشارا هذا القول فتظم تلك الابيات .

وهي من نبت ثورة استغز لها ، ولم يكن عن عقيدة يمتقدها ، وكيف كان يعتقد ذلك وهو يمدح العرب من خلفاء بنى أمية وكبار رجالهم وقادتهم ، ويمدح العباسيين وكبار قادتهم من العرب ويفخر بولائه لبنى عقيل ، ويعتبر شاعر قيس كما أشرنا من قبل ، ولكنه قد يثور على الولاء ، ويعتبره مزرية بالكرامة ، ولا يرى ولا ما الا لله تعالى وحده فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم	مولى العريب فقد بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها	أهل الفحال ومن قريش المعشر
فارجع الى مولاك في مدافع	سبعان مولاك الاجل الاكبر

وهي نقشة أخرى من صدر مسجور ، وثورة على ربقة الولام ، وصفاره ، وكيف لا يثور والدين نفسه جعل الناس سواسية لا فرق بين عجمي وعربي الا بالتقوى والعمل الصالح - ولا شك أن هذه الثورة كانت من مصدر ضاق بمنهجية بعض الاعراب وتفاخرهم الكاذب ودعاواهم بالانساب والاحساب . وهي الدعاوى التي عصفت بالدولة الاموية وهزت أركان المجتمع الاسلامى هذا عتيفا - وقد وضع الاسلام هذه الانساب والاحساب وأرساها النبي في خطبة الوداع .

شعره :

قال الجاحظ : كان بشار خطيباً صاحب منشور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع المتفنين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه .

وقال ابن شرف القيرواني : هو أول المحدثين وآخر المخضرمين ممن لحق الدولتين ، عاشق سمع ، وشاعر جمع ، شعره يتفق عند ربات الحجال وعند مغول الرجال ، فهو يلين حتى يتعطف ويقوى حتى يستنكف . . وقد طال عمره وكثر شعره ، وطما بحسره ، ونقب في البلاد ذكره .

وقد أجاد بشار في فنون الشعر المختلفة ، وكانت شاعريته غنية متدفقة . قال عن نفسه : لي اثنا عشر ألف بيت عين فقيل له : هذا ما لم يكن يدعيه أحد سواك ، فقال : لي اثنتا عشرة ألف قصيدة ، لعننا الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين .

وقد سئل مرة : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد جاء فيه شيء استكرته العرب وشك فيه وإن شعرك ما فيه شك أو خطأ . فقال : ومن أين يأتيني الخطأ . ولدت هنا هنا يعني في البصرة ، ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ . وإن دخلت إلى نساءهم فنسأؤهم أفصح منهم ، ويقعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتيني الخطأ ؟ .

واعتبر بشار آخر من يستشهد بشعره . وللاممعي فيه ولأبي عمرو بن العلاء رأي حسن ، وكان ذا قدرة على أن يحاكي

شعر الاعراب ، ويصطنع أساليبهم " وقد روى أن خلفا الأحمر وأبا عمرو بن العلاء ، وكانا من رواة الشعر الكبار بالبصرة ، يختلفان إلى بشار بن برد يسألانه ما جاء به من الجديد ، وقد جاءه يوما إلى داره فقالا له : ما أحدثت يا أبا معاذ ؟ فقد بلغنا عنك قصيدة في مدح سلم بن قتيبة . قال هي ما بلغتكما ، وقد علمت أن سلما يتباهى بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما أحب . ثم أنشدهما :

بكرأ صاحبي قبل الهجر ان ذاك النجاح في التبرك

فقال أحدهما : هلا قلت ، بكرأ فالنجاح في التبرك . فقال :
انه اتما يريد أن يبينها بدوية وحشية .

وكذلك فعل في أرجوزته البدوية التي مدح بها عقبة ابن سلم بن قتيبة وتحدى فيها عقبة بن ربيعة بن العجاج الذي زعم أن بشارا لا يحسن هذا الضرب من الرجز الذي برع فيه هو وأباؤه : ولكن بشارا أثبت له أنه قدير كذلك في فن الرجز كما هو قدير في فن الشعر ، وأن باستطاعته أن يلبس فيه لبوس الاعراب . يقول في هذه الأرجوزة :

يا طلل الحى بذات الصمد	يا الله خير كيف كنت بعدى
أوحشت من نعد وترب نعد	سقى لأسمام ابنة الأشد
قامت تراءى اذ رأتني وحدي	كالشمس تحت الزبرج المنقد
صلت بخد وجلت عن خد	ثم انثنت كالنفس المرتد
عهدى بها سقى له من عهد	تغلف وعدا وتقى بوعد
فنحن من جهد الهوى في جهد	وزاهر من سبط وجعد
أهدى له الدهر ولم يستهد	أقواف نور العسجد المجد
ينقى الضعى ريحانه بسجد	بدلت من ذاك بكاء لا يجدى

وافق حظاً من سعي يجد ما ضر أهل القول ضعف الجيد
الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكتيك من التعنى وصاحب كالنحل الممد

ج ب د

حملته فى رقعة من جلدى أرقب منه مثل يوم الورد
حتى مضى شعق قيد الفقد وما يرى ما رغبتى من زهدى

ج ب د

أسلم وحيث أبا المسند مفتاح يباب العذث المنسد
مشارك النيل ورى الزند أغر لباس ثياب الحمسد
ما كان منى لك غير الود ثم نساء مثل ربح الورد
نسجته فى محكمات النسد قالبس طرازي غير مسترد

ج ب د

لله إيمانك فى معد وفى بنى قعطان غير عد
يوم يذى « طغفة » عند الحد ومثله أودعت أرض الهند
بالوهفات والعديد السرد والمقربات المبعثات الجرد
إذا الجبا أكنى بها لا تكنى تلضم أمرا وأمورا تسلى

ج ب د

واين حكيم ان اتاك يردى أعم لا يسمع صوت الرعد
حييته بتخفة المشد قانهم مثل الجبل المنهد
كل امرئ رهن بما يؤدى ورب ذى تاج كريم الجد
كال كسرى وكال برد أنكب جافى عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والنلد

ويروض بشار نفسه على قول الشعر منذ صباه ، فيرى تحت
سمعه وبصره كبار شمراء عصره يقدون الى مريد البصرة ،
يتناشدون الأشعار ، وتثور فى نفس الفتى الرغبة فى قول الشعر ،

ومعارضة الكبار ، ويحاول أن يطاول جريرا ، وقد رمى به أمه
هذا المرمى السابق فلا يجاوبه جرير بطبيعة الحال ، ولو جاوبه
على ذلك السن لكان أشعر الشعراء كما يقول -

ولكنه مع ذلك لا يدع نماذج أشعارهم تفلت من بين يديه ،
فيروض نفسه على تقليد جرير والفرزدق ، ولا تزال أبياتهم ترن
في أذنيه ، وتتسلل الى قصائده ، ونرى مثالا عليها في الميمية التي
هجى بها أبا جعفر المنصور ومدح ابراهيم بن عبد الله بن الحسن
العلوي الذي ثار في البصرة ، ثم أخمدت ثورته - قال بشار :
أبا جعفر ما طول عيش بدائم وما سالم عما قليل يسالم

وينهج فيها طريق نقيضتين ميميتين احدهما للفرزدق ،
قالها في مقتل قتيبة بن مسلم ، يشمت ويمدح سليمان بن عبد الملك
مظلمها - :

تعن بزوراء المليمنة ناقتي حنين عجول تبغى البورائم

وثانيتهما لجرير يقول في مظلمها :

ألا حي ربيع المنزل المتقامم وما حمل مذ حلت به أم سالم

وتأثره واضح في بعض معانيهما وفي الصياغة والألفاظ ،
مما يدل على أنهما كانتا تدوران في خلدته أثناء نظمه لقصيدته -
وربما جعل من قصيدته هذه نقيضة ثالثة ليعارض بها الشعارين
الكبارين ، ويروض بها القول محاولا أن يطاولهما ، ونرى في
كلام بشار على عبارات تستدعي مثيلاتها في قصيدة الفرزدق أو
قصيدة جرير - فاذا مررت بقوله (بشار) :

فلا تجعل الشورى عليك فضاة فان الخواهي قوة للقبوادم

لا شك تذكر قول جرير :

وريش الذنابي تابع للقوادم

ونمر بقول بشار كذلك

على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه في المأزق المتلاحم

وهو صدى لقول جرير

وقيلك ما أخفى الاخطيل قومه واسلمهم للمأزق المتلاحم

وفي بيته :

كانك لم تسمع يقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

معنى قول الفرزدق وصياغته في قوله :

كانك لم تسمع تعيما اذا دعت تعيم ولم تسمع يوم ابن خازم

ولم يكن تأثيره في شعره بهذا النموذج الذي يقدمه شعراء النقائض بالبصرة فحسب ، بل تأثر كذلك بقدامى الشعراء من جاهليين ومخضرمين * و يروى الخريמי الشاعر أن بشارا قال :
لم أزل منذ سمعت تشبيه امرئ القيس شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول :

كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين حتى قلت :

كان مثار النقع فوق رموسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وكان لهذا الاحتذاء للشعر القديم قد يورد بعض قولهم في شعره ، أو قد ينزلق دون ارادة على لسانه ، فيتهمه العلماء والمعاصرون من الرواة بالسرقة من القدماء ، فقد اتهم بسرقة بعض أبيات المتلمس الشاعر الجاهلي *

ولم يكن شعر بشار كله يتجه هذا الاتجاه الى القديم ،
يعذوه ، ويصطنع ديباجته بل كان يجمع بين القديم والحديث ،
ولهذا قمره بعض النقاد بالتخليط في الشعر .

وكان اسحاق الموصلي يثمه بذلك فيرى أن أشعاره مختلفة لا
يشبه بعضها بعضا - أليس هو القائل :

أما عظم سليمانى حبتى قصب السكر لأعظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصللا غلب المسك على ريح البصل
لو قال كل شيء جديد ثم أضيف اليه هذا لزيفه .

ولم يكن الضعف الذى يرد فى شعره ناجما عن التخليط بقدر
ما هو راجع الى أن بعضه من مراحل الصبى الاولى ، وقد ذكرت
الاخبار أنه قال الشعر فى العاشرة من عمره . ولعله يقصد به
خطاب مستوى مع الناس - ونبه هو الى ذلك حين سئل عما يجيء
فى شعره مع الهجين المتفاوت مثل قوله :

ربابة ربابة البيت تصب الغل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصون

فقال : لكل وجه . وهذا قلته فى ربابة جاريتى وأنا لا أكل
البيض مع السوق وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهى تجمع
لى البيض . وهذا عندها أحسن من « قفاتيک من ذکرى حبيب
ومنزل » عندك .

وقد يكون بعض هذا الشعر الضعيف فى أسلوبه من المرتجل
فى المناسبة العابرة أو للفكاهة والتندر من مثل قوله انه رأى
حمامه فى النوم وكان قد مات ، فسأله : لم مت ألم أكن أحسن
اليك ؟ فقال هذه الابيات :

سيلي خذي اتانا عند باب الأصبهاني
تيمتني بسدال وبديل قد شجاني
تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان

الى أن قال :

فلماذا مت ولو عشت انت طالع هواني

ونعلم بعد هذا أن بشارا كان من المطبوعين الذين يرتجلون
الشعر ، وأنه قد يصنعه للنائحات والناديات كما يصنعه للمغنيات ،
وهو الى جانب هذا يقوله في المناسبات العظام في فتح أو نصر
أو مديح عظيم ، أو قائد جليل أو خليفة فيرتفع الى مستوى المناسبة
والمقام .

ومن هنا نلاحظ أن شعره التقليدي عامة ، والذي ينهج فيه
نهج القدماء غالبا ما يكون في المديح والموضوعات الرصينة .
ومنه البيئية الشهيرة في مديح مروان بن محمد ويعرض فيها
للمفخر بقيس عيلان فيقول :

جفا وده فازور او مل صاحبه
خليلى لا تستكرا لوعة الهوى
شفي النفس ما تلقى بعدة عينه
وازرى به ان لا يزال يعاتبه
ولا سلوة المحزون شطت حباته
وما كان يلقي قلبه وطبائبه

ويقول بعد النسيب :

اذا كنت في كل الامور معاتبا
فمض واحدا اوصل اخاك فانه
اذا انت لم تشرب مرار على القذى
صديقك لم تلق الذي لا تماثبه
مقارق ذنب مرة ومجانبه
فلمنت وائي الناس تصفو مشاريه

ويقول في الوصف في نمط أعرابي : (حر الصيف في الصحراء)

فلما تولى الحر واعتصر الثرى
وطارت عصافير الشقائق واكتسى
وصد عن الشول القريع واقفرت
لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
من الال أمثال الملاء مساويه
فروى الصمد ما استودعته مواهبه

ولاذ لها بالنظر واستوفض السفا
غدت عاتة تشكوبابصارها الصدى
من الصيف نتاج تخب مواكبها
الى الجباب الا انها لا تغاطبها

وفي فخرها يقول :

اذا الملك الجبار صعر خده
وكتبا اذا دب العدو لسخطنا
ركبنا له جهرا بكل مثقف
وجيش كجش الليل يزحف بالخصي
غدونا له والشمس في خدر امها
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه
كان مثار التفع فوق رؤوسنا
بعثنا لهم موت الفجاءة انسا
فراحوا فريق في الاسار ومثله
وارعن يفتش الشمس لون حديده
تفص به الارض الفضاء اذا غدا

مشينا اليه بالسيوف تعاتبه
وراقبنا في ظاهرا لا تراقبه
وابيض تستقي الدماء مضاربها
وباثشوك والغطي حمر ثعالبه
تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
وتدرك من نجي الفرار مثالبه
واسيافنا ليل تهاوى كواكبها
بنو الموت خفاق علينا سبابه
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
وتغلس ابصار الكماة كتابه
تزاحم اركان الجبال مناكبها

فهذه القصيدة قوية أسر الكلام ، جزلة الصياغة ، لا تظن
بصاحبها ليتا ولا طراوة ، وشتان بين هذا النمط والنمط الذي
أشرنا اليه في شعره المرتجل .

ولا شك انه كان في مثل هذا الشعر الذي يقصد به الى
الحصول على الجائزة يعتمد الى تثقيفه وتنقيحه وقد قيل له مرة :
بم فقت أهل دهرك ، وسبقت رجال عصرك في حسن معاني الشعر
وتهذيب الفاظه فقال : لانى لم أقبل كل ما تورده على قريحتي
ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري ، ونظرت الى مفارس الفطن
ومعان الحقائق ولطائف التشبيهات ، فسرت اليها بفهم جيد
وغريزة قوية . فأحكمت سبرها وانتقيت حسرها ، وكشفت عن
حقائقها ، واحترزت من متعكفها .

ومع ذلك فان هذا الشعر التقليدى من شعر بشار لم يكن
مناط شاعريته وابداعه بل ان كثيرا منه كان مطبوعا دون تكلف
يأتى جميلا ، فيه طلاوة الطبع وجمال الشاعرية بل ان به الصدق ،
والانفعال بالموقف ، وفيه الابداع والاختراع .

غزله وموقفه من المرأة :

اكثر غزل بشار فى نوع خاص من المرأة هى المرأة الجارية ،
أو الفاتية المغنية ، وكانت النساء يأتينه أو كان يزورهن فى بيوت
القيان فيعاتبته ويعاتبهن ، ويقول فيهن الشعر الخليع الماجن .

ويمكن أن نعطي صورة لما كان يجرى بينه وبينهن ، وأى
نوع من المرأة كان يلقي ويصور فى شعره فى كثير مما روى
أبو الفرج فى الاغاني . ومنه قوله :

« كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة فراسلها يسألها
الزيارة ، فوعده بذلك ثم أخلفته وجعل ينتظرها ليلته حتى
أصبح ، فلما لم تأت أرسل إليها يعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها
فكتب إليها بهذه الابيات :

يا ليلتى تزداد تكرا من حب من احببت يكررا
حوراء ان نظرت اليك سقت بالعينين خيرا

ويروى أنه كان يجتمع الى النسوة فى بيته بمجلسه بالعقيق
أو بالبردان .

وكانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان بن علي وكانت
حسنة يارعة الظرف ، وكان بشار صديقا لسيدها ومداحا له
فحضر مجلسه يوما والجارية تغنى فسر بحضوره وشرب حتى

سكر ونام ونهض بشار فقالت له الجارية يا أبا معاذ أحب أن
تذكر يومنا هذا في قصيدة ولا تذكر فيها اسمي ولا اسم سيدي
وتكتب بها إلى فأنصرف وكتب إليها :

وذا دل كان البدر صورتها يانت تغنى عميد القلب سكرانا
(القصيدة)

مثل هذا الشعر الذي يتغزل فيه بشار بجواري البصرة
وقيانها وبعض نساها كان يعجبهن فيطرين له ويستزدنه منه .
وكان بشار عبث ومجون لا شك ، وقد صور هذا الميث في قصائده
الغزلية مثل قوله :

امتا بك هذا لعبي ووشاحي حله حتى انتثر

أو قوله :

قد لامني في خليلتي عسر واللموم في غير كنهه ضجر

ويقول فيها :

حسبي وحسب الذي كلفت به مني ومنه الحديث والنظر
أو قبلة في خلال ذاك وما بأس إذا لم تعبل في الأزر

ويعتبر هذا الشعر المالحن الخليع الذي انطلق فيه بشار على
سجيته ، وجاء فيه بكثير من البديع وصور التجديد في
الموسيقى والتصوير ، وقد أجاد وصف النساء ، وصورهن صورا
بصرية جديدة جميلة وهو الأعشى ، ولكنه يدرك ما يقول ، ويعمل
قدرته على هذا التصوير البصري فيقول :

عميت جنينا والذكاء من العمى فجننت عجب الظن للعلم مؤثلا

ويعصف شعره :

وشعر كثوز الروض لامت بينه يقول اذا ما احزن الشعر سهلا
فتعرف هذا الشعر السهل يأتي بكل مشرق بديع في المعاني
والأسلوب * مثل قوله :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونقى عنى الكرى طيف ألم
واذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم

وقد أعجب به أبو عمرو بن العلاء واعتبره أبدع الناس
بيتا - وفي وصف جمال النساء يقول :

حوراء ان نظرت اليك سقتك بالعينين خمرا
وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سعرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا

ومع هذه الصفات البصرية ، التي أعجب بها النسوة ممن
نمتن ، فانا نلاحظ أنها صفات عامة لا تدقيق فيها ، وهي صفات
من مخزونه من الشعر العربي فصفة العيون بالحوار ، وصفة
المرأة في اللون بالصفرة والذهب وما اليها صفات متداولة .

لكل الجديد ما هنا مثالا تحويل صفة الكلام الى صفة
بصرية - في تشبيه الحديث بزهر الرياض * وهذا من مواضع
البديع في شعره لانه تجديد في المعنى والصورة .

على أن بشار بن برد كما تلاحظ في كثير من الشعر الذي
قاله في الغزل ، لم يكن بذلك العاشق الوله المعذب في العشق

والحب ، وانما جرت معاني العشق على لسانه ولم يكن فيه صادقا
تماما ، ولهذه عابه بعض الكوفيين في قوله :

نفس يا عبيد عني واعلمي اننى يا عبد من نعم ودم
ان فى برئى حسما ناحلا لى توكتات عليه لا نهدم

فقد رأى منه جسدا كالجاموس ، ويدعى النحول في الحب .
ولعل هذا ما جعل طه حسين يعيبه ويحمل عليه ، ويرى في غزله
قولا ضليضا لا رقة فيه ، ولا عاطفة ، ويقول في شعره عامة :

« ليس شافا كشمير أبى نواس والحسين بن الضحاك ومطيع
وحمد عجرد ، وانما هو شعر كثيف صفيق لا يدل من نفس
صاحبه على شيء ، وهو كاذب أبدا لا يحفل بالكذب » .

فغزله عند طه حسين ليس صادرا عن صدق ، انما هو تهالك
على اللذة وافحاش وامعان فيه . فلم يعرف عنه أنه أحب ،
وشعره في عبدة التي يردد اسمها على لسانه معظمه متكلف (١) .
وكذلك رأى المازني فقال انه لم ير في المرأة غير الأنثى
والجنس (٢) .

وتعجب من كلام طه حسين في مثل هذا الشعر الذي يصفه
بالمصفاة ، وقد أعجب به القدماء كآبى عمرو بن العلاء ، وما
هو ابن المعتز يقول : وكان شعره أنقى من الراحاة وأصفى من

(١) حديث الاربعاء ج ٢ .

(٢) يشار بن برد (سلسلة اعلام الاسلام) ص ٩٥ - ١٠٠ .

الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب •

والحق أن شعر بشار بن برد شعر شاعر صناع ، وهو في الغزل يأتي بالغزل الرقيق المرقص والمطرب ، وقد فتن به نساء البصرة وشبابها ، ولو كان شعره الغزل صفيقا كما يقول طه حسين لما فتن به أحد ، ولكفى نفسه بنفسه ولم يمتد أحد لحره تلك الحرب التي عرفتموها •

أما أن بشارا لم يكن صادق العاطفة في الحب ، وأن غزله كان غزلا مصنوعا فهذا شيء آخر ، ومع ذلك فقد أحسن بشار اصطناع مواقف عاشقين ، وهذه قضية من قضايا الخلق الفني عامة وليست قضية بشار فحسب ، أيتبغى أن يعاني الفنان موضوع فنه ، بممى أيشترط للغزل أن يكون زير نساء ، أو للعاشق أن يكون قد مر بتجربة حب عنيفة ، ألا يستطيع أن يتمثل •

قد تكون التجربة مما يعمق احساس الفنان وشعوره ، ومن ثم تزيد تعبيره غنى وعمقا •

ومع ذلك فما هو باحث آخر - الدكتور النويهى - يعارض مقال الدكتور طه حسين ، ويكشف عن جوانب الصدق والعاطفة فى شعره الغزل • فهو يرى فى المرأة جمالا يملو على الجمال الجسدى • ويقول أن شعره المفحش فى الغزل قليل بالنسبة لجملة

شعره في هذا الموضوع ، وليس جل غزله كذلك بل فيه ما هو
حلو رقيق ، مغم بالصفاء والحنان (١) -

ويردد بشار أسماء بعض النسوة في غزله أمثال عبدة ،
وسلمى ، ويدعوها بالتصغير أحيانا سليمى ، ووهبى ، وحمدة ،
وسعدى ، وحباية ، ويدعوها مرخمة أحيانا ، بعيام ، وطيبة ،
وأسماء ، والرياب ، وبانة -

ولا نعدم في غزله الشكوى ، كما يشكو العشاق من الام
الحب - يقول مخاطبا عبدة :

يا عبد حقام لا ألقاك خالية ولا أنام لقد طولت تعذيبى

ويقول عنها كذلك :

إذا ذكرت دار الهوى بمسامى كما دارت الصهباء في رأس شارب
فإن يك عنى وجهها اليوم غائبا فليس فؤادى من هواها بغائب

وهو يشعر بالأسى لفراق سلمى فيقول :

سقت إلى الشام وما ساقها إلا الشقا والقدر الغالب
أصبحت قد راح الذى دونها ورحت فردا ليس لى صاحب
لا أرفح الطرف إلى زائجر كانى غضبان أو عاتب
يا راهب المهر لنا حاجة فانظر لنا هل سكتى آيب

ويقول في عبدة وتحس بعرقه الحب ولواعجه :

أقد الرحيل وحنني صعبى	والنفس مشرفة على النعيب
لما رأيت الهم مجتعا	في القلب والعينان في سكب
والحى قد أخوت وكائبه	والقوم من طوب ومن حسب
ناديت أن العب أشعفى	قتلا وما أحدثت من ذنب

وقد أبدع في ذكر الهجران وطول سهر العاشقين حيث
قال :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف الم

ولبشار فى غزله قصص كقصص عمر بن أبى ربيعة ،
وزورات ليلية لمشوقاته يسجلها فى شعره كهذه الزورة التى قال
عنها لأوانس دعونه لقضاء ليلة فى سمر وحديث :

ودمى أوانس من بنات محرق	حور نواعم أوجها وجلودا
أرسلن فى لطف الى أن انتنا	غاب الرقيب وما تخاف وعيدا
فأتيتهن مع الجرى يقودنى	طربا ويالك قائدا ومشودا
لما التقينا قلن هات فقد مضى	سنة نؤمل أن نراك تعيدا
حدث فقد رقد الوشاة وليتهم	حتى القيامة يلبشون رقادا
قلت: اقترحن من الهوى، فسالتنى	طرف الحديث فكافة ونشيدا
حتى إذا بعث الأذان فراقنا	ورأيت من وجه الصباح خودا
جرت اللعوج وقلن فيك جلادة	عنا ونكره أن نراه جليدا

مديح بشار :

وسبقت الإشارة عند الحديث عن شعره بين التقليد والتجديد الى أنه كان يعمد في مديحه الى النمط التقليدي في الشعر ، وقد اتصل بجماعة من الخلفاء والولاة والقواد ، فذكر من بينهم في عصر الامويين مروان بن محمد ، وسليمان بن هشام ، ويزيد بن عمر بن هبيرة ، وفي عصر العباسيين أبا جعفر المنصور والمهدي ويزيد بن يزيد الشيباني ، ومن ولاة البصرة سلم بن قتيبة ، ومن العلويين ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي ، ومن وزراء الدولة خالد البرمكي .

ومن أشهر مدائحه في العصر الأموي قصيدته في يزيد ابن عمر بن هبيرة وقد أنشدها اياها سنة ١٢٨ هـ وكان يقود فرقة من جند مروان بن محمد في حرب الضحاك بن قيس الخارجي . وهي حماسية قوية يقول فيها :

جفا وده قازور أو مل صاحبه

التي مرت بنا .

وقصيدته في مديح ابراهيم بن عبد الله بن حسن والتي يهجو فيها أبا جعفر المنصور وكان ابراهيم قد ثار بالبصرة واستولى عليها من أبي جعفر ، لكن أبا جعفر تمكن من القضاء على ثورته وقتله .

وبعث بشار بهذه القصيدة الى ابراهيم بن عبد الله قبل القضاء عليه وظن أنه سيكتب له النصر على أبي جعفر . قال :
أبا جعفر ما طول عيش بذاثم ولا سالم مما قليل بسالم

ولم تصل هذه القصيدة ابراهيم بن عبد الله العلوي ، وأغلب
الظن أنها لم تبلغ أيا جعفر المنصور والا كان قد قضى على بشار ،
وقد أسرع بشار قنير فيها وحورها وجملها في هجاء أبي مسلم
الخراساني بعد قتله فقال :

أيا مسلم ما طول عيش بدائم

وفي عقبه بن سلم أرجوزته المشهورة :

يا طلل الحي بذات الصمد

ويقول فيه بيته المشهور :

يستقط الطير حيث يلتقط الحبوب وتفتش منازل الكرماء

وفيها يقول :

حرم الله أن ترى كابن سلم عقبه الغير مطعم الفقراء
انما لذة الجواد ابن سلم في مطاء ومركب ولقاء
ليس يعطيك للرجاء ولا الغـ سوف ولكن يلد طعم العطاء

وفي خالد بن برمك يقول أبياته المشهورة :

لعمري لقد أجلى على ابن برمك	وما كان من كان الفنى عنده يجدى
حلبت بشعري واحتيه فبوتنا	سماحا كما در السحاب مع الرعد
إذا جنته للمجد اشرق وجهه	الى وأعطاني الكرامة بالحمد
له نعم في القوم لا يستثيها	جزاء وكيل الناجر المد بالمد
لمست بكفى كفة ابتغى الفنى	ولم أدر أن الجود من كنه يعسى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الفنى	أقلت وأعداني فأتلفت ما عنتى

وفى عمر بن العلاء وكان من كبار رجال الدولة العباسية
ومع المقربين للمهدى يقول قصيدته الميمية التى أشرنا الى
مظلما :

لم يطل ليلى ولكن لم انم

والتي يفخر فيها كذلك بقوله :

وثبتت قوما بهم جنة

يقول فى مديحها :

فقل للخليفة ان جنته	نصحا ولا خير فى المتهم
اذا ايقظتك «حروب العلى	فنبه لها عمرا لم نم
فتى لا يبيت عني ذممة	ولا يشرب الماء الا بدم
اذا ما غزا بشرت طيره	بفتح وبشرنا بالنعم
دعاني الى عمر جوده	وقول العشيرة بعز خضم
ولولا النى خبروا لم اكن	لامدح ريعانه قبل شم
ففى الفعال كفى الحال	وفى الصمت عى كفى الكلم

وجرى بشار فى مديحه على سنن السابقين من صفات
الكرم ، ووصف المذوح بالغيث والبحر : وأنه يتهمل للساندين ،
وما الى ذلك مما يتروء فى هذا المعنى ، ويضم اليه صفات الشجاعة
والاقدام ، وخاصة عندما يصف القادة ، والخلفاء .

ومع ترديده للمعاني السابقة فى هذا الموضوع لكنه يحاول
مع ذلك التجديد ، فيبدع أو يأتى بالبديع ، فأما أن يسوق المعنى
القديم فى صورة جديدة ، أو يأتى به جديدا لفظا ومعنى . وقد
مر بنا مع اللونين أمثلة مما سقنا .

هجاءه :

وقد عرف بشار بالهجاء - قال : انى وجدت الهجاء المؤلم
أخذ بضيق الشاعر من المديح الرائع ومن أراد من الشعراء أن
يكرم في دهر اللثام على المديح فليستمد للفقر ، والا فليبالغ في
الهجاء ليخاف فيعطى -

ولعل من أشهر من هجاهم بشار وتدد بهم العباس بن محمد
عم المهدي ، وكان معروفا بالبخل - قال فيه قصيدته المشهورة وبها
كثير من المعاني الجديدة في الهجاء وأعنى قوله :

ظل اليسار على العباس ممدود وقلبه أبدا بالبخل مقود

يقول فيها :

إن الكريم ليغضى عنك عسرتك حتى تراه غنيا وهو مجهود
وللبخل على أمواله علة زرق العيون عليها أوجه سود

ويقول :

إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورق بخير ترجى للنوال فما ترجى الثمار إذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنعك قلة فكل ما سد فقرا فهو محمود

وهجا حماد عجرد ، وكان صديقه فأفحش في هجائه ، وتبادلا
الهجاء الممزع - كما هجا جماعة من أصدقائه كيدا أو معاتبة ،
ولهذا عرف بنخبث اللسان ، وبأنه كثير الوقوع في الناس - ومن
أطراف معانيه قوله فيمن يسمى ابن قرعة :

فلا تبغلا بغل ابن قرعة أنه مخافة أن يرجى نداء حزين
إذا جنته للعرف أخلق بأبه فلم تلقه إلا و أنت كمين

ويسخر من الصفات الجسدية لهجويه • فقد سخر من طول
عنق واصل اذ هجاه فقال :

ما لي أشايح غزالا له عنق كتقنق البدو ان ولي وان مثلا
عنق الزرافة ما يالي وبالكم تكفرون رجالا كفروا رجلا

ويكاد أن يكون بشار شاعرا جامعا ، قال في كل موضوعات
الشعر ، مما يدل على قوة شاعريته ، ومن هنا كان مقدما على
معاصريه ممن اقتصر على لون واحد مثل مروان بن أبي حفصة •
وله في الرثاء أبيات يرثى بها ابنه •

وعجيب أن يأتي هذا الرجل بالرثاء الحزين ، وهو من عرفنا
مع السخرية واللامبالاة ، والعبث • قال أبو الفرج : توفي ابن
بشار فجزع عليه ف قيل له : أجز قدومه ، وفرط افتراطه ، وذخر
أجزته • فقال : ولد دفنته وتكل تعجلته ، وغيب وعدته ،
فانتظرنه ، والله لاني أجزع للنقص ولا أفرح للزيادة :

أجارتا لا تجزعي وانيسي آتاني من الموت المظلم نصيبي
كأني غريب بعد موت محمد وما الموت فينا بعله بغريب
لعمري لقد دافعت موت محمد لو أن المنايا ترعوى لطيب

ويقول :

أصبحت أبغى للعيون تجلدا ويالك من قلب عليه كتيب
يذكرني نوح العمام فراقه وارنان أبكار النساء وثيب

وله في الوصف ابداع كأبداع المبررين ، وذكر عن نفسه
دهشة الناس لدقة وصفه فقال في معرض الحديث عن إحدى
النسوة اللاتي وصفهن - قال :

عجبت فطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
ويقول مرة أخرى :

ان تك عيني لا ترى وجهها فانها قد صورت في الضمير
وسبق أن أشرت الى أنه استوحى صفات القدماء في رسم
صورة للصفات الجميلة في المرأة مع تجديد في بعض المعاني مثل
وصف الحديث بالزهر وقطع الرياض ، وكذلك المعنى الذي عاب
به الشاعر القديم -

انما سلمي عصا خيزرانة اذا غمزوها بالاكف تلين
لمعدل هذا القول الى قوله :

وحوراء المدامع من معد كان حديثها ثمر الجنان
اذا قامت لمشيئتها تثنت كان عظامها من خيزران

ونمرض مجموعة لهذه الصفات الأنثوية ، منها الجديد ، ومنها
القديم ، ومنها القديم المجدد - يقول :

وجوار اذا تلين لم تد رجوار في حليها لم ثياب
يتعرضن لي بفاترة الطر ف اذا اقبلت ثنما الحياء
وحديث كأنه قطع الرو من فقيه الصفراء والعمراء

العلام والأصمى - وأشاد بفضل ابن المعتز - قال مستحسناً
شعره معجبا برأئيته العجيبة البديعة المعاني الرفيعة المباني (١) :

رأيت صحابتي بخنا صرات	حمولا بعد ما متع النهار
فكاد القلب من طرب اليهم	ومن طول الصباية يستطار
وفي الحى الذين رأيت خود	خلوب الدل اتسه نوار
برود العارضين كان فاهما	يعيد النوم عاتقة عقار
كان فؤاده كره تنزى	حذار الين لو تقع العذار
يروعه السرار بكل شيء	مغافة أن يكون به السرار
وود الليل زيد اليه ليل	ولم يخلق له أبدا نهار
جفت عيني من التفيض حتى	كان جفونها عنها قصار

نفى القصيدة كثير من البديع المعنوى في تشبيه القلب بكرة
الصولجان يتقاذفها اللاعبون ، وهذا المعنى المجدد في قوله :
« يروعه السرار » وقوله : « وود الليل زيد اليه ليل »
ومعناه الجسد البديع : « كأن جفونها عنها قصار » ويذكر من
بديع غزله :

يا منية القلب أنى لا اسميك	أكنى بأخرى أسميها وأعنيك
يا أطيب الناس ويقا غير مختبر	إلا شهادة أطراف المساويك
فقد زرتنا زورقي الدهر واحدة	فأنتى ولا تجعلها بيضة الديك
يا رحمة الله حلى فى منازلنا	حسبي برائحة الفردوس من فيك

وفى البيت الأخير توريه باسم محبوبته « رحمة الله » ولكنه
ورى واستخدم التورية فى المعنى اللاحق عندما شبه رائحة فمها
برائحة الفردوس .

ومن تجديده كثرة الأوزان السهلة من مجزوعات البحور ،
وفىها يبدو الايقاع الراقص المطرب ، من مثل قوله :

من المشهور فى الحب	الى قاسية القلب
سلام الله ندى العرش	على وجهك يا حبي
ظما بعد يا قوة	عينى ومنى قلبى
لقد أتكرت يا عيد	جفاء منك فى الكتب
أعز ذنب ولا والله	به ما أحدثت من ذنب
ولا والله ما فى الشرق من أنسى	ولا الفـطـرب
سواك اليوم أهواما	على جد بلا لعب

وتذكرنا هذه الصيغة من صيغ الرسائل الشعرية ، بسابقتها
عند أبى ريعة ، واستخدمها كذلك أبو نواس وأخذ عن أستاذه
بشار بن برد هذا الفن ، بل نظم على هذا الوزن رسالة مشهورة
لصاحبه جنان .

وكان مطبوعا فى معانيه وألفاظه ، لا يتكلف القول ، ولا
تشعر فى شعره بجهد المثقفين ، وإنما يجرى كلامه سلسا سهلا ،
كما يقول ابن المعتز : « ولا يتوقف أمام بعض الالتزامات اللفظية ،
بل تبحث فى طريقتة ما يروق له من الالفاظ وقد يضع منها ما
يراه ، فإذا سئل تحلل بعبارة ما » .

ومن أمثلة تحرره من الالتزامات اللغوية قوله :

زرى روحا فلن تجلى كروحي

وأصلها فعل الأسر من زار يزور والامر للمخاطبة زورى
بإثبات الواو -

• واستخدم ثيب في جمع ثيب والصحيح الوارد ثيب .

وكأنه جوز أن يقال : امرأة ثيباء فقال :

فلا بد أن تفشاك حين غشيتها هواجس إيكار عليك وثيب

وبعد ، فإن بشارا ترك في تاريخ الشعر العربي أثرا خلل
يتردد ، وصدى يتجاوب ، وفتح للشعراء طريقا سلكوها ، وأبدعوا
فيها هي طريق البديع . وكان اهتمام القدماء به عظيما ، وعلى
رأسهم ابن الممتز ، وابن رشيق القيرواني ، وابن دريد .
سألت أبا حاتم عن بشار بن برد فقال : نظار غواص ، مطيل مجيد ،
يصف ما لم ير كأنه قد رآه .

واهتم به الباحثون ، وتذكر على سبيل المثال منهم الدكتور
طه حسين في حديث الأرباء والعقاد في مراجعات في الآداب
والفنون ، والمأزني ، في مجموعة أعلام الإسلام ، والنويهي في
شخصية بشار ، والحاجري في مجموعة نوايغ الفكر العربي .

مصادر بشار بن برد :

- ١ - الاغانى لايى الفرّج الاصطهاني ، طبع دار الكتب - الجزء الثالث
- ٢ - المختار من شعر بشار وشرحه ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .
- ٣ - ديوان شعره تحقيق محمد الطاهر بن عاشور بجامع الزيتونة ، ثلاثة أجزاء ١٩٥٠ - ١٩٥٧ .
- ٤ - بشار بن برد - أحمد حسين القرني - طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ .
- ٥ - بشار بن برد بين الجند والمجون لحسين منصور - طبع التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣٠ .
- ٦ - بشار بن برد ، مجموعة اعلام الاسلام للمازني .
- ٧ - بشار بن برد ، مجموعة نوايخ الفكر العربى للدكتور طه العاجري .
- ٨ - مراجعات في الآداب والفتون للأستاذ عباس محمود العقاد .
- ٩ - شخصية بشار بن برد للدكتور النويهي - طبع القاهرة .
- ١٠ - تاريخ آداب اللغة العربية للدكتور شوقي ضيف ، الجزء الثالث ، العصر العباسي .
- ١١ - حديث الاربعاء الجزء الثاني للدكتور طه حسين ، طبع دار المعارف بمصر .

أبو نواس المجدد المقتن

(توفي سنة ١٩٩ هـ)

وصف أبو عبد الله الجعاز أبا نواس فقال :

« كان أظرف الناس منطلقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون جميل الوجه ، مليح النعمة والاشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصر ، مستنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف » *

وكان فصيح اللسان جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للأشعار ، علامة بالأخبار ، كان كلامه شعر موزون (١) *

ولد أبو نواس من أب عربي وأم فارسية - كان أبوه من جند مروان بن محمد الذين بعث بهم إلى الأهواز - بين البصرة وقارس - وكان من دمشق - وأقام في معسكر ظاهر المدينة - وهناك التقى بجلبان الأهوازية الفارسية أم أبي نواس فتزوجها ولم يقم معها طويلا لانشغاله بحرب الخراسانية مع جند مروان - وبعد هزيمة جيش مروان أمام الخراسانية سرح الجند ، فكان « هاتئ » بين من سرحوا ، وأقام مع زوجه جلبان واشتغل برعى

(١) زهر الآداب للعرب القديواني ، بتحقيق الدكتور زكي مبارك ١ / ١٦٢ -

الاغنام واشتغلت هي بالحياسة ، تصنع الاخراج ، وتنسج الجوارب * ولدا لها عدة أبناء * بينهم الحسن (أبو نواس) وولدان آخران وفتاة *

ولد الشاعر سنة ١٤١ هـ على أرجح الأقوال ، في خلافة أبي جعفر المنصور ثانی خلفاء بني العباس * ووفد مع أبيه وأمه الى البصرة عام ١٤٣ هـ ، وسكنت الأسرة بيتا من القصب ، وظلت أمه تزاوّل عملها في الرعي والحياسة ، واضطرت أحيانا الى الارضاع لتكسب قوتها وعيالها ولتعين زوجها على العيش *

ولم يلبث أن مات هاتيء ، وظلت جليان تجاهد وتعمل حتى انفرجت شدتها بعض الشيء فسكنت بالبصرة دارا من الأجر والجص * وصار منزلها مرتادا للناس رجالا ونساء للشراء ورميت بالريبة لأنها كانت تجمع بين الرجال والنساء * وكان هذا الامر مما هجى به الشاعر *

وردت الأخبار بعض لمحات أو سمات لجليان ، منها أنها ربما كانت بخيلة كغيرها من أهل الأهواز الذين يرمون بالبخل * لكنها على أية حال كانت مدبرة استطاعت أن تقوم بعبء أطفالها حتى دفعت بهم الى الكتاب والدرس ، وتسلم منهم الحسن الذروة بين شعراء عصره *

تعلم الحسن بأحد كتاتيب البصرة - وكانت أمه تبحث للمعلم أجره خبزا ، حتى تقدم الطفل في تعليمه وحفظ القرآن ومعرفة بعض الحساب - وكانت ترسل اليه بالدرهم والدرهمين * ويبدو أن

هذا الكتاب كان يدعى بكتاب «حفص» باسم معلمه . وقد وصفنا
في ذكرى استعادها لهذا الكتاب صورة طفل ناعم من أنباده
ضربه حفص عقابا .

قال حفص اجلسوه انه عندي يلين
ثم هالوه يسير لبن صافيه صود
ولم يزل مذكرا في الدرس عن المدرس يجيد
عندها صاح حبيبي يا معلم لن اعود
كشفت عنه خزوز وعن الغز برود

وتدرج الحسن في تعليمه من الكتاب الى مجالس العلم
بالمساجد يتلقى عن العلماء والشيوخ من قراء ورواة ومحدثين
ولغويين .

قرأ على الشيخ القارئ يعقوب الحضرمي ، وكان قد ذاع
صيته في تعليم القراءات وفي العلم بمذاهب النحاة في القرآن .
وكان يعقوب زاهدا ورعا . علم أبا نواس حسبة ولم يتقاض على
تعليمه أجرا ، ويبدو أنه أعجب بذكائه فألقى به خاتمه اليه وقال :
اذهب فانت أقرأ أهل البصرة .

وخلل يتردد على الشيوخ بالمسجد الجامع فانضم الى حلقة أبي
زيد الأنصاري اللغوي النحوي صاحب كتاب « النوادر » يسمع
لما يستشهد به من أوامد الأبيات وقرائد البلاغات من كلام
العرب ، وما ينشده من القصائد أو الرجز .

وجلس الى أبي عبيدة معمر بن المثنى اللخوي الراوية الاخبارى ، فمرف عنه الكثير من أخبار العرب وأيامهم ، وقبائلهم وأنسابهم . وظل يذكره بالخير دائما ويقول عنه انه : « أديم » علوى على علم .

وجلس الى خلف الأحمر راوية البصرة ، وناقدها ، وأعلم أهلها بالشعر القديم . فكان أستاذه فى الشعر ومعلمه . ومسدد خطاه ، وهو الذى لقبه بأبي نواس فى رواية اذ قال له : أنت من اليمن - أى قبيلة (بنى الحكم) فتكن باسم من أسماء الذويج ، أى باسم أحد ملوك اليمن القدماء الذين تبدأ « بذو » فتسمى بذى نواس .

ورحل الى البادية يأخذ الفصاحة عن السنة أصحابها . وأقام سنة ثم عاد الى بلده . وكان يقال له : أرغبت عى والية ومللت الكوفة ؟ . فيجيب : هى « أجدى » وأطيب من أن تمل ، ووالية لا يرغب منه . ولكنى نزعمت الى الاوطان واشتقت الى الاخوان .

واستأنف بالبصرة حياة الدرس والتحصيل بعد تلك الزورة للبادية والسرحة فى الكوفة واصطحاب بعض شعرائها . وارتاد فى البصرة المرید ، واعتاد حلقات الشعراء به ، وجمع من الشعر والعلم ما جعل الناس يرددون القول بأن « أقل ما فى الحسن من بضاعة قول الشعر فقد كان فعلا راوية علامة » .

وفى غير علوم العربية ، وعلوم الأدب واللغة خاصة ، اتصل ببعض الثقافات الأجنبية فوقف على التنجيم باتصائه بآل نوبخت

الذيع اشتهروا فيه ، وفي قصيدة له يمدح يحيى بن خالد البرمكى
أمثلة لمعرفته بأسماء النجوم ومساراتها -

والم يطرف من علوم الطبيعة ، والحياة ، والفلسفة والطب ،
وفي شعره آثار من العلوم عن طبائع الانسان الأربع من البرودة
والرطوبة واليبوسة . والقول بأقوال المتكلمين من المعزلة
وممارضهم من الجبرية - ولا يروق له جدلهم المقيم حول قضية
« الجبر والاختيار » -

يا ناظرا في الدين ما الامر لا قدر ولا جبر
ما صح عندك من جميع الذي يذكر الا الموت والقبر
ومما جاء في شعره من آثار علوم الكلام ويقول في الجزء الذي
لا يتجزأ :

تركبت منى قليلا : ومن القليل اقلا
يكاد لا يتجزأ اقل في اللفظ من لا

وزعموا أن ابراهيم النظام المعتزلى أستاذ الجاحظ لما سمع
ذلك من قوله قال : « أنت أشعر الناس في هذا المعنى » والجزء
الذى لا يتجزأ منذ دهرنا الأول نخوض فيه ، ما خرج لنا فيه من
القول ما جمعته أنت في بيت واحد -

وربما اتخذ أبو نواس بعض معارفه وسيلة للتطرف كما فعل
في الحديث مع الحب يداعب المحدث الشيخ عبد الواحد بن زياد
أستاذ الحديث بالبصرة - اذ طلب الى الناس في حلقته أن يسأل كل
رجل ثلاثة أحاديث مهمة ، ففعل الناس حتى انتهى الى أبي نواس

فقال له : سل يا فتى ، فقدم بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كنا رويناً	عن سعيد عن قتادة
عن زبارة ابن أوفى	أن سعد بن عبيدة
قال : من مات محبباً	فله أجر الشهادة
اترى ذلك صواباً	نتبع منه سداة

فالتفت اليه الشيخ منضجاً وقال : أغرب عني يا خبيث ، والله
لا أحدثك بعد ذلك ولا أعرف وجهك » .

أساتيد في الشعر

شعره التقليدي وأستاذه خلف الأحمر :

قلنا أنه اتصل بخلف الأحمر فعلمه الشعر القديم ، وشجعه
على حفظ كثير منه - ويرى أن خلفاً قال له : « لا أذن لك في عمل
الشعر إلا أن تحفظ ألف ماثور للمعرب ما بين أرجوزة وقصيدة
ومقطوعة » - ففعل ما طلب اليه خلف وعاد اليه فقال له : اتس
هذه الألف الأرجوزة كأنك لم تحفظها ، ثم انظم الشعر بعد ذلك .

وروى عن أبي نواس أنه قال : ما قلت الشعر حتى رويت
لستين امرأة من العرب ، منهن الغنساء وليلى (الاخيلية) ، فما
ظنك بالرجال ؟ .

وراض الشعر على هذا النسق القديم ، فقال يرثى أستاذه :

لو كان حي وائلاً من التلف - لو ألت شغواء في أملا شغف

وفى رثاء أبي البيداء الرياحي الأعرابي الشاعر الراوية
يقول :

هل منطىء حشفه عفر بشاهقة رعى بأخفافها شثا وطباقا

وفيها يقول :

زار الحمام أبا البيداء مغترما ولم يقادر له فى الناس مطراقا

وتعلم الشعر من المولدين والمحدثين على يدى أستاذه وصاحبه
والبة بن الحباب ، وشيخه محمد بن منذر فى بعض الروايات •

وأثرت صحبته لوالبة فى حياته وسلوكه وشعره • وقد لقيه
والبة صبييا يقول الشعر فمرف فيه فطنة وذكاء وتعلقا بالشعر
ورغبة فى عمله والتجويد فيه ، فقال له : انى أرى فيك مغايل
فلاح ، وأرى لك ألا تضيعها ، وستقول الشعر وتعلو فيه فأصبحنى
حتى أخرجك •

وصحب أبو نواس والبة الى الكوفة ، وجلس الى عصابة المجان
من رفاق الشاعر المأجن أمثال يحيى بن زياد ، ومطيع بن اياس ،
وحمد عجرد • وقد عرفوا بالمبث ، والقزل بالفلمان ، وشرب
الخمر والقول فيها •

وكان والبة يعتمد اغراء السقاء بالحسن بن هانىء الفتى
فيسقونه حتى التلف ، وكان يغريه بالمجون والاستهتار حتى
أفسده •

وكانت مجالس هؤلاء الخلقاء الماجنين لا تخلو من انشاد للشعر ، وصنعة له على البديهة ، وهو شعر سهل يجرى بلفه الحديث ينظمونها فى أوزان خفيفة ، يتناولون بها موضوع الحبث الذى يشغلون به أو يتحاورون فيه ، وكان هذا الانشاد ، وذاك الحوار الشعرى الذى يجرى على البديهة مما شجع الحسن على أن يتشد بديهة ، ينظم كما ينظمون فى تلك الاوزان السهلة والألفاظ الجارية والمعانى العاصرة .

وكانت هذه المجالس مما شجعه على الولع بالخمير ، وعمل الشعر فيها وفى مجالسها ، ثم خرج الى ضواحي الكوفة حيث تنتشر الأديرة المسيحية فى الحيرة ، وصحب جماعة المجان الى تلك الأديرة للهو وشرب الخمر ، وكان رهبانها يمتقونها ، ويقدمونها ، ويطرب الوافدون ، نزلاء الأديرة ويرحب بهم أهلها ويهيئون لهم أسباب اللهو وخاصة فى أعياد النصارى « كالشمانين » وفى أعياد القرس القدماء ، كالنيروز .

وتظهر فى شعر أبى نواس الخمرى ملامح الديارات ، ورهبانها ، وقسيسها ، ويبدع قصائد من أجمل قصائده فنا وحسنا - كتلك التى قالها فى دير حنة ، وذاعت بين الادباء وبلغت شهرتها الآفاق ، وتعلق بها الناس فى أقطار العالم العربى شرقاً وغرباً . وهى :

يا دير حنة من ذات الاكراج من يصح منك فاني لست بالصاحي

على أن أبا نواس لم يتوقف طموحه عند حدود بلده البصرة والكوفة، وأوساطها الأدبية، بل رمى ببصره، وتطلع الى أفق أوسع، الى مركز الخلافة بغداد، يقول:

سا بقى الفتى أما جليس خليفة يقوم سواء أو مخيف سبيل

وجاء بغدادا، قام قصور البرامكة، ومدحهم، وحدث ما حدث بينه وبين الشاعر الرقاشي من منافسة ومهاجاة، والرقاشي من شمراء البرامكة المخلصين، وأما أبو نواس فانه لم تدم صلته بالبرامكة، وقيل أنه لم يلق عندهم القبول، أو لم يلق النجاح الذى ينتظره، وفسر المؤرخون سوء حظّه مع البرامكة بأخبار كثيرة، منها أن جعفر بن يحيى تشاءم من مطلع إحدى قصائده.

ومدح أبو نواس الرشيد، وصلته بهذا الخليفة العظيم غير واضحة المعالم، وتربط الأخبار بينهما برباط وثيق، وخاصة فى قصص الشعب، والعامّة، تجعله هذه القصص نديما له ومضحكا لكن المحقق أنه مدح الرشيد بهجلة من قصائده، وأنه لقي عنده بعض النجاح، لكنه ربما سجن فى عصره كذلك، وقاسى السجن ومرارته. ونظم القصائد لاستعطافه كى يطلقه.

واتصل بالأمين من بعد الرشيد، ولكن صلته بالخليفة هذه هذه المرة كانت مختلفة تماما، فقد كان نديمه، وصاحبه الذى لا يصبر عنه، وربما جرت صعبة الشاعر على الخليفة كثيرا من المتاعب وربما وجد من طبع الأمين فى خلواته استجابة لاستهتاره، فتماذى الشاعر فى خلاعته، وجهريها وأعلن اسم الخليفة معه كقوله:

ولسان يرى هبتا عليه	بان يعسى وليس له انتشاء
اذا ناديته من نوم سكر	كفاه مرة منك النداء
فليس يقاتل لك اية دعوى	ولا مستجير لك ما تشاء
ولكن « يا اسقنى » ويقول أيضا	عليك الصرغ ان اعيالك دام
وذاك معمد تقليد نفسه	وحق له وقل له القدام

وقيل ان الامين اجازته على هذه القصيدة بكل بيت ألف درهم -

ولم تصف الحياة لهما ، فاثار اعدام الخليفة الناس عليه ،
وشهروا به ، وجعلوا من الشاعر مادة للتشهير . وكان لابد ان
ينتهى الامر بالشاعر المجاهر الى السجن ، وقد وجدوا الدليل في
شعره على ادانته ، مع قوله :

الا فاسقنى خمرا وقل لى هي الغمر ولا تسقنى مرا اذا امكن الجهر
ومثل قوله :

يا احمد المرتضى فى كل نائبة قم سيدي نعص جبار السماوات

وبعد أن قضى زمنا فى السجن عفا عنه الامين ، وقد أخذ
عليه وزيره الفضل ابن الربيع عهدا بترك القول فى الخمر
والمجون - يخاطب ابن الربيع بأبيات يظهر فيها نسكه وتوبته ، ولا
تخفى نغمة السخرية - يقول :

انت يا ابن الربيع الزمتنى النك وعودتني والخر عادة
فارعوى باطلى واقصر حيلى وتبدلت عفة وزهادة
لو ترانى ذكرت للحسن البصرى فى حسن سمة وقتصاده
المسايع فى ذرامى والمصعب فى لبتى مكان القلادة

وتدوم الصلة بين الأمين والحسن بن هانيء حتى تقوم الفتنة بين الأخوين على الخلافة ، وتحاصر جيوش المأمون بغداد ، ويهب أهل بغداد للدفاع عن بلدهم ، ويتراشق الفريقان بالنبال وتصب المجانيق وابلها على المنازل والأسوار ، ويدافع شطار بغداد ويستبسلون - ويشارك الناس كلهم في الحرب ، لكن الشاعر لا يبالي ، ويتصرف الى كاسه :

إذا عبا أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت وأم الشيخ أعلانا
وشبت حربها واشتعلت تلهيب نيرانا
جعلنا القوس أيدينا ونبل القوس سوسانا
وقدمتا مسكان الرمح والمطرود ربحانا
فكانت حربنا سلما وعدنا نحن غلانا
بفتيان يرون القتل في السنة قربانا
إذا ما ضربوا الطيل ضربنا نحن ميدانا

وتنتهى الحرب بمقتل الأمين ، فيرثيه الشاعر في حرقه وألم ، وصديق عاطفة ، ولا تطول بعده حياته فيقضى ما بقى من عمره عليلا يشكو العملة والهرم - فقد قارب الستين ، ويقضى في النهاية نحبه سنة ١٩٩ هـ -

اتصل الشاعر في مرحلته البغدادية ببعض الامراء والولاة ، سافر الى مصر فلقى أميرها الغصيب ومدحه بجملة من القصائد الجيدة ، منها رائيته المعروفة :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يرجي لديك عسر

وقيل أنه أقام في مصر عاما من سنة ١٩٠ الى ١٩١ هـ -

شعره ، دراسة موضوعية وفنية :

يحمل شعره سمات شخصيته ، وملامح عصره ، ومجتمعه ، وربما كان شعر أبي نواس من أصدق شعر العباسيين تعبيراً عن صاحبه وحياته ومجتمعه - وأول ملامح شخصيته الظرف ، وعدم المبالاة وحب الظهور ، أو الاعتداد بنفسه ، وبركاهيته للمرأة وحيه للفلميان -

وربما كانت هذه الاشياء جميعاً متصلة معاً بوشائج في نفسه ، وكان لحياته ، وظروفها كذلك أثر في نموها أو تكوينها .

ولد جميل الصورة ، مطبوعاً على الظرف وحلاوة الروح ، وربما ظلت هذه الخصلة ، أي الظرف وخفة الدم - السعة الغالبة عليه ، حتى صار رمزا للنادرة والفكاهة في الأدب القصيح ، والأدب الشعبي جميعاً ، وربما كان جمال صورته ورقته ، سبباً مع أسباب حب الظهور ، والميل إلى العبث والمجون ، خاصة وأن والية بني الحباب ، قد غرس فيه ذلك منذ صغره ، ونماه وتمهده ، وقد زكاه في نفسه نسب رماء الناس فيه ، وعقده الموالى التي استقرت في قلبه تحرقه ، وتشعره كانداده من أبناء الموالى ، بالضمة وصغر الشأن ، فكان لابد له من مجال للتنفيس ، فكان التمرد ، والخروج ، والعناد ، والمجاهرة بالعصيان .

وربما كانت عقدة والدته ، وما لقيه من « جفان » صاحبتة أو فئاته الأولى التي علقها بالبصرة من أسباب اتجاهه إلى الفزل بالملذوكر ، وكراهته المرأة في أعماقه ، أو خشيتة منها ، ذلك إلى

ما وجد في طفولته من ميل عصبية المجان لهذا اللون من الشعر .
واعتيادهم عليه باعتباره جديدا خارجا وهم الولمون بكل جديد
وخارج .

ويحدثنا الأستاذ العقاد عن عقدة الترجسية أو عبادة الذات
عنده ، وأن من أسبابها اعتداده بجماله (١) - يقول : فالترجسية
التي تنبع أعراقها في الحسن بن هانيء ليست حالة طبيعية تلاحظ
على أئداده ، وفي مثل عمره ، ولكنها حالة منحرقة . ولد ببعض
أعراضها ، وجاءت الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر
الذي نشأ فيه ، وعاش سائر حياته وهي حالة لا يشابهه فيها
أحد من شعراء عصره .

وأول دلالات الترجسية في نفس أبي نواس عند العقاد هي
تكوينه الجسدي ، وجمال صورته ، وقد ساق جملة من الأخبار
تشير الى ذلك . وقد ردد هو نفسه إعجابه بجماله قال وقد جاوز
الشباب :

فتيه علينا أن وُزقت ملاحه فمها علينا بعض تيهك يا بدر
فقد ظالمنا كتما ملاحا وربما صددنا وتها ثم خيرنا الدهر

ومع دلالات نرجسيته عقدة الأنثى ، وهي عقدة علقت به مع
أمه طفلا وصيبا ، حين كانت تكثر من تدليله وتترك شعره مرسلا ،
فيبدو في مظهر الفتاة لا الفتى ، وقد مات عنه أبوه صغيرا ، فعاش

فى كنف أمه حتى يفع ، وقد سمع عن أمه الكثير من الغمز فى وسط البصرة ، ومن شعراء هاجموه ، وأتهموها بريبة - وقد حاول أن ينتسب الى قبيلة والده اليمانية أو بنى الحكم ، ولهذا عرف بالحكمى ، لكنه ربما ضاق بهذه النسبة ، أو هاجمه بها مهاجموه ، فتسبب نفسه الى مضر ، وهى غير اليمانية - وربما ضاق بهذا كله ، وبالعرب والأنساب ، وجرى مع الشعوبية ، يفخر بأبائه وأجداده الفرس ، ويقول :

راح الشقى على الربوع يهيم	والراح فى راحى - ورحلت اهيم
بمزمين فلوا بسدة ليلة	والليل منتبس الظلام بهيم
مترقرين كلامهم ما بينهم	ومزمين خفاؤهم مفهوم
نادمتهم ارتاح فى أدايهم	فالفرس عدوى سكرهم معسوم
ولفارس الاحرار انفس انفس	وقفارهم فى عشرة معسوم

✽ ✽ ✽

ويقول عن العرب :

واذا أنادم عصابة عربية	بثرت الى ذكر الفخار تميم
وعدت الى قيس وعدت قومها	سببت تميم وجمعهم مهزوم

وكان هذا التمرد والخروج على التقاليد ، والاعتداد ، والمجاعة ، مظهرا لهذه الشخصية الشاعرة - ربما شابه بشارا فى بعض ملامحه ، وربما شابه غيره من شعراء الموالى أو عصابة المجان ، أو الزنادقة ، لكنه ظل نموذجاً فريداً ، وطابعاً مميزاً بجملته سماته الخاصة بين الشعراء جميعاً ، وهى سمات فيها الجميل المحبب الى النفوس ، وفيها القبيح الذى تنفر منه ، لكنه حتى فى هذا

القبيح ، غير غليظ الطبع ، ولا ثقیل الظل كسابقه بشار • لكنه
يظل فيه محتفظا بخفة ظله ورقته •

وشعوبية أبى نواس ، وزندقته ، مع صلتها بشخصيته
وحياته ، وظروفه الخاصة في حياته لا يمكن فصلها عن ظروف
حياته ومجتمعه • وقد شاعت هذه الروح كما قلنا في عصره •
وتجاوب الشاعر معها ، وتلاقى وبشارا وآخرين في الحملة على
نهج القدماء في القصيدة ، والدعوة الى هجر مقدمتها الطللية ،
وبكاء الديار • يقول :

قل لمن يبكي على رسم درس وافضا ما ضر لو كان جلس
ولعله بذلك يلمح الى قول الشاعر القديم امرئ القيس :

قلنا بك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول

ويسخر من قول السابق :

صوجا على الظلل المصيل لعنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام
فيقول (١) :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجب أسأل عن خماره البلد
يبكى الشقى على ظل الماضين من أسد لادر ذلك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولقهما ليس الاعارب عند الله من أحد
لا جف دمع النوى يبكى على حجر ولا صفى قلب من يصقو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها وبين بك على نوى ومنخد

(١) ديوانه ص ٢٦٦ •

ويقول في أخرى :

دع الإطلال تسفيها الجنوب	وتبكي عهد جذتها الخطوب
تحمل لراكب الوغيا أرضا	تخب بها النجيب والنجيب
ولا تأخذ من الأعراپ لهوا	ولا عيشا فعيشهم جديب
ذر الالبان يشربها أناس	رفيق العيش عندهم و خديب
بأرض نبتها حتر وطلع	وأكثر صيدها ضيع و ذيب
إذا راب الحليب قبل عليه	ولا تعرج فما في ذاك حوب
فاطيب منه صافية شمول	يطوف بكاسها ساق أريب

حتى يقول :

فأين البلو من إيوان كسرى وأين من الميادين الدروب

وهذه الدعوة الجديدة الى تبني الحياة العربية القديمة حياة الصحراء ، وما بها في الشعر والتعبير عن الحياة الحضرية ، وهي حياة عراقية فارسية ، تمت بمدنيتها الى حضارة الفرس القدماء ونظمهم في العيش . وهذه الدعوة وان تلونت باللون الفارسي ، وهدت شعوبية المظهر لكنها دعوة الى التجديد ، والملازمة بين الشعر والحياة ، وترك القيم والتقاليد الموروثة والتي تمسك بها شعراء العرب وعلماء العربية ردحا من الزمن .

هذه الصرخة الى فك قيود الشعر ، والخروج عن إطاره القديم الى إطار جديد كانت دعوة صادقة من الشاعر ، تتلاءم مع مزاجه ، وان مقدمته الجديدة التي دعا الى بدء القصائد بها هي القول في النمر أو النسيب الخمرى اذا صح هذا القول .

وإذا كان يدم القصيد بالانسيب عند القدماء مدعاة لأنس السامع وتوددا الى قلبه ، لأن حديث الانسيب والغزل محبب الى كل القلوب ، فان حديث الخمر في دعوة أبي نواس محبب الى من هم في مثل مزاجه ، ممن يمشقون الخمر ، ويطيقون بد ساكرها .

ويردد هذه الدعوة في مطلع كثير من خمرياته . فيطيل أحيانا ويقصر أخرى حتى لا يذكرها الا في سطر بيت كقوله :

لا تبك ليل ولا تطرب الى هند واثرى على الورد من حمراء كالورد

ومزاج أبي نواس وهو مزاج أبيقوري ، عاشق للحياة وملاذها ، يدفع به الى نشدان ملاذه كلها في ظل الخمر ومجالسها ، لذة النساء ، ولذة الفلمان ، لذة الطعام ، ولذة الشراب ، لذة النظر ، والشم ، وسعادة الحديث والسحر كلها تجتمع الى الخمر ، وتصب فيها ، فكأسها ذوب اللذات ، من يد ساق جميل الصورة يضع فيها أو على أذنه عود الريحان ، وتحيط به الرياض ، والبساتين ، أو الكروم .

وهو في مزاجه هذا لا يحول ، يدعو أبو العتاهية الى ترك اللهو ، والامتناع عن سماع الفناء فيقول له :

أتراني يامنأهني تاركاً تلك الملهي
أتراني مفسدا بالنسك عند القوم جاهي

وقد كان هذا المزاج داعياً له الى المجاهرة والتبذل ، فهو واع مدرك لطريقه وغايته غير جاهل ، ولا غافل ، لذا تراه يجاهر

بميوله التوجسية ، وحب الظهور أو الميل الى العرض - يعتب على صاحبه التي تلومه على التماهى فى الشراب والاغراق فى اللهو ، فيقول :

وملحة باللوم تعصب أنتى	بالجهل أو اثر صحبة الشطار
بكرت على تلومنى فاجبتها	انى لأعرف مذهب الإبرار
فدعى الملام فقد أطعت خوايتى	وصرفت معرفتى الى الانتكار
ورأيت أتيانى اللذافة والهوى	وتعجلى من طيب هذه الدار
أحرى وأحزم من تنظر أجمل	علمى به رجم من الاخيار
ما جاءنا أحد يغير انه	فى جنة من مات أو فى نار

ويردد هذا المعنى مرة أخرى فى قوله :

ألم ترنى اتعت اللهو نفسى	ودينى واعتكفت على المعاصى
كانى لا أعود الى مفاد	ولا أخشى هنالك من قصاص

نفسية متمردة ، ألهاها اندفاعها نحو اللذة ، وأغفلها ، فجارت بالقول بالخلاف حتى يلتفت اليه الناس ، فيؤاخذونه ويلومونه ، أو يتهمونه ، ويرجمونه ، وهو لا يعبأ بهذا كله ، بل يكفيه منه أنه معروف عند الناس ، تجرى سيرته على كل لسان ، ويدور شعره الغريب فى مجالسهم ، خفاء أو جهرا ، ويسمعه أن يسير هذا الشعر ويشيع ، والناس وراء كل غريب ، وخاصة العامة - وقد لاحظ النقاد القدماء ميله لهذا اللون الخارج أو الصارخ ، الذى يسمى فيه أحيانا لرواجه عند العامة وأوساط الناس -

يقول ابن شرف (١):

« أما أبو نواس فأول الناس في خرم القياس، وذلك أنه ترك
السيرة الأولى، ونكب عن الطريقة المثلى، وجعل الجذع هزلاً،
والصعب سهلاً، فلهل المسرد، وبلبل المنضد، وخلخل المنجد
وترك الدعائم، وبنى على الطامى والعائم، وصادف الأفهام قد
نكلت، وأسباب العريية قد تغلخلت وانحلت، والفصاحات
الصحيحة قد سئمت وملت، فمال الناس إلى ما عرفوه، وعلقت
نفوسهم بما ألفوه فتهادوا شمره، وأغلبوا سمره، وشغفوا
بأسخفه، وعلقوا بأضعفه، وكان ساعده قوى، وسراجه أحتوى،
لكنه عرض الأنفق، وأهدى الأوفى، وخالف فشر وعرف
وأعرب، فذكر واستطرف، والعوام تختار هذه الأعلاق وأسواقهم
أوسع الأسواق - فشعر أبي نواس نائق عند هذه الأجناس،
كاسد عند أنقد الناس، وقد فطن إلى استضعافه - وخاف من
استغفاه، فاستدل بفصيح طرده طرفاً من جسد اللسان الأول
وجرده - وهو مجدد في كثرة التظاهر على من غرض منه بالحق
الظاهر، ليس إلا لخفة روح المجنون، وسهولة الكلام الضعيف
الملحون على جمهور العوام، لا على خصائص الأنام » .

وشعر أبي نواس الجديد، أو الذي يذهب فيه هذا المذهب
الجديد، يدور في الخمر والمجون، والتزل بالمذكر والوصف،
والفز بالمؤنث وإن كان قليلاً - ويميل فيه إلى الأوزان الخفيفة
الرشيقة، والابتعاد الموسيقى المطرب، وكثيراً ما لجأ إلى

مجزومات البحور ، وكذلك حاله في أهاجيه ، وهي قليلة نسبيا ، لأن سرورة الهجاء تقتضى السهولة في القول والبحر ، ولأبي نواس أراجيز ، ومجزومات الرجز كقوله في الفضل بن الربيع :

وبسلة فيها زور صمراء تغطي في صعر

ويدخل شعره الصنعة في اللفظ والصورة ، لكنه لا يسرف اسراف المتصنعين كمسلم ابى الوليد وأبى تمام . وإنما يجيء صنعه كالحلية البديعة .

ويرى النقاد المحدثون خلاف رأى القدماء في شعره الجديد ، إذ يعتبرونه أكثر صدقا وأظهر تعبيراً عن شخصه ، وعصره . يقول طه حسين :

« كان أبو نواس في شعره صادقا في التعبير عن أحاسيسه ، صادقا في وصفه للحياة من حوله ، فهو يصدق في وصف لذات الحياة ، وإن كانت خارجة عن الدين والفضيلة لأنه لم يرد أن يخفى نفسه أو أن يتحدث بما لا يرى ، أو أن لا يقول الشعر في كل ما يرى ، فهو صادق الوصف ، لأنه أراد بهذا الصدق أن يرضى نفسه . »

وقد دفعه هذا الصدق إلى ترك ما ليس معبرا عن هذه الحياة مع أنماط التقليد الذي توارثه الشعراء كذكر الأطلال ، والرغبة في التقى والاغراب في اللفة والأساليب ، والدعوة إلى التعبير عن الحياة الجديدة بالفاظ تتمشى مع الحياة سهولة ورقة (١) .

(١) حديث الاربعاء ٢ ، ص ١٥٠ .

ويقول عبد العزيز البشري (١) عنه في هذا الشعر الصادق

« هو رجل يشعرك مرسل شعره بأن نظره كان ينفذ الى
صميم الأشياء ، بل يشعرك بأن الأشياء كانت تطف له وتشف
ليتناول صميمها ما يشاء ، وسرعان ما يتنفس بهذا الذي أدرك
شعرا » -

ويقول أحمد أمين في شعره الجديد :

«فإن كان بشار يستحق لقب « المجدد الأول » فإن أبا نواس
يستحق لقبه المجدد الثاني » -

شعره في الخمر :

وإذا كان قوله في الخمر من أبرز موضوعات شعره الجديد ،
فينبغي الوقوف عنده لتتلمس عناصره :

وليس شعر الخمر من جديد الموضوعات ، فقد عرف في شعر
الجاهلية ، وبدأ عمرو ابن كلثوم قصيدته النونية بقوله :

ألا هبي بصحنك فاصبغنا ولا تنسي خمور الاندرينا

وأكثر الأعشى من ذكرها ، وكان من وصفها المشهورين ،
وربما تأثر أبو نواس ببعض معانيه قال الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال أبو نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم اغراء وداوئي بالتي كانت هي النساء

لكن شعراء الجاهلية الذين قالوا في الخمر لم يزدوا على وصفها
ووصف شرايها ، من الندامى ، وبعضهم جعل منهم فتيانا يتحلون
بخلق الفتوة العربية لا تأخذ الخمر بالبايهم ، وهم ينعمون
بمجالسها ، وقد تجتمع لذة الخمر عندهم بلذة النساء ، أو بلذة
الصيد والركوب ، وتجتمع هذه اللذات جميعا عند امرئ القيس
في قوله :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم اتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم نسبا الزق الروى ولم أقل لخلي كرى كرة بعد اجفال

ولما جاء الاسلام كان بعض شعراء المدينة يذكرون الخمر
في قصائد المديح كحسان ابن ثابت :

لله در عصابة تادمتهم يوما بخلق فى الزمان الأل

فلما حرمها الاسلام ، ألق الشعراء عن ذكرها ، وظلوا كذلك حتى عصر
بنى أمية ، وقد عرف بالقول فيها شاعر نصراني كبير هو الأخطل ،
ولم يكن المسلمون يمانعون النصارى من شرب الخمر ، أو القول
فيها ، وكان الأخطل مجيدا فى صفة الخمر ، ومجالسها ، ولكنه
جرى فى ذلك على سنن شعراء الجاهلية ، وظلت الفاظه ومعانيه
وصوره مكررة ، أو تمت الى خمريات البادية بصلوات وطيدة .

وأول ما بدا من تغير فى شكل الخمريات على لسان الوليد ابن
يزيد ، وبعض شعراء الكوفة فى أخريات عصر بنى أمية أوائل

القرن الثاني للهجرة • وطبيعى أن يظهر هذا اللون الجديد من شعر الخمر فى الكوفة وهى ما ذكرنا مع وجودها فى وسط تحيط به الأديرة النصرانية • وقد نهج هؤلاء الشعراء الكوفيون فى شعرهم عامة وفى الخمريات خاصة نهجا جديدا فى شكله وأسلوبه ومعانيه ، يميل الى الخفة وسهولة اللفظ والعبارة ومسايرة المعانى لروح العصر والمدنية • ويمكن أن نذكر لهذا النهج مثالا من شعر الوليد بن يزيد (الخليفة الأموى الشاعر) - يقول فيه :

أدر الكأس يميناً لا تلهها يسار ...
اسق هذا ثم هذا صاحب العود النصار
من كبيت عتقوها منذ نهر فى جزار
ختموها بالأفبا وبه وكافسور وقار

وأمثال هذا النهج الجديد هو الذى سار عليه أبو نواس فى خمرياته شكلا وأسلوبا ومعنى • لكنه أتقن فيه وتنوع وأبدع •

وكان شعر الخمر فى الكوفة على آخر عهد الأمويين وأول عصر العباسيين فى القرن الثانى قد تلون بلون الحضارة الجديدة ، واستمد بعض معانيه من تراث الفرس ، أو النصارى ، وتنوع تناول الشعراء للخمر وصفاتها ، فقالوا فى تقديرها ، وذكر مكانتها ، ووصفوها بالمروس غالية المهر ، وهى كريمة لا يد وأن تزف لكريم ، ووصفوا رائحتها ، وما يوضع حولها أو منع كؤوسها من مختلف الأفاوية والطيب وأنواع الرياحين ، ثم ذكر

تعتيقها ، وقدمها ، ووصف رائحتها وفعلها في الأبواب ، وحالات
السكرى والنشأوى ممن دارت برءوسهم ، وما قد يحدثه المزج
بها مع فقاقيع ، وما يتلأأ من ألوانها فى الكؤوس ووصف
الكؤوس والأباريق ، الى غير ذلك كله .

وهى أوصاف قد يكون كثير منها جديدا ، فسى صورة ، وفى
الفاظه ، لكن الشاعر لم يرتبط بالخمير ذلك الرباط الذى ارتبطه
أبو نواس ، فهو يحس ازاءها بقدر غير قليل من الحب ، والاجلال
يبلغ ذروة التقديس أحيانا ، تحسه فى قوله مثلا :

اثن على الخمر بآلائها وسعها احسن اسمائها
لا تجعل الماء لها قاهرا ولا تسلطها على مانها

وهى عذراء تزف اليه ، ومهرها غال ، يئذل فيها البدر
والياقوت ، وهى كريمة لا يخطبها الا الكرام :

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل ياخذ منها سلاء ذهبيا
فصرت بالراح فاحذر أن تسمعها فيحلف الكرم أن لا يعمل المنبا
انى بخلت لها لما بصرت بها صاعا من الدر والياقوت ما ثوبا

يا قهوة حرمت الا على رجل ترى فأنلف فيها المال والنشأ
وهو حين يشرب الخمر من الكأس فكأنما يقبل حبيبته الترى
يزهر وجهها كالنجم أو البدر :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

وهي دائما مشرقة منيرة ، تضيء أينما وجدت من البيت أو الحانة :

تري حيثما كانت من البيت مشرقا وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يلعب بها ساق أغن ترى له على مستدار الأذن صدغا مقربا

وهي بأضوائها ولآلائها شمس :

قامت بأبريقها والليل معتكر فلاح من وجهها في البيت لآل
فارسلت من قم الأبريق صافية كأنما أدخلها بالعين أغفاء
رقت من الماء حتى ما يلانمها لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها حتى تولد أنوار وأضواء

وهي كالورد ، وكمين الدين حمراء أحيانا ، وحين تختلج بالماء ،
تفور ، وتبدو فقاقمها فوقها بيضام كالحيب ، أو حبات الدر :

وقهوة كجنى الورد خالصة قد أذهب العتق منها الدام والرنقا

ويقول :

وأشرب سلافا كمين الديك صافية من كف سالية كالريم حوراء

• • •

تنزو فواقمها منها اذا مزجت نزو العناب في مرج وأفياء

ويقول :

إذا ما ملأها الماء خلت حبابها تفريق در في جوانبها شتى

ويفتن في تصوير كؤوسها وأباريقها صورا فنية جميلة ، أبدع
خلقها وتكوينها - يقول في أبريقها وهو على صورة ظبي مشرف
من مكان عال :

كان أباريقها ظبي على شرق قد مد منه لخوف القاصص المتقاع
وأحيانا هي كالكراكي تمد برقابها الطويلة ورءوسها الدقيقة :
لدينا أباريق كان رقابها رقاب كراكي قد نظروا إلى صقر
ويجمع الصورتين معا في واحدة فيقول :

في أباريق من لجين حسان كظباء سكن عرض القفار
أو كراك نعرن من صوت صقر مفزعات شواخص الابصار
وتصب الخمر في الأباريق في الكؤوس ، وهي بيضاء زجاجية ،
أو من نحاس مصور عليه صور الاكاسرة ، أو صور الحيوان :
والكوب يضحك كالغزال مسبعا عند الركوع بلنفة القافاء
وكان أقداح الزجاج اذا جرت وسط الظلام كواكب الجوزاء
ويقول :

فعل يزالها في قعر كاس : معفرة الجوانب والقوار
مصورة بصورة جنود كسرى وكسرى في قرار الظهر جبار
وجعل الجند تحت ركاب كسرى باقية واعسدة قصار

ويعرض هذه الصورة في صيغة أخرى فيقول :

تدور علينا السراج في مسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهما تدرجها بالقسي الفوارس

ويصف زوراته للحنات في قطربل أو غيرها من أماكن
اللهو والشراب في ضواحي بغداد ، وغالبا ما تكون زورته بالليل
والناس نيام ، يدب وحده أو مع بعض صحابته ، فيطرق باب

صاحب الحانة ، وهو نصراني حينا ، يهودي أحيانا فيجيبهم هو أو
تجيبهم ابتته ، ويتوجس من الطارقين أول الأمر ثم لا يلبث أن
يطمئن اليهم لأنه يعرف فيهم زبائنه الذين اعتادوه ، واعتادوا أن
يقدموا المال في سبيل الخمر ولا يبخلون ، فيجود لهم بأحسنها .

يقول :

وفتية كنجوم الليل أوجههم	من كل اغيد للغماء فراج
انضاء كاس إذا ما الليل جنهم	ساقهم نعوها سواها بازواج
طرفت صاحب حانوت بهم سحرا	والليل منسدل الظلماء كالساج
لما طرقت عليه الباب أوجله	وقال بين مسر الخوف والراجي
من ذا ؟ فقلت : فتى نادته لذته	فليس عنها الى شيء بمنعاج
افتح . فقهقه من قولي وقال : لقد	هيجت خوفي لأمر فيه ابهاجي
ومر ذا فرح يسعى بمسرجة	فاستل عذراء لم تبرؤ لالزواج

ويقول :

وخسارة للهو فيها بقية	اليها ثلاثا نحو حانتها سرنا
ولليل جلياب علينا وحوثنا	فما أن ترى أنسا فديه ولا جنا
يسايرنا الا سماء نجومها	معلقة فيها الى حيث وجهنا
الى أن طرقتا بابها بعد هجة	فقلت : من الطارق ؟ قلنا لها : «أنا»
شباب تعارفنا ببابك لم تكن	نروح بما رعبنا اليك ، فابلجنا
فان لم تجيبينا تبند شملنا	وان تجميعينا بالوداد تواصلنا
فقلت لنا : أهلا وسهلا ، ومرحبا	بفتيان صلق ما أرى بينهم اقنا
قلت لها : كيلا حسابا مقوما	دوايق خمر ما نقصن ولا زدنا

ولا يأخذ الشاعر فسى هذه القصيدة نفسه باستقلال البيت فى لفظه ، بحيث تكون القافية نهاية للمعنى ، كما هى نهاية للنظم فى البيت الواحد . اذ نلاحظ ارتباط معنى القافية بمعنى البيت الذى يليه ، وهذا عند نقاد الشعر التقليديين عيب يسمى **الخصين** .

ويقول مرة أخرى :

وفتيان صدق قد صرفت عليهم	الى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما	قلنا به خيرا قلن بنا شرا
فقلنا على دين المسيح بن مريم ؟	فأعرض مزورا وقال لنا كفرا
ولكن يهودى يعبك ظاهرا	ويضم فى الكون منه لك الغترا
فقلنا له : ما الاسم قال سموا	على أننى أكنى بعمر ولا عمروا
وما شرفتنى كنية عربية	ولا اكسبتنى لا سماء ولا فخررا
ولكنها خفت وقلت حروفها	وليست كآخرى انما جعلت وقرا
فقلنا له عجبا بظروف لسانه	اجلت أبا عمرو فجود لنا الخمررا
فادبر كالمزور ينظر نحونا	لأرجلنا شطراء وأوجهنا شطرا
وقال لعمرى لو احببتم يامرنا	للمناكم ، لكن سنوسمكم عذرا
فجاء بها زيتية ذهبية	فلم نستطع دون السجود لها صبيرا

وتارة يكون صاحب الحانة رجلا أصلع الرأس ، يقرعه أبو نواس وعصابته ليلا فيقوم مروعا ، لكن يفرغ روعه عند تمرقه اليهم ، وأنهم زبائن لا ينوون به شرا :

يلرب صاحب حانة قد ومته	فبعثته من نومسه المتدبيل
عرفت ثياب الطارقين كلابه	قيمتن من سنن الطريق بمعزل

ما زلت امتحن الد ساكر دونه حتى دلفت الى خفى المنزل
ففرقت والليل ملتيس بنا برقيب صلعته وشيب المسحل

ويقول فى صورة أخرى مع فتية وخمارة :

وليلة قد سرت بفتية	تنازعها نعو المدام قلوب
الى بيت خمار ، ودون محله	قصور منيفات لنا ودروب
ففرع من ادلاجنا بمد هجعة	وليس سوى نى الكبرياء رقيب
تناوم خوفا ان تكون سعاية	وماوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسعه طار ذميره	وايقن ان الرجل منه خصيب
ويادر نعو الباب سعيا ملييا	له طرب بالزائرين عجب
فاطلق من نايبه وانكب ساجدا	لنا وهو فيما قد يظن مصيب
وقال : ادخلوا حييتهموا من عصاية	فمنزلكم سهل لدى رحيب
وجاء بمصباح له فاناره	وكل الذى يبقى لديه قريب
فقلنا: ارحنا هات ان كنت بائعا	فان النجى عن ملكه سيخيب
فايدى لنا صباء ، ثم شيايها	لها مرح فى كاسها ووثوب

ويجيد رسم مجلس الخمر فيصور الساقية أو الساقى ،
وشعرها ، وتصفيف الشعر ، واللباس والزينة ، وغالبا ما تكون
مجالس الشراب وسط الرياض ، أو تحت ظلال الكروم ، وقد
اشتهرت قطريل والكرخ وطيرناباذ فى عصره بمجالس الخمر
وحانات وسط البساتين :

قطريل مريمى ، ولى بقوى الكر	خ مصيف ، وأمسى العنب
ترضعنى درها ، وتلعننى	يظلمها والهجير يلهب
اذا ننته النصبون جللتى	فينان ما فى أيكه حوب
تبيت فى ماتم حمامه	كما ترثى الفوائد السلب

يهب شوقي وشوقهن معا كأنما يستغفنا الطرب
فتمت أحبو إلى الرضاع كما تحامل الطفل معه سغب
ويقول :

ومجلس خمار إلى جنب حانة بقطربل بين الجنان العداق
نجاة ميسادين على جنباتها رياض غدت محفوفة بالشقائق

ويكون هذا المجلس بالدير ، وللديارات في شعر أبي نواس
صورة جميلة ، منها صورة دير بهراذان -

بدير بهراذ ان لي مجلس وملعب وسط سائتته
رحت له ومعى فتية نزوره يوم شعائنه
لكل طلاب الهوى فاتك قد أثر الدنيا على دينه
حتى توافينا إلى مجلس تضحك ألوان رياحينه
والترجس الغض لذي ورده والورد قد حفا بنمرينه

وقصيدته في وصف دير حنه ورهبانه وقساوسته يقول فيها :

يا دير حنة من ذات الاكراج من يصبح عنك فاني لست بالصباح
وحانات الكرخ ذات الحدايق والكروم المظلمة والورود
والرياض من حول الأرائك المصفوفة :

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
مههد صفقت نمارقه في ظل كرم معرش خضد
قد لحقتك الغصون أودية فيومك الغض بالنعيم تسلى

وهو يمزج بين جمال الربيع وجلوته في ابانة ونشوة الخمر :

واغد على اللهو غير متدد عنه فهذا أوان مقبلة
أما ترى جنة الزمان وما أبدع فيه الربيع من عمل
وافي وجوه الزمان غادية عند القتراب الشتاء من أجله

فاحتل أرجاءه فادركها من زهو نواره ومن حله
اندركت في اخريات استوته ما كان مدد الريح في اجله
فاشرب على حدة الزمان فقد وافى بطيب الهوى ومعتله
من قهوة تذكر السرور وتنسى الهم عند اعتراض مشكله

فقال في وصف الورود والرياحين :

لا تخشمن لطارق العدنان	وادفع هموك بالشراب القاني
او ما ترى ايلى السعائب رفقت	حلل الثرى ببدايع الريحان
من سوسن غصن القطاف وخرم	وبنفسج وشقائق النعمان
وجنى ورد يستبيك بعسنه	مثل الشموس طلعت من افصان
حمرا وبيضا يجتنبان واصفرا	وملونا ببدايع الالسمان
بعتود ياقوت نظامن ولؤلؤ	اوساطهن قرائد العقيمان
ومن الزبرجد حولهن ميثلا	(ثملا) يلوح بجانب البستان

ويقول في دير حنة :

يا دير حنة من ذات الاكراج	من يصح عنك فاني لست بالصاحي
رايت فيك ظباء لا قرون لها	يلعبن منا بالباب وادراج
دع التشاغل باللذات يا صاح	من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم	من العبادة تحت الجسم اطلاح
لم يبق فيهم لرائيهم اذا حصلوا	خلاف ما خوفوه غير اشباح
تلقى بهم كل محفو مفارقة	من الزهاد عليه سحق امساح
لا يلفسون الى ماء بانية	الا اعترافا من القلبران بالراح

نصص :

وفتية كمصاييح الدجى غررد
صالوا على الدهر بالنهوى واصلوا
دار الزمان بأفلاك السعود لهم
ناد متهم لرقف الا سقنط صافية
من اللواتى حطيناها على جبل
فى فيلق لللجا كائيم ملتطم
إذا يكافرة شطاء قد برزت
قانت: من القوم • قلنا: من عرفتهم
حلوا بدارك مجتازين فافتنمى
فقد ظفرت بصفو العيش خانم
فاحي يريحهم فى ظل مكومة
قالت فعندى الذى تبغون فانتظروا
هى الصباح يجلى الليل صفوتها
رمى الملائكة الرصاد اذ رجعت
فألبت كضياء الشمس بارغه
قلنا لها كم لها فى الدن اذ حبيت
كانت مغبة فى الدن قد عنست
فقد اتيتم بها من كنه معدنها
تهدى الى الشرب طيبا منذ نكهتها
كانها بزلال المزن اذ مزجت
يديها قمر فى طرفه حور
وعندنا ضارب يشدو فيطربنا

شم الأنوف من الصيد المصاليث
فليس حيلهمو منه يمتوت
وعاج يعنو عليهم عاطف الليث
مشعولة سييت من غمر تكريت
لنا عجبتنا بربات العوانيت
طام يحاربه من هوله التوتى
فى زى مفتشع لكه زميت
من كل سمح يفرط الجود منعوت
بذل الكرام وقولى كيفما شيت
كفتم داود من اسلاب جالوت
حتى اذا ارتعلوا عن داركم موتى
عند الصباح ققلنا يل بها ايت
اذا رمت بشرار كاليواليت
فى الليل بالنجم مراد العفاريث
فى الكاس من بين دامي الخصر منكوت
قالت قد اتغذت من عهد طالوت
فى الأرض مدفونة فى بطن تابوت
فحاذروا اخذها فى الكاس بالقوت
كنفع مسك فوق النار مفتوت
شباك در على ديباج ياقوت
كانما اشتق منه سحر هاروت
«يا دار هند بذات الجزع حيت»

فلو قرانا اليه كالمباهيت
له اقول مزاحا هات يا هيتي
مثقفات فصيحيات بتثبيت
مع الطبول ظللنا كالمساييت
بالرند والطلح والرمان والتوت
اذا ترسم في ترجيع تصويت
ولم اكن من دواعيها بصميت
اقبح بطلعه شيب غير مبغوت
وقد اذن بتوديع وتشتيت
ومن اضاعة مكتوب الموافيت
غفوت ياذا المعلن صاحب العوت

اليه العاطفيا تنسى امنتها
من اهل هيت سخي الجرم ذو ادب
فيصيرى بفصيح النقط من نعم
حتى اذا فلك الاوتار داربتنا
فرنا بها في حديقات ملففة
تلهيك اطيوارها عن كل ملهية
لم ينثنى اللهو من فسيان موردها
حتى اذا الشيب فاجاني بطلعته
غدا الفواني اذا ابصرن طلعت
فقد نلعت على ما كان من خطي
ادعوك سبحانك اللهم فاعف كما

صور الساقى والساقية :

ريح البنفسج لا نشر الخزاماء
يستأثر العين في مستدرج الرائي
كان في راحتيه رسم حناء
وربما نلعت في حولة الداء
صرفا واشرب اخرى مع نداماني

وتعن بين بساتين فتنفعا
يسمى بها خنث في خلقه دمث
مقرطق صغب الازداف ذو عتج
عباء تقسم داء في محاجرها
انى لا شرب من عينيه صافية

ويقول :

ربيب ملوكه كان والنهم كسرى

وساقى قريو الطرف والذل فائن

والساقية :

يهدى لك الورد والقفاح خديها
في ذي ذي ذكر سيما وسيماها
عض الا تأمل لولا اللعظ ادماها
قد غير الاسم خوف العين مولاها

وذات وجه كان البدر حل به
مطموحة الشعر في قمص مزودة
فلو يراها غلام يلطمحها
تدعى لان كلمت في حسناتها عللا

والساقى :

يسقى بها كالتضيب منجدل
كان وجنته حين ختما
تفاحة فى يمين نى كلف

الساقى : وقصة شعره :

يدبر بها ساق أغن ترى له
سقانى ومنانى بعينه منية
ويقول :

تعد بها اليك يدا غلام
ينسوء يودفه فاذا تمشى
فان جمشته خلبتك منه
يكاد من الدلال اذا تننى

الساقية القينة :

فجاعت بها تعدو بها ذات مزهر
كثيب علاه غصن بان اذا مشى
واقبل محمود الجمال مقرطق
يشم الندامى الورد من وجناته

وفى ساق اسمه المعلل :

ومختلس القلوب بطرف ريم
اذا امتحنت محاسنه قابلت
تقاصرت العيون له فغفت
له لقب يليق بناطقيه
يقال له المعلل وهو عنلى
يملنا بصافية ووجهه

وجيد مهة برئى هضاب
فرائب حسنه من كل باب
عن العظمت خاضعة الرقاب
بدع ليس يعجم فى الكتاف
كما قالوا وذاك من الصواب
كبدل لاح من خلل السحاب

وفى ساق :

يشفى الضجيج بنى ظلم وتشبيب
نو نخوة قد نشأ بين الأعراب
يا من رأى حملا يسطو على ذيب

يسعى بهامثل قرن الشمس ذو كفل
كانه كلما حاولت قائله
يسطو على بعض لست أنكره

الساقى :

على ثقل الردف مضطمر الفصر
ويدر الدجى بين الترائب والتعر
تطلع منها صورة القمر البدر

مدام ربت فى حجر نوح يديرها
كان ضياء الشمس نبطت بوجهه
فلما بنت أزوار جيب قميصه

وقال :

قضيبا من الريحان يهتز أخضرا
له شفة من معها معن سكرا
يجود لأعنى بالولاء لا بصرا
وان مزجت صلى عليها وكبرا
وسربها نونا من الراح أحمر

وأحور مخلوع الزمام تغالته
مريض جفون المغلطين مزتر
فلو أنه يقظان أو فى منامه
يغر لصرف الكاس فى السكر ما جدنا
أدار علينا بالتحية كفه

ويقول :

ممود للسقى تعريمر
أحور فى عينييه تقشير
فأصدغ بالعنبر مطرور

يسقيها مخلوق ماجسن
منقطع الردف هضم الحشا
قد عقرت رابية صدغه

ويقول :

بشادن خث كالفضن مياس
مقرطق قرشى الوجه صباس
اذ راح معتصبا بالورد والاس
والكاس يخال من ساق الى الحاس
بالقرب والبدو الاطماع والياس
أبهى اذا حشى من طاقه الاس
(الآن طاب الهوى يا معشر الناس)

تأزعتهم قهوة صفراء صافية
مخث اللفظ يسبينى بمقلته
كان اكليله تاج ابن مارية
وقد يغنيك من سكر ومن طرب
(لله دوك قد عذبتنى حرقا
يديرها هاشمى الطرف معتدل
حت المدام وغنانا على طرب

ساقية :

وخيم السدل ملثوغ الكلام	وخذ من كف ساقية وصيف
ترى فيها تكاويه الفلام	لها شكل الاثنان وبين بين
واحيانا تنثى كالحسام	فاحيانا تقطب حاجبيها

الساقى :

يعكس يبهجته للناس يلقيسا	نازعها واضح الغدين معتدلا
لم أره والله فى حرو ولا طوما	مقرطق حرسوه فى حدائنه

ساقية :

ناهيك من حسن ومن ظرف	من كف جارية حوا مقرطقة
وتلفتت بسوالف الخشف	نظرت بعيني جوند خرق
ورشفت غير ملعن الرشف	فشرت من يدها ومن فمها
كتمايل الماشى على الدف	قالت وقد جعلت تمايل لى
وعذاب قلبك حسن ما خلقى	وجهى اذا اقبلت يشفع لى

ساق :

يسيل صدغا فاطر الطرف	يستقيم ذو وفرة احور
يدعو الى السقم مع العف	يكسر الرء وتكسرها
اورام عطفنا جر للعطف	ان رام اعجالا ابنى ردفه
	ويقول :

بتاج من الريحان مثل القراطق	ينور بها ظبي فريز متوج
اذا ما مشى فى مستقيم المناطق	فليس كمثل النمن فى ثقل ودقه
كانهما نونان من كف ماشق	له مقربا صدغ على ورد خله
يسكر الا هات اسقنا بالدوارق	فلما جرت فيه تغلى وقال لى

الساقى :

يسمى اليك بها أخو هيف	عذب الشمانلى طيب اللثم
ذو وجنة خجلي مودة	ولقت على التقبيل والشم
ومؤزر يدعو الكهول الى	خلع الأجنة فيه بالقسم
تسقين كاسا من مشعشة	معزوجة من فيه بالظلم

الساقى والساقية معن ونعم :

يديرهما دعاء رود وادعج	آخ واخته في القوم واسمها اسم
يقال له معن فاما نكسته	لندعو اخته يوما معكوسة نعم

ويقول :

يا حسنها من بتان ذى خنث	تدعوك إجحانه الى الريب
-------------------------	------------------------

ويصف الساقيات :

أهديك خذها من يدي وهات	مزيئي حب غلاميات
ذوات أصداغ معقريات	متومسات القد مهضيات
يمشين فى قمص مزدرات	يصلحن للأطلة والزناة

الساقى المغنى من الروم أو اليونانيين :

وغزال من بنى الأصفر	مصبوب يتساج
شخصه منى بعيسد	وهو منى كالمناجسى
كلما سيقاك غنسى	كل ضيق لانقراج

الساقى العربى :

يديرها خنث فى لهوه دمث من نسل اذين ذو قرط ودراج
يزهى علينا بان الليل طرته والشمس غرته واللون للعاج

والساقى العربى :

مزج الكاس لى غزال اريب هاشمى اصاب فيها المزاجا
فتعسبتها وناولت طيبا فاطر الطرف ساحرا متاجا
قال لى والمدام تاخذ فيه يا اميرى ان كنت بى ملهاجا

الساقية القبطية :

من كف قبطية مزنة نجعلها للصبح مفتاحا
تقول للقوم من مجانها بالله لا تعسبن اقداحا

الساقى المنيصة :

وغادة هاروت فى طرفها والشمس فى مرقفها جانحة
تستقدح العود باطرافها ونفمة فى كبلى قادحة

الساقى :

ودار بكاستا رشا رخيرم لطيف الكشح مهضوم الوشاح

الساقى نصرانى من بنى العباد من الحيرة :

يسقيها من بنى العباد رشا منتسب ميمه الى الاحد
اشرب من كفه الشمول ومن فيه رضاها تجرى على برد

الساقية :

فالغمر يافوتة والكاس لؤلؤة
تسقيك من يدها خمرا ومن فيها
لي تشونان وللنعمان واحدة
في كف جارية مشوقة القد
خمرا، فما لك في سكرين من يد
شيء خصصت به من بينهم وحدي

الساقى :

فقام كاليدى قد شئت قراحتك
قلبي يسكاد من التهييف ينعتد

الساقى المثنى :

ما زال يسقى ويسقى
وانساب نحوى يفتى
(سقيت صوب الفوائد)
حتى انتشى للمسرود
مطربا وينادي
يا منزلا لسعاد)

طرف الساقى يسكر مثل كأسه :

ما أسكرتنى الشمول لكن
طرف منير به احورار

السقا : :

حتى اذا نقلت كأساتها خرد
من بين ذى فرطق أو ذات زناد

الساقى :

فقلنا انساقا على وجه اهيف
له تيه معشوق وشجرة شاطر

الساقى :

قد تحسيتها على وجه ساق
يقمر فجر النياحى بوجه
يسر المين من بهاء عينه
خالع في هواى كل حنار
ضوءه في الكجى صباح نهار
باني ذاك من بهاء بهار

يتثنى كأنه ضمن بأن ميلته الريح بالأسعار
بأي ذلك من غزال غريب فسي قباء محلل الأزوار
كم نتمنا من خده الورد فضا ومزجنا رضايه بالمقار

ساق :

من كف ظبي أذن ذي فنج اكمل من قرنه الى القدم
أعيد مرتجة روافده معتلم أو دوين محتلم
كان خديه في بياضهما أثربت وجنتاهما بدم
كان صدفيه في سوادهما خطا على الوجنتين بالقلم
كانه درة مجبرة . . ملقها راهب على صنم

ساق :

عاطنوها كما وصفت خليلي من يلى شادن رخم الكلام
علم السحر مقلته احوارها شيب تفتيره بلون المخام
وجهه البحر والمدامة بدر بالبدرين ركبا في نظام

ساق :

بكف أذن مختضب بنانا مزال الصدغ مضفور القرون
لنا منه بكفيه عدات يخطبنا بها كسر الجفون
كان الشرب مقبلة علينا تمشى في فلاك ياسمين

ساق :

وغزال يديرها بينان ناءسات يزينا الفمز لنا
كلما شئت علفى برضاب يترك القلب للسور خدينا

ساق عليه أطواق الياسمين : (ابن أذين)

يملأ ساق عليه	حمله من ياسمين
وعلى الأذنين منه	وردنا أذريون
غاية في الشكل والطر	في وفرد في المجون

ساق :

لعمري ما يهيج الكاس شوقي	ولكن وجه ساقها شجائي
حسنت الكاس والابريق لما	بدا لي من يدى رخص البنان
أموت إذا أزال الكاس عسى	وأحيا من يديه إذا سقاني
فلي سكران منه : سكر طرف	وسكر من وحيق خسرواني
تجمع فيه أصناف المعاني	فما يلقي له في الحسن ثاني
إذا ما اقتر فلت ستاء برى	إذا ما اعتز قلت قضيب بان

ساق كالشمس :

ومر قد صب في قارورة	ريق السحاب على النجيع الثاني
شمس المدام بكفه وبوجهه	شمس الجمال ، فيتنا شمسان
والشمس تطلع من جدار زجاجها	وتغيب حين تغيب في الأيدان

ساق :

سقاني من يديه ومقلتيه	من الفراح المعتق شربتين
فبت مرنحا من شربتيه	حريقا قد منيت بكريتين
هلال فوقه بدر فتع	وثالثة مضت وليلتين

يدير من المدامة بنت سبع وواحدة مضيت بعد التبع
أقول له وقد طردت كرانا أدها واسقنا بالراحتين

ساق :

وبديع الحسن قد قا ق الرشا حسنا ولينا
كلما ازددت اليه نظرا زدت جتوبهما

حال المطربين والمغنين والمنشدين والآتهم فى مجالس الخمر

* * *

الأدوار :

- (١) حتى تقضى وما تم الثلاث له « يا ليت من مالى ومن ولدى
 حلوا الشمائل معصود السجيات
 أنى أجالس لبتى بالعشيات »
 - (٢) وأصبحت السن أوتاره
 ثم شدا لما جرت كاسه
 « عاود قلبى كنه اطرايه
 إذ حرك المننى بمضرايه
 حرقا ومرت بين أقرابه
 من حب من أصبحت أعنى به »
 - (٣) وغنى لنا صوتا بحسن ترجع
 فمن كان منا عاشقا فاضى نغمه
 « سرى البرق غربيا شعن غريبه
 وعأوده بعد المرور نعيمه »
 - (٤) وجلت الذ عارية اللبان
 ومسمعه اذا ما شئت غنت
 « قران النغم بالوتر الفصح
 متى كان الغيام بلى طنوح »
- وممن كلما شئت تغنسى واشساردا
 رفع الصوت بضرب حاج للقلب ادكاردا
 « صاح هل أبصرت بالخمس من أسماء داردا »

وصف مغنية وعودها .

- وخال من جوارى العى يسعدها
 من بين بسم الى متنى ومثلثة
 تيطت على بدن كالعلى ليس له
 اصوات مختلف من وقع اوتار
 وما خلا ذاك من اصوات اوتار
 روح ولكنه من نعت نجار

اتناه في غيضة فاختار جيده
مقرب الراس كالمراج صنعته
نمت ملاويه حتى خلت خلقتها
يعكى صدام مجيد الصوت اذ نطقت
وظل ينحى له قطعاً بمنشار
سحر وما مسه تعقيد ه حار
أصابعاً حركت من مفصل جار
منه اللفات على طبل ومزمار

ويقول :

في مجلس جلي السرور صباحه
لا يطرق الاسماع في أوجانه
دوماً وتصفيق العليس تطرباً
سترا له من ناظر الحدثان
ألا ترنسم السن العيدان
وبكاء خابية وضحك فنانسي

مقنية :

ومسعه جاءت بانفوس ناهق
لتبدى من العاشقين بصوته
تري فخذ الألواح فيها كأنها
أصابعها مخضوبة وهي خمسة
إذا لعنت يوماً لوت أصبعاً لها
تقول وقد دبت عقار كأنها
« سلام على شخص إذا ما ذكرته
فبعض الندامي في سرور وضبطة

اسمها قبل :

فقال هات واسمنا على طرب
فاحسنت فيه لم تخرم مواقفه
ثم استهشت الى صوت قملعه
فما تماكنت عيني أن تبادرها
(ودع هريرة أن الركب مرتحل)
والكاس في يدها في جوفها حلل
«أنا معيوك فاسلم أيها الطفل»
دمعي ، وماودها من دلتها خيل

فقال احسنت، ما قد عجزت؟ قلت له: معكوسة لبق هذا هو المثل
فطار وجدا بها والخمر ياخذها وقال: هات، فانت العيش والامل
(ان العيون التي في طرفي مرض)
فخر معجزا مما ترادف له فرجته بلعن وقبحه شكل
فاستجلبت فتبدى الورد يضحك في منها وقلت لها : احسنت يا قبل
خد انيق لها يا حبذا العجل خد انيق لها يا حبذا العجل

نغم :

اكرم بهم وبنغم من مغنية ظفي الغناء بنغم يضرب المثل
هيفاء تسمعنا والعود يطربنا (ودع هريرة أن الركب مرتعل)

حال الندامي والسكراني :

يقول في سكره وظل يشرب طوال الليل حتى الصباح وكانت الخمر قد
لعبت برأسه :

فما هجم الصباح على حتى رذيت الأرض دائرة الفجاء

في الندمان وقد سكر فارتمشت يدها :

وندمان ترادفه خمار قاووث في انامله ارتعادا
فليس بمستقيل الكأس ما لم تكن يسراه لليمنى عمادا
رفعت له يدي وهما بكس بها منها تزيد ما استعادا
وقال الست متبعها ياخرى توقرتي فان بي ازديادا
فقلت له : يلى وبأخريات صلي أنى سأجعلها جيادا
فلذلك دأبه ليلا ودأبى اذا ما زدته منها استزادا
الى ان خر ما يدري ارضا توسد عند ذلك لم وسادا

ويقول :

استنى حتى ترانى احسب اليك حمارا

ويقول فى التدامى وقد غلبهم السكر :

فما برحت حتى الصباح يدبرها	ويجربى بنا فى كل حق وباطل
فبين صريح قد تجدل طافعا	الى نى وساد مانل الرأس زائل
فلما رأيت الصبح اسفر وجهه	وخفت نواقيس الدجى فى الهياكل
طففت اقدية وادعو باسمه	فقال مجيبا : ماتشا ، بتناقل
فقلت له : تفديك نفسى واسرتى	وفديك طرا كل حلق وناعل
الست ترى ضوء الصباح ونوره	وتسمع تغريد الحمام الثواكل
فتم قاصطجها وانف عنك خمارها	فليس لها مثل الصبح المعاجل
فما زال حتى ذاقها متكرها	فردت اليه روحه فى التفاصيل

ويقول :

تبهته بعد ما حل الرقاد له	عقدا من السكر الا انه نمل
فقلت كاسك خذها قال محتجا	حسبى النى انا فيه ايها الرجل
ثم استدار به سكرا فمال به	فقلت اسع الىه وهو متجدل
قد دبت الغمر مرا فى مفاصله	فمات سكرا ولكن حاطه الاجل
فلم ازل اتفنداه وارقمه	عن وهلة الارض والنشوان محتمل
حتى افاق وثوب الليل منغرق	وفار نجم الثريا واغفل زحل

ويقول :

ولعت له النداء يتم فتذها	وقد اخذت مطالعها النجوم
فقام وقلت من اخوين قاما	على طرب وئيلهما بهيم
اجر الزق وهو يجبر وجلا	يجور بها النماس ويستقيم

ويقول في وصف ما يخيله السكر :

ذكر النمام :

خلنا الظليم بعيرا عند نهضتنا والتل منبطعا في قد تهلائل

طالع الصباح :

يصوره في صور مختلفة :

فمن بين مسرور وبالك من الهوى وقد غابت الشعري العبور وأقبلت
وقد لاح من ثوب الغلام غيوب نجوم اثريا بالصباح تنوب

صنعتة الشعرية (موسيقاه) .

الترصيع كما في قوله :

في بيت كافرة بالخمر تاجرة شمطاء شاعرة تغتنز بالوالى
قبيتها حرم وقولها نعم وكيها حكم في كل مكيال
وعندها قمر في طرفه حور في ذلة خضر في حسن تمثال
مفاكه عيث مقالاه آتت في طرفه نقت مثال ابطال
يسقيك من يده خمرنا وناظره سحرا ، ومن قمه سكرنا على حال

ومن أوزانه ما أعمل فيه الترصيع والتقسيم الموقع :

سلاق دن كشمس وجن كنمع جفن كنمر عدن
طبيع شمس كلون ورس ربيب فرس حليف سجن
رايت ملجا بباطر نجا لها توجى قلم يشن
حتى تبلت وقد تصلت لنا وملت حلول دن
فاحت بريح كريح شيخ يوم صيوج وغيم وجن
يسقيك ساق ، على اشتياق ابي تلافى بماء مزن

إذا تكفينا من التثني	يدير طرفنا يعي حنينا
دواء داء من التجنى	على غناء وصوت نساء
لذات قد وهي تنفى	ولهم خد كطعم قند
وحسن شكل وخيث جنى	غنا يمدل وضرب طبل
انلهو شاني فلا تلمنى	يا من لعاني على زمانى
يريد ألا العلو عنى	أطلت قولا فلا تقل لا
قائنا إنا الفرار منى	أسفقت عينا قرائنا
وعيل صبرى بطول حزنى	هتكت ستري فباح سرى

الأوزان الراقصة ومنها قوله :

حل بالعن والجبال	ويجلس ماله شبيه
بدينة ماله انتقال	بمطرفيه السرور سعا
ما أن يوازي لهم فعال	شهدته في شباب صدق

نسق قصيدته الخمرية :

ويتبع في قصيدته الخمرية نسقا غالبا، وقليل ما يعدل عنه، هو أن يبدأ باللوم على من يصف الطلول أو يتف بها ، ويبكى هندا وأسماء وغيرهما من نساء العرب ، ويطلب أن يدع الناس هذا كله لأنه بلاغة القدماء ، وليس أنسب للمحدثين من وصف الرياض والقصور والخمر بالآتها ، وسقاتها غلمانا وفتيات ، فهذه هي لذات الدنيا . تجتمع في مجالس الخمر: جمال الطبيعة، وجمال الوجوه والورود من السقاة ، وجمال الحديث ، من الندمان ، ولذة الخمر ونشوتها ، ثم جمال الصوت بالغناء .

وغالبا ما تختتم قصيدته بصوت من الأصوات المعروفة التي
يتغنى بها في عصره .

الفاظه :

تلاعبه باللفظ أو توليده :

يريد أن يعبر عن معنى أن الخمر لا يشربها الا كريم فيشتق
من الكرم الكرم ويقول مناسبا بين الألفاظ ومولدا :

وخذا ان شربت وبعض خمر	بماء المزن من نطف الفيوم
لتجعل هذه عرسا لهذا	فان الفطر يعمل للكروم
ولا تسق المدام فتى لثيما	فانى لا احلك للنسيم
لان الخمر من كرم وجود	وماء الكرم للرجل الكريم

الوصف :

يقول من أوصافه في بستان نخيل وأشجار فاكهة وزينة :

نخل اذا جليت ايمان زينتها	لاحت باعناقها أعناقها النحل
اسقاط مسبنة فيها لآلها	مقصودة بسموط الدر تتصل
ينتضها فطن عالج بها خبر	فض العذارى حلاها الربط والعل
فاقتض اولها منها واخرها	فاصبحت وبها من شعلها جبل
لم تمتنع عفة منه ولا ورعا	بلا صداق ولم يوجد لها عقل
حتى اذا لقعت ارحمت عناقها	فمال منتثرا عرجونها الرجيل
فبيتها هي والأرواح تنفحها	شهرين بارحة وهنا وتنتعل
ارخت عقودا من الياقوت ملحة	صقرا وحمرا بها كالجمر يشتعل
فلم تزل يمدود الليل ترضعه	حتى تمكن في أوصاله العسل
ياطيب تلك عروسا في مجاسدها	لو كان يصلح منها الشم والقبل

لا يرهب الذنب فيها الكيش والعمل	خلالها شجر في فيئة نقد
يرجع العانة في صوته هديل	ان جئت زائرها هناك طائرها
يبكى ليليلة أودى بها خيل	من يبلبل فرد ناداك من غصن
مدت لواقفه في عمره الطول	هذه قصفة وقل في وصفه سدا
أقوى، وبنيته في حكم الهوى عمل	ما بين ربيع ولا رسم ولا طلل

فزله بالمرأة :

لئن كان أبو نواس قد وهب شعره للخمر ، ووهب كذلك عاطفته وأحاسيسه كلها فان المرأة لعبت مع الخمر دور باعث اللذة ، أو هي كانت عنصرا من عناصرها ، فالجمال الأنثوي متم للذات ، وان كان عند أبي نواس يتأخر عن مرتبة الخمر والفلمان .

ولكن ديوانه مع ذلك يحوى قصائد ذوات عدد فى الغزل والنسيب ، ومنها ما يكشف عن عاطفة ما حملها الشاعر للمرأة ، لعلها تكون أول حياته أو فى شرح الشباب وميعة الصبا ، وفلسفة اللذة لم تتبلور عنده على تلك الصورة التى جعلت من الخمر قطبها ومن الفلمان والسماع والطبيعة معرضها ومجلاها .

ومع هذه الأبيات التى تحس فيها بحرقه العاطفة بعض الشعراء قوله ولعله قالها شايا كما قلت :

حامل الهوى تعب	يستغفه الطوب
ان يكى يعق له	ليس ما به لعب
تضحكن لاهية	والحبيب ينتعسب
تعجبين من سقمى	صحتى هى العجب
كلما انتفى سبب	منك جاءني سبب

وتربط الأخبار بينه وجارية من جوارى البصرة اسمها « جنان » ، وتصور علاقة حب بينهما ، كانت جنان جارية لآل عبد الوهاب الثقفي . رآها مرة تمر أمامه وهو بالمريد في مجلس مع جماعة من أصحابه . وكانت مقدودة حلوة يديعة الحسب ، أدبية ظريفة عاقلة تعرف الأخبار وتروى الأشعار . واتفقت الأخبار على أن أبا نواس لم يصدق في حب امرأة غيرها .

ويصور في مقطوعة لقاءه بصاحبته جنان بين جماعة من الجوارى ، وقد أقبلت من رصافة البصرة في أتم زينة يحفف بيجان كالتماثيل الحسان . فقال :

ومضخبات بالعيسر	تزلن من غرق الجنان
راضعتن من الصبا	كاسا عقدن بها لساني
أقبلن من باب الرصا	فة كالتماثيل الحسان
يحففن أحور كالغزا	ل أمر أمرار العنان
يمشي برقي كالنقا	يفتحال تحت قسيب بان
فاذا انجلت فجاملي	كيلا اموت على المكان

وتعرف إلى جنان ، وكان يكتنم حبا أول الأمر لكنه لم يطلق الكتمان فلهج بذكرها ، وردد اسمها :

لايحين حرمة الكتمان	راحة المستهام في الاعلان
قد تصبرت بالسكوت وبالأطر	اق جهدي فنتت العينان
تركتني الوشاة نصب المرييم	من واحدونه بكل مكان
ما أرى خالين للسرا	قلت ما يغفلون الا لشاني

وقال :

لما تكشف منى أننى كلف	كشفت أيضا لهم ممن به الكلف
جيم وجلت لها نونين بينهما	لن تهجى اسمها أو خطه ألف
يضمه من قفيف بعض دورهم	ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

وله مع جنان هذه نوادر كثيرة ، يقال أنها هجرته لما سمعت
بتشهيره بها فى شعره ، وسجل صدها له وابتعادها عنه فى قوله :

زهنت جنان فى النوى	رغبت اليها فيه نفسى
لزهنت فى الدنيا وصا	رت منيتى فى زور رضى
وطويت عينى ان ترا	نى ميتها وامت جرسى
كيلا يروع ذلك الوجـه	الجميل سماع حسى

ويقول :

جنان تسبى ذكرت بغير	وتزعم أننى رجل خبيث
وان موهبى كتب ومين	وانى للذى تطوى بثوث
وليس كذا ولا يرد عليها	ولكن الملول هو التكوث
ون قلب ينازهنى اليها	وشوق بين أضلاى حثيث
رات كلفى بها وقليم وجلنى	فملتنى كذا كان العليث

ولكنه لم يطلق الصبر طويلا ، وعاد لترديد اسمها واللهج به حتى
قال فيه الناس وعذلوه :

اما يفنى حديثك فى جنان	ولا تبقى منى هذا اللسان
اكل الدهر قلت لها وقالت	لكم هذا اما هذا بسان

وتذكر أخبارها أنها عزمت الحج مع أهلها ، وسمع هو بذلك
فعزم على أن يصحب الراكب خفية وأن ينوي الحج ليراها هناك
في مكة وعند الطواف - وقد لجأ الى هذا لما طلبها فلم تحصل
له ، وكان طلبها عليه عسيرا :

الم تر اننى افقيت عمرى	بمطلبها ومطلبها عسرا
فلما لم اجد سبيها اليها	يقربنى وأعيتنى الأسور
حببت وقلت قد حبت جنان	فيجمعنى واياها المسير

ويلتقيان فى الطواف ، وتقرب لتلثم الحجر الأسود ،
ويقرب هو منها ويلتقى عليه خداهما .

وعاشقين التف خداهما	عند التلثم الحجر الأسود
فاشتغيا من غير أن يالما	كانما كانا على موعد
لولا دفاع الناس اياهما	لما استقافا آخر المشهد
ظللنا كلانا سائر وجهه	بما يلى جانبه باليد
نفعل فى المسجد ما لم يكن	يفعله الابرار فى المسجد

وعلى أننا نجد من شعره فى جنان شعرا وجدانيا جيداً مثل
قوله :

ياذا الذى عن جنان ظل يغبرنا	بأنه قل واعبد يا طيب الغبر
قالوا اشتكتك وقالت ما ابتليت به	أراه من حيث ما أقبلت فى الثرى
ويرفع الطرف نغوى ان مررت به	حتى ليخجلنى من شدة النظر
وان وقفت له كيما يكلمنى	فى الموضع الخلو لم ينطق من العصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمته	حتى لقد صار من همى ومن وطرى

وربما ترك حب جنان في نفسه بعض حرقه الهوى ، وهو الذى
لم يبد في شعره حرقه ، ولا لوعة ، لكننا نمشعر مع بعض شعره
في الخمر حرقه غير معهوده كثيرا في خمرياته مثل قوله :

والهوة عثقت في دير شعاسي	تفتر في كاسها عن ضوء مقياس
مزاجها دمع حاسيها فأي قتي	لم يبك اذ ذاقها من حرقه الكاس
سلم ونكتها حبيب لذائقها	يا حبذا ياسها ما كان من ياس

ويقول في موضع آخر :

ردا على الكاس انكما	لا تدريان الكاس ما تجسدى
لو تلتما ما فعلت ما مزجت	الا بدعكما عن الوجد

وبعد فلعل هذا هو الحب الوحيد في حياته الذى خلف في
نفسه حرقه ، ولعله فشل ولم يبلغ منه مراده ، فحز في قلبه أسي ،
ومن يدرى لعل فشله في الحب ، مع عقدة أمه جليان وما كان
يسمع عنها ومنها تركا في نفسه احساسا مريرا من المرأة ساعده
على أن ينحرف أو يحيد عنها ، ويشق في حياته الجنسية طريقا
غير السوي ، فيخرج الى هذا الشذوذ في الفرام بالقلمان وكراهة
النساء أو المزوف عنهن . ربما كان الأمر كذلك ، وربما كان
لعشق النفس أو عقدة الترجسية كما أشار الأستاذ العقاد .

ولكن سائر شعره الغزلي في النساء مع ذلك طبع بطابع
جديد ، يختلف عن شعره في جنان ، ويختلف عن غزل الغزلين .
فيه ظرف وفيه تندر . تحس بروحه المذبة ودعابته تجريان مع
الفاظه وصوره . مثل قوله :

قل لئلا مائى وجلاسى
او قائل يفسرها حالفا
فراجعى الوصل فان زوتكم
هل لى من عينة من اسى
ان ليس منها بى من يامن
قدر فراقى فاحلقى واسى

وقوله :

اسمى لوجهك يامنى صفة
الله وفق والنسب له
الله فى قتل معذبتى
لا تفجسى اسمى بواحدما
فكفى بوجهك مغبرا باسمى
من قبل ان اهاوك عن علم
لا تقتلى فى غير ما جرم
لن تغلفسى مثلى على اسمى

ويحطوله ان يداعب بعض الجوارى ممن يلتاقن ، ويصور تلك
الدعابة فى شعره . فيقول :

ايئ الجواب واين رد رسائلى
فعدت كفى ثم قلت تصلى
ان كنت مسكينا فجاوز بابنا
يا ناصر المسكين عند سؤاله
قالت تنظر ردها من قابل
قالت نعم ، بصجارة وحنادل
وارجع ، فمالك عندنا من نائل
الله حاتب فى انتهار السائل

وقد يماكس احدى الجوارى فى الطريق :

امشى الى جنبها اذاحمها وما فى الطريق من ضيق

ويقول فى جارية قصرية من جوارى قصور الخلافة أو الأمراء :

وقصرية ابصرتها فهورتها
فلما تمادى هجرها قلت واسلى
فقلت لها لو كان فى السوق اوجه
لغيرت وجهى واشتريت مكانه
وان كنت ذا فيح فانى شامر
هوى عروة العذرى والعائق النهلى
فقالتي بهذا الوجه ترجوا الهوى عنلى
تباع بنقد حاضر ويسوى نقد
لعلك ان تهوى وصالى من بعد
فقلت: ولواصبحت فابغة الجعدى

ويقول وقد طلب قبلة من جارية فتأبت عليه وقالت له ، لا تلح
فى الطلب كالطفل :

سألتها قبلة ففزت بها	بعد امتناع وفسدة الطلب
قلت بالله يا معذبتى	جودى باخرى أفضى بها أربى
فابتسمت ثم أرسلت مثلاً	يعرفه العجم ليس بالكاتب
لا تعطى الصبي واحدة	يطلب أخرى يا عتف الطلب

وهو يعرف حب القيان ، وأنهن لا يثبتن على العهد ، وبهذا
يخاطب « عنان » جارية الناطقى وكانت أديبة شاعرة ، وكثيراً
ما كانت تجالسه مع بعض أصحابه :

قد قلت قولا فاسمعى ذاكم	منى وردى مثله يا عنان
انى لأهواك وانى جبان	الفرق من علمى بعذر التقيان
يصلن من وأصلته خدعة	بكسرة الطرف ومزح اللسان
تست أرى وصلك أو تحلفى	ألا تغونى ، وتقى بالضممان
أو فذرينى وصلى جاهلاً	يلقى من الغيرة فيك الهوان

شعره التقليدى :

المديح :

ونخرج من حديث الخمر والغزل الى المديح « وكان مديحه
مطلباً للمال ، أو استعطافاً أو تقرباً أو خشية ، كذلك كان مديحه
للرشيد وللفضل بن الربيع والأمين والخصيب » . ولكنه أظلم
أحياناً إذا ما رضى أو إذا شعر بالموده بينه وبين من يمدح كما هم
الجال فى بعض مدائحه للأمين - فيخاطبه فيها مخاطبة النديم

والصاحب ، ومدائحه للخصيب والى مصر ، لأنه أرضاه ، وأطلق
له العنان فى ملاحيه -

ومدائحه تجرى على سنن الشعر التقليدى ، فتبدأ غالباً
بالنسيب ، ثم يمدح بالصفات المعروفة للمديح ، والتي يتناولها
الشعراء ويجرون فيها على نهج واحد ، وان اختلفت الصور
والاساليب - ومن أجمل مدائحه ميعيته فى مدح الأمين ومطلتها :

يا دار ما فعلت بك الأيام ضامتك والأيام ليس تضام

وقد يروى الشطر الثانى : « لم تبق فيك يشاشة تستام » .
وقيل أن هذه القصيدة من أول ما أنشد أبو نواس فى مديحه . وقد
وصلة عليها بألف دينار - ومما يتردد من أبياتها فى كتب الأدب وعلى
أسنة الرواة اعجاباً قوله :

ولقد نهزت مع القواة بدلوهم واست سرح اللهو حيث اساموا
ويلفت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذلك اثام

وقوله :

واذا الملى بنا بلقن معمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربنا من خير من وطىء العصي فلها علينا حرمة وذمام
رفع العجاب لنا فلاح لناظر لمر تقطع دونه الأوهام
ملك اذا علق يداك بحبله لا يعتريك البؤس والاهدام

وكذلك قصيدته فى الخصيب :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك سر

ومن جيد قوله فيها :

تقول التي من بيتها خف مركبي	عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للفنسي متطلب	بلى أن أسباب الفنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواد	جرت فجرى فى اثرهن عبي
ذريتى أكثر حاسديك برحلة	الى بلد فيه الغصيب امير

ويعصف هذه الرحلة من بغداد الى القسطنط فيقول :

رحلن بنا من مقرقوف وقد بدا	من الصبح مفتوق الأديم شهر
فما نجلت بالماء حتى رأيتها	من الصبح مفتوق الأديم شهر
وغمرن من ماء النقيب بشربة	وقد حان من ديك الصباح زهير
ووافين اشراقا كناس تلحمر	وهن الى وعن المداخن صبور
يؤمنن أهل القوطيين كانما	لها عند أهل القوطيين ثور
وأصبعن بالجولان برضغن صخرها	ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد	سنا صبحا للناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس	وهن من البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزاة هاشم	وفى الغرما من حاجهن شقور
ولما أتت قسطنط مصر أجارها	على ركبها أن لا تزال تجير

وله مع قصيدة أخرى :

أنت الغصيب وهذه مصر	فتنظنا فكلانما بعمر
لا تقبلنا منى عن مدى امل	شيئا فمالكما به عثر
ويحق لى اذ صرت بينكما	الا يحل يساقتي فقسر
النيسل ينعمن ماؤه مصرا	ونذاك ينعمن أهله القسر

ويمدح العباس بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور برأيته
الاعرابية الدائمة ومطلما :

ايها الكتاب من عفرة	لست من ليلى ولا سمره
لا اخوذ الطير عن شجر	قد بلوت الحر من ثمره
فاتصل ان كنت متصلا	بقوى من أنت من وطره
خفت مائور الحديث غدا	وغد أدنى انتظره
خاب من أسرى الى بلد	فهر معلوم مسقى سقره

* * *

فامض لا تمنن على يدا منك المعروف من كسره

ورثاؤه :

ورثاؤه كذلك كمدحه من اللون التقليدى ، وربما كان أقل
حظا من حيث الجودة من مديحه . بل ربما كان الرثاء أضعف شعر
أبى نواس كما يقول له حسين . وهذا طبعى لأنه لم يكن رجلا
محزونا ، ولا ميالا للعزن ، وإنما كان رجلا مبتهجا بطبعه .
ويقول له حسين : « وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق فى رثائه

الا مرة واحدة ، وذلك حين رثى الأمين بهذه الأبيات :

طوى الموت ما بينى وبين محمد	وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل الا عبرة تستديمها	احاديث نفس ما لها الدهر ذاكر
وكتت عليه احقر الدهر وحده	فلم يبق لى شيء عليه احافر
لئن عمرت دور يمن لا ثوده	فقد عمرت معن أحب المقاسر

هجاءه : مختلف متعدد الموضوع والمناسبة ، فهو يهاجى غيره مع الشمراء ممن تصدوا له أو ناقشوه أو نبشوا عواره ونسبه أو عاب دينه وزندقته - ومن هؤلاء يقف الرقاشى وأبان ابن عبد الحميد اللاحقى فى المقدمة •

وربما هجا العرب جميعا ، أو بعض قبائلهم ، ويصح أن يكون هذا الهجاء سياسيا فهو يذهب فيه مذهب الشعوبية فى التعرض للعرب وتراثهم وحياتهم وعقائدهم ، وعاداتهم ، فيزرى بهم ويذكرهم ضعة حياتهم فى الصحراء ، بين الضباب والدئاب ، يشربون اللبن ، ويتزودون بتمرات •

ويهجو العلماء أحيانا من اللغويين وأصحاب الكلام ، ولعل أشهر من هجا منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى •

ويهجو بعض من يلقى من المشنيين والقيان ، هجاء نفور وتقبيح ، لأنه لم يلق عنده قبولا أو لم يقع فى نفسه موقعا حسنا •

ففيما يتصل بأبان بن عبد الحميد يقول ابن المعتز : « كان فى جميع أحواله أرفع طبقة من أبى نواس وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير ، فما سار فيه شيء على شهرة شعره • ولم يقل فى أبى نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت فى الدنيا ، وهى هذه :

أبو نواس ابن هانى	وأما جليسمان
والناس الفطن شيء	الى حمروق الحانى
ان زمت بيتا على نى	ما مشت فاقطع لسانى

ويهجو النوامي الرقاشي فيقول :

رايت قنور الناس سودا من اصلا	وقدر الرقاشين زهراء كالبنر
يضيق بحيزوم البعوضة صدرها	ويخرج ما فيها على طرف القفر
يبثنها للمحتفى بغنائهم	ثلاث كعظ الثاء من نقط العبر
اذا ما تناوبا للرحيل سعى بها	امامهم الحولى من ولد الدر

ويهجو اسماعيل بن نوبخت كذلك بالبخل فيقول :

على خبز اسماعيل والية البخل	فقد حل في دار الامان من الاكل
وما خبزه الا كاوى ترى ابنها	ولسنا نراها في العزون وفي السهل
وما خبزه الا كعقلاء مغرب	تصور في بسط الملوك وفي المثل
يحدث عنها الناس من غير رؤية	سوى صورة ما ان تمر ولا تعلى

ويخرج هجاؤه عن هؤلاء السادة من الناس ، أو عن زملائه من الشعراء الذين نابذوه القول هجاؤه لبعض من يستثقل ظلمهم أو لا يستريح اليهم من الناس ، وخاصة من يتصل بهم في حياته اتصالا مباشرا ، في أوقات لذته ، أو طربه ، وأوقات جده سواء بسواء . فيقول في مفع استثقله :

قل لزهر اذا اتكا وشدا	اقل او اكثر فانت مهذار
سختت من شدة البرودة حتى	صرت على كائك نار
لا يعجب السامعون من صفتي	كذلك الثلج يارود حار

الزهد والنسك :

ولأبى نواس شعر في الزهد اختلف الناس فيه ، لكنه على أية حال يأتي أكثره في مرحلة متأخرة من حياته ، ولعله شعر شاعر

أمر ف على نفسه ، وشعر بأنه مثقل بالآثام ، ينتظره الحساب
المسير ، أو لعله ملل من اللذة ، ولم يعد في الجسم شدة الشباب ،
ولا سوريته ، بل أضعفته العليل ، وأمكننت من توازعه .

ومع هذا الشعر قوله :

يا كبير السنين عفو الله من ذنوبك أكبر
ليس للانسان الا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر
اعظم الأشياء في الصغر عفو الله يعظم

وله عدة منظومات أخرى مثل كتاب مزدك ، وكتاب السندباد ،
وسيرة أردشير ، وسيرة أئمة شروان .

وله قصيدة كونية في أحوال الدنيا تسمى ذات النحل ، كما
نظم في فرائض الصوم . وصنف كتباً في حكم الهند ، والصيام
والاعتكاف . وكتب بعض الرسائل . قال ابن المعتز : يقتضب
الخطب ويرسل الرسائل الجياد . واتصل الهجاء بينه وبين أبي
نواس فقد رد عليه قصيدته المذكورة وكان ينفي عليه مكانته
عند البرامكة ، يقول أبو نواس :

أنت أولى بغصة العظ مني	للمسعى بالبلبل الصياح
قبلوا منه حين غنى لديهم	أخرى الصوت غير في الفصاح
ثم بالريش شجبه	مما يكون تحت الجناح
لم يكن فيك خير شئ من مما	قلت من بمد خلقك اللداح
لحية سبعة وأنف طويل	وهباء سواهما في الرياح
فيك ما يعمل الملوك على الخرق	ويزوي بالسيد الججاج
فيك قبج وفيك عجب شديد	وطماح يفوق كل طماح
بارد الطرف مظلم الكتب قيا	معيد لعديث غث المزاج

وتوفي أبا نوح عبد الحميد سنة ٢٠٠ هـ (١) .

(١) راجع فيه : الاغانى طبع بولاق ج ٢٠/٧٣ وما بعدها . تاريخ بغداد الخطيب

البغدادي ٤٦/٧ .

الاوراق للصولي ٥٣/١ وما بعدها . الفهرست لابن النديم ١١٩ - ١٦٣ ،

الوزراء الجعباري ص ٢٥٩ .

حديث الاربعاء لطف حسين ٢٦٢/٢ - ٢٧٨ ، عصر المأمون لاحمد قويد

الرقاعي ٤٢٩/١ - ٤٣٥ .

ويمكن أن نضيف إلى هذا الاتجاه المطبوع بالكوفة أمثال مطيع بن اياس ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ، وقد كان معهم أحيانا أبو العتاهية ، وانضم اليهم أبو نواس وتخرج على يدى والبة . كذلك ربما اتصل بهم حماد عجرد .

وتمثل هذه المدرسة الكوفية من المطبوعين اتجاهها بعينه قد يبدو منه الاستخفاف بالحياة وبكل ما هو من مقدساتها ، والاستخفاف بالقيم الدينية والاجتماعية ، والمضى في ذلك إلى حد التطرف .

ونشير إلى واحد من هذه المدرسة وهو مطيع ابن اياس . ولد ونشأ بالكوفة ، ويرى أبو الفرج أن نسبه قسبى بنى كنانة بن اياس (١) (توفى سنة ١٦٩ هـ) . والمعلومات عن حياته قليلة وغامضة ، ويبدو أنه مات ولم يعقب ذكورا ، وكانت له بنت واحدة .

وقد اشتهر في أخريات الدولة الأموية بعد اتصاله بالوليد ابن يزيد الخليفة الأموى . وظل ملازما له إلى أن قتل حماد

(١) طبقات شعراء المعدنين لابن المعتز ٢٤١ ، تاريخ آداب اللغة العربية

ليروكلمان ، ص ٣٠٤ طبع دار المعارف .

الشاعر الى الكوفة . ونعرف أن الوليد كان غابثا مستهترا رقيق
الاعتقاد والدين ، أو قل هكذا صوره التاريخ ، وقد ذكر من
أخلاقه وشعره ما يقارب أخلاق مطيع وشعره وقد بحث الوليد
اليه يحضره من الكوفة ليقيم معه فى قصره بالرصافة فى
البادية وظل ملازما له حتى قتل .

وصف أبو الفرج ابن اياس فقال : أنه ظريف خليع ماجن ،
وأطرى حسن عشرته . واعتبره من جماعة الزنادقة .

_____ وليس من شك فى أن مطيعا لم يكن مهتما بالشعائر الاسلامية،
وهو لم يثبت اعتقاده كذلك فى دين من أديان الفرس أو غيرهم
كالمانوية والديسانية والرقيونية ، لا نستطيع أن نعوذ
اليه مذهبها خاصا سوى بعض الميل الى التشيع ، وكان هذا الميل
غالبا على بيئة الكوفة ، كما كثر معتنقوه بالبصرة ، بل وكان
اتجاها شعبيا غالبا فى عصر العباسيين .

كان مطيع اذا معروف بالظرف والزندقة ، والظرف ملازم
للزندقة بمفهومها الاجتماعى . والزندقة بهذا المعنى تعنى الجمع
بين خروب من العبث والمجون كشرب الخمر والتهاكك على اللذات
والعبث بالنساء والغلمان .

ونسوق مثالا من شعره يصور طابعه الصام ، بل طابع
شعراء الكوفة أيضا ، وهو طابع البساطة وعدم التكلف ، والتعبير
عن وقائع الحياة بسهولة دون عناء . يقول :

ان قلبى قد تصابى بعد ما كان اتابا
ورماه الحب منه بهيم فاصابا
قد دهاه شادن يلبس في الجيد سخايا
فهو بنر في نقاب فاذا القى النقايا
قلت شمس يسوم دجن حوت عنها السحابا

واتصل مطيع بجماعة من رجال عصره ومشاهيره ، ولعل
أشهرهم الوليد بن يزيد الخليفة الأموي العاشر ، كما أشرنا ،
واتصل كذلك بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وإلى الرى سنة
١٢٧ هـ ، وقد لازمه إلى أن غلبه جنود مروان عند خروجه عليهم ،
ثم قتله بعد أبو مسلم الخراساني سنة ١٢٩ هـ .

ولم تصلنا أخباره بعد مقتل الطالبى وقيام الدولة العباسية
أيام السفاح ، لكننا نسمع عنه يرتاد مجالس محمد بن خالد ابن
عبد الله العشرى أمير الكوفة سنة ١٢٢ هـ . ذهب إلى البصرة فيما
يبدو بعد أن تفاء المنصور ومنعه من مناداة ابنه جعفر ، ويبدو
أن المهدي عطف عليه ، ولم يحجر عليه ، على ما عرفه فيه من
الزندقة ، مع تشده في تعقب الزنادقة ، لاعتقاده بأنه يتزندق
زندقة اجتماعية سلوكية لا زندقة فكر وعقيدة ، وربما اعتبرت
هذه الزندقة ضربا من الحرية الاجتماعية والفردية التي لم يكن
المهدي يهتم بالحجر عليها - بل أن خلفاء بني العباس أطلقوا بعض
القيود ، وتركوا للناس كثيرا من الحريات ما دامت لا تمس كيان
الدولة ، والعقيدة الإسلامية من قريب . وبعد موت المهدي اتصل
بالمهدي ومات في أوائل خلافة سنة ١٦٩ هـ .

ويتصل اسم مطيع وأخباره بعصبة المجان بالكوفة ، وهي جماعة من الشعراء ذكرنا أسماءهم يذهبون الى الزندقة الاجتماعية والحرية أو التحرر في القول والعمل ، وربما كان منشأ هذه العصبة ببلاط الوليد بن يزيد ، بل لعلها نشأت أصلا بالكوفة ثم أوى الوليد جماعة منهم وشجعهم واتخذ موقفهم ، وعمل عملهم وقال كالشعر الذي قالوه روحا وأسلوبا .

وكان مطيع يمسى رأى الناس فيه وفي جماعته ، ويقابل تلك الآراء بعدم الاكتراث ، وقد أطلق عليهم الناس اسم الخلعاء ، أى الذين خلعهم المجتمع . والعجيب أنهم كانوا يتباهون بهذا اللقب فكل منهم يسمى نفسه الخليع . ويخاطب أصحابه به تباهيا لا تنابذا أو ازدراء .

وكان طبيعيا أن يرتبط مطيع بجماعة الخلعاء من عصبة المجان ، أو الزنادقة ، وتكثر صلاته واجتماعاته بهم ، كما أنه كان من الطبيعي أن يحدث بعض الخلاف ويتبادلون الهجاء ، والعيث والتنايد ، وقد ينفحشون فى عبثهم ، ومن ربطت الاخبار بينه وبينهم حماد عجرد ، ويحيى بن زياد الحارثي .

وكان كثير المباحكة لهذا الأخير ، وكان كثير الحب له وملازمته حتى آخر حياته .

ولم تكن صلاته قاصرة على هذه العصبة ، بل اتصل بجماعة من العلماء والكتاب فى عصره .

وكان مطيع مثالا للخلعاء الزنادقة في حلاوة الحديث وظرف
اللسان ، وجاذبية الشخصية فقد كانت تلك سمات عامة لكل
زنديق . وأبو نواس يقول :

« تبه مفن وظرف زنديق »

وكان كثير الاتصال بالقينات والبجاري في بيوت القيان ،
يعابثن ويعابثنه ويروى شعره كل ذلك ، كما علق بالفلمان ولم
يوله بهم وله غيره أمثال والبة وأبي نواس .

وكان حديثه فسي شعره عن تلك الصلات حديثا صريحا
مكشوفاً لا مواربة فيه ولا حياء ، مثله في ذلك مثل بشار في
شعره الفاضح .

وربما عثرنا في بعض شعره في ذلك العبث والمجون ، وشعر
الجنس . على شذرات من شعر العاطفة ، وخاصة في تلك الفتاة
التي تدعى « جوهـر » ، يذكر بشعر بشار في عبدة . وهو أظهر
ما تهجره وتفارقه .

وجوهـر جارية من كثيرات تعشقهن ، أو غازلهن ، أو علق بهن
زمننا ، ونسمع منه عن مكنونة وريم ، وبربر .

ونفهم من حديثه عن جوهـر أن لها صاحبة كانت تسمى بربر ،
ويبدو أنها كانت تدير بيتا للقينات .

ومع غزله :

لما خرجن من الرصا	فة كالتماثيل الحسنان
يعقبن أحسور كالغزاة	ل يميز في جدل العنان
قطعن قلبي حيرة	وتقسما بين الأماني
ويلى على تلك الشما	ثل واللطيف من المعاني
يا طول حر صبايتي	بين الفواني والقيان

ويقول وقد خرج الى الحج كما فعل بشار مع صاحبه ، فمرجا على دير بالحيرة :

خرجنا نبتغي مكة	جسماجا وزوارا
فلما قسم العيرة	حادي جملي حارا
وقد كاد يثور النجم	للأصباح أوفارا
فقلت انحط بها رحلي	ولا تغفل بمن سارا
فجددنا عهدا سلفت	مننا وآثارا
وقضينا لبائنات	لنا كانت وأوطارا
وصاحبنا بها ديرا	وقسيسا وخمارا
وظلما عاقدا بين (١)	النقا والغصن وثارا

ويصف دعوة اجتمع فيها مع صحبته (١) :

نعم لنا نيل	وعندنا حساد
وخيرنا كثير	والخير مستزاد
وكلنا من طروب	يطير أو يكاد
فلهونا لليسيد	لم يلهه الحباء
ان تشتهي فسادا	فعندنا الفساد
أو تشتهي فلاما	فعندنا زياد

(١) الاغاني ج ١٢ ، الديارات ، شعراء عباسيون ٤٤٠

ويقول معبرا عن اتجاهه وأصحابه :

اخلع غداوك في الهوى واشرب معتقة الدنان
وصل القبيح مجاهرا طالعيش في وصل القيان
لا يلهينك غير ما تهوى فبان العمر فان

ويصنع سوى هذا الشعر في اللذات ، والمجون ، شعرا آخر فيه الطابع الانساني ، فيه الحنين والحنان ، وفيه الاسى من فوت الزمان وضياع الشباب ، وفيه اللوعة بالفراق * ومنه تلك الأبيات التي قالها في وداع ابنته (١) :

ولقد قلت لا بنتي وهي تبكي بانسكاب الدموع قلبا كئيبا
اسكتي قد حزنت بالدمع قلبي طالما حزر بمعكن القلوبا
ودمي أن تقطعي الآن قلبي وتريني في رحلتى التعذيبا
فصلى الله أن يدافع عني ريب ما تعذرين حتى اوبى
ليس شيء يشاؤه ذو المعالي بعزيز عليه فادعنى المجيبا
أنا فى قبضة الله اذا كنت ست بعيدا أو كنت منك قريبا

ويقول في نخلتين قامتتا في بلاد فارس النائية حيث لا ينبت النخل في بلد اسمه حلوان هناك ذكرته ببلاده العربية حيث النخيل ، فيعن ويتذكر ويقول في نغمة يمزج فيها الاسى والحنين :

اسعداني يا نخلتي حلوان وابكيا لي من ريب هذا الزمان
واعلم ان ريبه لم يزل يفر ق بين الآلاف والعيران
ولعمري لو ذقتما الم الفرق لة ابكاكما الشئ ابكاني
اسعداني وايقنا ان نعسا سوف يلقاكما فتفترقان

(١) شعراء عباسيون ص ٢٣ ، الاغانى ج ١٢ ، ٠

كم رمتني صروف هذى الليالى بفراق الأحباب والخلان
غير أنى لم تلق نفس كمالا فبت من فوقة ابنه الدهقان
جارة لى بالرى تذهب همى ويسلى دنوهم احزانى
فجعتنى الأيام اغبط ما كفى كنت بصدح للبين غير مدان
وبرغى أصبحت لا تراها المسكين منى وأصبحت لا ترانى
ان يكن قد تركتنى فقد تركت بى لهبا فى الضمير ليس بوان
تحرىق القوام فى قصب الفبا ب رمته ريعان تختلفان
فعليك السلام منى ما صباغ سلا ما عقلى وفاض لسانى

ومثل هذه النغمة الحزينة التى بدأت تظهر فى شعره المفاخر
نجدها فى الأبيات التى يشكو فيها فراق الشباب • يقول (١) :

انى لباه على الشباب وصا أعرف من شوقى ومن طربى
ومن تصابى ان صيوت ومن نارى اذا ما استعرت فى لهبى
أبكى خيلسا ولى بيهجته بان بالواب جلة قشب
على الأفحم الأثيث مهتدلا على جبينى تهمل العنب
كان صفى دون الصفى وذا الألف فة منى فى الود والعنب
كان خليلى على الزمان فان راب ريب أبى فلم يرب
كان اذا تمت قال قم فاذا قمت سما بى لأعظم الرتب
وكان انسى اذا فرغت له وكان حصنى فى شدة الكرب
وابابى أنت من أختى ثقة لوكان تغنى مقاتلى يابى
كل خليل مضى ففارقنى كان شحرى لوئوى فلم يغب
فارمه منى يا زمان فقد صرت له فى الأثى وفى التعب
ويسك يا دهر كيف جئت بما اكسره جهرا على من كتب

شوهتني بعد منظر حسن كان فيه سبائك الذهب
قلبت لوني الى السواد وقد بيضت رأسي اصار كالصعب
ما زلت ترمي مخي فترهقه وتتنحي بالفتور في عصبي
حتى كاني ولم اسم لقب وكتت اعلى النري بلا لقب

ولمطيع ابن اياس ديوان جمع بعد وفاته وذكره ابن النديم
في الفهرست ، لكنه لم يصل الينا ، وكان يقع في ١١٠ ورقات .

ويرى العلماء أن مطيعا لم يكن من الفحول ، وأنه لم يكن
المقدم كذلك في طبخته ويقدم عليه الجاحظ أبان بن عبد الحميد .

وقد تناقلت شعره كتب الأدب ، وغنى فيه المغنون في بلاط
الخلفاء لرقته وسهولته ، وتناقلته عامة الناس بالكوفة والبصرة
وبغداد أكثر من خاصتهم .

النمط الأعرابي ومدرسة البداوة :

وتترك هذه الجماعة من المطبوعين الى لون آخر ، واتجاه غيره
هو الاتجاه الاعرابي أو الشعر البدوي الطابع ، ويقف على
الطرف المقابل لشعر المطبوعين من أبناء الامصار والحضر ممن
ذكرناهم .

ومن ذهب هذا المذهب من الشعر الأعرابي عبد الملك بن عبد
الرحيم الحارثي ، وبكر النطاح والحسين بن مطير وأبو الشيعي ،
وأبو حية النميري .

يقول ابن المعتز في طبقات المحدثين عن عبد الملك (١) :
« حدثني أبو الأسود الشاعر قال : كان الحارثي شاعرا مغلقا
مفوها مقتدرا مطبوعا ، وكان لا يشبه بشعره شعراء المحدثين
الحضريين ، وكان نمطه نمط الأعراب ، ولما قال قصيدته
المعروفة العجيبة انقاد الشعراء وأذعنوا ، وهو أحد من نسخ
شعره بماء الذهب ، والقصيدة التي ذكرناها هي :

ها أنذا يا طالبى سائى مختصر يرى الى الدامى

فاجمعت الشعراء والأدباء على أن هذه الأبيات ليست من نمط
عصره ، وأن أحدا لا يطلع فى مثلها ، ولعمري أنه لكلام مع
فصاحته وقوته يقدر من يسمعه أنه سيأتى بمثله ، فإذا رآه
وجده أبعد من الثريا وكذلك الشعر المتناهى الذى ليس له فى
الجودة غاية .

ويشير ابن المعتز الى مثال آخر لهذا النمط الأعرابي فى
شعره ، فى رثاء أخيه ، ينهج فى أبياتها نهج متمم بن نويرة فى
رثاء مالك أخيه (٢) . ويبلغ اعجاب ابن المعتز به حد قوله فى
أحد أبيات القصيدة : هذا البيت سجدة الشعراء ، ولو لم يكن فى
كتابنا الا شعر الحارثي لكان جليلا .

ومنه قوله :

ولما حضرنا لا نقسام تراثه وجدنا عظيمات النهى والمآثر

أى لم نجد مالا وإنما وجدنا فصلا .

(١) طبقات شعراء المحدثين ص ٢٧٦ .

(٢) طبقات شعراء المحدثين ص ٢٧٧ .

شعراء الغزل

العباس بن الأحنف

أصله من عرب خراسان ومنشؤه ببغداد • ولم تنزل العلماء
تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال ترى له الشيء البارع جدا
حتى تلحقه بالحسنين •

وذكر أبو الفرج أنه كان شاعرا غزلا مطبوعا ، شريفا • وله
مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولعمانيه عذوبة ولطف •
لم يكن يتجاوز الغزل الى المديح أو الهجاء ، ولا يتصرف فى شيء
من هذه المعانى • وقدمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة
على نظرائه • وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه •
قال : وكان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخلفاء • وكان
غزلا ، ولم يكن فاسقا • وكان ظاهر التعمية ملوكى المذهب ،
شديد التزين • وذلك يتبين فى شعره •

وكان قصده الغزل • وشغله النسيب - وكان حلوا مقبولا ،
غزلا ، فزير الفكر ، واسع الكلام كثير التصرف (١) وحده •

قال : قال عنه الجاحظ نقلا عن يموت بن المزرع : لولا أن
العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسمهم كلاما وخاطرا
ما قدر أن يكثر شعره فى مذهب واحد ولا يجاوزه لأنه لا يهجو

(١) الامانى ١٥/٨ •

ولا يمدح ولا يتكسب ، ولا يتصرف • وما نعلم شاعرا التزم فنا
واحدا لزومه فأحسن (١) فيه وأكثر •

وقال فيه الأصمعي : قيل للأصمعي : ما أحسن ما تحفظ من
أشعار المحدثين ، فقال : قول العباس ابن الأحنف :

لو كنت عاتية لسكن نوعتي أمل رضاك وزرت غير مراقبي
لكن مللت فلم تكن لي حيلة صد الملول خلاف صد العاتب

وقال ابن الممتز في طبقاته : لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت :
شعر العباس ابن الأحنف • ومن رقيق غزله الحضري قوله :

قالت ظلوم سمية الظلم ما رأيتك ناهل الجسم
يا من رمى قلبي فأقصده أنت العليم بموقع السهم

وقال :

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا فتجعت لي إلى المنيعة بابا
عذيتني بكل شيء سوى الصبر فما نلت أسمى من الصبر هذابا

وللمعبس بن الأحنف من المعاني الجميلة في الوصف قوله في الليل :

أيها الراغبون حولي أعينوا نبي لي الليل حسبه واقتدارا
حدثوني عن النهار حبيثا أوصفوه فقد نسيت النهارا

وقال :

والنجم في أفق السماء كأنه أعمى تعير ما لديه حابر

مراجع العباس بن الأحنف :

- ١ - الاغانى ٢٥٢/٨ .
- ٢ - تاريخ الطبرى ٧/١٠ .
- ٣ - تاريخ بغداد ١٢٧/١١ .
- ٤ - الشعر والشعراء لابن قتيبة .
- ٥ - شذرات الذهب لابن العماد ٢٣٤/١ .
- ٦ - معجم الادباء لياقوت .
- ٧ - معجم التنصيص ٢٠/١ .
- ٨ - الفهرست لابن النديم ١٦٣ .
- ٩ - الكامل للمبرور .
- ١٠ - طبقات الشعراء المحدثين لابن الممتز ٢٥٤ .
- ١١ - بروكلمان ٢٣/١ .

شعراء الحكمة

ويذهب بعض شعراء العصر (في القرن الثاني) الى الحكمة والفلسفة ، فيضعون أشعارهم في هذا اللون ، حتى يغلب عليهم . وعلى رأس هذا الاتجاه بالبصرة صالح بن عبد القدوس وعبد الصمد بن المعتدل ، وبشر بن المعتز .

صالح بن عبد القدوس :

وكان كما يقول ياقوت في معجمه (١) حكيما أدبيا فاضلا ، شاعرا مجيدا .

وكان يجلس للوعظ في مسجد البصرة ، ويقص على الناس . واتهم بالزندقة الفكرية ، وكان ممن اجتمع مع بشار في البصرة للنظر ودراسة بعض العقائد القديمة ، واتخاذ موقف منها ، وربما مال او اتهم بالميل الى رأى الثنوية القرس .

وقد أخذه المهدي بالزندقة ، ودفنه بقصيدة سينية يقول فيها :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوازي في فري رسمه
إذا أرموى عاد الى جهله كذي الضنا عاد الى نكته

قال البغدادي : قال له المهدي : ألسنت القائل هذه الأبيات ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، قال : فانت لا تترك أخلاقك ، ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك ، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر .

(١) معجم الادباء ، طبع الرقاعي ٦/١٢ .

وقيل أن المهدي أبلغ عنه أبياتا يعرض فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم فأحضره المهدي وقال له : أنت القائل هذه الايات ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، والله ما أشركت بالله طرفة عين ، فاتق الله ولا تسفك دمي على الشبهة - وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ادعوا الحدود بالشبهات -

قال البغدادي : ويقال أنه كان مشهورا بالزندقة ، وله مع أبي الهذيل العلاف مناظرات ، وشعره كله أمثال وحكم وآداب .

ومن مستحسنات شعر صالح القصيدة القافية (١) :

المراء يجمع والزمان يفرق	ويقلل يرفع والخطوب تغرق
ولئن يسأني عاقلا خير له	من أن يكون له صديق أحق
فأرغب بنفسك لا تصاق أحقا	إن الصديق على الصديق مصلق
وزن الكلام إذا نطقت فانما	يبدى عيوب ذوى العقول المتعلق
ومن الرجال إذا استوت أحلامهم	من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل واد قلبه	فيري ويعرف ما يقول فينطق
فبذاك يوثق كل أمر مطلق	وبذاك يطلق كل أمر يوثق
وإن أمرؤ لسعته أفعى مسرة	تركته حين يجر حبل يفرق

وقد عاش صالح بن عبد القدوس في البصرة ، وهرب منها عندما طلبه المهدي إلى دمشق ويذكر له كتب في الديانات منها كتاب « الشكوك » ، وذكر أبو هلال أن ديوان صالح ابن عبد القدوس اشتمل على ألف مثل من الأمثال العربية وألف مثل

من الأمثال غير العربية - وجمع لويس شيخو قطعاً من أشعار
صالح في مجلة المشرق أعداد ٢٢ ص ٨١٩ - ٨٢٩ ، ٩٣٦ -
٩٣٨ .

وصالح هذا بطل قصة صالح بن عبد القدوس مع راهب
الصين التي نشرها لويس شيخو بمجلة المشرق في العدد ٢٤ / ٢٧٤ .
ص ٢٧٨ - ٣٣٤ - ٣٣٨ .

ويروي الصلاح الصفدي (١) في « الغيث الذي انسجم في
شرح لامية المعجم » أنه حكى أنه توفي لصالح بن عبد القدوس
ولد فحضر إليه أبو الهذيل العلاف ومعه إبراهيم النظام ، فوجداه
يتلفظ حزناً على ولده . فقال له : لا أرى لتحرقك وجهها ، إذ
الناس عندك كالنبات . فقال : يا أبا الهذيل إنما تحرقني لأنه
لم يقرأ كتاب « الشكوك » فقال : وما هذا ؟ قال : كتاب وضعته
مع قرأه شك فيما كان حتى كأنه لم يكن وفيما لم يكن حتى كأنه
كان . فقال له إبراهيم النظام : فظن أنت على أنه لم يمت وإن كان
قد مات ، وعلى أنه قرأ الكتاب وإن لم يكن قد قرأه ، فلم يحرق
جواباً .

وقتل صالح وصلب ببغداد سنة ١٦٧ هـ (٢) .

(١) شرح اللامية ص ٤٧ .

(٢) ذكره توماس أرنولد في كتابه عن المعتزلة .

مختارات من شعر صالح بن عبد القدوس :

بقية القافية :

قد مات من عطش وآخر يفرق	ما الناس الا عاملان فاعمل
بالجهد يرزق منهم من يرزق	والناس في طلب المعاش وانما
هذا عليه موسع ومضييق	لكنه فضل المليك عليهم
القيت من تبع العرائس ينطق	واذا الجنابة والعروس تلاقيا
ورأيت مع نوائح يترفق	ورأيت من تبع الجنابة باكيا

ويروى هذان البيتان :

ورأيت مع نوائح يترفق	واذا الجنابة والعروس تلاقيا
ورأيت من تبع الجنابة ينطق	لو سار الف مدبج في حاجة
لم يقضها الا الذي يترفق	ان الترفق للمقيم موافق
واذا يسافر فالترفق اوفق	

ويقول :

لا من يظل على ما فات مكتئبا	ان الغنى الذي يرضى بعيشته
كل امرئ سوف يعجزى بالذي اكتسب	لا تحقرن من الایام محتقرا
حتى يكون الى توريطه سببا	قد يحقر المرء ما يهوى فركبه

ويقول ياقوت : وأشهر شعره قصيدته البياتية التي مطلعها :

والبحر فيه تضرع وتقلب	صرمت حبالك بعد موتك زينب
ال يلقعه ويرق طلب	وكذاك ذكر الغائيات قانه
واجهد فمرك مر منه الاطيب	فدع الصبا فلقد عداك زمانه

ومنها :

تعلى كما يعلو الصحيح الأجرب	واحذر معايرة الدنسى فانها
واذا تدارى هناك فو العسرب	يلقاك يعلف انه بك واثق

ومن شعره :

لميس من ملت فاستراح ببيت انما الميت ميت الاحياء
انما الميت من يمشى كشيئا كاسفا باله قليل الرجاء
وقوله :

اذا قلت قبر ان قولك عرضة نبادة أو حجة لمخاصم
وان امرا ألم يغش قبل كلامه الجواب فيتهى نفسه غير حازم
وقال :

لا اخون الغليل في السر حتى ينقل البحر في الخرايل نقلا
او تعور الجبال مور سحاب متقلات وعت من الماء جملا

مراجع :

- ١ - تاريخ بغداد للمعطي البغدادي ٣٠٣/٩ - ٣٠٥ .
- ٢ - تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٧١/٦ - ٣٧٦ .
- ٣ - معجم الاكباء لياقوت ٢٦٨/٦ .
- ٤ - فوات الوفيات لابن شاکر ١٩١/١ .
- ٥ - عصر المأمون لاحمد فريد الرفاعي ٤٠٣/٢ - ٤٠٦ .
- ٦ - مجلة المشرق للاب لويس شيخو .
- ٧ - معاني الاكباء للويس شيخو .
- ٨ - نكت الهميان للصفدي ص ١٧١ .
- ٩ - عيون التواريخ - حواشي سنة ١٦٠ - ١٦٧ .
- ١٠ - أمالي المرتضى ١٠٠/١ .
- ١١ - الكامل للمبرد ٢٢٧ .
- ١٢ - محاضرات الاكباء للراغب الاصبهاني ١٨٥/٢ .
- ١٣ - القوس لابن النديم ٢٣١ .
- ١٤ - حياة الحيوان للدمري ٢٤١/١ .

أحمد بن المعذل (١) :

عاش بالبصرة ، وكان صاحب زهد وورع وعبادة ، وانقطع
عن الناس وتقدم في الاعتزال وكان أخوه الشاعر عبد الصمد
ابن المعذل على الضد منه صاحب مجون ، شديد الاقدام على
الأعراض ، ردىء السيرة خبيث الهجاء .

حكى أنه كان فى مكان وتحت عبد الصمد فى جماعة مع
أصحابه ، وقد انهمكوا على شرايبهم وعكفوا على لذتهم ، فعلت
أصواتهم وجلبتهم ، بما هم فيه من صوت الملامى والفناء ، وغير
ذلك ، فشوشوا على أحمد فى تعبه ، فناداه : يا عبد الصمد ،
ألمنت أن يحل بك وبهؤلاء عذاب من الله ، فرقع عبد الصمد رأسه
إليه ، وقال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

وله هجو غريف فى أخيه عبد الصمد . وهو قوله :

قال لى أنت أخو الكلب والى	قلته أنه قد هجانى واجتهد
أحمد الله تعالى أنه	ما درى أنى أخو عبد الصمد

قال الصفدى : وهذا الهجو فى غاية الأذى على ما فيه من
اللطافة (٢) .

(١) راجع ترجمته فى الاغانى ٢٢٦/١٣ ، الكامل للمبره ٢٢٤/١ ، وطبقات

ابن المعتز ٣٦٨ .

(٢) شرح لامية العجم ٢٤٥/١ .

شعراء الزهد والوعظ :

وربما اتصل شعراء هذا الاتجاه بسبب بالاتجاه السابق في الحكمة ، وقد يشاركونهم بعض معاني أشعارهم ، إلا أن الطابع الدينى هنا أغلب ، والزهد هنا ربما كان متخذاً من عناصر غير اسلامية الا أنه يعتمد على تفكير وتراث اسلاميين من القرآن والحديث - ونشير من أصحاب هذا الاتجاه الى شاعرين أحدهما مشهور وهو أبو العتاهية والآخر لا يعرفه غير الخاصة وهو محمود الوراق ، وسابق البربرى -

أبو العتاهية :

ولد أبو العتاهية بالكوفة سنة - ١٣ هـ ، وكان عنزى الولام . وكان أول أمره يتخنت ويحمل زاملة المخنثين - وقيل له فى ذلك ، فقال : أريد أن أحفظ كلامهم -

وكان نظيفاً أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وقرة جيدة ، وهياة حسنة ، ولباقة وحصافة سمي أبا العتاهية لميله الى المجون ، والتعته ، وقيل أنه سمي كذلك لأن المهدي قال له : انك انسان متعذلق متعته -

اتصل مع خلفاء بنى العباس بالمهدي والهادي ، وهارون الرشيد ، وحظى عند هارون خاصة حتى قيل انه كان لا يفارقه فى سفر ولا حضر - وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف

درهم ، سوى الجوائز وقيل أنه تزهد في أيام الرشيد . ويروى
أنه لما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهد ،
وترك حضور المنادمة والقول في الغزل . وطلب الرشيد إليه أن
يعود إلى حاله الأولى فرفض عليه وحبس له ذلك وخيق عليه .

وعمر أبو العتاهية فتوفي سنة ٢١٠ هـ أو سنة ٢١١ في
سنة ٢٢٣ في خلافة المأمون .

وعرف أبو العتاهية بسهولة شعره وعدم تكلفه القول ،
ولذلك سلك مع أصحاب الطبع كالسيد الحميري وأبان بن
عبد الحميد .

وقال أبو الفرج : قال الشعر فبرع فيه وتقدم ، ويقال :
أطبع الناس بشار والسيد الحميري وأبو العتاهية . وما قدر أحد
على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرتهم . وكان أبو العتاهية غزير
البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ . كثير الافتنان ، قليل
التكلف ، إلا أنه مع ذلك كثير الساقط والمردول .

وكان الأصمعي يقول : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك ،
يقع فيها الجواهر والذهب ، والتراب والخزف والنوى .

وقالوا : أنه أقدر الناس على وزن الكلام ، حتى أنه يتكلم
بالشعر في جميع حالاته ، ويغاطب به جميع أصناف الناس .

(١) ترجم له ابن المعتز في طبقاته ص ٢٦٨ وقال توفي سنة ٢٢٠ هـ .

قال المبرد : كان أبو العتاهية حسن الشعر ، قريب المأخذ ،
لشعره ديباجة ، ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة
واقتمادا .

وحاول التجديد في الأوزان ، قال محمد ابنه : سئل أبي : هل
تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض . وله أوزان لا
تدخل في العروض . يعنى أنه كان يخرج عن تلك الأنماط
المذكورة المترددة بين الشعراء والتي حصرها الخليل في الأوزان
المروفة بالبحور .

وقال الشعر في موضوعاته المروفة ، وكان في شبابه
يتغزل ، قال ابن المعتز : وغزله لين جدا ، مشاكل لكلام النساء ،
موافق لطباعهن (١) :

وعرف غزله بمتبة من جوارى القصر ، ومنه قصيدة مشهورة
يقول فيها :

ألمت عتبة أنسى	منها على شرف مظل
وشكوت ما ألقى إليها	والدمع تسهل
حتى إذا برمت بما	أشكو كما يشكو الإل
قالت : فإى الناس يعلم	ما تقول . فقلت كل

وهي قصيدة كان يتغنى بها .

(١) طبقات ابن المعتز ٢٢٨ .

قالوا ربما بنى شعره على أعاريض غريبة ليست من بحور الشعر - قال ابن المعتز : « كان أبو المتاهية لسهولة شعره ، وجودة طبعه فيه ربما قال شعرا موزونا ليس من الأعاريض المعروفة . وكان يلعب بالشعر لعبا - ويأخذ فيه كيف يشاء » . وذكر أنه جلس يوما الى قصار ، فسمع صوت آله (١) فقال باقتداره شعرا على ايقاعها منه هذا البيت :

المنون مفضيات واحدا ثم واحدا

كأنه نظر الى القصار أخذ ثوبا بعد ثوب ، فشبهه بأخذ انسان بعد انسان وأخذ الوزن من وقع الكوبين (٢) .

زهده :

زهد أبو المتاهية ولبس الصوف ، وقصر شعره على المواعظ وذكر الموت والحشر والتار والجنة .

وقال ابن المعتز متهما اياه بالزندقة : والذي يصح لي أنه كان ثنويا معنى يعتقد بالهين .

ونقل ابن المعتز أنه كانت له بنتان احدهما يقال لها بالله والاخرى لله . وكان له ابن زاهد ناسك .

(١) آلة الكوب ، وهي المنزل .

(٢) طبقات ابن المعتز ٢٢٩ .

يقول :

ما أسرع الأيام في الشهر	وأمرع الأشهر في العمر
ليس لمن ليست له حيلة	موجودة غمر من الصبر
فاخط مع الدهر إذا ما خطا	واجر مع الدهر كما يجري
من سابق الدهر كبا كبوة	لم يستغلها آخر العمر

ولا ندري على وجه التحديد ما الذي حدا بأبي العتاهية الى أن يستغرقه هذا اللون الجديد من الشعر أهني به الزهد ، أكان فشله في الحب كما تقول بعض الروايات ؟ التي تقول أنه كان مفتونا بجارية لآل معن اسمها سعدى ، فلم يظفر في حبه منها بطائل . كذلك يروى أنه كان مفتونا بجارية من جوارى المهدي اسمها عتبة ، ذكرها في شعره فقال :

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

ويقال انه ألقى في السجن لغزله بها .

وربما كان اتجاهه الى الزهد ضربا من الرجعة أو التوبة ، أو ضربا من التعويض عن شعر التقص باعتباره من الموالى ، فوجد القول في الزهد ارضاء لنفسه كما وجد بشار في الهجاء والازراء بالعرب ترضية نفسية له . ولعل الشموييسة بمعنى الايمان بالمساواة بين الناس ، وبين العرب والموالى خاصة كان من دوافعه الى هذا اللون حيث يقف الناس جميعا عبادا لله سواء بسواء .

ومهما يكن من أمر فانه قال في الزهد ، ولم يبق لنا سوى هذا الشعر الذي يضمه ديوانه المتداول بين الناس ، ولم يبق من

موضوعاته الأخرى سوى قصائد مفرقات ، وأبيات منثورة هنا وهناك في كتب الأدب كالأغاني - وقيل انه لما تزهد أحرق ما كان له من شعر في القزل -

وتتعدد معاني الزهد عند أبي العتاهية فهي دعوى الى القناعة والرضا بالقليل في هذه الدنيا ، فالحياة فيها خيال زائل ، وكل ما أصاب الانسان فمقدور عليه ، مكتوب -

ولذلك ينبغي على الانسان أن يعتبر الدنيا دار عبور والآخرة دار قرار ، وهو يعمل في الدنيا ليحصل في الآخرة ، وحسن العمل ذخيرة في دنياه وفي عقباه ، وينبغي أن لا يؤلم بعمله أو يجرح غيره -

يقول :

يا صاحب الروح ذي الانعام في البدن :	بين الفهل وبين الليل مرتهن
قلما يتغطاك اختلاصها	حتى يفرق بين الروح والبدن
تجذبني يد الدنيا بقوتها	الى اثنا وان نازعتها رسني
له دنيا أناس دائبين لها	قد ارتعوا في رياض الفى والفتن
كسانما تروع تبتغى سمنا	وحثها لو دوت في ذلك السمن

ومن مشهور شعره في الزهد مزدوجته المشهورة ذات الأمثال :

يقول فيها - :

حسبك مما تبتغيه القوت	ما اكثرت القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجا وخافا

ان كنت اخطأت فما اخطا قلدر	هي المقادير فلمنى ذو قدر
ما اطول الليل على من لم ينم	لكل ما يؤذى وان قل التلم
وخير اجر المرء حسن فعله	ما انتفع المرء بمثل عقله
ورب جسد جره المزاح	ان الفساد ضده الصلاح
مبلفك الشر كباغية لكنا	من جعل المنام عينا هنكا
مفسدة للمرء أى مفسده	ان الفراغ والشباب والجد
يرتبهن السرائى الاصيل شكة	يختيك عن كل قبيح تركه
نقص عيشا كله فتاؤه	ما عيش من آفته بقاؤه
قد سرنا الله بغير حمده	يا رب من اسخطنا بجهده

- ٢ -

أصعاب البديع

مسلم بن الوليد

« صريع الغواني »

(١٤٠ هـ - ٢٠٨ هـ)

كوفي المولد ، نشأ بها وتوجه الى بغداد في شبابه ، وكان الشعر بضاعته ، فأخذ يرتاد مجالس الكبراء وندوات الوزراء والقادة من أمثال البرامكة ويزيد بن يزيد الشيباني .

قال المبرد : « وكانت البرامكة ويزيد بن يزيد ومحمد بن منصور بن زياد يروونه ويتمطفون عليه : ، ويتفقدون أحواله » .
ولم يمدح الخليفة ، لأنه فيما يبدو لم يستطع بلوغ مقامه ، ولم يكن له حظ المثل بين يديه منشدا كغيره من الشعراء ، بل لأنه رأى من هو أقل مكانة منه يحظى بالمكانة في بلاط الخلافة من دونه .

وقال المبرد : « ان مسلما كان يمدح من دون الخليفة ، ولا يطلع فيه ، فكان يقول : أرى نفسي تذوب حشرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء من لا يوازي في أدب ولا يحاثلني في نسب ، ولا يصلح أن يكون شعره خادما لشعري » .

واستطاع مسلم أن يبلغ مقام الرشيد وأنشده واحدة من
روائعه ومنها قوله :

وما العيش إلا أن تروح مع الصبا صريع حميا الكاس والاعمى النجل

وقيل أن الخليفة لقبه بصريع الغواني .

وكان الشاعر غزلا محبا للهو ومجالسه ، ينفق ماله في سبيل
متمه مع أصحابه وجلسائه . يقال أنه « كان إذا كسب مالا جمع
مع أصحابه فلم يخرج من بيته أكلا وشربا ولعبا ولها حتى يبقى
مما كسب قوت شهر فيظهر » .

واشتهر بهذا باللقب الذي عرف به بين الشعراء ، وربما كان
ما نسبته إليه الرشيد تحصيلًا لواقع ما عرف به بين الناس ، أو لما
تردد كثيرا في شعره ، وروى أنه علل اللقب أيضا مؤكدا ذلك
المعنى :

إن ورد الغدود والاعمى النجل وما في الثغور من أقصوان
واسوداد الصديق في أوضح الخبك فما في الصدور من رمان
تركنتي لدى الفواني صريعا فلهذا أدعى صريع الغواني

ومع استهتار مسلم بهذا اللقب فلم يبلغ في تهتكه ومجونه
مبلغ غيره ممن سمعنا عنها مع معاصريه أمثال بشار بن برد وأبي
نواس ويحيى بن زياد . واللبه . . وغيرهم .

ونقل عن مسلم بن الوليد أنه لم يكن يجهز باللهو ولم يتهتك
تهتك غيره ، وإن شدا في شعره بالخمر والنساء .

ولقد كان الوقار ملازما له ، والتأديب من سماته • ولعل
شخصيته تلك قد انعكست على شعره ، فقد عرف بالتوقر فيه ،
والتصنع ، والتكلف أحيانا •

وأعد مسلم نفسه في الشعر اعدادا طيبا ، حفظ كثيرا من
شعر العرب ، وروى لقولهم أمثال امرئ القيس وزهير والنايفة
ولبيد وعمر بن أبي ربيعة •

وكان يحب شعر الغزل ويترنم به ، وخاصة في شبابه •

وقد جمع في شبابه بالكوفة بين شعر البادية وشعر المحدثين ،
وامتزجت في نفسه الطريقتان وتماقت النمطان •

ولما كان شعر المديح عماد الشعراء في حياتهم للتكسب
به فقد لجأ اليه مسلم وقصد به كبار الرجال وضمن قصيدة المديح
طرائف صنعته ، ويديع فنه •

ويأتي بعد المديح شعر الوصف والغزل ، وخاصة وصف
الغزل ، وخاصة وصف الخمر ومجالس الشراب •

وكان طيبميا في بغداد في هذا العصر وتلك البيئة أن يبدع
في الغنين مما كما أبدع من قبل بشار وأبو نواس •

وصف مجالس الخمر كما وصفها أبو نواس ، وجعلها مجوسية
الأنساب مسلمة البعل ، ربيبة الشمس قد غدتها في كرمها ، وراح
الشاعر يخطبها ويغالي في مهرها • وتدور الخمر بيد مساق أو

ساقية ، وفي أثناء الشرب تفنى القينة الحسناء ، فتبعث أوتارها
بالمود ، أو تنفخ في مزمار .

وفي صفته للنساء في غزله صفة أمرئ مدله في حبهن ،
لأن ثالث منه الاعين التجلى ، وهو إذا وقع في هوى واحدة منهن ،
يكاد يموت صباية ، وقصص زياراته لحبيباته واضحة جميلة
شيقة في شعره ، تذكر بقصص امرئ القيس أو عمر بن أبي
ربيعة .

وهكذا يجمع مسلم بين لذة الخمر وحب النساء في شعره وهو
القائل :

فيها فنى كأس صريع حباب

ما لذة الدنيا إذا ما لم تكن

قال يمدح يزيد بن يزيد :

وشمرت هم العذال في العذل
مفرق بين توديع ومحتمل
يهنى بصاحب قلب غير مختل
من الدموع جرى في اثر منهمل
منى سراير لم تظهر ولم تغل
حتى رمانى بلعظ الاعين النجل

أجرت حبل خلع في الصبا غزل
هاج البكاء على العين الطموح هوى
كيف السلو لقلب راج مختلا
عاق الغزاء غداة البين منهل
لولا عذارة دمع العين لا نكشفت
أما كفى البين أن أرمى بأسهمه

الى أن يقول :

هتكت فيها الصبا عن بيضة العجل
شرب المدام وعزق القينة العطل
شكواى فاحمر خذاها من العجل
أيامه بالصبا في النهو والجذل

وليلة خلست للعين من سنة
فدكان دهرى وماهى اليوم من كير
إذا شكوت اليها الحب حقزها
كم قد قطعت وعين الدهر راقدة

ويقول في قصيدته المشهورة التي مدح بها الرشيد :

ادبرا على الراح لا تشربا قبلي	ولا تطلبا من عند قاتلتى ذلي
فما حزننى أنى أموت صباية	ولكن على من لا يعمل له قتلى
احب التي صلت وقالت لثريها :	دعيه - الثريا منه لقرب من وصل
اماتت واحيت مهجتى فهي عندها	معقة بين المواعيد والمطل
وما نلت منها نائلا غير أنى	يشجو المحبين الاولى سلقوا قبل
بلى ربما وكنت عيني بنظرة	اليها تزيد القلب غيلا على خبل
كتمت تباريح الصباية عاذلي	فلم يدر ماى فاسترحت من العدل
ومانحة شرايها المال قهوة	معوسية الانساب مسلة البعل
وبينة شمس لم تهجن عروقها	بنار ولم يقطع لها سعف النخل
تصد بنفسى المرء عما يخفه	وتنطق بالمعروف السنة البخل
قد استودعت دنالها فهو قائم	بها شغفا بين الكروم على رجل
بعثنا لها منا خطيبا لبعضها	فجاء بها يمشى العرضة فى مهل

ويقول فى صفة الخمر :

اغارت على كف المدير بلونها	فصاغت له منها أنامل كالذبل
ودارت علينا الكأس من كف طفلة	مبتلة حوراء كالرشا الطفل
وحن لنا عود الفياح يبرنا	كان عليه ساق جارية مغل
تضاحكه طورا وتبكيه قارة	خذ لجة هيفاء ذات شوى عبل
إذا ما اشتبهنا الإلهوان تبسمت	لنا عن ثنايا لا قصار ولا فعل
وتمسحها المزمار يشلو كأنه	حكى نائحات بتن يمين من نكل

وساقية كالريم هيفاء طفلة	بعيدة مهوى القرط مفعمة العجل
تنزه وجهى فى معاسن وجهها	إذا احتثت الطاسات يفتنى من النقل
سائقاد للذات متبع الصبا	وأغص صريع الراح والأصم النجل

وتحسب عمر بن أبي ربيعة قد بحث في حكايته لهذه
الزورة من زواراته الليلية :

وزائرة رعت الكرى بلقائها	وعاديت فيها كوكب الصبح والفجرا
انتنى على خوف العيون كأنها	خذول تراعي الثبت مشمرة ذمرا
إذا ما مشيت خافت نميمة حليها	تداري على المشي الغلاخيل والعطرا
فبت أسمى اللبر طورا حديثها	وطورا أناجي البنو أحسبها البندرا
الأن رأيت الليل منكشفا النجى	يودع في ظلمائه الأنجم الزهرا

وبلغ مسلم بن الوليد في شعره منزلة رفيعة بين علماء عصره ،
وأدبائه ، لأنه كما قلت جمع بين القديم والحديث ، أو بين الطابع
البدوي والحضري .

قال فيه أبو حاتم السجستاني : « خليج صاف ينزع من بحر
كدر ، كالزند يورى تارة ويصلد أخرى » ، وقال أبو الفرج :
« كان متفننا متصرفا في شعره » .

وقال المبرد : كان مسلم شاعرا حسن النعظ ، جيد القول في
الشراب - وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس في هذا المعنى ،
وهو أول من عقد هذه المعانى الطريفة واستخرجها .

وقال ابن دريد في أماليه : « أما مسلم فانه مزج كلام
البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعانى اللطيفة وكساء الألفاظ
الطريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين » .

وقال ابن رشيق في الموازنة بينه وأبى تمام : « ومسلم أسهل
شعرا من حبيب وأقل تكلفا وهو زهير المولدين » .

وقد نعته نقاد الشعر بالصنعة المتقنة للشعر ، وحسن اختياره
لللفظ ، وتأنقه فى البديع ، أكد ذلك الحصرى حين قال :
« ومسلم أول من لطف البديع وكسا المعانى حلل اللفظ الرقيق »
وقال ابي شرف : « وأما سريع الفواتى فكلامه مرصع ،
ونظامه مصنع ، وغزله مستعذب » .

وقال المرزبانى : « وهو شاعر مطلق مستخرج » لللطيف
المعاني يحلو الألفاظ » .

وكان مذهبه فى الصنعة مخالفا لمذهب غيره من شعراء العصر
فى الطبع . وهو يمثل أمام هذا الاتجاه أى اتجاه الصنعة ، وهو
الذى سار فيه أبو تمام وغالى . ويقابل هذا الاتجاه اتجاه أصعب
الطبع من أمثال أبى العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاحتى
والسيد الحميرى .

ولم يرض أحدهم عن مذهب الآخرين ، فقد قيل أن مسلما
اجتمع بأبى العتاهية متدارسا قول الشعر ، فقال مسلم لأبى
العتاهية فى كم يوم تصنع القصيدة ، فقال أبو العتاهية : أنها
.. بنت ليلتها . فقال مسلم : إذا كانت من مثل قولك :

ألا يا عتبة الساعة صوت الساعة الساعية

فهذا ليس بشعر ولكنى أقول :

موف على مهج فى يوم ذى رهج كأنه أجمل يسعى إلى المثل
انى أسهر فى صنعها الليالى الطوال .

وقد وفر مسلم بن الوليد لشعره زينة اللفظ وجمال المعنى •
واستخدم من البديع ما أكسبه جمالا ولم يثقله •

فقد يعمد الى بديع اللفظ من الجناس والترصيع مثل البيت
السابق • أو قد يلجأ الى الاستعارات يأخذ بعضها برقاب بعض
قوله :

أحسى البكا ليلة حتى إذا بلغت	نفس البجي واستنار الصبح كالوقد
غادى الشمول فعاظته سمادها •	طيفا به ألفت روحا الى جسد
كانها وسمان الماء يقرعها •	عقيقة ضحكت في عاوض ببرد
حتى إذا الراح نابت عنه فترتها	ريح الكرى وأقامت كسرة الغلد

فهذه الاستعارات الكثيرة ، التي تعاقبت قد تبدو حجابا يستر
المعنى ، لكنها فى الحقيقة أكسبته حلاوة الصور المتتابعة •
وابتمدت به عن التقرير والتعبير السهل المباشر •

فهو ببساطة يريد أن يقول انه سهر الليل يعاقر الخمر حتى
الصباح ، وشرب فلما أخذت الخمر بلبه تخيل حبييته أو جامته
بطيف الحبيب ، وهو يشبه الخمر التشبيه المألوف ويرسم لها
الصور التقليدية عند أبى نواس وغيره من شعراء الخمر ، لكنه
يعبر هذا التعبير الجديد عن معنى الفتور وما يصيب الرأس من
صداع بعد أن ينعاب السكر ويصحو الشارب من النوم •

موقف النقاد منه :

ذكره ابن قتيبة فقال : « وهو أول من أطف في المعاني ، ورقق في القول ، وعليه يعول الطائي (أبو تمام) في ذلك وعلى أبي نواس (١) » .

ويقول التبريزي في شرح الحماسة : « وكان متفننا ، متصرفا في شعره ، شاعرا حسن النمط ، جيد القول في الشراب » . وكثير مع الرواة يقرنه بأبي نواس في هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعاني اللطيفة واستخرجها ، وهو أول من أفسد الشعر بهذا النوع الذي سماه الناس البديع » .

وذكره ابن رشيق في الحمدة من بين أصحاب الصنعة (صنعة البديع) .

« . . غير أنا لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم ابن الوليد ، لما فيهما من الفضيلة لمبتغيهما ، ولأنهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة وأكثرها منها في أشعارهما تكثرنا سهلهما عند الناس وجراهم عليها » .

على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا - وهو أول من تكلف البديع من المولدين - وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ،

(١) الشعر والفراء ٨٠٨/٢ .

ولم يكن في الأشعار المحدثه قبل مسلم صريح الغواني الا التبعة اليسيرة، وهو زهير المولدين، كان يبغى في صنعته ويجيدها (١) .

ويقول : « كان مسلم بن الوليد نظير أبي نواس . وفوقه عند قوم من أهل زمانه في أشعاره، الا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال ، مع تقبض كان في مسلم واظهار توقر وتصنع . وكان صاحب روية وفكرة ، يبدع ولا يرتجل (٢) » .

ونقل ابي رشيق أن البيهقي حضر مجلس عبيد الله بن طاهر، فسأله : يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لانه يتصرف في كل طريق ، وينزع في كل مذهب . ان شاء جد ، وان شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقا واحدا لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه . فقال له عبيد الله : ان أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا . فقال : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، فانما يعرف الشعر من دفع الى مضايقة (٣) » .

وسئل أبو حاتم عن مسلم بن الوليد فقال : « خليج صاف ينزع من بحر كدر كالزند يورى قارة ويصلد أخرى » .

(١) المدة ١/١٣٠ .

(٢) المدة ١/١٩١ .

(٣) المدة ٢/١٠٤ .

ومع آيات شعره قصيدته اللامية في مدح يزيد بن يزيد

الشيباري ، يقول فيها :

اجررت حبل خليج في الهوى غزل	وشمرت هم العذال في مدح
هاج البكاء على العين الموحى	مفرق بين توديع ومعتل
كيف السلو لقلب بات مغتلا	يهتئ بصاحب قلب غير مختل

ويقول فيها :

يفتر عند الفترار العرب مبتسما	إذا تفرج وجه الفارس البطل
موف على مهج في يوم ذي رهج	كانه أجل يسعى إلى أصل
ينال بالرفق ما يعنى الرجال به	كالهوت مستعجلا يأتي على مهل
لا يرسل الناس إلا نعو حجرته	كالبيت يفضي إليه ملتقى السبل
يقرى المنية أرواح العداة كما	يقرى الضيوف شعوم الكوم والبرل
يكسو السيوف رموس الناكثين به	ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
قد عود الطير عادات وثقن بها	فهن يتبعنه في كل مرتعل

وقال في صفة النساء :

ولما تلاقينا قفى الليل نعبه	بوجه لوجه الشمس من ملثة مثل
وخال كفال البلد في وجه مثله	لقينا التي فيه فحلجونا الهلث

وله في الأوصاف وخاصة في العمر وأدواتها أبيات مفردات

كقوليه :

لطف المزاج لها فزين كأسها بقلادة جعلت لها اكليلا
قتلت وعاجلها المنير ولم تخط فإذا به قد صيرته قتيلا

وقال :

أبريقنا سلب الغزالة جيدها وحكى المنير بمقلتيه غزالا
يسقيك باللحظات كأس صباية ويعينها من كفه جريالا

وقال :

إذا شئنا أن تسقياني مدامة فلا تقتلها ، كل ميت محرم
خلطنا دما من كرمه بدمائنا فظهر في الألوان منا الدم الدم

وقال :

إن كنت تسقيني غير الراح فاسقيني كأسا الذ بها من فيك تشفيني
عينك راحى وريحاني حديثك لي ولون خديك لون الورد يكفيني

وهل يمكن أن يكون وصف مسلم بن الوليد بصريع الخوانى
وصفا واقعا فى محله؟ أى هل كان مسلم بن الوليد غزلا مجيدا فى
الغزل - مدلها فى الحب أم أن هذا الوصف ظاهرى لا يدل على
حقيقة *

وتتبعنا لأبياته في الغزل تقفنا على قدره فيه ، وهو قدر لا
يسمو الى درجة المجودين المبدعين كالعباس بن الاحنف أو عمر بن
أبي ربيعة ، وانما هو غزل جيد بقدر ما أودعه من الصنعة
وجمال اللفظ ، ورشاقة الصياغة كقوله :

احب التي صلت وقالت لتربها	دعيه الثريا منه الرب من وصلي
اماتت واحيت مهجتى فهي عندها	معلقة بين المواعيد والمطل
وما نلت منا نائلا طير انفى	بشجو المعبين الاولى سلفوا قبلي
بل ، ربما وكلت عيني بنظرة	اليها تزيد القلب خبلا على خبل

فهذا غزل مصنوع مثل بقية شعره .

القسم الثانى

شعراء من القرنين الثالث

والرابع

القرن الثالث

الاطار السياسي للعصر

يبدأ هذا القرن الثالث بخلافة المأمون ، وقد تولى الخلافة في أعقاب النزاع الذي ثار بينه وأخيه الأمين ، وكانت لهذا النزاع آثاره كما كانت له أسبابه وحوافزه ، منها ما يتصل بالبيت العباسي نفسه ، وما كان يدور فيه من خلافات حول ولاية العهد بين المأمون والأمين ، وتمصيب العنصر العربي للأمين والفارسي للمأمون ، ومنها ما يتصل بالوضع السياسي عامة والخلاف الذي كان لا يزال يلقي بظلاله على الدولة والرعية بقسميها من الفرس والعرب ، وقد كانت وقعتا أبي جعفر بأبي مسلم اثراساني ، وهارون الرشيد بالبرامكة تخرجان الخلاف ، وتشيران كوامن الفتنة ، وكلما خبت نارها نفخ فيها المثيرون ، من الجانبين .

وكان الصراع الاجتماعي بين العرب والموالي لا يزال يهدد نار الفتنة بالوقود ، وهكذا تولدت فتنة النزاع بين الأخوين ، وتغلب المأمون وجنده من الفرس على الأمين وجنده ، وقتل الأمين عام ١٩٨ هـ وتولى المأمون الخلافة . وأحاط به الفرس ، ووزر له وزيره الفارسي الفضل بن سهل ، وكان المأمون ربعة أبيض جميلا ، طويل اللحية رقيقها ، وخطه الشيب قبل الموت .

وقد كانت للفضل ميوله العلوية زيادة على عصبية الفارسية ، فحسب للمأمون أن يولي عهده علي بن موسى الرضي ، فعهد إليه وكتب بذلك كتابا بخطه . قال ابن الطقطقي (١) :

(١) الفخرى ص ١٦٢ طبع الرحمانية بمصر .

« وكان الفضل بن سهل وزير المأمون هو القائم بهذا الامر ،
والمحسق له ، فبايع الناس لعلي بن موسى من بعد المأمون » • وأمر
المأمون الناس بخلع لباس السواد شعار بني العباس ، ولبس
الخضرة شعار العلويين •

ولم يرض المباسيون ببغداد ، وجماعة ممن يذهبون مذهبهم
ويلتفون حولهم من قادة العرب فثاروا ، ونقلوا الخلافة الى
ابراهيم بن المهدي عم المأمون ، وكان رجلا قاضيا وشاعرا ،
فصيحا أدبيا ، مفتيا حاذقا •

وبلغ المأمون ذلك - وكان بخراسان ، فغضب ، ودس للفضل
بن سهل من قتله • ويقال أنه تخلص كذلك من علي الرضا بدس
السم • وربما كان ذلك صحيحا ، أو كان موته من أكل عنب في
وقته مما مهد الطريق لان يستعيد المأمون سيطرته على الدولة ،
ويلقى قبول العباسية والعرب باعادة السواد وولاية العهد
العباسية •

وظلت خلافة المأمون حوالي عشرين عاما ، أمكنه فيها اعادة
الهيبة الى الخلافة والدولة كما كانت في عهد أبيه الرشيد والتي
اهتزت في عهد أخيه الأمين • وذلك لانه كان رجل دولة يحسن
تدبير الامور ، واسع الاطلاع ، جادا ، مفكرا ، حازما به دهاء
السياسة •

قال ابن الملقطى : « وقام المأمون بأعباء الخلافة وتدبير
الملك ، قيام حزماء الملوك وفضلائهم » .

ولم تغل أيامه من بعض الثورات العلوية التي أخدمت ، ومع
قلاقل في الثغور تغلب عليها واستتب له الأمر من بعدها .
وتوفي المأمون سنة ٢١٨ هـ وعمره ثمان وأربعون سنة .

وخلفه أخوه المعتصم ، وقد ثار بعض أنصار المأمون رغبة في
تولية ابنه العباس لكنه أخمد ثورتهم بمبايعة عمه . وواجه
المعتصم في خلافته بعض الفتن والثورات، منها ثورة الخراسانية
في أصفهان وهمدان ، فقصى عليهم ، وفتنة خلق القرآن وحبس
ابن حنبل في بغداد ، والصراع بين أهل السنة والمعتزلة . وثورة
البابكية ، وكانت ثورة عارمة أصيبت لها الرعية بالذعر ،
وأفسدت في الأرض ، فقتلت وشردت ، وقد أحصى عدد القتلى
بأيدى البابكية فكان مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة
إنسان . وتمكن المعتصم من الانتصار على بابك الخزمي وقتله ،
وبذلك أخدمت ثورة البابكية سنة ٢٢٣ هـ . وكان قائده الافشين
صاحب اليد الطولى في القضاء عليه .

وتمرضت بعض ثغور المسلمين مع البيزنطيين للاعتداء مع
قبل الروم ، فكان أن نهض المعتصم الى عمورية سنة ٢٢٥ هـ
وهاجم ثغور الروم وسبي وأحرق . وخاسر الاقشين على الخلافة

مع مازيار لنقل الخلافة الى المعجم ، فصلى المعتصم الاثنين معا
سنة ٢٢٥ هـ أيضا • وحرقا بالنار يمد صلبهما • وفي هذا اليوم
أبو تمام رائيته المشهورة التي يقول فيها :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لائنين ثان اذ هما في الفار

وتوفي المعتصم سنة ٢٢٧ • وقد أقام في الخلافة ثمانى
سنوات وثمانية أشهر • وكان قد استكثر من الترك وتولى الوراق ،
وهو هارون بن المعتصم ، وكان فاضلا عاقلا شاعرا ، استوزر
محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الاديب • وقد كانت في ابن
الزيات قسوة على أهدائه ، وظل طوال خلافة الوراق ، وكان
الوراق يتشبه بالمأمون ، وأحسن الى الطالبين، ولم تقع في أيامه
فتوح كبيرة أو أحداث عظام ومات سنة ٢٣٣ هـ • وحدثت في
أيامه محنة خلق القرآن ، وعوقب من لم يقولوا بخلقه أشد العقاب •

وتولى أخوه المتوكل ، وكان شديد التعصب على آل على ، وفعل
بسبب ذلك ما فعل من الاشياء الغريبة كحرق قبر الحسين ، وكان
عمره يوم تولى ستا وعشرين سنة • فولى أبناءه الثلاثة أقاليم
الخلافة •

وحدثت في خلافته عدة أحداث في البلاد الخاضعة له في
أرمينية ، وبعض الثغور مع الروم •

وقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ بعد خلافة استمرت أربع عشرة
سنة ، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان •

وتولى بعده ابنه المنتصر ، وقد بايع له قتلة أبيه ، ولم تدم

حياته بعده أكثر من ستة شهور وشغب الاتراك من قادة الجند مرة أخرى ، لمبايعة ابن المنتصر وخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد . وبعد وفاته تولى المستمين بعد مشاورة بين الترك بغا الكبير وبغا الصغير وأتاش -

وسيطر الترك على مصر الخلفاء بعد ذلك وظلت في أيديهم مقاليد الامور يولون من يشاءون ويمزلون من أرادوا . قال صاحب تاريخ مختصر الدول : « لما توفى المنتصر اجتمع الموالي في المارونى من الخد وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتاش وتشاوروا ، وكرهوا أن يتولى الخلافة واحد من ولد المتوكل لئلا يقتالهم ، فأجمعوا على المستمين أحمد بن محمد بن المعتصم وبايعوه . وفي سنة ٢٤٩ هـ شغب الجند والشاكرية ببغداد لما رأوا مع استيلاء الترك على الدولة ، يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون مع أحبوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين . فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء والنفي ، وفتحوا السجون ، وأخرجوا من فيها ، وأحرقوا أحد الجسدين ، وقطعوا الآخر واشتهبوا دور أهل اليسار ، وأخرجوا أموالا كثيرة ، ففرقوها فيما نهض إلى حفظ الثغور . وأخرجوا المعتز من الحبس ، وبايعوا له بالخلافة ، وخلصوا المستمين . وكانت أيامه سنتين وتسعة أشهر فر المستمين إلى بغداد سنة ٢٥١ هـ وحوصر بها ، ثم في سنة ٢٥٢ هـ خلع نفسه مع الخلافة فبايع للمعتز ابن المتوكل وخطب للمعتز في بغداد . وقتل المستمين -

ووقع الشر بين العباسيين ، فقتل المعتز المستمين ، وحبس

المؤيد أخاه حتى توفي في السجن وفي سنة ٢٥٥ هـ دخل جند
الترك على المعتز مطالبين بإرزاقيهم ، فقبضوه ، وصلبوه بالشمس
حتى مات ، وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر .

وفي عهد المستعين قتل أحد أئمة العلويين ، وهو أبو الحسين
يحيى بن عمر بن ولد الحسين بن علي رثاه ابن الرومي بقوله :
إمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى : مستقيم وأعوج
يقول فيها :

سلام ، وريحان ، وروح ورحمة عليك ، وممدود من القتل سجع
ولا برج القاع الذي أنت جاره يرفى عليه الإقصوان المبلج

تناول فيها بني العباس بالتجريح .

وخرج في عهد المعتز بالله الصفارية بفارس وهم فرقة من
الخوارج استولت على إقليم فارس ، ولم يستطع الترك مقاومتهم .
وبعد موت المعتز تولى أحد أبناء الواثق وهو عبد الله محمد
بن الواثق ولقب بالمهتدي بالله . يقول ابن الطقطقي : « وكان
المهتدي من أحسن الخلفاء مذهباً ، وأجملهم طريقة وسيرة
وأظهرهم ورعاً ، وأكثرهم عبادة . كان يشتبه بعمر بن
عبد العزيز وكان يجلس للمظالم فيحكم حكماً يرضيه
الناس . وكان يتقلل في مأكوله وملبوسه » .

وكان فيه زهد في الدنيا وانصراف عن مظاهرها ، فأنشج
الملاهي ، وحرم الفناء والشراب وفي أيامه بدأت ثورة الزنج بالكوفة .

وشغب عليه بعض الجند من الترك ، وخلصوه ، ومات في
أيديهم سنة ٢٥٦ هـ . ولم يتم عاماً في خلافته ، وتولى بعده المعتمد
ابن المتوكل . وكان محبوباً ، فأطلقه الاتراك وبأيعسوه . وفي
سنة ٢٦٥ هـ حدث نزاع بينه وأحمد بن طولون في مصر . وكان
أخوه الموفق يمينه في دولته وتولى حرب الزنج . وتوفي المعتمد
والموفق سنة ٢٧٩ هـ . وكان الأمر في معظم دولته للموفق ،
ويقال أنه ضيق عليه في المال ، وحد من مصروفه . وكان
مستضعفاً . يقول ابن الطقطقي : « وكانت دولة المعتمد دولة
عجيبة الوضع - كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في
الخلافة للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمره أمير المؤمنين ،
ولأخيه كلمة الأمر والنهي ، وقبود المسكر ومحاربة الأعداء
ومرايطة الثغور وترتيب الوزراء والأمرام » . وكان المعتمد
مشغولاً عن هذا كله بلذاته » .

وتولى بعد المعتمد المعتضد بن الموفق سنة ٢٧٩ هـ وبمات
إليه خمارويه بن أحمد بن طولون وإلى مصر بالهدايا والألطفات
وزوجه ابنته قطر الندى سنة ٢٨٢ هـ . وفي أيامه ثار الأكراد
والاعراب ، وبنو حمدان بالموصل ، فخرج إليهم وأوقع بهم ، وفي
عصره ظهر أمر القرامطة بالبحرين ، وانتشروا في أطراف
العراق حتى يلفوا الكوفة سنة ٢٨٩ هـ وتوفي في آخر سنة
٢٨٩ هـ . وتولى بعده ابنه المكتفى .

قال صاحب الفخرى : « وكان المعتضد شهماً عاقلاً فاضلاً ،
حمدت سيرته » . ولّى والدنيا خراباً ، والثغور مهيلة ، فقام قياماً

مرضيا حتى عمرت مملكته ، وكثرت الاموال ، وضبطت الثغور ،
وكان قوى السياسة ، شديدا على أهل الفساد - حاسما لمراد أطماع
عساكره عن أذى الرعية ، محسنا الى بنى عمه من آل أبى طالب -
وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرين -

وقد مات وفي الخزائن عشرة آلاف ألف دينار -

وكان المكتفى من أفاضل الخلفاء على ما يذكر ابن الطقطقى ،
وفى عهده قويت شوكة القرامطة ، وتمرضوا لحجاج بيت الله ،
وقد بحث اليهم المكتفى بالجيوش ، وقتل بعض زعمائهم - وثار
القبائل التركمانية فيما وراء النهر ، وقضى فى عهده على الدونه
الطولونية بمصر بمقتل آخر أمرائها وهو هارون بن خمارويه
سنة ٢٩٢ هـ - وحدثت قلائل على الثغور الرومية ، وقد توفى
المكتفى سنة ٢٩٥ هـ -

وتولى المقتدر بعد المكتفى ، ويقولون انه رد للخلافة بهامها ،
ولم يحفظ مال الخلافة على كثرته ، وما كان بين يديه من كنوز
أيائه فأنفقه باسرافه ، وقتل فى أيامه العلاج سنة ٣٠٩ وقوى
نفوذ الحمدانيين أمراء الموصل ، وحدث النزاع بينه وابن المعتز
على الخلافة ، وأمكنه الاحتفاظ بها دونه وقتل ابن المعتز - وكان
القائد المسيطر على دولته مؤنس الخادم ، وقد كانت نهاية المقتدر
على يد أحد أعوانه -

وكان المقتدر آخر الخلفاء العباسيين فى هذا القرن الثالث
واستمرت خلافته حتى عام ٣١٧ هـ -

ويبدو مما عرضنا من أحوال الخلافة ذلك الاضطراب الشديد الذى أصابها ، وكان من أسبابه زوال هيبة الخلفاء بتولى بمضهم صغار السن ، واستكثارهم من الخدم الاتراك والجنود المرتزقة ، وقد بدأ بهذه السنة المعتصم، وكان جند الاتراك وقادتهم من أسباب كثير من الاضطرابات وكانوا يثيرون على الخلفاء ويقتلونهم ، ويشهرون بهم على صورة تسقط من هيبة الخلافة ومكانتها فى نفوس الرعية -

وسما زعزع الخلافة كذلك كثرة الثورات فى أنحاء الدولة الاسلامية فى المشرق بين علوية ، وبابكية ، وصفرية ، وفى سواحل الخليج والبصرة والكوفة بين ثورة الزنج الى ثورات القرامطة - وكان العامة فى بغداد وغيرها من العواصم كثيرا ما يثيرون الشعب ، ويضطهدون بالجند ، كما أن الجنود المرتزقة كثيرا ما طالبوا بأرزاقهم ، وتأمرؤا ضد الخلفاء مع قادتهم وأمرائهم -

وقد انتهز بعض ولاة الاقاليم فرصة ضعف الخلافة ، فأقاموا دولا مستقلة ، أو قطعوا الاموال عن العاصمة ، وخطبوا لانفسهم ، وسكرو النقود بأسمائهم كالطولونيين فى مصر - وقام فى اليمن ومكة بعض الطالبيين -

وقد أدى تغلب العناصر غير العربية من فرس وترك على الخلافة والسلطة الى ثورة العناصر العربية على دولة الخدم

والموالى فى بغداد • وكان من أبرز أمراء العرب الذين خرجوا على الدولة نصر ابن شيث وآل حمدان بالموصل •

وكانت دعوة ابن شيث فى شمالى العراق قائمة على أساس الانتصار للعرب • وكان يقول : « انما حاربت بنى العباس معاماة عن العرب ، لانهم يقومون عليهم العجم » •

وهكذا كان القرن الثالث الهجرى عصر بذر بذور الفتنة التى انتهكت الخلافة العباسية وهدمت أركانها ، وكان القرن الرابع مثمما لهذا القرن الثالث ، ميمثا للاضطراب الشديد فى كل مكان •

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع البغدادي مجتمعا خليطا من أجناس مختلفة بين ترك وعرب وروم وفرس ، ولم تكن السيادة فيه للعرب ، وإن ظلوا يحتفظون لانفسهم بمراكز السيادة والقيادة فيما عدا قيادة المسكر فقد نخلوا عن معظمها للترك • وكانت طبقة القواد من الخدم أمثال بنى ومؤنس وأشباههم • واحتفظ العرب بمراتب الوزارة ، وكانت منهم جماعة من كبار الوزراء أمثال محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبى دؤاد ، وأبى الصقر ابن بلبل • وكثيرا ما يتقدم هؤلاء بالكتابة الى جانب الوزارة ، بل إن الكتابة والوزارة كانتا متلازمتين •

وقد قام المنصر العربي في هذا القرن الثالث بكثير من الثورات في أنحاء الجزيرة العربية والمراق والشام . وأدرك العباسيون الشافريين العرب ، وتقبلهم بين الشيع والاحزاب واختلاف أهوائهم ، فشجعهم ذلك على التمكين ملكهم بغير العرب . وقد سأل عربي بالشام المأمون عن سبب اعتماده على الفرس . قال : « يا أمير المؤمنين أنظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان » - قال المأمون : « أكثرت على يا أبا الشام ، والله ما أتزلت قيسا من ظهور الحيل الا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببني قط ، أما قضاة فانها تنتظر السفيناني وخروجه ، فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطه على الله عز وجل مذ بعث نبيه صلى الله عليه وسلم في مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهم شاريا . أعزب فعل الله بك » .

وكثر الموالي والرفيق من الحروب والتجارة ، وتعددت أجناسهم ، واختلطوا فيما بينهم وامتزجوا بالعرب ، فولد منهم الهجناء ، وكانوا يسمون أبناء الاماء والسراري كذلك يقول أحد الشعراء :

ان أولاد السراري كثروا يارب فينا
وب انخلنى بلادا لا أرى فيها هجينا

وظهر من شعراء هذا العصر والمصر السابق من الهجناء من برع وتفوق في الشعر وبلغ مرتبة المتقدمين كالخريمي ، وأبي

نواس ، وابن الرومي ، كما تولى من غير العرب ، او من الموالي
مراتب الدولة العليا كالكتاية والوزارة .

وعرفت كل جماعة ، واشتهر كل جنس من الاجناس التي
كونت المجتمع المباسي آنذاك بالمهارة في صناعة أو حرفة بعينها ،
فال يونان عرفوا بالحكمة والادب ، والسريان عرفوا بالطب
والنتجيم ، والبط عرفوا بالزراعة ، وعرف الترك بالبصر
بالحرب وآلاتها والهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والخرط
والنجر والتساوير ، واليمن بالتجارة ، وأهل السند بالصيدلة ،
واحتفظ العرب بالاشتغال بالادب والشعر ، وقيافة الاثر وحفظ
الانساب ، واليصر بالخيول والسلاح ، والحفظ لكل مسوع ، فلم
تكن مهمتهم التجارة ولا الزراعة ، لخوفهم من صفار الجزية .

وكان القرن الثالث قمة الحضارة التي بلغتها بغداد ،
وقمة الترف بما صب فيها من الاموال ، وتجمع اليها من أقاليم
الدولة الاسلامية في الشرق والغرب من الخيرات ، وبدت مظاهر
الترف في كل جانب من جوانب الحياة البغدادية . لم تقتصر على
علية القوم ، وسراة الناس بل غلبت كذلك على عامتها ، وانعكس
الترف على طبائعهم ، وعاداتهم ، وطرائق سلوكهم ومعيشتهم .

ومن مظاهر الترف المادية كثرة القصور الفارحة ، التي تأنق
فيها بناتها ، فوشوها بمختلف أنواع الزينة والزخرف ، وزينوها
بأصباغ الذهب والفضة ، وأعلوا في بنائها وأحاطوها بالحدائق ،
وأجروا اليها الانهار ، وحفروا فيها البرك وأحواض المياه وجلبوا
اليها الاسماك بأنواعها بهجة للمتزهين .

ومما جاء من بديع وصف القصور أوصاف البحسرى
للجعفرى ، والكامل من قصور الخلفاء - يقول فى الكامل :

ذمر العمام وقد ترنم فوقه	من منظر خطر التزلة هائل
رفعت لفترق الرياح سموكه	وزهدت عجائب حسنه المتخايل
وكان حيطان الزجاج بجوه	لجج يعجن على جنوب الساحل
وكان تفويف الرغام اذا التقى	تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر	ومسح ، ومقارپ ، ومشاكل
نيسب من الذهب الصقيل سقوفه	نورا يضئ على الظلام العاقل
فترى العيون يعلقن فى نوى رونق	متلهب العالي ، أنيق السافل

وكافت تلك القصور حاقله من الداخل بأنواع الحياة
الزاهرة، تعمرها الجوارى والغلمان بأزيائها الجميلة ، وتتجمل
قاعاتها بالفرش والطنافس ، ويؤمها السادة ، والقادة ، والعرض
والخدم ، وكلهم فى كامل البهجة ، وتمام الرونق -

وتعقد مجالس الغناء ، وتزين الجوارى المغنيات بأبهى
زى ، من ثياب مصبغة وموشاة ، عاكسات على الرموس الممائم
تتدلى منها السنايل الذهبية - وصف أحد مجالس الوراق فقول ان
«أحد الشعراء أدخل الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان
بالوثنى المصنوع بالذهب ، ثم أفضى الى رواق أرضه وحيطانه
ملبسة بمثل ذلك ، واذا بالوائق فى صدره على سرير مرصع
بالجواهر وعليه ثياب متسوجة بالذهب ، والى جانبه فريدة المغنية
عليها مثل ثيابه وفى حجرها عود » -

وقد كانت الجوارى والفلماني زينة قصور الخلافة ، وعلية القوم ، وكن يكسبن الحياة البهجة ، يظرفهن وجمالهن ، وغنائهن •

وتحفل كتب الادب بالحديث عن الجوارى والفلماني ، وأزيائهن وأحاديثهن ، وظرفهن ، وكانت الجوارى والفلماني من لوازم القصور ، ومجالس اللهو والسرور ، واختلفت جنسياتهن ، وعلمن ، وثقفن ، ولقن قول الشعر والغناء • وكانت الواحدة منهن تقوم بما تملك من قدرات في حفظ الشعر والغناء وحسن الحديث والمسامرة •

وكان منهن الهنديات والسنديات والمكيات والمنيات ، والسودانيات ، والحيشيات والتركيات والروميات ، والارمنيات • وأشار الجاحظ في رسالة الجوارى والفلماني الى ميزة كل جنس منهن • وما يتفوق فيه •

وتكاثر اهل السراء بما يملكون من الجوارى والفلماني • ويروى أن المتوكل جمع في قصره أربعة آلاف سريّة من أجناس مختلفة • ودخل أحمد بن صدقة على المأمون في يوم الشماطين وبين يديه عشرون وصيفة جلباء روميّات ، مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في أعتاقهم صلبان الذهب ، وفي أيديهن الخوص والزيتون ، فقال له المأمون : ويلك يا أحمد ! - قد قلت في هؤلاء أبياتا فغنني فيها ثم أنشد :

ظباء كالدنسانير	ملاح في القاصير
جلاهن الشعانير	عنينا في الزنانير
وقد زرفن اصداغنا	كاذناب الزراذير
واقيلن ياوساط	كلوساط الزناير

واشاعت الجوارى جوا من الاناقة ، ودماثة السلوك بين
الناس ، واشتهرت بغداد بالطرف والظرفاء ، وكان من سمات
الظرفاء ، أناقة اللباس وجمال المظهر ، ونظافة الهندام ، وحسن
المعشر ، ورقة السلوك ، ولباقة الحديث - ويؤلف الوشام كتابا
فى سمات الظرفاء يسميه الموشى -

وقد خصت فى بغداد أحياء للخلفاء والامراء وعلية القوم
تقوم بها قصورهم ، وتزدهر حدائقها تطل على دجلة ، فيكون لهم
المراسى ترسو فيها أنواع المراكب كالحراقات وغيرها ، ويتخذون
لها صور الحيوان والطير ، ويمقدون فيها مجالس السمر والغناء
والشراب ، وتمخر بهم فى ليالى بغداد أوفى الاعياد وقد زينت
بمختلف ألوان الزينة -

وتمر مواكب الترف والرفاهية تمخر عباب النهر ، وتتلأأ
أنوارها على مياهه ، وتزدهى القصور حوله مشرقة بقبايها
وأبراجها تعكس صورها على صفحة الماء -

وتملأ شوارع أحياء بغداد المترفة الجوارى ومراكب السادة
بالنقوش - وكانت البغال مراكب مع خيل مطهمة وبغال مزدانة

أصحاب القلم غالباً من الكتاب وأشباههم ، أما الخيل فكانت
مراكب أصحاب السيوف .

تلك حياة أحياء الاغنياء وللفقراء أو الطبقة الوسطى في
بغداد وضواحيها أحياء عامرة بالحياة ، من أشهرها الكرخ
وطبرتاياذ وبنى .

يقول المقدسى : « أعمار موضع بها قطيعة الربيع والكرخ في
الجانب الغربي » . وكانت الكرخ متنزها مشهورا ، يقول على بن
الجهم :

سقى الله باب الكرخ من متنزه	الى قصر وضاح فبركة زلزل
مصاب اذيال القيان ومسرح الـ	حسان ومثوى كل خرق معدل
لو أن امراً القيس بن حجر يعلها	لاقص عن ذكر الدخول فحومل

وسكن الكرخ من المشهورين أبو دلف العجلي أحد ممدوحى أبى
تمام وكثير من شعراء العصر وكانت أسواق الكرخ عامرة بـسختلف
السلع ، وتعمر دكاكيتها بطرائف الثياب ، ويحمل التجار من كل
مكان أجمل ما فى الاقاليم من بضاعة يتفقونها فى مدينة السلام ،
ويحمل تجار الروس فراء الثعالب وغيرها من الجلود الثمينة ،
وتحمل اليها السيوف الهندية من الهند وجرجان . ويحمل اليها
التمر من البصرة .

وتحفل الدروب بأنواع الباعة وصناع الطعام من صانعى
الزلابية ، أو الرقاق ، أو السمك وما اليه . وقد جاء ذكر هذا
كله فى شعر العصر .

وتعددت دور اللهو في أحياء الكرخ وغيرها ، وكان أصحابها مع أهل الذمة والكتابين من اليهود والنصارى ، وتقدم في تلك الدور أنواع الشراب ، وتغنى المغنيات أو المغنون . وتعزف الموسيقى ويؤمها أصحاب الخلاعة واللهو .

وتتجمل بغداد والمواضع العراقية في الأعياد بأبهى زينة ، ويخرج الناس زرافات متجملين وقد أخذ العرب المسلمون عن الفرس بعض أعيادهم كعيد النوروز وهو رأس السنة الفارسية ومعناه اليوم الجديد . وكان الثامن يحتفلون أجمل احتفال ، كذلك احتفلوا بأعياد النصارى ومشاركوهم فيها مثل عيد الشمانين ، وكانوا يخرجون إلى الأديرة خارج المدن ، يمتعون أنفسهم بمناظر النصارى يحملون أغصان النخيل والورود ويسرون في مواكب من وإلى أديرتهم . وكم تغنى الثمراء بهذه الأعياد وتغزلوا بفتيات وفتيان النصارى في كنائسهم وأديرتهم في تلك الأعياد .

وكانوا يهتمون بأعياد الربيع ومواسم الزهور ، ويحتفلون لها أشد احتفال ، فيستقبلون الورد عند بدم تفتحه ، ويحملونه مهنتين به ، وقد شغف المتوكل بالورد ، وكان يحل مجالسه به ويهب الجوائز لمن يبشره بظهوره . وإذا ظهر البنفسج داروا به في الأسواق ، وتجملوا عليه .

ويقول المقدسى : « وفي أخلاقهم وطاء ، وهم أهل الظرف ، غير أن العيارين إذا تحركوا ببغداد هلكوا » . وقد كانت للعيارين

والشطار انتفاضات كثيرة ببغداد ، وظهرت هذه الطبقة فكانت من سمات المجتمع البغدادي ، وهي طبقة تجمع بين سمات (الفتوة) و (البلطجة) لها نظمها وتقاليدها ، ونقودها في الاوساط والبيئات الشعبية ، وجاء ذكرهم كثيرا في الادب شعره ونثره ، وورثت تراثهم وحكاياتهم كذلك عند بعض اصحاب النوادر وفي كتب المحاضرات .

وقد نهضت الموسيقى والغناء نهضة كبرى ، واشتهر جماعة من كبار الموسيقيين والمغني والقيان ، ومن أشهرهم عريب ، وقد بلغ ما صنعت من الغناء ألف صوت جعلته في دقاتها وصحفها .

الحياة الفكرية والثقافية

جئت ببغداد بكونها عاصمة للدولة خصائص كثيرة من العواصم الاقليمية ، فاستقطبت علماءها ومفكرها ، وصناعها ، وأدباءها . وكان موقع بغداد على نهر دجلة أقرب الى التأثير الفارسي . وقد كثر الفرس ومن ينتمى اليهم من الموالي . أو المولدين في المجتمع البغدادي ، وظهرت آثار الحضارة الفارسية غالبية ، ومناهضة للحضارة العربية ، وامتزجت الحضارتان في بوتقة الاسلام لتظهر منهما حضارة اسلامية مطعمة بعناصر أخرى يونانية وسريانية وغيرها .

وفي حديثنا عن مصرى المراق الكبيرين البصرة والكوفة ، وما طبع كلا منهما من خصائص تميزه عن الآخر ، وقفنا على دور

البصرة فى تنويع الثقافة العربية ، واثراء الفكر الاسلامى بأنواع
من الثقافات المختلفة نتيجة تنوع عناصر السكان بالبصرة ، وكونها
على شط العرب شخرا يفد اليه الناس من كل مكان - وقد كان
مقابلا لها اقليم الاهواز الفارسى ، وقد ورثت البصرة ثقافة
وفكر يونانيا مما خلفه اليونانيون فى مستعمراتهم الشرقية ،
وتوارثته الاجيال من سكان البلاد ، والنصارى من اهل العراق
والنساطرة وغيرهم ، فغلبت عليها الثقافة اليونانية ، وأثرت
الفلسفة والمنطق على علمائها ونتاجهم العلمى فى جوانبه المختلفة
بين الدراسات اللغوية والنحوية ، والعقلية ، والمقدية - ونشأت
فى البصرة أول مدرسة فكرية اسلامية تأخذ بالفلسفة والمنطق ،
وشرائع العقل فى بحوثها ومناظراتها تلك هى مدرسة المعتزلة ،
أو جماعة المعتزلة ، أو فرقة المعتزلة كما تسمى أحيانا فى كتب
التراث -

كذلك ظهر الاتجاه التقنيى فى الدرس اللغوى ، ونشأت
مدرسة القياس البصرية فى النحو يتزعمها سيبويه صاحب
« الكتاب » المشهور - وظهر فى الادب الاتجاه الواقعى الاجتماعى ،
الذى يعرض لصور الحياة الجارية ، كما ظهرت الاتجاهات
المتحررة التى تدعو الى التحرر من القيود والقيم التقليدية
والمتوارثة ، وقد عرفت هذه الاتجاهات بالزندقة سواء أكانت زندقة
فكرية أو اجتماعية ، وكان أثرها على الادب واضحا فيما عرف
بالمجون أو باتجاه جماعة الزنادقة ، أو عصابة المجان - وقد بدأ
هذا الاتجاه عند بشار بن برد ، ومضى فيه فرقة من شعراء

البصرة أمثال مطيع بن اياس ، ويعينى بن زياد ، وأبى نواس ،
ووالبة بن الحباب - وكانت تتأبها في الشعر الدعوة الى ترك بعض
التقاليد في بناء القصيدة كالمقدمة والوقوف على الاطلاق ، ودكر
الرحلة والراحلة - والاستعاضة عنها بمقدمات مناسبة للمصر
كالفزل المصري ، أو ذكر النمر ، ووصفها أو البدء مباشرة
بموضوع القصيدة -

وكان شعراء الفرس أول من دعا الى هذا الاتجاه ، وارتبطت
دعوتهم بالشعوية ، وهي الحركة المعادية للحرب -

وصاحب هذا كذلك الاتجاه الى الصنعة ، والبديع ، والجدير
بالملاحظة أن رواد شعراء الصنعة جميعا كانوا بصريين ، فبشار
وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد ، والعتابي كل هؤلاء كانوا من
البصرة ، وكلهم كانوا ممن يجمعون الى الشعر العلم ، بل كان
يقال ان الشعر أقل بضاعتهم - واذا كان لهذا دلالة ، فان معنى
مصاحبة اتجاه البديع للعلم ، هو أن الاهتمام بالعلم ، وتحكيم
العقل ، والاخذ به في تثقيف الشعر والصنعة البديعية كان ظاهرة
بصرية - وهو نتاج لتلك البيئة العلمية الآخذة بمقاييس العقل
والاعتماد عليه -

كذلك كانت الكناية والخطابة تأخذ بمقاييس المنطق والعقل ،
ولم تعد الخطابة مجرد كلام يلقي ، ، عماده الزخرف ، والسجع ،
وجمال العبارة ورصانة المنطق وفصاحة اللفظ بل كان عمادها

الاقتناع العقلي الى جانب الاقتناع الحسى أو العاطفى ، ومن هنا ساد أسلوب الجدل والحجاج .

وكان المتمثلة قادة هذا الاتجاه الجديد فى الخطابة ومنهم واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد - وأشار بشار بن برد الى قوة عارضة واصل فى الخطب - وعلموا ناشئتهم الجدل والحجاج والاخذ بأسباب المنطق والفلسفة فى الخطابة والجدل ليواجهوا أعداء الاسلام والمعارضين ممن يوجهون مطاعنهم قياسا على حجج العقل .

وشاع اتجاه الواقع والعقل فى أدب الادباء ، وبدأت الكتابة التى تمرض لمشكلات الحياة والمجتمع ومحاولة تحليلها وتعليلها بناء على الاسباب والنتائج ، والتجربة العملية والملاحظة . وظهرت آثار هذا كله فى مؤلفات كاتب بصرى مشهور هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

تلك اذا كانت حال البصرة وآثارها على الفكر العربى والاسلامى ، ونتائجه على الادب البصرى فى القرن الماضى الثانى الهجرى ، وانتقلت الثقافة البصرية والفكر البصرى والادب البصرى الى بغداد العاصمة .

وكانت الكوفة بمكوناتها الجغرافية والتاريخية مختلفة عن البصرة ، فقد آثرت بيتتها وموقعها على حافة الصحراء ، على عزلتها ، فلم تكن مدينة مفتوحة كالבصرة ، واحاطت بها الاديعة المسيحية التى حافظت على الموروث الدينى والفكرى المسيحى الى

جانب مخزون ثقافى وعلمى مما يحتفظ به رهبان الدير وقساوسته ، وكان هذا كله ذا أثر على فكر الكوفة فنمت بها الاتجاهات الواقية التى تعتزل الحياة بمظاهرها المترفة وترى السعادة فى التأمل والحياة الاخرى حياة الروح لا حياة الجسد ، وابتعدت الكوفة لهذا عن الاخذ بمنطق العقل وقياسه الصارم ، وحكمت الفلسفات الغيبية ، واتجهت الى الباطنية ، والغيبيات دون الواقع والتجربة ، والتسليم بالموروثات دون الاجتهاد ، والتلقائية والفطرية دون الصنعة والتكلف .

ومن هنا بدت فى ثقافتها العربية تأخذ بالسماع ، والنقل عن العرب ، والتسليم بما يروونه عن الثقات فى اللغة والنحو ، واعتبار السماع من العرب هو الاصل ، على غير حال البصريين الذى جعلوا القياس هو الاساس والخروج على القاعدة حتى لو كان صحيحا ساعا هو الشاذ . وكان التقنين عماد العلم البصرى ، على غير الحال لدى الكوفيين الذى سلموا بالنقل .

وقد كان لهذا اثره فى علوم التفسير ، والفقه ، والمقائيد والفرق المذهبية ، فلم يظهر الاجتهاد العقلى واضحا فى علم الكوفة وتفسير مفسريها بل مالوا الى التفسير المأثور أو الغيبى والعاطفى ، وشاعت عقائد العلوية الباطنية بالكوفة ، ووجدت فى بيئتها مرتعا خصيا على مدى القرنين الثانى والثالث ، وحتى نهاية القرن الرابع -

وفى الادب كانت الاتجاهات العلوية والشيوعية غالبية على

الكوفة ، وكان الطبع وعدم التكلف صمة الشعوب البارزة ، كان منها السيد الحيرى ، وأبو العتاهية ، واشتهر تيار الزهد واختلف بموروثها الثقافى والمقدى المسيحى وغيره .

وانتقلت الثقافة الكوفية كذلك بمقوماتها الى بغداد .

وكانت بغداد باعتبارها العاصمة الجديدة للدولة العباسية تنشط لنفسها اتجاها يجمع بين كل الثقافات وتصب فيها كل التيارات - وقد بدأ القرن الثالث فى بغداد بعصر المأمون ، وكان رجلا طليعة يحب العلماء والمفكرين والادباء والمترجمين ويشجعهم .

وقد كان المنصور جده المأمون كلغا يعلم الفلسفة والنجوم فلما أفضت الخلافة الى المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه ، وداخل ملوك الروم ، وسألهم صنعه بما لديهم من كتب الفلسفة ، فبعثوا اليه منها ما حضروهم ، فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلفهم احكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن - ثم حرض الناس على قراءتها ورضيهم فى تعليمها وتعلمها » (١) .

يقول صاحب تاريخ مختصر الدول :

« فكان يخلو بالحكماء ، ويأتس بمناظراتهم ، ويلتذ بمذاكراتهم علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ،

(١) تاريخ مختصر الدول ، طبع بيروت ، ص ١٢٦ .

ونخبته من عباده ، لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس
الناطقة « (١) » .

واشتهر جماعة من علماء المنجمين ، وألغوا الكتب والازياج ،
واشتهر من بينهم آل نوبخت ، ومحمد بن موسى الخوارزمي .
وأقيمت المراصد ببغداد ودمشق لرصد النجوم .

وكان من الحكماء يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ،
كان أميناً على ترجمة الكتب الحكيمية (الفلسفية) ، وكانت
الفلسفة أغلب عليه مع الطب (٢) .

ومن الاطباء في عصر المأمون سهل بن سَابُور ويعرف
بالكوسج ، ويوحنا بن ماسويه ، وجيورجيس بن بنغيشوع .

وقد شجع المأمون المعتزلة وأصحاب الكلام وتبعه في ذلك
خلفاؤه المعتصم والواثق ، وحدثت في عصر الواثق محنة خلق
القرآن ، وحبس أحمد بن حنبل ، وجاء المتوكل فأطلق ابن حنبل
من حبسه ووصله وأمر بترك الجدل في القرآن ، وأن القسمة
بريئة ممن يقول بخلق القرآن .

وتعلق شباب المثقفين ، وناشئة الادباء بالثقافات الواقعة
من يونانية وفارسية وغيرها ، وآخذوا بأسباب المنطق والفلسفة ،
الى تعليمها ، وتراخوا في تعلم العربية وعلومها - وقد لاحظ ذلك

(١) تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

عليهم ابن قتيبة فسمى هذا الاتجاه واسف له في مقدمة كتاب أدب
الكاتب - قال :

« وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب
وينظر في شيء من القضاء وحد المتطق ثم يعترض على كتاب الله
بالطعن ، وهو لا يعرف معناه . وعلى حديث رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالتكذيب وهو لا يدري من نقله . قد رضى عوضاً من
الله ومما عنده بأن يقال : فلان لطيف . وفلان دقيق النظر ،
ينذهب الى أن لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به
علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغشاء ، والفمر ، وهو لعمر
الله بهذه الصفات أولى ، وهى به أليق ، لانه جهل ، وظن أن قد
علم ، فهاتان جهالتان . ولان هؤلاء جهلوا ، وعلموا أنهم يجهلون ،
ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الاسلام برأيه نظر من جهة
النظر لأحياء الله بنور الهدى ، وبلغ اليقين . لكنه طال عليه أن
ينتظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم
وصحابته . وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك ،
وعاداه ، وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل
فيه المناظرون له ترجمة تروق يلا معنى ، واسم يهول بلا جسم .
فاذا سمع الفمر والحدث الفر قوله الكون والفساد وسمع الكيان ،
والاسماء المفردة ، والكيفية والكمية ، والزمان والدليل ،
والاخبار المؤلفة راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الالقاب كل
فائدة ، وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يفز منها بطائل ، انما هو
الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه » -

ثم يقول : « ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والتحوّل عند نفسه من اليكّم ، أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب » .

وقد دافع ابن قتيبة في هذا الحديث عن الثقافة العربية الإسلامية ضد تلك الاتجاهات اليونانية الممثلة في علوم الطبيعة والحكمة والفلسفة التي استهوت شباب عصره .

وكان لهذا الصراع الفكري والعقدي بين الثقافات المختلفة يمضها وبمض ، وبينها والثقافة العربية الإسلامية أثر واضح على الأدب شعره ونثره . وقد شبه الدكتور طه حسين الصراع بين الثقافتين الفارسية واليونانية ، في عصر المأمون وما بعده بالصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجلوسكسونية في عصرنا الحديث .

وقد ترجم في هذه المرحلة من كتب العلوم والآداب عن الفارسية واليونانية ، وكان قد ترجم قبل كتب في هذا الميدان على أيدي ابن المقفع ككليلة ودمنة ، وقد نظمها إيمان بن عبد الحميد شعرا ، كما ترجمت بعض كتب أرسطو ككتاب الحيوان ، وحد المنطق ، « والشعر » - وكان لكتاب الشعر الذي عرفه العلماء في القرن الثالث هو وكتاب الخطابة أثرهما في البلاغة وعلوم النقد منذ هذا القرن . وربما تأثر غير واحد بهما من أمثال الجاحظ وابن طباطبا وقدامة بن جعفر .

ويرجع بعض الباحثين آثار هذين العاملين الخطابة والشعر الى ما قبل ذلك . وعلى أية حال فقد ساعد هذان الكتابان وغيرهما على تكوين مفهوم عام للحدود التعبيرية أو لفنون التعبير وصيـور الكلام . ويقال ان حدود قدامة بن جعفر وتصوره انما للشعر مع خلال تقسيماته يرجع الفضل فيه الى أرسطو ، لكن كتاب الشعر لم يبرز في دراسات مباشرة ، ولم يشر اليه علماء المسلمين صراحة الا في القرن الرابع للهجرة وما بعده في ترجمات عربية أو تعريفات وتطبيقات ومقارنات أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد من فلاسفة المسلمين ومفكريهم .

وقد أثرت المذاهب الفكرية والعقدية في الشعر والكتابة ، فكان من الشعراء والكتاب من عبروا عن تيارات فكرية أو عقدية بعينها، وكانوا لسانها الناطق من أمثال علي بن الجهم الذي كان شاعر أهل السنة ، ودعبل الذي كان لسان الشيعة والعلوية ، ولم يقف غيرهما من الشعراء جامدين حيال تلك التيارات ، بل نجدها قد تسللت الى أشعار بعضهم بصورة أو أخرى كالبحثري وابن الرومي .

وكان من الكتاب والمفكرين من أهل الكلام والاعتزال أمثال بشر بن المتمر ، والنظام وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وابن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . كذلك كان من المنتصرين للسنة والعرب من الشعراء والكتاب أمثال البحتري وابن قتيبة .

وقد كان اليعقوبى يكره المناطقه ، وادخل المعلوم العقلية
والفلسفية الى الشعر ، فقال :

كلتمونا حدود منطقكم والشعر يفنى عن صدقه كذبه
ما كان ذو القروح يلهج بالثبسط ما أصله وما سببه

ولكن المنطق وعلوم الفلسفة والكلام أدت خدمات جليلة
للادب عامة ، وفنى الكتابة والشعر خاصة ، ذلك أن الخطب
والرسائل اتخذت سمات معينة ، وصارت لها مقدمات ونتائج ،
ويؤخذ فيها بنظام خاص تقدم فيه بين يدي الموضوعات استهلاكات
أو افتتاحيات مناسبة بها تتم عليها أو تمهد لها ، ثم بسطت
الموضوعات بسطا وقسمت أقساما ، تسلسلت فيها معانيها بعضها
تلو بعض ، ويأخذ احدهما بوثاق الآخر ويؤدى أولها الى تاليها ،
ثم ختمت بنواتيم مجملية للقول كله ، وموجزة لنقاطه وموضوعاته .

وبنى الشعر بناء الرسائل ، ولم يعد أبياتا مهمة ولا سطورا
مفرقة تجمع بينها القافية ، بل ظهرت له وحدة موضوعية :
وبنائية متكاملة ، فى المعانى والالفاظ ، يتولد بعضها من بعض ،
ويؤدى بعضها الى بعض حتى نهاية القصيدة .

وقد نهج هذا النهج وأبدعه ، وكان علما فيه لا يبارى ابن
الرومى ، وهو المبدع حقا فى بناء القصيدة ونهجها ، وطريقة
تناول معانيها . وإذا كان أبو تمام قد ابتدع طريقة التضاد
والتقابل واستخدمها فنا تعبيرا فى شعره حتى غلب عليه ،

وأغرق في تطويع البديع لأفكاره ومعانيه ، فإن ابن الرومي قد
امتاز بالبناء والتصميم المتماسك لقصيدته .

وهكذا ، أضفت الثقافات المتنوعة على الأدب في هذا القرن
الثالث حيوية، وعمقت معانيه ووسعت جوانبه ، ولم يقتصر
تناول الشعراء على المعانى التقليدية المتداولة في الشعر القديم ،
بل جدت معان أخرى مستمدة من تلك الثقافات المتنوعة ،
واعتمد بعض الشعراء على المعانى العقلية العميقة المعتمدة على
المعرفة ، ولم يكتفوا بالمعانى الظاهرية المطروقة .

وغنيت اللغة بزيادة اللفظ الدخيل والمعرب من أصول
غير عربية فارسية ويونانية وسريانية ، بعضه من مصطلح العلوم
والحضارة ، وأسماء الأشياء من منتجات تلك الحضارات التي
امتزجت بالعربية مادية كانت أو معنوية - وبعضه من اللفظ
الجارى فى الحياة العادية لاختلاط تلك العناصر الفارسية
واليونانية والتركية والنبطية بالعنصر العربى ، وتداخلهم فيهم،
فغلب على لغة الكلام والتفاهم كثير منها ، ونقلها الكتاب فيما
كتبوا من نواذر وحكايات ، وفيما صوروا مع حياة المجتمع ، أو
تسربت تلك الالفاظ عن طريق أصحابها مع ألفوا باللغة
العربية .

الشعر والشعراء

الاتجاهات الفنية فى الشعر

فى القرن الثالث الهجرى نمت الاتجاهات الفنية الجديدة التى عرفها الشعر العربى فى القرن الثانى وهى من حيث الموضوعات شعر الزهد ، وشعر الفلسفة ، والحكمة ، وشعر القصص العلمى ، والشعر المتعلق بصور الحضارة والحياة المدنية ، والشعر الشعبى .

واستمرت الموضوعات التقليدية كالمدح والهجاء والفخر والغزل والوصف والاعتذار، الى جانب الشعر السياسى، الذى ظهرت بشائره منذ صدور الاسلام ، وشعر الفرق والشعر الدينى التعليمى . والمثنوى فى منظومات العلوم .

ومع التاحية الفنية فقد دخل القصيدة تعديلات من حيث الشكل والبناء ، فلم تعد المقدمة التقليدية على صورتها المتوارثة على ما كان الحال عليه فى شعر القرن الثانى ، بل أخذت طابعا آخر فيه تغير ، وتشكيل جديد مغاير لما كانت عليه المقدمة الطللية أو الغزلية عند الشعراء المقلدين . فصارت المقدمة صورة أو رمزا نمطيا ، لا يفصل فيه الشاعر ، ولا يطول نفسه بل أصبحت كالحلية الجميلة الغالية يعراقتها تعلق على رأس القصيدة ، وقد رأى ابن قتيبة أن تظل المقدمة كما هى دون تعديل بالوقوف على الاطلال ، وان لم يكن ثمة اطلال فى حياة

الحضر في بغداد ، ولم يجر أن يستبدل بها الشعراء الوقوف على
البساتين الناضرة والديار العامرة ، مجارة للحياة الجديدة ، لتظل
سمة عزيزة ، هي رمز ، وحلية عريقة أكثر منها لازمة لموضوع
الشاعر أو غرضه .

وقد أعرض عنها كثير من شعراء العصر بالدخول مباشرة الى
موضوعاتهم أو البدء بالفزول والوصف ووصف الطبيعة خاصة أو
ذكر مجالس الخمر والغناء ، أو ضمهما معا ، وربما مزج الشاعر
العناصر الثلاثة : الطبيعة ، ووصف مجالس الخمر والغناء ،
والفزول . وقد أصبح هذا المزج سمة لكثير من مطالع القصائد
من بعد في القرنين الرابع والخامس وما بعدهما . وتمسك
الاندلسيون بذلك وآلحوا عليه في شعر القرن الرابع وما بعده .

ومن حيث البناء ، فقد حرص ابن الرومي على بناء قصيدته
بناء واحدا متكاملا ومتصلا لبناته ، فماد للقصيدة تلك الوحدة
المتصلة في الشكل والمضمون ، ولم ينفرد ابن الرومي وحده بهذا
العمل ، بل شاركه فيه غيره من معاصريه كأبي تمام والبحتري ،
وان كانت هذه الظاهرة غير مطردة الا عند ابن الرومي .

ومال الشعراء الى الاكثار من استخدام البحور السهلة
الخفيفة ، ومجزوءات البحور ، كما نظم بعضهم المسمطات ،
والخمسات ، والثنوي ، أو المزدوج ، ومن أشهر مزدوجات هذا
القرن الثالث مزدوجة ابن الممتز التاريخية التي يقول فيها :

وكل يوم ملك مقبول . او خائف مروع ذليل
وقد تأثر أسلوب الشعر بحياة الترف والفناء ، غرق ، وسهلت
الفاظه ، وكان موضوعا للسمر في مجالس الخلفاء والظرفاء ،
ومادة للتسلية والمتعة ، يتناشده القوم في ساعات الصفو وفي
مجالس اللهو . وكانت بعض المغنيات تصوغ الشعر على الالحن
كمر يب جارية المأمون والواثق وأشدت فضل بن حميد معاتبه في
مجلس من تلك المجالس شعرا رقيقا فيه تلك الصفات التي ذكرنا .
قالت :

يا من اطلت تفرسي في وجهه وتلفسي
اقربيك من متدلل يزهو بقتل الانفس
هبنسي اسان وما اسات ، بل اقول انا المني
احلفتني ان لا اسارق نظرة في مجلس
فتظنن نظرة مخطيء انبعثها بتفرس
ونسيت انسي قد حلفت ، فما عقوبة من نسي ؟

فقام سيدها وقيل رأسها ، وغنت عريب في هذا الشعر .

وظهر في هذا القرن الثالث اتجاهان واضعان للشعر ، اتجاه
اصحاب البديع ، او الصنعة ، واتجاه طريقة العرب - ووصف
اصحاب البديع بانهم خارجون على عمود الشعر العربي وطريقة
العرب في قول الشعر وذلك أنهم لم يتبعوا القدماء في التعبير عن
معانيهم ، او في صياغة تشبيهاتهم واستعاراتهم ، وفي بناء
قصائدهم ، ومجاراتهم في الوقوف على الاطلال وذكر النوى
والاحجار .

وحمل لواء هذا الاتجاه الديدى فى القرن الثالث أبى تمام
حبىب بن أوس الطائى ، وقد تقدم خطوات فىه على ما تركه عليه
مسلم بن الوليد فى القرن الماضى ، كان مسلم قد وضع أسس
مذهب الديدى ومكن له وكان يبنى شعره بناء معكما ، يعنى فى
بصياغة ألفاظه ، ورسائتها ، وجمالها بما يوفره من جناسات
صوتية بين الكلمات والحروف ، أو الايقاعات الداخلية فى
الآيات ، وما يحدثه من قواف جزئية متتابعة ، وما يسوقه من
صور متعاقبة فى تشبيهات أو استعارات . وشأله قوله :

لا تدع بى الشوق أنى غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعايب

وقوله :

موف على صبح فى يوم ندى ربيع كأنه أمل يسمى أن أجل

وكقوله :

أحى البكا ليلة حتى اذا تلفت	نفس الدجى واستثار الصبح كالوقد
غانى الشمول فعاظته ساندوها	طيفا به ألفت روحا أنى جسد
كانها وسنان الماء يقتلها	عقبة ضعكت من عارض برى
حتى اذا الراح غامت عنه فترتها	ربيع الكرى واقامت كسرة الخلد

وجاء أبى تمام قلم يتوقف عند احكام الصنعة ، وملاحظة
الجناس فى الجرس اللفظى وتوفير الاستعارات والتشبيهات فى
البناء المعنوى ، بل أدخل الطباق والمقابلة بصورة ملحوظة ،
وحرص على تجاوز الاضداد ، والاغراب فى المعانى ، واقتناص
الغريب البعيد معتمدا على التلميح والرمز أحيانا ، ومستعينا

بالإشارة أحيانا ، ومستخدما غرائب التشبيهات وبعيد الاستعارات
مما لم يؤلف في أقوال العرب أو التراث الشعري القديم ،
واستخدام مقلوب التشبيه والاستعارة ، وإقامة أود المعانى
بالحجاج العقل ، ودعمه بالمثل ، كل هذا كان من صنعة أبي تمام
أو تصنيعه ، ونشير الى أمثلة من مذهبه فى أبيات لنفصل بعدها
عند الحديث عنه مفردا ، يقول :

غلت تستجير اللمع خوف نوى غد	وعاد قتادا عندها كل مرقد
وانقذها من غمرة الموت انه	صلود فراق لا صلود تعمد
فاجرى لها الاشفاق نعا موردا	من الدم يجرى فوق خد مورد
هى البدر يغنيها تود وجهها	الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكننى لم احو وفرا مجمعا	فقرت به الا بشمل مبدد
ولم تعطنى الايام نوما مسكنا	الذ به الا بنوم مشرد
وطول مقام المرء فى العى مخلق	لنبياجتبه ، فاغترب تتجند
فالى رأيت الشمس زينت محبة	الى الناس اذ ليست عليهم بمرمد

ففى هذه الابيات معظم خصائص اتجاه أبى تمام وصنعيته ،
وقد قدمناها ، ففيها المقابلات والطباق ، وتجاور الاضداد ،
والصور الغريبة ، والمعانى العقلية المدعمة بالدليل المادى ،
والحسى كما فى البيتين الآخرين ، وفى قوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه	مثلا شرودا فى الندى واليلس
قائه فتد ضرب الأقل لنوره	مثلا من المشكاة والنبراس

وقد أدى هذا الاتجاه عند أبى تمام الى معارضته ، وكان على
رأس معارضيه من لم يكن هواهم مع الثقافات الواقعة ، ممن كان
حرصهم على التراث العربى وتقاليده مذهبا يدينون به ودينا .

وأيده جماعات الكتاب ، والمحدثون من الأدباء ، ومن يحيلون الى
فلسفى الكلام .

وفى مقابلة مذهب أبى تمام فى البديع ، والخروج على
طريقة العرب أو عمود الشعر كما يقول معارضوه كان الاتجاه
الآخر المحافظ التقليدى ، ويتسم بسمات اعتبروها عناصر لعمود
الشعر ، منها البيان والوضوح وسهولة المطلب ، وقرب المائى ،
والبعد عن الغامض والغريب وفلسفى القول ، والاعتدال فى
استخدام محسنات اللفظ ، ومراعاة الألف ، والمناسبة فى
التشبيهات والاستعارات . وكان على رأس هذا الاتجاه أبو عباد
البحترى .

وقد غلبت على البحترى سهولة مخارج اللفظ وحسن الديباجة ،
والرونق ، وكثرة الماء على حد تعبير العلماء بالشعر . ومن ذلك
قوله :

طربت بذى الأراك وشوقتنى	طوالع من سنا يروق كليل
وذكرنيك ، والذكرى عناء	مشابه فيك بينة الشكول
نسيم الروع فى ربح شمال	وصوب المزن فى راح شمول
عذيرى من عنول فيك يلعى	على ، الا عذيرى من عنول

ويتنظم المعنى واللفظ المتداول نظاماً حلوا ، ويعرضه عرضاً جميلاً
فيقول متفوّلاً :

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامتها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وجمال العرض حسنة البحتري ، وسيئة أبي تمام سوء عرضه أحيانا ، واعتماده الطبع ، وتعسف اللفظ ، ومحاولته التعبير عن معناه على حساب الفاظه ، ومن هنا كان استواء شعر البحتري واختلاف شعر أبي تمام .

والى جانب أبي تمام والبحتري عرف جماعة من كبار الشعراء كانت لهم اتجاهاتهم الفنية لكنهم لم يختلفوا فى مناهجهم اختلاف هذين الشاعرين على تقارب ما بينهما فى الوطن والعلاقة الخاصة بين أستاذ وتلميذ .

وكان بين أولئك الشعراء من توسط بين القديم والجديد ، كملى بن الجهم ، ودعبل بن علي الخزاعي ومنهم من مال الى الجديد كابن الرومي وابن المعتز ، وان اختلفا فيما بينهما بعد ذلك اختلفا بينا فكان تجديد ابن الرومي مغايرا لتجديد ابن المعتز ، كان جديد ابن الرومي فى بناء القصيدة ، وصوره وتشبيهاته الحية الواقعية ، ومعانيه المولدة ، واستخداماته للفظ استخدامات بارعة تواكب معانيه المولدة ، وتتقلب معها .

أما جديد ابن المعتز فكان قائما على رشاقة التعبير ، وأناقة التشبيه ، واختياره للصور البراقة الزاهية ، وتأثر ابن المعتز لاشك ببيئة الملكية فى مزاجه ، وخيالاته ، فهو ينسج شعره نسج الحاذق بخيوط الذهب والفضة ، ويضفى عليها بهاء النعمة ، ورويق الحياة المترفة .

وقد حفلت أشعار ابن المعتز بصور القصور ، ومجالس
الغناء ، وآلات الطرب ، وأدوات الذهب والفضة ، وفرش الحرير ،
ومتناقش الوشى المرقوم .

ويلحق بشعر ابن المعتز شعر جماعات الوزراء الكتاب ومن
فى طبقتهم ممن يعايشون الملوك والخلقاء ، ويقلدونهم فى
العيش ، والسلوك . وقد شاع هذا اللون من الشعر أى شعر
الكتاب ولحقت به سمات بعينها ، أشهرها أنه بلفظ سهل أنيق ،
تتناول بعض المعانى الجارية ، على مثل قول أحمد بن يوسف
متفzلا :

قلبى يعبك يا منى	قلبى ويبغض من يعبك
لاكون فردا فى هواك	فليت شعرى كيف قلبك

وكتول سليمان بن وهب :

نوائب الدهر أدبتنى	وانما يؤمق الأدب
قد ذقت حلوا وذقت مرا	كذلك عيش الفتى ضروب
ما مر يؤس ولا تعيسم	الا ولى منهما نصيب

وأكثر شعر الكتاب مقطعات ، وقل ما يكون منه قصائد

مطلولات -

وعرض ابن المعتز فى كتاب طبقات شعراء المحدثين لبعض
الاتجاهات المعاصرة فى الشعر وأشهر الشعراء . فذكر أصحاب
البديع ، وذكر المطبوعين مع الشعراء ، ومن بينهم ربعة الرقى ،

واختارا كثيرا من شعره . وقال عنه : « وما أجد أطبع ولا أصح
غزلا من ربيعة وهو القائل :

أنا للرحمن عاص لجنوني بخصاص

فهذا كما نرى أسلس من الماء ، وأحلى من الشهد » . ويقول
عن شعر آخر له : « وهذا أطبع ما يكون من الشعر ، وأسهل ما
يكون من الكلام » . ويذكر منهم أبا عبيدة المهلبى .

وروى فى كتب الادب مصطلعان يعبران عن شعراء العصر
هما مصطلحا المحدث والمولد ويتخلط الناس بينهما الا أن بعض
العلماء يفرقون بين ثلاثة مصطلحات فى طبقات الشعراء ممن نجم
بعد عصر بنى أمية المولى ، والمولد ، والمحدث .

ويجمع ابن رشيق فى العمدة بين المولدين والمحدثين (١) ،
وان كان ترتيبه يجعل المولدين طبقة سابقة على المحدثين أحيانا ،
وأحيانا أخرى يجعل المحدثين مقدمين على المولدين . فيجعل أبا
نواس من المحدثين . ويمود ليرى أبا نواس وطبقته من المولدين ،
ثم يرى من تلاهم من المحدثين .

ويذكر ابن جنى طبقة يشار وأبى نواس ومن جاء بعدهم
فيصفهم بالمولدين . ويقول : « المولدون يستشهد بهم فى الممانى ،
كما يستشهد بالقدماء فى الالفاظ » .

وقد نص صاحب جواهر الكنز على الفرق بين المولدين

(١) المصحة ص ١٠٠ - ١٠١ .

والمحدثين ، وقدم المولدين وآخر المحدثين ، ولم يسبقه أحد الى هذا التعديد ، فقد اضطرب بينهما ابن رشيق .

قال ابن الاثير المجلبي في حديثه عن طبقات الشعراء (١)
يعد الامويين :

« ثم من بعدهم شعراء الدولة العباسية مثل سديف ، ورؤبة بن العجاج ، ومن يجرى مجراهم ، ثم بعد هذه الطبقة طبقة المولدين من الشعراء ، وسمى الشاعر منهم مولدا لانه كان عربيا غير محض ، فكان شعرهم غير شعر العرب العاربة ، ولا يستشهد بأشعارهم في اللغة وخالطوا المعجم ، فصاروا مولدين بهذا الاعتبار مثل بشار بن برد وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد صريع الغواني وسلم الخاسر .

ثم يعد طبقة المولدين طبقة المحدثين ، وهم الذين حدثوا عن المولدين كأيى تمام واليحقري وعلي بن الجهم وعلي بن المعبس ومن يجرى مجراهم .

فكان مصطلح الشعراء المحدثين قد استقر على شعراء القرن الثالث الهجرى - وربما أخذ المتأخرون هذا المصطلح من كلام ابن قتيبة عن شعراء المحدثين في كتاب الشعر والشعراء ، وكتاب ابن الممتر عن كتاب طبقات شعراء المحدثين .

(١) جوهر الكثر ص ٤٤٥ - تحقيق د. محمد زغلول سلام طبع منشأة المعارف .

وقد سمي صاحب الجواهر شعراء القسرون الرابع بمصطلح آخر هو طيقة « الطراز المذهب » (١) .

وقد طغى أبو تمام والبحتري على شعراء العصر فأهمل ذكر كثير منهم . يقول ابن رشيقي : « ان حبيبا والبحتري قد أهملوا خمسمائة شاعر كلهم مجيد » ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي ، وابن المعتز ، قطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن (ابن هانيء) في المولدين ، وأمريء القيس في القدماء » (٢) .

ويقول : « وأما حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي فطيقة متداركة قد تلاحظوا ، وغطوا على من سواهم حتى نسي معهم بقية من أدرك أبا نواس كإبن المعتزل وهو من فحول المحدثين وصدورهم المعدودين ، غمره حبيب ذكره واشتهاره ، وكأبي هفان أيضا » أدرك أبا نواس ، ولحق البحتري فستره ، وكذلك الجماذ » (٣) .

وديك الجع . وهو شاعر الشام ، لم يذكر مع أبي تمام الا مجازا ، وهو أقدم منه ، وقد كان أبو تمام أخذ عنه أمثلة من شعره يحتذى عليها فسرقها . ودعبل ما أصاب مع أبي تمام طريقا ، على تقدمه في السن والشهرة . ولم يذكر من أصحاب ابن الرومي وابن المعتز الا من ذكر بسببهما في مكاتبة أو مناقضة .

(١) جوهري الكنز ص ٤٤٦ .

(٢) المسددة ١ : ١٠٠ -

(٣) المسددة ١ : ١٠١ -

وكان معظم هؤلاء الشعراء الكبار محترفين أو متكسبين ،
شعرهم معظمه في المديح وكان مدحهم كبار رجال الدولة من
خلفاء ووزراء وكتاب وقادة ، وسادة ، وولاة . وكانت تغدق عليهم
المطايا على ما يقدمون من جيد الشعر ، ويقف على أبوابهم
ممرسون بصفة الشعر يقومون الشعراء بما يتقدمون به لينال
الجائزة .

وطرق الشعراء غير موضوع المديح صلب شعر العصر وشعر
التكسب عامة موضوعات جديدة منها في الاوصاف خاصة
موضوعات لم تكن مطروقة من قبل ، أو كان التعرض لها سريما
عابرا مثل ما رواه المسعودي من وصف حمامة على قصص :

فتفت هاتفة ا ذنبا الب يسين
ذات طوق مثل صطف النون تقنى الطرفين
وترى ناظرة نحوك ممن ياقوتسين
ترجع الانفاس من نقبين كاللؤلأتين
ولهيا ساقان حمرا وان مثل الوردتين
نسجت فوق جناحيها لها برنوستين

كما حظيت مظاهر اللهو ، والفن وآلاتها بحظ غير قليل من عناية
الشعراء ، فوصفوا الكؤوس والقناني وصورها وهياتها ،
ووصفوا الاعواد والطناير والجثك ، وما اليها من آلات الطرب .
ووصفوا أنواع اللباس وأدوات الزينة ، والفرش ، وحيوان
اللهو وطيره كالطواويس والبيخاوات .

وتأكد في هذا القرن الثالث التيار الشعبي في الشعر الذي

بدأه ، أبو دلالة وكثرت صور الحياة الشعبية الملتقطة من الاسواق ،
ودكاكين الحرفيين ، فوصف ابن الرومي صانع الزلابية والرقاق
وغيرهما . وصور من الشخصيات تصاوير كاريكاتورية مما
تخترنه مخيلته في مسيرته اليومية من هيآت البشر بين أحذب
وملتح ، وقبيح وجميل .

وكان لشعر الكتاب مكانته بين الناس . وفي مجالس الادب ،
ورجال الدولة خاصة وكان معظم هؤلاء الكتاب ممن يلون مناصب
في الدولة ، ويملكون من السلطة والجاه والمال ما يمكنهم من
حياة رغدة هائلة .

وعرف شعر الكتاب بالظرف والركة ، وكان معظمه مقطعات
تنظم في مناسبات أو يتراسلون بها فيما بينهم ، أو يمدح بعضهم
بعضاً . ومن أشهرهم في هذا القرن إبراهيم بن العباس
(ت ٢٤٣ هـ) . يقول في مديح الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد	تقاصر عنها الأمل
فباطنها للندي	وظاهرها للتبيل
وبسطتها للفني	وسطوتها للأجل

ومن رقيق شعره الذي يظهر هذا اللون في شعر الطليقة :

سعود مجاز الحلقه	مليح ، والذي خلقه
سواء في رعايته	مجانبه ومن عشقه
فيا قمر اضاء لنا	يلاليه نوره اقبه

ومنه قوله :

وليلة من الليالي الزهر قابلت فيها بدرها ببدرى
لم نك غير شفق وبدر حتى تولت وهى نصف الدهر

ومتهم أحمد بن أبى طاهر الذى روى له ابرع طباطبا قوله :

إذا أبو أحمد جادت لنا يده لم يعمد الأجودان البحر والمطر
وان أضاء لنا نور يفرقه تقاضى الاثوران الشمس والقمر
وان مضى رأيه أوحى عزمته تأخر الماضيان السيف والقدح
من لم يكن حذرا من حد سطوته لم يندر ما المزعجان الخوف والعذر
خلو ، اذا أنت لم تبعث مرارته فان أمر فعلو عنده الصبر
سهل الغلائق الا أنه خشن ليس المهزة الا أنه حجر
لا حية ذكر فى مثل صولته ان صال يوما ولا الصمصامة الذكر
اذا الرجال طفوا أو اذ هم وعلوا بالامر رد عليه الرأى والنظر
الجود منه عيان لا ارتياح به اذ جود كل جواد عنده خير

وعلق عليه بقوله : « انه يجلو الهم ويشحد الفهم ، وانه الشعر
الصقو الذى لا كدر فيه » (١) -

وغلب على الشعر العربى فى هذه المرحلة ثقافة العصر
المتعمدة الجوانب ، والتي طبع عليها الفكر والفلسفة وعلومها .
ومن هنا كان الاتجاه الى الحكمة فى شعر بعض الشعراء ، وكان
ميل بعضهم الى الحمق وفلسفى الكلام ، رغبة بعضهم الى اتخاذ
أساليب الجدل وتشقيق القول فعل أصحاب الكلام .

(١) عبار الشعر طبع منشأة المعارف ص ٩٠ -

وشاعت في الشعر ألفاظ العلوم ومصطلحها ، ودخل البديع طرف منها كالمقابلة والطباق ، أو تقابل الصفات وتعارضها ، واستخدام أسلوب الحكيم والتعمية ، وما إلى ذلك .

كما طال نفس الشاعر ، واستطال ، وعمد بعض الشعراء إلى بسط المعاني وتوليدها ، ولم يعد الإيجاز وحده طابع الشعر كما كان كذلك مع قبل ، بل اقترب أسلوبه من أساليب الكتابة في الشرح ، وتنوع صور عرض المعاني على ما عرف عند الجاحظ مع المزاوجة أو عرض المعنى بصورتين أو أكثر من اللفظ ويشير إليه طباطبا إلى أن شعراء العصر أعادوا عرض المعاني القديمة في معارض جديدة حتى تلبس على السامع .

يقول : « وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا في تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم ، وتكثروا بإبداعها ، فسلمت لهم عند ادعائها لللطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها » (١) .

وربما أدى هذا الاتجاه الذي أشار إليه ابن طباطبا إلى اتهام العلماء بعض الشعراء بالسرقة لاعتمادهم على معاني السابقين حتى وإن زخرفوها - وإلى تتبع بعضهم من أسرف من الشعراء في استخدام ذلك السحر اللطيف الذي عرف بمحسنات البديع لفظاً ومعنى .

(١) عيار الشعر ص ٢٢ .

ومع شعراء السنة في هذا العصر :

هلى بن الجهم :

وهو شاعر عريب الاصل ، من قریش ، وأحيانا يتفون عنه
نسبه اليها ويلحق ببني نجيه وكان فصيحاً مطبوعاً - خص
بالتوكل .

وكان سيئاً متمصباً ، يذم الشيعة ، ويهجو أحيانا آل أبي
طالب أو العلوية ويذهب في ذلك مذهب مروان بن أبي حفصه -
قال فيه البحتري مريضاً بذلك :

إذا ما حصنت عليا قریش	فلا في العير أنت ولا النعير
ولو أعطاك ربك ما تمنى	لزاد الخلق في عظم الأمور
علام هجوت مجتهدا عليا	بما لفقت من كذب وزور

وقد وقع في بعض كبار المعتزلة كذلك كابن أبي دواد .
قال فيه عندما فليح في مضر موتة :

ثم يبق منك سوى خيالك لامعا	فوق الفراش ممهدا بوساد
فرحت بمصروعك البرية كلها	من كان منهم مؤقتا بمعاد
كم مجلس به قد عطلتها	كي لا يحدث فيه بالاستناد
ولكم مصاييح لنا أطنأتها	حتى تزول عن الطريق الهادي
ولكم كريمة معشر أرملتها -	ومحدث أوثقت في الألياء
ان الاسارى في السجون تفرجوا	لما أتتك مواكب العماد
وغدا نصرعك الطيب فلا تجد	شيئا لذابك حيلة المرتاد

وقد كان شعره الممدى موجهاً الى هذين المذهبيين « الشيعة
و « المعتزلة » وشدد النكير على الطالبين خاصة . وتعصب
الرافضة وسخر من أقوالهم من ذلك قوله :

ورافضة تقول بشعب رضى
امام من له عشرون الفا
امام خاب ذلك من امام
من الاتراك مشرعة السهام

يشير الى دعوى الرافضة الغيبية الباطنية ، ونهج العباسيين العملي
فى الاعداد والقوة - وقد أسف ، وقبح فى هجائه .

وكان ابن الجهم كثير الرحلة ، ولاقى فى حياته عناءاً وعنتاً ،
وسجن ، وصلب وقال فى الحالين شعراً ، ومدح من الخلفاء
المتوكل ، كما مدح جماعة من القادة وكبار رجال الدولة كظاهر بن
عبد الله والى خراسان . واستشهد فى كتب الادب بمعانيه الجديدة
المبتكرة كقوله فى الحبس (١) :

قالوا حبست فقلت ليس بضائر
او ما رأيت الليث يالف غيله
والبدر يتركه السرار فينجلى
والشمس لولا أنها معجوبة
حبس وائ مهنت لا يفند
كيرا وأوباش السباع ترند
أيامه وكاتبه متجدد
عن ناظريك لما أضاء الفرند

وقال فى صلبه بركان الشاذياخ (٢) :

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية الد
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم
الذين مسبقا ولا مجهولا
شرفا وملء صدورهم تبجيلا

(١) تجريد الاغانى ٣/ ١١٩٦ .

(٢) تجريد الاغانى ٣/ ١١٩٧ .

ما ازداد الا رفعة ينكو له وازدادت الاعباء منه نكولا
ما كان الا ائليث فارق غيله فرايته في محمل معبولا
لا يامن الاعباء من شداقه شدا يفصل هامهم تفصيلا
ما عابه أن يزر عنه ثيابه والسيف أهول ما يرى مسلولا

وقال يصف الليل في غربته بحلب ، ذاكرا وطنه وبيته على نهر
دجلة ببغداد (١) :

اسأل بالليل سـيل ام زيد في الليل ليل
ذكرت اهل وجيل وابن مني دجيل

وتوفي ابن الجهم وكان قد ربطت بينه وأبي تمام صداقة
وثيقة قال فيها شعرا -
ومن شعراء العلوية :

دعبل بن علي الخزاعي

أبو علي محمد بن علي رازين الخزاعي ولد سنة ١٨٤ هـ
وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ، وكان مولده غير معروف على وجه التأكيد ،
ولكنه قضى طفولته وجاتبا من شبابه بالكوفة حيث التحق بصحبة
مع الشطار ، ولحقته بعض اتهامات بارتكاب حوادث كالسرقة
والقتل ، لكنها لم تثبت وتفتقر الى دليل - ومثل هذه الاتهامات
لم يكن وحده المتهم بها من الشعراء الذين عاصروه ، فقد وجه
مثلا الى حماد الراوية وبكر بن الفطاح -

(١) المختار من شعر بشار ص ٦٧ -

وينتسب دعبيل الى خزاعة ، القبيلة العربية اليمنية ، وبعض الناس ينفي عنه ذلك النسب ، ويرميه بالكذب في انتحاله ، ويقول بأنه خير هربي الاصول * ومثل هذا الاتهام بانتحال النسب العربي ، أمر أكثر القول به ، وتبادل السباب به جماعة من شعراء العصر * .

وتضافرت الاخبار على أن دعبلا نشأ في عائلة كان رجالها من الشعراء ، ورأس عائلته الجد الأكبر ، بديل بن عبد الله الخزاعي ، وكان يسكن مكة قبل الاسلام ، وله فيها مكانة ونفوذ * وعرف جده وأبوه وابنه بقول الشعر * .

والتقى دعبيل بمسلم بن الوليد وتلمذ عليه * .
وانتقل بين مدينتي الكوفة وقرقيسية ثم ارتحل الى بغداد حيث اتصل بجماعة من رجال الدولة كعبد الله بن طاهر الذي قدمه الى هارون الرشيد في آخر حكمه * ومكنه قربه من مركز السلطة من تولي بعض المناصب * فقد تولي بعض الاعمال في سمنجان لعباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث ، وتولى منصباً بمصر بمدينة أسوان للمطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي الذي ولي مصر من سنة ١٩٨ الى سنة ٢٠٠ هـ * .

ولكنه لم يستقر طويلاً في أسوان لان المطلب سرعان ما عزله عنه ، ويروي الاخباريون لهذا أمراً ثار بينهما ، ويروون

قصة من تطور العلاقة بين الأمير والشاعر تكون صحيحة أو باطلة ، لكنها تصور عنف دعبيل ، وانتهت العلاقة بينهما بهجاء مقذع من دعبيل لعبد المطلب ، أثارت غضبه ، فحاول قتله ، وسخر منه دعبيل سخرية لاذعة بالرد عليه بقوله : ان عليه أن يطعمه أولاً حتى لا يموت جوعاً •

ويبدو أن الرجلين اصطلحا ، واتصل بينهما الود مرة أخرى ، وظل دعبيل يوالى عبد المطلب بمدحيه ، ووعد بأن يظل كذلك حتى آخر حياته •

وعرف دعبيل بتشيعه آل البيت ، ولم ينتسب لاحد فروع العلويين ، وربما كان تشيعه حبا في آل البيت عامة ، وعلى وأبنائه خاصة - وقوى الاتجاه عنده صلته بعلي الرضا امام الشيعة والذي عاصر المأمون ، وأوشك أن يتنازل له عن الخلافة سنة ٢٠٢ هـ وأوصى بخلافته من بعده • ولم يلبث الامام الرضا أن مات بغراسان •

وقد نظم دعبيل قصيدته المشهورة في آل البيت مخلداً هذا الحدث الذي اجترأ عليه المأمون وأغضب منه العباسية •

وأول علاقة دعبيل بعلي الرضا كانت على يد الشاعر الكاتب

ابراهيم بن العباس الصولي (ت ٢٤٣ هـ) اذ صحبه الصولي الى
خراسان لينشدا شعرهما عليا الرضا .

وبعد وفاة الرضا (٢٠٣ هـ) في ظروف غريبة ، وعودة
دعبل الى بغداد ، شارك الشاعر بعض العلوية في اتهام المأمون
بالدس للرضا ، وقتله سما - ونظم قصائد في هجائه ، وهجاء
أبيه هارون الرشيد ، وخلفاء بني العباس عامة من بعده المعتصم
والواثق والمتوكل . وكان المتوكل قد أثار الشيعة لتدميره قبر
علي بن أبي طالب في النجف والحسين بن علي في كربلاء .

واتصل الهجاء بين دعبل وعلي بن الجهم وصاحبه أبي تمام .

وقد عادى دعبل أبا تمام ، لاتصاله بعلي بن الجهم ، ولأمر
أخرى جرت بينهما ولم تقتصر عداوة دعبل للطائي على الهجاء ،
بل تعدتها الى تعصبه لشعره وانكاره لكثير منه ، واتهامه بأنه
أقرب الى النثر منه الى الشعر ، والى أنه أي أبو تمام لجأ الى معاني
المتقدمين فادعاهما لنفسه . وقال انه لا يصلح من شعر أبي تمام
غير الثلث .

وتجاهل دعبل ذكر أبي تمام في كتابه عن الشعراء
المحدثين ، فأثار حفيظة أبي تمام ، وانصاره . وهكذا كان
مستهدفا منهم ، وتعرض لحملة كبيرة ضده .

وكما استهدف دعبل في شعره ، كذلك استهدف في شخصه ،

واضطهد سياسيا من الدولة . وظل كذلك في تمرده وسخط الناس
والدولة عليه حتى توفي سنة ٢٥٩ هـ .

شعره :

وتقوم شهرة دمعبل في الشعر على الهجاء ، مثله في هذا كابن
الرومي ولكنه مع ذلك كان شاعرا قديرا يعكس شعره كثيرا من
جوانب شخصيته في أحاسيسه ومشاعره ، وفكره ، وعقيدته ، كما
يعكس جوانب من أحوال عصره ، وبعض صوره للطبيعة ومظاهرها
المختلفة .

ومن حيث بناء القصيدة ، فقد أخذ باتجاه القدماء من تقديم
للتسبيح على موضوعه ، وبنائه لأجزائها على النهج الموروث ، لكنه
مع ذلك لم يتبع القدماء في الأسلوب وطريقة عرض معانيه ،
بل مال إلى التحرر من قيود التعبير القديم والصيغ التقليدية ،
وانطلق يعبر بأسلوب متحرر خال من التكلف ، قريب من أسلوب
بعض معاصريه من شعراء المحدثين .

وإذا ما نظرنا إلى شعره بالمقارنة إلى بعض المدعين أمثال أبي
تمام والبحتري ، فقد نجده خاليا نسبيا من مظاهر الإبداع ،
وجمال العرض في اللفظ ، والخيال لكنه يملك المقدرة على التعبير
عن معانيه دون حاجة إلى التكلف في اصطناع الجمال الشعري .

وقد جمع الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ديوانه ، وأشار إلى

ذلك ابي النديم في الفهرست ، وقال انه كان في حوالى ثلاثمائة ورقة . وسبقه الى جمع شعره أحمد بن أبي طاهر (سنة ٢٨٠ هـ) في كتابه « مختارات من الشعر والشعراء » .

ويذكر صاحب كتاب « أعيان الشيعة » أن ديوان دعبيل كان موجودا حتى القرن الثاني الهجرى ولكنه الان مفقود .

وأعجب كثير من العلماء ، ومؤرخى الادب قديما بشعر دعبيل الخزاعي ، من أمثال أبي الفرج الاصبهاني وابن الاثيري وابن رشيق القيرواني .

ووصفه ابن رشيق في كتاب العمدة في آخر طبعة أبي نواس ، وقدمه الباحثى على مسلم بن الوليد قائلا : « ان أسلوبه وروح شعره أقرب الى طبيعة الشعر العربى ، أو طريقة العرب فى الشعر » .

ولدعبيل غير الديوان « كتاب الشعراء » وكتاب فى مثالب العرب ومناقبها . واعتبر حجة فى الشعر والشعراء وأخبارهم ، وعده ابن شرف القيروانى عالم الشعراء وشاعر العلماء .

وأشهر ما قال ثائية فى آل البيت ، وهى التى نظمها فى مناسبة مبايعة المأمون على بن موسى الرضا . قال :

ذكرت محل الربع من عرفات	فاجريت نمع العين بالعبرات
وقل عر صبرى وهاجت صبايتي	رسوم ديار افقرت وعران
مدارس آيات خلعت من تلاوة	ومنزل وحى مقصر العرصان
لال رسول الله بالخيف من منى	وبالركن والتعريف والجمرات
ديار حسنى والحسين بن جعفر	وحبرة والسجاد ذى الثغفات (١)
منازل كانت للصلاة والتقى	وللصوم والتطهير والحسنات
منازل جبريل الامين يزورها	من الله بالتسليم والرحمات
منازل وحى الله ، معدن علمه	سميل رشاد واضح الطرقات
ديار عفاها جور كل منافذ	ولم تعف بالاسلام والسنوات

ويذكر فيها مقاتل الطالبين فيقول :

نفوس لدى النهرين من بطن كربلا	معر سهم منها بشرط فرات
اخاف بان اؤدارهم ويشوفنى	معرسوم بالجزع من فخلات
تقسمهم ذنب المنون فما ترى	لهم عملة منشية الجمرات

ويعبر عن ولاته لهم فيقول :

نبذت اليهم بالموة جاهدا	وسلمت نفسى طائعا لولاتى
فيا رب زدنى فى يقينى بصيرة	وزد حبههم يا رب فى حسناتى
احب قصى الاعل من اجل حيكم	واجر فيكم زوجتى وبناتى
واقتم حبيكم مخافة كاشح	عنيف باهل العق ، خير مواتى

ويتحسر لان آل الرسول لا يلقون ما يليق بهم من المكانة ،
بينما يعيش اعداؤهم ممن ينكلون بهم حياة رغدة هائلة :

ارى فيهم فى غيرهم متقسما	وايديهم من فيئهم صفرات
قال رسول الله نعت جسمهم	وال زياد خلط القصرات (١)

(١) السجاء ذو الثغفات هو لقب زين العابدين على بن الحسين .

ديار رسول الله اصبحن بلفعا	وال زياد تسكن العجرات
بنات زياد في القصور مصونة	وال رسول الله في الغلوات
اذا وتروا ملوا الى واتريهم	اكفا عن الاوتار منقبضات
سابكهم ماذر في الارض شارق	ونادي منادي الخير بالصلوات

وقيل ان المأمون يكي عند سماع هذا الشعر وأمر بصلته .

أبو تمام

حبيب بن أوس الطائي (١٩٢ هـ - ٢٣١ هـ)

ولد أبو تمام بقرية جاسم بالشام عام ١٩٢ هـ في أخريات خلافة هارون الرشيد ، وعاش بمصر زمانا وهو صبي يسقى الماء في جامع عمرو بن العاص ، ويذكر له الكندي أبياتا قالها بين عامي ٢١١/٢١٤ هـ - ٨٢٦/٨٢٩ م ، ويبدو أن الإقامة بمصر لم تلبث له ، فلم يطل بها وقفل راجعا الى الشام وكانت قد ثبتت قدمه في قول الشعر -

وحاول بالشام أن يدخل الى المأمون عند وصوله اليها ، فلم يحظ بما أراد ، وتنقل في بلاد الشام ، وتوجه الى الموصل بالعراق ، فأقام عامين ، عاملا للحسن بن وهب على البربر واتجه الى أرمينيا ، واتصل بوالها خالد بن يزيد الذي عرف بقتاله للروم ، فأجزل له خالد العطاء على مدائحه فيه -

وحل ببغداد سنة ٢١٨ هـ بعد وفاة المأمون ، وتقرب من المعتصم ، فنال الحظوة لديه ولدى كبار رجال دولته كمحمد بن يوسف ، رجل السيف والقائد المشهور لهزيمة بايك الخرمي ، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد صاحب الصولة ، والعلم ، في دولة الواثق -

وتنقل بين العاصمة وعواصم البلاد والاقاليم الاسلامية

يقصد الولاية والامراء فقصد آل طاهر ، ومنهم عبد الله بن طاهر
بخراسان ، فأقام عنده زمنا ، وقصد همدان فأقام عند أبي الوفاء
بن سلمة فأكرمه .

ولقى الشاعر كثيرا ، وجمع مالا وفيرا .

وكان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة ، فصيح اللهجة ،
بلساته تمتمة ، صوته أجش . وكان ينوب عنه في القاء شعره
راوية حسن الصوت .

وقد عرف بذكائه الحاد ، ومعرفته الواسعة ، واطلاعه على
كثير من تراث العرب في الشعر وجمع إلى معرفته الشعرية وثقافته
العربية اهتماما بعلوم الاوائل من فلسفة اليونان وعلوم الفرس .
وتأثر شعره بهذه الثقافة فتنوعت معانيه ، وعمت أفكاره .
وظهرت عليه آثار الجدل وتفتيق القول .

وعاش أبو تمام حوالي أربعين عاما ، وتوفي بالموصل عام

٢٣١ هـ .

وعرف أبو تمام باتجاهه الخاص في الشعر ، وطريقته التي
اشتهر بها بين النقاد والعلماء بالشعر وتتلخص في ميله للبديع
والاكثار من الصنعة في اللفظ والمعنى ، وتعتمد البحث وراء
الطريف البعيد على حساب سلاسة العبارة ، ورونق اللفظ ، مع
عدم مراعاة القيم التقليدية المتوارثة في عمل الشعر .

وكان اغراقه في محاولات التجديد في المعاني والخروج عن القيم التقليدية سببا الى غموض بعض شعره ، وسقوطه في المصيب . وكان يعيل بطبعه الى التعقيد والالتواء بالعبارة فلفته تبدو للمسامح لاول وهلة غير سهلة بناء ونحتا .

وكثيرا ما اعتمد على محفوظه الشعري في معانيه ، يعيد عرضها وصياغتها ، فهو يلجأ الى ما يعرف بالاهتدام ، أي هدم البناء القديم ليعيد منه ابنية جديدة في معارض غير مألوقة تلتبس على الناس ، لكن ذلك لم يفت العلماء ، وتنبهوا له ، فاتهموه بالسرقه من القدماء .

ويعد أبو تمام الحلقة الرابعة من سلسلة أصحاب البديع التي بدأها بشار وأيسو نواس و العتابي ومسلم بن الوليد ثم أبو تمام .

ويصف أبو تمام شعره فيقول :

خذها مثقفة القوافي ربها	لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تملأ كل عين حكمة	وبلاغة ، وتدر كل وريد
كالطعنة النجلاء من يد نائر	بأخيه ، أو كالضربة الاخلاود
كالدر والمرجان ألف نظمه	بالشذر في عتق الكتاب الرود
كشقيقة البرد المنعم وشيه	في أرض مهرة أو بلاد تزيد
يعطى بها البشري الكريم ويعتبي	بروائها في المفضل المشهود

واذا كان البديع عند بشار بداية لكون جديد في الشعر المحدث ، أو شعر المولدين وفي نهجه الفني ، وعند أبي نواس

ضربا من الفن المبدع ، وأداة من أدوات الخلق الفنى الجديد ، فى الشعر ، وعند مسلم بن الوليد حرفة وصناعة يدعمها الفكر ، ويرتدحها العقل والصناعة المحكمة ، فالبيديع عند أبى تمام قضية فنية وفكرية معا ، لم يعد صيغا فنية تكسب الشعر رونقا ظاهريا ، وحلاوة شكلية فحسب .

يقول شارحا مذهبه الشعرى :

خلفها بنة الفكر المهنى فى الحجى والليل اسود رقعة الجلياب

ويقول :

تتجشم التهجير والتغليسا	تلك القوافى قد آتينك نزعا
حظ الرجال من القريض خيسا	من كل شاردة تقادر بعدها
علقا لاعجاز الزمان نفيسا	تلهو يعاجل حسنها وتعلها
تشقى بها الاسماع كان لييسا	وجديلة المعنى اذا معنى التى

ويقول لايبى دلف :

تمهل فى روض المعانى العجائب	انيك أرحنا عازب الشعر بعدما
من المجد فى الآن خير غرائب	غرائب لاقت فى فتائك انسها

وتغلب على شعر أبى تمام الموضوعية ، فهو سابق فى المديح ، وصوره كلها صور ذهنية ، تتناول موضوعات عصرية ، ولذلك نفى عنه بعض العلماء الشاعرية ، فقالوا انه عالم أو خطيب أو حكيم .

وقال دعبيل : لم يكن أبو تمام شاعرا ، إنما كان خطيبا ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر .

وروى الأمدى فى الموازنة ما قيل من أن أبا تمام حكيم
وليس شاعرا وأما الشاعر فالبحتري .

ويصنع قصائده فى المديح صنعة محكمة يبدوها أحيانا بداية
تقليدية فى شكلها وإن غير فى صياغتها . كقوله من قصيدة
مشهورة فى أبى دلف :

على مثلها من أربع وملاعب اذينت مصونات الدموع السواكب
اميدان لهوى من آتاج لك البلى فاصبحت ميدان الصبا والجناكب

فيذكر الربيع والطلل ويسكب الدمع عليه ، ويتأسى على دروسه ،
بفعل الريح والرمال على عادة العرب القدماء .

وغالبا ما يتجه بهذا المطلع التقليدى للقادة العرب أو لمن هم
من أصل عربى ، كآبى دلف العجلي أو خالد بن يزيد بن مزيد
الشيبانى ، والذى يبدأ مديحه بقوله أيضا :

لقد إختت من دار ماوية العقب أنجل المخاني للبللى هى أم نهب
أو يقول :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئى بذالك شهيدا
أو مالك بن طوق التخلى . يقول له :

لو أن دهرنا رد رجع جوايى أو كف من شأويه طول عتايى
لمدته فى دمتين تقصا معوتين لزيث نور باب
أو أحمد بن أبى دؤاد . إذ يقول :

سقى مهد العمى سيل المهاد وروض حاض منه ويانى

وحين يتجه بالمديح إلى غير هؤلاء من الفرس ، أو ذوى الاصول غير

العربية فهو يختصر المقدمة الطللية ، ويبدأ متفرلاً ، مقصراً فيه
كقوله في عيد الله بن طاهر بخراسان :

من عوانى يوسف وصوابه فعزما قديما أدرك السؤل طالبه

أو يقول في الحسن بن سهل :

أبدت أسي ان رأتني مخلص القصب وآل ما كان من عجب الى عجب

وقد يدخل الى مديحه مباشرة دون تمهيد كما يقول في الحسن
وسليمان ابني وهب :

سأشكر لابني وهب الهمة التي هي الود صاناه بحسن صيانة

وقارن الأمدى بين مقدمات أبي تمام والبحترى ، ومقدمات
الشمراء القدامى في معاني الوقوف ، وذكر بقايا الديار ، وما
يحدث لها من آثار البلى ، وتماور الرياح . ويشير الأمدى الى ما
ذكرناه آنفا في صنعة أبي تمام عامة مع الاهتمام ، ومحاولة
اعادة بناء قديم المعاني بصياغات جديدة .

ويخرج من هذه المقدمة الطللية في قصيدة المديح الى ذكر
الرحلة ومماتها ، وما يقاسيه الشاعر وراحلته من ضنى المسير .
ولا يبي تمام في هذا المعنى محاولات جيدة لقيت استحسان
معاصريه ومع بعدهم مع التقاد من مثل قوله :

وللقل ناي من خراسان جاشها	فقلت اطمئني أنظر الروض عازبه
وركب كاطراف الامنة عرسوا	على مثلها والليل داج ضياهيه
لامر عليهم أن تتم صلوره	وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل موار الملائه تهلمت	هريكته العلياء وانضم حالبه
رعته الفياقي بعد ما كان حقه	وعاها ، وماء الروض يتهل ساكبه

ويصل الى ممدوحه فيضفى عليه صفات مامة فى معانى
المديح التقليدية كالشجاعة والاقدام ، والبر ، والسخاء ، كما
يضفى عليه صفات خاصة لائقة بالمقام ، ان كان الممدوح خليفة
فهو العادل الامين على الامة الراعى لمصالحها -

وان كان من قادة العرب نسبه الى قبيلته ومناخرها كقوله
فى أبى ذلف المجلى :

اذا افتخرت يوما تميم بقومها وزادت على ما وطئت من مناقب
فانتم بنى قار امالت سيوفكم عروى الذين استرهنوا قوس حاجب

ويسجل فى شعر المديح أحداث عصره الكبرى ، ومنها ثورة
البايكين ، ومبارك الثفور مع الروم البيزنطيين ، وأهمها معركة
عمورية ، وانتصار المعتصم فيها على الروم -

ومن خلال قصائد المديح ينظم أبو تمام أبياتا فى الغزل
والوصف ، تبلغ حدا من الجودة والاتقان فى الصياغة وتناسق
اللفظ مع المعنى - فمن غزله الرقيق فى مطلع المديح قوله :

غبت تستجير الدمع خوف نوى قد وعاد قتادا منبعا كل مرقد
وانقذها من فمرة الموت انه صدود فراق ، لا صدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دما موردا من الدم يجرى فوق خد مورد
هى البدر يغنيها تودد وجهها الى كل من لفت وان لم تودد

ويبدو جمال هذه الابيات فى جمال الصنعة لارقة العاطفة ،
ولا صدقها ، ونلاحظ اهتمامه بالمقابلات والطباق ، والتوازن

والتناظر في المعنى واللفظ والتقابل بين الاضداد . ومثل هذا ينطبق على غزله في قصيدة أخرى مما أعجب به أنصاره . قوله :

أظن دموعها ستن الفريد	وهي سلكاء من نحر وجيد
لها من لوعة البين التدام	يعيد بنفسها ورد الخدود
حمتنا الطيف من أم الوليد	خطوب شبيت رأس الوليد

ومن أوصافه وصف صلب الافشين وتحريقه بالنار ، وحريق عمورية ، ومنه قوله بمدح المعتصم :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وهذا الثرى في حليه يتكرمر

ومنها في الربيع أبياته المشهورة .

يا صاحبي تقصيا نظريكما	تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه	زهر الربى فكانما هو مقعر
دنيا معاش للورى حتى اذا	حل الربيع فانما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها	نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة تفرق يائلى	فكانها عين اليك تعبر
تبدو ويحبها الجيم كانها	عنراء تبدو تارة وتغفر

وصوره الوصفية ، لقطات جزئية ، تتراصف ، ويضع واحدة منها ازاء الاخرى لا تتصل اتصالا عضويا . ولا تنم عن خاصية معينة في نظرة متميزة ، واحساس مفرد أو موقف شعورى ينبىء عن نفس واحدة لا نفس عامة هي نفس أبى تمام . وهذا لانه يصف بعقله لا بحسه وعاطفته .

وقد لاحظ عليه ذلك بروكلمان فقال : « وقلما وجدنا في

شعر أبى تمام شيئا من الحنين والصبابة » .

وليس معنى هذا أن شعره كله خال من العاطفة ، إذ قد تبدو هذه أحيانا ، مجتازة سياج عقله ، وصرامة صنعتته ، ومن قصائده القليلة التي تلمس فيها حرارة العاطفة قوله في صديقه الشاعر على بن الجهم ، وقد أراد السفر :

هي فرقة من صاحب لك ماجد ففدا اذابة كل دمع جامد
يقول فيها :

ان يكد مطرق الاخاء فاننا نغدو ونسرى في اخاء قالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
ومثل هذا نجده في أبيات له يرثي ابنين لمبد الله بن طاهر يقول فيها :

نجمان شاء الله أن لا يطلعا ألا ارتداد الطرف حتى ينقلا
ان الفجيرة بالرياض نواضرا لأجل منها بالرياض فوايلا
ولكنه مع ذلك لا يبلغ في عاطفته تلك ما بلغ شعراء المراثي ، وهو لا يتغلى هنا عن صنعتته التي أشرنا اليها .

ولابى تمام مقدرة على فن من الصنعة الشعرية عرف عند المحدثين ، وتباروا فيه ، وهو التخلص ، وقد يسمى في بعض الاحيان بالاستطراد . كقوله منتقلا من وصف الربيع والروض الى مديح المحتشم :

صبح الذي لولا بدائع لطفه ما عاد اصفر بعدما هو اخضر
خلق اطل من الربيع كأنه خلق الاسام وهديّة المنتشر
في الارض من عدل الامام وجوده ومن النيات الفض سرج تزهر

تنسى الرياض وما يروض فعله أبداً على مو الليالي يذكر
إن الغليفة حين يظلم حداث عين الهدى وله الخلافة معبر

وكانتقاله في موضع من وصف القرس الى ذم واحد اسمه عثمان :

فلو تراه مشيعا والعصى ذيم بين السنايك من مثني ووحيدان
أيقنت ان لم تثبت ان حافره من صخر تدبر أو من وجه عثمان

مواقف الشعراء والنقاد منه :

روى الصولي في أخباره أن البحتري وعلى بن العباس الرومي
كانوا إذا ذكروا أبا تمام عظموه ورفعوا من مقداره في الشعر
حتى يقدموه على أكثر الشعراء ، وكل يقر باستاذيته وأنه منه
تعلم . وهما أعلم أهل زمانهم بالشعر ، وأشعر من بقي « (١) » .

وقال ابن المعتز : « جاءني محمد بن يزيد المبرد يوما فافضنا
في ذكر أبي تمام ، وسألته عنه وعن البحتري فقال : لا بي تمام
استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة ، لا يقول مثلها البحتري . وهو
صحيح خاطر ، حسن الانتزاع ، وشعر البحتري أحسن استواء ،
وأبو تمام يقول النادر والبارد . . . وما أشبهه الا بالفائض
يخرج الدر والمخشبة (خرز أبيض) » .

ودافع أبو بكر الصولي عما اتهم به من مأخذ عن السابقين
فقال : « ولو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة لوجب أن

(١) أخبار أبي تمام ص ٦٨ .

يصرف عن أبي تمام لكثرة بديعه واختراعه ، واتكائه على نفسه « (١) » .

ويقول الصولي : « جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه ، وإنما يختل في بعض قصائده لفظه لا معناه » .

وذكره ابن رشيق القيرواني في أكثر من موضع من كتاب العمدة وقال انه يميل الى الصنعة والتدقيق في عمل الشعر ، ويقول انه عدل بين الفاظه ومعانيه ، فهو كالتأني يضع الالفاظ والمعاني مواضعها المناسبة ، وأنه صناع يظهر جيد شعره من سائره .

ويقف ابن الاثير في القرن السابع الى جانبه مدافعا عنه ضد اتهامه بعدم اجادته في الغزل فيقول : « ومن الناس من يزعم أنه ليس لأبي تمام غزل يحسن كما لغيره وكذلك يزعم أنه ليس للمعتبي أيضا من الغزل ما يروق ويحسن » وهذا القول لا يصدر الا عن تعصب أو جهل . وأي غزل أحلى وأعذب وأرق وأدمث من قول أبي تمام :

انت في حل فزدني سقما	أفن صبري واجعل اللع دما
وارض لي الموت بهجرك فان	ألت نفسي فزدها ألما
معنة العاشق ذل في الهوى	وإذا استودع سرا كتما
ليس منا من شكك علتة	من شكك ظلم حبيب ظلما

(١) أخبار أبي تمام ، ص ١٠٠ .

وهل لكثير من المتقدمين أو لايبن الدميثة أرق من هذه الابيات ؟ !
وكذلك ورد قوله فى طيف الخيال :

استزارته فكرتى فى المنام فأتانى فى خيفة واكنام
فأليالى أخفى بقلبي اذا ما جرعت النوى من الايام
يا لها لذة تنزهت الار - واح فيها سرا من الاجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب غير أنا فى دعوة الاحلام

وهذه الابيات فى الطيف لم يؤت بأرق منها ولا أسلس » .

ووقف منه بعض العلماء والنقاد موقف المعارضة ، فعابوا
عليه شعره ، وكان من بينهم من محاصريه الشاعر دعبل بن علي
الغزاعى الذى اتهمه بالسرقة والاخذ من سايقه واخفاء ما
يأخذ بصنعتة ، كذلك أخذ عليه أبو العميثل الاعرابى ، ميله الى
التمقيد .

وحكى عن ابن الاعرابى أنه قال وقد أنشد شعرا لايبن
تمام : ان كان هذا شعرا فما قالت العرب باطل .

وروى الأمدى فى الموازنة كثيرا من عيوب أبى تمام فى
سرقاته القبيحة ، وتعمده البديع وعويص اللفظ كقوله :

يدى لمن شاء رهن ، لم يذق جرما من راحتك دوى ما الصاب والعسل

ومثل هذا يسمى المماثلة أى ركوب الكلام بعضه بعضا .
وتقديره : يدى رهن لمن شاء ان كان لم يذق جرما من راحتك
ففرق بين ما تعطيه (وهو العسل) وما يعطيه غيرك وهو الصاب
أى العلقم .

ومن أسباب غموض شعره لجوؤه الى المعنى البعيد يصوغه
في الفاظ تتوالى فيها أشكال البديع ، وبخاصة الطباق • ويلوى
المعنى ليتم له الطباق ، فهو يؤثر صحته على صحة المعنى وتمامه •
يقسول :

ولمت فاطلم كل شيء دونها وانساء منها كل شيء مظلم

فلكى يتم له الطباق مع ما أراد من المعنى أجهد السامع أو
قارئ شعره معه ، وجعله يظن بهذا الذى يبدو لغزا أول الامر ،
فيثبت له بعد لاي أنه معنى بسيط ، عقده بطلب الطباق • وهو
لا يريد لسامعيه أن يبلغوا ما أراد بلفظ يسير سهل ، بل لابد أن
يركيهم الصعب ، وأبو تمام يريد أن يقول فى بساطة ان هذه
الفتاة ولمت فاطلم ما بينى وبينها بسبب ما نالتى من الجزع
لولها ، ثم وضع لى منها ما كان مستترا عني من حبيها اياى ،
فأضام ذلك ما التبس دونى •

ومن هذا القبيل قوله :

يتجنب الأثام ثم يخافها فكانما حسنته الأثام

ويقع فى حيرة من أمر الطباق والمعنى فى البيت ، وكيف
يستقيم اذا تجنب المرء الأثام وخافها فكيف تكون حسنته
أثاما ؟ ! •

ولكن يتضح بعد تفكير أن الشاعر إنما يريد أن يقول انه
يتجنب الأثام فيكون بذلك قد جاء بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة ،

فكأنما حسناته آثام ! - دور عجيب أدى به اليه غرام بالطباق ،
واعمال للمقل في الشعر ، وهو اين الماطفة وسهولة التعبير ،
وعذوبة الروح -

وولع أبي تمام بفراية الاستمارة أوقعه في سيئات كثيرة ،
لعدم الالف بين المستعار والمستعار له ، واقتقاد المتناسب والقريب :
كقوليه :

انزلته الايام عن ظهرها من بعد اثبات رجله في الركاب

وكقوليه :

رفيق حواشي العلم حتى لو أنه بكفيك ما ماريت في أنه يرد

وقد وقع في هذا البيت في مخالفة للعرق في التعبير عن ثقل
الحلم ، وتحول ما أراد من مديح بالعلم الى ذم بخفة الاحلام ، ثم
لم يصبر على هذا ، بل تمادى وأوقل فجعل الحلم يردا - - ومثله
في الايفال في الاستمارة وعدم المناسبة :

فضربت الشتاء في اخذه فيه ضربة خلفته عبدا ركوبا

وأخذ عليه الأمدى مأخذ كثيرة في اللغة والعروض -

وأشار بعض العلماء الى أنه كان يعد قوافيه أولا ثم يبني
عليها الشعر ، ولهذا ظهر التعسف أحيانا في بناء بعض الابيات -
وربما كانت هذه الطريقة متبعة عند كثير من شعراء العصر ، فقد
أشار اليها ابن طباطبا في حيار الشعر -

ومهما يكن من أمر أبي تمام ، فقد كثر حوله الكلام ، كثرة لم يحفظ بها شاعر الا المتنبي من بعده ، واختلف الناس فيه ، لكنه بقي علما من اعلام الشعر العربي على مدى العصور ، وعرف بطريقته الخاصة ، فى عمل الشعر ، وقلده فيه من تبعه من الشعراء بدءا بالبعثى وتوالوا حتى القرون المتأخرة ، وقيل ان المتنبي اعتمد عليه ، وكان يصحب ديوانه ، وقد ألف بعضهم فى مآخذ المتنبي من أبي تمام (١) - وصارت بعض قصائده نماذج فنية يحتذىها الشعراء ، وبرزت من بينها باثيته فى عمورية ، ورائيته فى صلب الافشين - وصارت بعض أبياته مسرى الامثال لما فيها من الحكمة وحقائق الكلم (٢) -

من مختارات شعره :

قال يمدح أبا دلف بن عيسى العجلي :

على مثلها من أربع وملاعب اذيلت مصونات السعوى السواكب
اقول لقرحان من اليبين لم يصف دسيس الهوى بين الحشى والترائب

ومنه قوله يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر :

أهن عوانى يوسف وصواحبه : فترما فقمنا أدرك السؤل طالبه

(١) ابن الدمان فى كتاب « المآخذ الكندية من المعانى الطائفة » .

(٢) يروكلمان : ٧٤/٢ ترجمة الدكتور عبد العليم الفجار وطبع دار المعارف .

وقوله في صلب الاقشين وحرقه :

العق ايلج والسيوف موارى فعذار من اسد العرين حذار

وقصيدته الذائنة في فتح عمورية :

السيف اصلق انباء من الكتب في حله الحد بين الجد واللعب

ومن الشعراء العلماء

أبو بكر محمد بن داود الاصفهاني (١)

يعتبر أبو بكر ابن داود الظاهري فقيه الشعراء أو شاعر الفقهاء في هذا القرن الثالث الهجري وكان من أدياء أصبهان في هذا القرن - جلس للفتوى والقضاء شايبا ، وأحب المناظرة مع أتريه مع العلماء - واشتهرت مناظرتة مع ابن سريج القاضي - « وكانا يتناظران ويترادان في الكتب » - وكان شعره في معظمه غزلا ، ولم يشتهر شاعرا كاشتهاره أديبا كاتبا بتأليفه كتاب « الزهرة » وهو من أول ما ألف في الحب أو الالفه والالاف - وقد وضعه في شبابه وضمنه كثيرا من شعره على لسان بعض « أهل العصر » -

ومن رقيق شعره ما يحثل هذا الموقف المشحون بالضراعة أمام حبيبته - يقول :

يا متية القلب لو أماله انفسحت	وحظ نفسي من ديني ودنياي
قل لي تناسيت أم انسيت الفتنا	أيام رأيك فينا غير ذا الرائي
كانت لقلبي أهواء مفارقة	فاستجعت مذكراتك العين أهوائي
فصار يصدني من كنت أحسنه	وصرت مولى الوري متهرت مولائي
حتى إذا استياس العساد من دركي	وقل أعدائي من فلتت الكفائي

(١) للدكتور أحمد عبد الستار الجوازي ، دراسة من ابن داود الاصفهاني الظاهري ولكتابه « الزهرة » كما كتب الدكتور نوري حمودي القيسي دراسة منه ومن شعره في مقدمة « أوراق من ديوانه » - طبع بغداد سنة ١٩٧٢ -

حميت طعم الكرى عيتي فاهتجرا فصار طيب الكرى من بعض أهدائي
من خان هان ، وقلبي رائد أبدا ميلا اليك على هجري والقصائي
لا بد لي منك فاصنع ما بدا لك بي فقد قدرت على قتل واحياي

وقد صور ابن داود الحب العف أجمل تصوير ، وعبر عن
أحاسيسه ، وأشجانه أدق تعبير ، يقول :

لو كنت شاهدا والدار جامعة والشمل منتشم والود مقرب
مستأنسين بما تغنى ضماثنا على العناق ورعى الود تصطب
فان معا الشوق قرط الانس أوحشنا أنس العواذل ان جدوا وان تحبوا
عانيت منزلة في الطرف عالية ورتبة قصرت من شاوها الرتب
في حفة تتحامي ان يلم بها سوء الظنون وأن تفتالها الريب

وقد كانت معاني الرفاء ، والصدق ، والتفاني في الوجد ، والسمو
بالمحاطة الى مرتبة صوفية ، رائقة ، كل هذه كانت دائرة في
شعره ، فما قاله في معنى الوقام حتى التزمت به جوارحه من
بصر ولسان وخاطر وجنان .

كان رقيقا منك يرعى خواطري وآخر يرعى ناظري ولساني
فما عاينت عيناى بعدك منقرا بسورك الا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من في بعدك فرحة نفيك الا قلت قد سمعاني
إذا ما تسلى الغابرون عن الهوى يشرب مدام او سماع قيان
وجنت الذي يسلى سوى يشوقني الى قريكم حتى أمل مكاني

ورغم تجاهل العلماء له ، وعدم ذكره بين شعراء عصره الا أن
شعره في الحب قد انتشر في عصره ، وعرفه الناس في العراق ،
وصار في بغداد مسع الظرفاء والعشاق . فقد روى الخطيب

البغدادى أن القاضى محمد بن يوسف ساير أبا بكر محمد بن داود
الاصفهانى ببغداد فإذا جارية تفنى بشيء من شعره هو :

أشكو غليل فؤاد أنت متلفه شكوى خليل الى الف يعلله
ستحى تزيد مع الايام كثرت و أنت فى عظم ما ألقى تقلله
والله حرم قتلى فى الهوى سفها و أنت يا قاتلى ظلمنا تعلله

وقد جرت بين أبيه وجماعة من أدياب المصر ومتكلميه مناظرات
ومحاورات ، كما جرت بينه وبين هؤلاء مناظرات ومحاورات أتم
بها مواقف والده ، ومن أشهر من ناظر فى بغداد الناشئ الأكبر
ابن شرير ومحمد بن جرير ، وأبو عيسى الضرير . ويجلس الى
بعض العلماء من معاصريه فيروى عنهم ، كما يتشد مباشرة عن
بعض شعرائهم كأحمد بن أبى طاهر والبحتري . ويلتقى بأبن
الرومى . وقد نعته بفتية العراق . وقد جاء ابن الرومى يوما
الى مجلسه ، وقدم اليه رقعة بها بيتان هما :

يا ابن داود يا فتية العراق أفتنا فى قوئل الاحقاد
هل علينا فى الجراح قصاص أم مباح لها دم العشاق

فكتب له فى الجواب :

كيف يقنيكم قتييل صريع بسهام الفراق والاشتياق
وقتييل التلاقي احسن حالا عند داود من قتييل الفراق

ولابن داود الظاهري مؤلفات أدبية أشهرها كتاب الزهرة فى

الادب ، ومختار الاشعار ومعظم ما روى عن مؤلفاته فى الققه
والمسائل الجدلية -

ولا يحدد العلماء تاريخا لمولده ، كما يختلف فى تاريخ وفاته
بين سنتى ست وتسعين ومائتين (٢٩٦ هـ) وسبع وتسعين ومائتين
(٢٩٧ هـ) -

ومن الشعراء العلماء :

أبو العباس الناشيء الأكبر

كان أبو العباس الناشيء شاعرا مجيدا ، وعالما فاضلا ، لا نستطيع أن نعكم على ذوقه في النقد ، ولا أن نقدر جهده الا اذا عرضنا لبعض جوانب تكوينه الانساني وبناته الفكرى والفنى من خلال التعرف على شخصه وحياته ، وبعض شعره وعلمه .

والناشيء الأكبر هو أبو العباس عبد الله بن محمد الاثبارى المعروف بابن شرشير . ولقبه الناشيء يطلق على رجلين من شعراء العصر العباسى ، أحدهما هو هذا أبو العباس وقد أطلق عليه الناشيء الأكبر ، والآخر أطلق عليه الناشيء الأصغر . وقد جاء بمده (٢) .

وكانت عادة العرب وعلماءهم من قديم اذا اشترك اثنان فى لقب فيميز السابق منهم باللقب متبوعا بكلمة الأكبر ، واللاحق متبوعا بكلمة الأصغر ، وكذلك كان الامر بالنسبة الى الاخفشين الأكبر والأصغر ، وهما من علماء النحو المرموقين .

ذلك بالنسبة الى لقبه الناشيء ، أما شرشير الذى لقب به أبوه ، ولاق به هو أحيانا فاسم لطائر معروف بالديار المصرية يعيش فى شمال الدلتا ، يغشى المصارف والترع وموارد المياه ، ويفد الى مصر شتاء ، هو أكبر من الحمام ، وهو صيد طيب .

ولا نعلم مما ورد من أخباره شيئا عن سبب هذا اللقب الذي
الحق بأبيه أو به ، وكثيرا ما تلحق الكنى والالقاب بالناس دون
سبب ظاهر ، وكم عرف جماعة من أجلة العلماء والشعراء بالقب
من أسماء الحيوان والطير والجماد ، فثعلب وأبو ذؤيب وابن
عصفور وابن حجر ..

قيل إن أصل أبي العباس من الانبار وينسب إليها كثير من
علماء الدولة العباسية وكبار أدبائها ، وقدم بغداد فأقام بها
زمنًا ، نضج علمه وأدبه ، والتقى بكثير من علماء دار السلام
وأدبائها وشعرائها في القرن الثالث ، وعقدت بينه وبين بعضهم
أواصر الود والصداقة ، أو وشائج العلم والمناظرة .

وأولى اهتمامه دراسة الفلسفة والمنطق والجدل والخلاف ،
وأعجب بعلم الكلام ، فانضم إلى زمرة المتكلمين وقد كانت للكلام
مكانة في بغداد في القرن الثالث أيده بعض الخلفاء ممن تاصر
المتكلمين وقريبهم . أمثال الخليفة المأمون ، والخليفة المعتصم ، وقد
عاش في كنفهما جماعة من كبار المتكلمين وفلاسفة المسلمين .

وأولع أبو العباس بالفلسفة والجدل ، وغشى حلقات المتكلمين
وغيرهم من علماء بغداد آنذاك وأحب المناظرة ، ومقارعة العلماء ،
وكثيرا ما اتهم بمشاغبتهم ، ومعارضة المشهورين منهم حتى رمى
بالهوس . وقال المرزبانى : « وكان أبو العباس الناشئ متهوما
شديد الهوس » .

وتألب عليه علماء بغداد لهذا ، فضيقوا عليه المقام بدار

السلام ، فلم يلق ما كان يصبو اليه من مكانة مرموقة ، فغادرها الى مصر (٤) ، وربما زاد في ضيقه بالمقام ببغداد آنذاك أنها نكأت على المتكلمين ، وقلبت لهم ظهر المجن بعد محنة خلق القرآن المشهورة ، وثورة الحنابلة على المعتزلة والمتكلمين عامة ، وانتصار المتوكل لمذهب أهل السنة وعدائه للمتكلمين والمعتزلة (٥) .

قال المرزبانى انه اخذ نفسه بالخلاف على أهل المنطق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورغب في أنه يحدث لنفسه أقوالا ينقض بها ما هم عليه فسقط ببغداد فلجأ الى مصر وأقام بها بقية عمره .

ونقل أنه كان موجودا بمصر عام ثمانين ومائتين من الهجرة حيث أنشد أبياتا بدأها بقوله :

ليس شيء آخر في مهجة العا شق من هذه العيون المراض
والغبود المخرجات اللواتي شيب جريالها بحسن البياض

وظل أبو العباس يقول الشعر ويؤلف في فروع العلم بمصر حتى توفي عام ثلاثة وتسعين ومائتين (٢٩٣ هـ) .

وآلف الناشئ كثيرا من الكتب فيما اتقن من علوم العربية وعلوم الاوائل ، وكان متقنا للنحو وعلوم الدين والمنطق . قال ابن خلكان : « من العلماء بالادب والدين والمنطق » . وقال أيضا : « وله تصانيف جميلة » .

ونظم الشعر التعليمي . قال ابن خلكان : « له قصيدة على

روى واحد وقافية واحدة فى أربعة آلاف بيت فى فنون من العلم» .
ووقف منه العلماء والمؤرخون مواقف مختلفة بين مزر به
متحامل عليه ، ومعتزف بفضلته مقدر لجهد وعلمه ، مثن على كتبه
وشعره .

فمن تحامل عليه المرزبانى من علماء القرن الرابع وصاحب
كتابه : « معجم الشعراء » و « الموشح » فقد نعمته بالتهوس كما
رأينا ، وقال : « أخذ نفسه على أهل المنطق والشعراء والمروزيين
وغيرهم ، ورام أن يحدث لنفسه أقوالا ينقض ما هم عليه » .

ومن عرف فضله ابن خلكان فقد قال فيه : « وكان بقوة علم
الكلام قد نقض علل النحاة وأدخل على قواعد العروض شجها ،
ومثلها بغير أمثلة الخليل ، وكل ذلك بحذقه وقوة فطنته » (٦) .

وكلام كل من المرزبانى وابن خلكان يدور حول موضوع
واحد جعله الاول مأخذا والثانى محمداً . ويبدو أن الرجل
ارتأى رأيا فى علم النحو أو بعض قواعده ، وحصل اليه واستنبطه
مع دراسته المتعمقة فى علم المنطق وعلوم الفلسفة ، وحاول فيه
أن يخرج على أجماع علماء النحو فى عصره ، فرفضوه ، وقاوموه ،
وكذلك فعل فى عروض الخليل ، الذى ارتأى فيه كذلك رأيا
مخالفا للعلماء ، وبدت له فى أصول الخليل كما يقول ابن خلكان
شبه أو مأخذ ، ومثل لبعض ما وفق اليه فى علم العروض بأمثلة

غير ما درج عليها الناس ، فأروا فيها مروقا على علم الخليل ،
واتهموه بالهرس .

ولسنا على علم بهذه الاشياء جميعا حتى نحكم عليه أو له
فتكون مع المرزبانى أو نكون مع ابن خلكان . . ومع ذلك فان
موقف المرزبانى من الناشئ قد تعترضه بعض الشبه ، منها أنه
كان قريب العصر من أبى العباس وأنه كان بغداديا ، ولا بد أن
أصداء الخلاف بين الناشئ وعلماء بغداد كانت لا تزال تدور في
أوساط العلماء أيام المرزبانى ، وهو بغدادى على كل حال ،
ومعاصر ، وهذا وحده كفى بأن يلقى ظللا من الهوى على حكمه .

أما ابن خلكان فبعد عن معاصرة الناشئ لانه من رجال
القرن السابع أى بعده بأربعة قرون كانت كفيلة بترجيح الرأى
السديد وتصفية المعركة والحكم له أو عليه بروح الانصاف دون
هوى . فضلا عن أن ابن خلكان لم يكن وحده الذى قرظ الناشئ
وأثنى عليه ، بل سبقه الى ذلك أحد أدباء القرن الرابع القضاة
معنى لا ينكر رأيه ، ويؤخذ قوله فى الادب ماخذ الجيد والاعتبار ،
وأعنى أبا حيان التوحيدى الذى نعت بالجاحظ الثانى .

وفى كتبه يقول المرزبانى : « وقد رأيت بعض كتبه فدلتنى
على هوسه واختلاطه » . وفيها يقول ابن خلكان : وله عدة
قصائيف جميلة .

ويقول ابن تغري بردى : كان فاضلا بارعا ، وله تصانيف رد
فيها على الشعراء •

شعره :

ذلك مبلغ أمره في العلم ، وأما أمره في الشعر فلم يكن أقل
من أمره في العلم إذ اختلف العلماء حوله اختلافهم حول علمه •
فالمرزباني يراه شاعرا مكثرا وهو مع كثرة شعره قليل الفائدة ،
ويقول ابو حيان عن شاعريته : « وله مذهب حلو وشعر يديع ،
واحتفال عجيب » (٧) • ويقول ابن الجوزي : « وله شعر
حسن » (٨) •

وقال ابن خلكان : « له أشعار كثيرة في جوارح الصيد
وآلاته ، والصيد وما يتعلق بها ، كأنه كان صاحب صيد • وقد
استشهد كشاجم في كتاب « المصايد والمطارد في مواضع » ، منها
قصائد ، ومنها طرديات على أسلوب أبو نواس ، ومنها مقاطيع ،
وقد أجاد في كل » •

وقال في موضع آخر : « شاعر مجيد يعد في طبقة ابن
الرومي والبحتري » (٩) •

ولم يبلغنا ديوان كامل للناسي الاكبر حتى نحكم عليه أو
نقرمه ، وكل ما جاءنا منه مقطوعات وقصائد مفرقات في أسفار
الادب ومجموعاته ، ومن بين تلك الاسفار ما جمع له كثيرا من

الشعر كتاب « البصائر والذخائر » لابی حیان التوحیدی ،
و « زهر الآداب » للحصري القيروانی ومحاضرات الراغب

ومن تلك الاشعار المفرقة ، وما أشار اليه ابن خلكان في
نصه السابق ، وفي مواضع أخرى نجد أن شعره يضم موضوعات
الشعر التقليدية كالغزل والفخر والمديح والهجاء والوصف ، كما
تروى عنه قصيدة مطولة في الشعر التعليمي في فنون العلم على
روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت (١٠) - وله شعر كثير بين
قصائد ومقطعات في الطرد والصيد وآلاته على ما ذكر ابن خلكان
قيما نقلنا عنه .

وقد وصف الناشئ شعره في أبيات جيدة تقول :

يتحير الشعراء ان سمعوا به	في حسن صنعه وفي تاليقه
فكانه في قربه من فهمهم	وتكولهم في العجز عن ترصيقه
شجر بدا للعين حسن نباته	وغائ عن الايدى جنى قطوفه
فاذا قربت ابيه بطيفه	وقرنته بغريبه وطريفه
القيت معناه يطابق لفظه	والنظم منه جليه بلطيفه
واتاه متسقا على احسانه	قد نبط منه رزينه بغفيفه
هذبتة فجعلته لك باقيا	ومتعت صرف الدهر من تصريفه

يصف شعره بالسهل الممتنع المحكم الرصف الطيع الابي الذي
يجمع بين الخراية والطرافة في تألف من المعنى واللفظ والنظم ،
دون خلل في أيهما أو في تألفهما جميعا مما في نسق واحد
مهدب لا شدوة فيه ولا شرود ، فعاد شعرا خالدا على الزمن ، باقيا
على صرف الدهر لا يغير منه كثر الزمان .

عاصر الناشئ جماعة من كبار شعراء العباسيين أمثال
البحتري وابن الرومي، ولم يشتهر شهرتهما، وإن كان ابن خلكان
قد وضعه في طبقتهما . وقصد بشعره كبار رجال الدولة من
وزراء وكتاب وقادة ، فمدحهم وكان من بينهم من قصده ابن
الرومي كأيي الصقر ابن بلبل الوزير العباسي صاحب القصة
المشهورة مع ابن الرومي ، والذي كانت له معه مواقف سجلها في
قصائد طويلة ذوات عدد - وقال فيه أبو العباس الناشئ :

تبلغ بروح الياس أو روحه الغنى أو الصنق لفي الوعد أو طلب العثر
فما لي تقى يحيى، ولا حلم يوسف ولا صبر أيوب ولا مدد الغضر

ويجمع شعره سمات العالم والشاعر، ففيه الصياغة الرصينة،
والكلمة الواقعة موقعها ، والمعنى البعيد ، والفكرة ، الى جانب
حلاوة النفس ، وعذوبة الجرس ، وجمال الصورة ، وأعجب أبا
حيان التوحيدى قوله متغزلا :

لها جيد ظبي واهتزاز براعة وعينا مهاة ، واعتدال قضيب
ولفظة مناع ، ولعظة باذل وعقب يرى واغتيال مريب
وايعاض ذي جد، واعراض هازل وسورة ذي طيش وعطف حبيب

وعلق عليه بقوله : فهذا فن لطيف المقام ، حلو جدا (١١) .

وما جاءنا من شعره في الغزل رقيق فيه تلك الحلاوة التي
أشاد بها التوحيدى . ومنه هذان البيتان في وصف السمع فوق
خد الحبيب ساعة الفراق :

بكت للفراق وقد راعني بكاء الحبيب لبعد الانبار
كان السمع على خدها . بقية طل على جنبها

وحلاوة البيتين مستمدة من جمال التشبيه في البيت الثاني .
ومع جميل معانيه في الشكوى قوله :

لنظي ولفظك بالشكوى قد انتلنا يا ليت شعري قلبانا لم اختلافنا

ومن نسيبه حلوا النفس قوله (١٢) -

ولما رأينا البين زمت ركابه	وأيقن منا بانقطاع المطالب
طلبن على الركب المجدين علة	فعبن علينا من صدور الركائب
فلما تلاقينا كتبن بأعين	لنا كتبنا أعجمتها بالعواجب
فلما قرأناهن سرا طويتها	حذار الاعاوى بازوار المناكب

جمعت بين رقة النسيب ، ودقة المعاني ، ومبتكر التعبير ،

ونلاحظ ذلك كله في البيتين الثالث والرابع بخاصة -

ويرسم بالكلمات صورة شعرية جميلة لعازفة على العود
فيقول (١٣) -

واذا بصرت يكتفها اليسرى حكمت	يد حاسب تلقى اليك صنوفا
وكانما المضارب في أوتاره	قلم يجمع في الكتاب حروفا
ويجيبيه ابهامها فكانها	في الثغر تنفي بهرجا وزيوفا

ويتفخر بنفسه وقومه فيقول :

لم تبين في الدنيا سماء مكارم	الا ونحن بنورها ونجومها
واذا سمت يوما للمس أديمها	نجوى أبالسها فنحن رجومها
واذا سمعت بنعمة محرومة	من كل حادثة فنحن حريمها
واذا اليحت للأنسام بوارق	بنلق فلما نستهل فيومها

ويشكو هجر الصديق وتخيره :

اني لهجرني الصديق تجنيا	فأريه أن تهجره أسبابا
وأخاف أن عاتبه أغريته	فأري له ترك العتاب عتابا

وشعره يجرى على هذا النمط من الشاعرية المعتزجة بالفكر والتأمل ، لا يطرق المعنى السهل القريب ، ولكنه يجرى وراء المعنى البعيد ، فيأتي به ليضعه أمامك في لفظ سهل لا تشعر به يآثر الجهد فيه ، فهو غير متكلف اللفظ ، ولا متعنت العبارة كبعض الشعراء من أصحاب الممانى ، وهو مع ذلك لا يرقى الى رتبة الباحثى فى طلاوة الشعر ولا الى درجة أبى نواس فى رشاقة التعبير .

ومع ذلك فهو لا ينحط عن درجة هؤلاء وأولئك كثيرا ، بل يعتبر شعره من جيد الوسط .

كتاب الشعر :

واذا ما تركنا شعره الى نقده ، والحديث عن كتابه فى الشعر وآرائه فيه فيتبقى أن نهتدى أولا بحديث أبى حيان فى البصائر . يقول : « وما أصبت أحدا تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه ليزيد على كلام قدامه وغيره » (١٤) -

وهذه العبارة تحتاج الى وقفة تأمل ، لأن أبا حيان حكم على علو قدره فى النقد وقال انه لم يصب أحدا من النقاد الى عصره - أى أخريات القرن الرابع - تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشئ . وهو لا شك قد قرأ كتب النقد السابقة أو عرفها ويشير بصفة خاصة الى كتاب قدامة بن جعفر « نقد الشعر » ويقدمه عليه وعلى غيره ممن عرض لهذا الموضوع .

وهو لا يفتنى من النقاد بالضرورة من تعرض للشعراء وطبقاتهم ، بل يعنى بصفة خاصة من تعرض منهم لصناعة الشعر ، وقد سبقه الى القول فى صناعة الشعر جماعة كابن المعتز صاحب البديع ، وابن طباطبا فى عيار الشعر ، وكتاب ابن المعتز قليل الخطر ، وان كانت له أسبقية الحديث عن البديع وتبويبه ، وأخطر منه عيار الشعر لابن طباطبا ، وان لم يحظ بالشهرة التى حظى به البديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة - ولا ندرى لم أهمل أبو حيان عيار الشعر عند حديثه عن كتاب الناثىء ، والكتبان فيما يبدو مما بقى من أجزاء كتاب الناثىء قريبان من بعضهما فى الموضوع ، لانهما يعرضان لصناعة الشعر - ومؤلفا « الشعر » و « عيار الشعر » شاعران يعملان الذوق ويحكمان التجربة الذاتية ، ومعاينة النظم ، وليس أدرى بأسراره كمن دفع الى مضايقة كما يقول البحتري - وكلام قدامة فى صناعة الشعر كلام عالم مقنن لا شاعر مجرب ، وفرق بعيد بين الكلامين .

ومهما يكن من أمر فان كتاب « الشعر » للناثىء كتاب يتحدث فى صناعة الشعر وفنه ، ويشهد على ذلك ما وصلنا من مقتطفات من الكتاب فى بعض كتب الادب ، وفى كتابى « البصائر والذخائر » لابی حيان التوحيدي ، و « زهر الآداب » للحصري القيروانى بخاصة .

ونورد هذه المقتطفات محاولين ترتيبها من عموم الى خصوص .

ونبدأ بتعريفه للشعر وحديثه عنه • يقول (١٥) :

« الشعر قيد الكلام ، وعقال الآداب ، وسور البلاغة ، ومعدن
البراعة (١٦) ، ومجال الجنان ، ومسرح التبيان ، وذريعة
المتوصل ، ووسيلة المتوصل ، وذمام الغريب ، وحرمة الاديب ،
وعصمة الهارب ، وعدة الراهب (١٧) ، ورحلة الداني ودوحة
التمثل ، وروضة المتحمل ، وحاكم الاعراب ، وشاهد الصواب » .

وهو في هذه الفترة لم يعرف الشعر التعريف المألوف ، بل
عرفه التعريف الجامع لخصائصه ، وطبيعته وغاياته ، وفوائده ،
وكل من عباراته الموجزة تحتاج في الشرح الى صفات تبسط
مجملها ، وتنشر مطويها -

وأولها قوله ان « الشعر قيد الكلام » يعنى أنه يقيد المعانى
والافكار بأحكامه وموسيقاه ونظمه ، بتفاعيله ، وقوافيه ، ويعنى
أنه حافظه اللم ، وخزانة الادب ، وهو أيسر وسيلة لسهولة
خلقه بالذهن ، وهو « عقال الآداب » أى قيدها ، ومجتمعها • فيه
الحكمة ، والمعرفة • وهو أسمى فنون الادب ، وأشرف أنماط
القول ، وكان العرب يتواصون بحفظه ، ويوصون مؤدبي أبنائهم
بتعليمهم اياه • وهو « سور البلاغة ومحل البراعة ، ومجال
الجنان ، ومسرح البيان » ويعنى سمو منزلته في البلاغة والبيان ،
فهو في المقدمة من فنون القول جميعا ، لا يسبقه منها أحد ، ويكاد

يقتصر علم الادب عند العرب على الشعر ، فقد غلب على ما عداه ،
والبليغ الحق هو الشاعر الفحل ، والمقول الفذ . وفى الشعر
تبدو البراعة ، وتتكشف المقدرة ، اذ تحكمه الاوزان والقوافى
والقوافى واللغة الخاصة ، اللغة الشعرية ، والشاعر الفذ هو
الذى يستطيع أن يؤلف بين معانيه والفاظه وأوزانه وقوافيه ، فلا
يضطره الوزن الى اصطناع الضرورة فى بناء العبارة ، أو التكلف
فى القافية فتبدو ملحقة بالقول أو خارجة أو فضلة زائدة ينتهى
الكلام قبلها ، لهذا أعجبوا بالشعر الذى تلتصق قوافيه ببقية
الفاظه ، أو تؤدى أوائله الى قوافيه دون تكلف أو عناء . ونسمع
كثيرا من المبارات فى كتب النقد تصف تلاؤم القوافى مع الوزن ،
أو تلاؤمها مع المعانى ، أو تلاؤمها مع بقية لفظ البيت .

وتلك المبارات التى سلفت كلها متصلة بصنعة الشعر ، وما
جاء بعدها فى الفقرة من عبارات يتصل بغايات الشعر وفوائده ،
فهو : « ذريعة المتوصل » و « وسيلة المتوصل » ، ورغم المزاوجة
الظاهرة بين المبارتين فهما تمبران عن موضوعين مختلفين .

فذريعة المتوصل يعنى أنه يتخذ ذريعة الى أمر فيتوصل به ،
أو يتشفع فيه . وهنا يمكن أن يدخل المتألم ، والاعتذار ،
والتعجب ، والقربى الى المحبين وفيه معنى كون الشعر سببا فى
العفو عن جرم ، أو الصفح عن اثم . . . وتحدث مع هذا الدور
للشعر تفصيلا ابن رشيق فى كتاب العمدة .

وفي الفقرات التالية « وذمام الغريب ، وحرمة الاديب ،
وعصمة الهارب وعذر الراهب » يواصل الناشئ ذكر فوائد الشعر
وبيان فضائله .

ثم يختم بفقرات تتصل باستخدامات الشعر في الادب واللمعة ،
ودوره في ايضاح المعاني ، وضبط القواعد والاعراب ، وضبط
الفاظ اللغة في استخدام أبيات الشعر وشواهد على هذا كله .

فهو بحق كما قال : « دوحة الممثل ، وروضة المتحمل ، وحاكم
الاعراب ، وشاهد الصواب » .

وقد أشرنا الى أن العلماء بالشعر فصلوا ما أجمله الناشئ ،
ونخص منهم عبد الكريم النهشلى (١٨) ، وابن رثيق
القيروانى (١٩) .

خصائص الشعر الجيد :

ويمرض في فقرة أخرى - نقلها الحصرى في زهر الآداب -
لاسلوب الشعر ، وموضوعاته فيقول : « الشعر ما كان سهل
المطالع ، فصل المقاطع ، فعل المديح ، جزل الافتخار ، شجى
النسيب ، فكه الفزل ، سائر المثل ، سليم الزلل ، عديم الخلل ،
رائع الهجاء ، موجب العذرة حسن المعتبة ، مطمع السالك ، فانت
المدارك ، قريب البيان ، بعيد المعانى ، نائى الاغوار ، ضاحى
القرار ، نقى المستشف ، قد هريق فيه ماء الفصاحة ، وأضاء له

نور الرجاحة ، فأنهل فى صاى الفهم ، وأبهل فى بهم الرأى ،
لتأمله تشوق ، ولستشفه تألق ، يروق المتوسم ، ويسر المثبرم .

قد أبدت صدوره متونه ، وزهت فى وجهه عيونه ، وانقادت
كواهله لهواديه ، وتطالعت آثاره لمستوضحه . وأشبه الروض فى
وشى ألوانه ، وتعمم أقدانه ، ائراق انواره ، وابتهاج أنجاده
وأغواره . وأشبه الوقى فى اتفاق رقومه ، واتساق رسومه ،
وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه . وحكى العقد فى التثام فصوله ،
وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره ، وفريده بشزره .

قد كشف الايجاز موارده ، وجلت مدارس الدربة متاصله ،
وشحذت مدارس الادب فواصله ، فجاء سليما من المعاييب ، مهذبا
من الادتناس ، تتعاشاه الابن ، وتتحاماه الهجن ، مهديا الى الاسماع
بهجة ، والى العقول حكمة » (٢٠) .

ومرة أخرى أوجز الناشر فى هذا الفصل ما فصله غيره من
العلماء من خصائص الشعر الجيد ، لفظا ومعنى ، فجمع خصائص
اللفظ الشعرى ، والمعانى الشعرية ومناسبة الاسلوب واللفظ
والمعنى لموضوع الشعر وأغراضه .

ويهتم بسهولة المطالع ، وبوضوح مقامه وفصوله ، وهو
بذلك يستوحى أصول الشعر الجاهلى وتقاليده ، فقد كان الشعراء
يتحرون سهولة المطالع ، لاجتذاب السمع ، وقبول الذهن لما يرد
عليه . وفى النقد العربى مواقف كثيرة للنقاد مع هذه الخاصية

ولعل أشهرها موقف ابن الاعرابي من غموض مطلع أبي تمام :

من عوانى يوسف وصواعبه فعزما فقد ما أدرك السؤل صاحبه

وقوله للشاعر : لم لا تقول ما يفهم ؟

وموقف نقاد المتنبي من غموض مطلع المتنبي وتعقيده في

قوله :

أحاد ، أم سداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالتناهي

وينتقل الى مناسبة الكلام للموضوع من حيث القوة والضعف،

والجزالة والرقّة ، فيرى ضرورة الفحولة والقوة عند المديح ، وهذا

أمر طبيعي لأن المديح يقتضي من الشاعر وصف الممدوح بصفات

الرجولة والشجاعة والاقدام ، وهذه المعاني لا يناسبها سوى قوى

اللفظ ورصينه . وقد أورد النقاد أمثلة كثيرة لمناسبة معاني

المديح لالفاظه ، وهي غالبية على الشعر الجيد ، ولكن مخالفة ذلك

تبدو في شواهد قليلة يتناولها النقاد . مثل ما نقله ابن طباطبا

في عيار الشعر من عدم مناسبة قول كثير لمديح الخليفة الاموي

في قوله (٢١) :

وما زالت رفاهك تسل ضفنى وتخرج من مكانها ضبابي

ويرقيني لك الراقون حتى أجابت حية تحت الثياب

فهذا كلام أليق بأن تخاطب به امرأة ، لا أن يخاطب به خليفة

المسلمين وأمير المؤمنين .

وحال الفخر كحال المديح ، فلا بد أن تكون ألفاظه جزلة

كذلك .

وقد فرق الناقد وهو في القرن الثالث بين موضوعي النسيب والـفـزل . وكثير من النقاد لم يعتادوا هذه التفرقة ، بل جمعوا بينهما ، وقليل منهم من التزم هذه التفرقة بين الفنين وان كانا جميعا متعلقين بالعلاقة بين الرجل والمرأة والاحوال التي تجري بينهما من العشق والمحبة ، واحوال الهوى وتصرفه معهما ، من لقاء وفراق ، وبعد وقرب ، ووصل وهجران ، وسهر ، واحوال العذاب . . وما الى ذلك ، وبوصف جمال المرأة ومحاسنها الجسدية او القولية ، والسلوكية .

ومن قول النائي ندرك أنه يرى النسيب هو الذي يصف واحوال الهوى والمحبة وتصرفهما بين المحبين ، بينما الفزل هو ما يتصل بمحاسن المرأة وجمالها جسدا ولفظا وسلوكا . . .

فهو يتطلب في النسيب الشجي ، أي المطرب ، وأن يطرب لسماعه الناس ، وما يطربون الا لانه يقع في قلوبهم موقعها ، وقد علل ابن قتيبة تمسك الشعراء بمقدمات النسيب في بناء القصيدة التقليدية بقوله بعد ذكر الاطلاق والوقوف عليها وما يتصل بذلك . . ثم وصل ذلك بالنسب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق ، وفرط الصباغة ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ويستدعي الاسماع اليه ، لان النسب قريب من النفوس ، لا يخط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الفزل والـفـالنساء « (٢٢) » .

ووصف الفزل بالفكه ، ولا يعني هذا التمتع ما اتصل باللفظ

في لفتنا المعاصرة من معاني الاضحاك ، بل لعله أقرب في مدلوله المقصود الى معنى المسرة وهو الشعور الذي يحدثه وصف الجمال في صورة المختلفة ، فجمال المرأة باعث على المتعة والمسرة ، وهذا ما يقصده الناشئ من ضرورة أن يكون الشاعر الجيد فكاه الغزل - وقد خلط صاحب جواهر الكنز بين مدلولي التسيب والغزل (٢٣) ، مع أنه جاء متأخرا في القرن السابع ، وكان حقه أن يفرق بينهما بوضوح بعد أن سبقه الى التفريق بينهما علماء أفاضل لعل أقربهم اليه صاحب العمدة -

ويتصل بموضوعات الشعر ما جاء منه في المثل والحكمة ، وان لم ينفرد الشعراء قصائدهم للمثل والحكمة ، اللهم الا القليل منهم من أمثال صالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية في قصيدته المروفة بذات الامثال - وقد يختم بعض الشعراء بأبيات من المثل والحكمة كما فعل زهير بن أبي سلمى في معلقته ، ولكن معظم الشعراء ينثرون أبيات المثل والحكمة في أثناء القصيدة فتسير دون غيرها ويستشهد بها الناس ، ويحب الناشئ كما هو واضح من قوله أن تنطوى القصيدة على « سائر المثل » - وقديما سمي الشعر الخالي من المثل السائر أو عيون الشعر « بالمسيح » -

ويعرض للهجاء فيرى أن يكون رائعا ، أى يروع الناس ، لا أن يكون باهتا عاديا فالهجاء الرائع هو الهجاء الحار اللاذع يروع بلفظه أو معانيه الساخرة ، أو صورة الفكاهة التي تصمم وتدمغ المهجو -

وقد اتفق النقاد على مثل قول الناشئ « أو قريب منه » .

وقوله أن يكون الشعر سليم الزلل ، عديم الخلل فهما صفتان عامتان فالزلل والخلل في الشعر يعرض له من جوانب كثيرة ، وينسحب هذا الكلام على ما تحدثنا عنه من قبل فيما يتصل بأسلوب الشعر وألفاظه ومعانيه وموضوعاته ، وقريب من هذا ما ساقه من تعوت بعد ذلك ينبه فيها على حقائق الفن الشعري، والخصائص التي تكشفها الممارسة والمتعلقة بمواطن الحسن ، فقد نبه الى ضرورة أن يجمع أسلوب الشعر الجيد بين جمال التعبير وعذوبة اللفظ ، وسداد القصد والغاية وسلامة المعنى وضحة الفكرة .

ويفصل بعض الخصائص التركيبية في أسلوب القصيدة ، وبنائها الفني مما يفى بشرطى الحسن والسلامة أو الصحة ، الامر الذى يثير في المتلقى أو السامع الاحساس بالمتعة والمسرّة ، والفهم السليم من مثل قوله : « ثم أبدت صدورهم مقونه » ، وزهت فى وجوهه عيونه ، وانقادت كواهل لهواديه ، وتطالمت آثاره لمستوضعه » . وفى هذه العبارات يؤكد خاصة كثر حديث النقاد فيها ، وخصها علماء البلاغة بأنواع من البديع ، كقولهم فى التوشيح ودلالة الصدور على الاعجاز ، وما الى ذلك .

ويجربى الناشئ مع القائلين بأن الشعر صنعة كغيره من الصناعات ، ينبغي لمن يتصدى لعمله أن يتقن أسرار صنعتيه ، وهو يرى كذلك فى الصنعة ضرباً من التحسين والتجميل ، وهو

كالصناعات الجميلة ، كالنقش في الثياب ، أو صياغة الحلي الذهبية ، أو المقود وما شابهها مما أكثر القدماء تشبيه الشعر به من تلك الفنون والصناعات .

فقلوبه :

« وما أشبه الروض في وقي ألوانه ، وتعمم أفنانه ، واشراق أنواره وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشي في اتفاق رقومه ، واتساق رسومه وتسطير كفوفه ، وتعبير حروفه ، وحكي العقده في التثام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازديان اقوته بدره ، وفريده بشذره » .

وينتهي هذه الكلمة بعديث عن طبيعة الاسلوب والصياغة ، مهتما بضرورة الایجاز ، وهو ما يتمشى مع طبيعة الشعر ، وطبيعة تركيبه ، فهو من فنون القول أولى بالایجاز ، تحكمه موازين عروضه وقوافيه وينبئ الى ضرورة تثقيفه وتهذيبه ، ويحين على ذلك طول الدربة والممارسة وطول المراجعة والمدارسة حتى ينضى عنه خبثه . ويخلو مما يشيته من عيب اللفظ ، أو هجنة التركيب .

ويرى أن ما كانت تلك صفته من الشعر الصقيل المذهب يهدي الى الاسماع بهجة ، والى المقول حكمة ، ونلاحظ أنه يؤكد هذين الجانبين كلما مننت له فرصة ، أو واثته مناسبة . وكأنه كما قلنا يرى ضرورة توفر المتعة واللذة ، والفكرة أو المعرفة في الشعر . وهما عنصران يتمان جماله ، ويتقاسمان جودته .

وقد وقف النقاد من هذين العنصرين في الشعر مواقف تتفق وتختلف عن موقف الناقثين ، فالبحثري مثلا ، يؤكد ضرورة توفر عنصر الجمال والمتعة في الشعر ، وتأتي الفكرة لاحقة لهذا العنصر ، واتجه الأندى هذا الاتجاه الذي ذهب اليه البحثري ، فحاول الفصل بين الشعر والحكمة . ورأى الشعر في جمال التمييز وطلاوة اللفظ وقرب المعاني وبدو الرونق ، فطلب الصنعة على الفكرة . وذهب أنصار أبي تمام والمنتبى مذهباً مخالفاً ، وراوا الشعر في عميق المعنى ، والحكمة المفيدة عقلاً وأدباً .

ويورد أبو حيان فصلاً من كتاب الشعر يتناول موضوعات القصيدة الشعرية وما يشتمل عليه كل موضوع من المعاني ، مبتدئاً بالنسيب :

يقول (٢٤) :

« أول الشعر إنما يكون بكاء على دمن ، أو تأسفا على زمن ، أو نزوعا لفراق أو تلوعا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو اعدارا الى سفيه ، أو تغمدا لهفوة ، أو تنصلا من زلة ، أو تحفيضا على أخذ بثار ، أو تحريضا على طلب أوتار ، أو تمديدا للمكارم ، أو تمظيما لشريف مقام ، أو عتابا على طوية قلب ، أو عتابا من مقارفة ذنب ، أو تمهدا لمعاهد أحباب ، أو تحسرا على مشاهد أطراب ، أو ضربا لامثال سائرة ، أو قرعا لقوارع غائرة ، أو نظما لحكم بالغة ، أو تزهدا في حقير عاجل ، أو ترغيبا في جليل أجل ، أو حفظا لتقديم نسب ، أو تدوينا لبارع أدب » .

وينقل التوحيدى فصلا آخر يتصل من موضوعات الشعر
بالفزل والنسيب بنخاسة فيقول (٢٥) :

« ومخاطبات النساء تحلو في الشعر ، وتعذب في القريض ،
لاسيما لفانية قد أطر الفتاء شاربها ، وزوى الأباء حاجبها ،
وأشعل الجمال قوامها ، وأفرد الحسن تمامها ، وأنجل الهوى
عينها ، وأمراض الزهو جفنيها ، وأذابت الصباية أفاضها ، وفتر
الرتو ألعاضها ، وأرهم الظرف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها ،
ولذ للراشف مبسمها ، وأطرد ساء النعيم بين رياض وجناتها ،
وترقرق جريال الشباب على سحناتها ، وجدل للضم قدها ، ومالت
للجذب ضفائرها ، ودالت للخاصب غدائرها ، وشغصت للوثوب
مأكمها ، وظمئت فضولها ، وسهلت للعيون حجولها ، وملاب
للمتنسم ملاغمها ، وأرخت للمتنعم فواغمها ، فكيف إذا هي
برزت من حجابها ، وسفرت من نقابها ، وتهادت بين أترابها ، وقد
هز الريح أردافها ، وأسعر المراح أكفافها ، بل كيف هي إذا أملها
سائلها ، أو أكلها مقاولها ، وأعرضت عنه صدوقا ، وتآوت
منه عزوقا ، وقد قطب التيه جبينها ، واستتهض الانق عرنيها ،
واستخفها الطرب ، واستهواها العجب فافتوت مبتسمة من شنب
أنيابها ومعسول رضايها . وكيف تقر نفس عاشقها إذا هي
لسنته بعتابها ، ولعنته بسباياها ، وقد لاثت ذوايل أثوابها ،
وحسرت فواضل أسلاياها ، وطفقت تمد ذنوبه بمعاجيرها ، وتأبى
معاذيره بمكاسرها . »

وهل تطوح لها أمتية إذا اعتبته بعد صدها ، وبذلت له
مصون ودها ، ثم أسففته بضرورة وسنت لها عين راقبها ، وغيلت لها
نفس عاقبها ، وقد التفعت له ملاء ليل ، أو وطلت إليه عقبات
قيل ، فقد خذل الالين أباطلها ، وبيل البحر غلائلها ، وحصدت له
أعاليها وأسافلها ، وأوجل الوجل قرائنها ، وأوجأ العجن
أخامصها ، ثم طفقت تستعيب نفسها وتستكفها ، حتى إذا أسمحت
بها قريحتها ، وأسجحت لها سجيته ، وسكن إلى الاليناس قلقها ،
وأسرع إلى الاليناس علقها ، قاسمته من حديثها بما هو أقر لعينه ،
وأشهى إلى نفسه من طول بقائها ، ودوام نعمائها . ولنا في هذا
الباب ما لم يخرج من مذهب القوم منه :

فديتك لو أنهم يحفلون	لربوا النواظر عن ناظريك
الم يقرأوا ، ويحهم ما يرون	من وحى قلبك في مقلتيك
وقد جعلوك رقيباً علينا	فمن ذا يكون رقيباً عليك

ونقل الحصري في زهر الآداب : « قال الناصب : وقد قلت في
الشعر قولاً جملته مثلاً لقائله ، وأسلوباً لسالكه ، وهو (٢٦) :

الشعر ما قومت زيغ صدوره	وشددت بالتهذيب أسر متونه
ولامت بالاطناب شعب صدوعه	وفتحت بالإيجاز غور عيونه
وجمعت بين قريبه وبمعيده	ووصلت بين مجمه ومعينه
وعهدت منه لكل أمر يقتضى	شجها به فقرنته بقريته
فاذا بكيت به الديار وأهلها	أجريت للمغزون ماء شؤونه
ووكلت به مومه وغوممه	نهرها ولم يسر الكرى ببقونه
واذا مدحت به جواد ماجده	وقضيت به بالشكر حق ديونه

أحقيقته بصفيه ورضية	ومنعته بظهيره وثمينه
فيكون جزلا باتفاق صنوفه	ويكون سهلا في اتساق فنونه
وإذا أردت كناية عن ربيعة	باينت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعه تسوء شكوكه	ببيانته وظنونته ييقينه
وإذا عتبت على أخ في زلة	انجحت شدته له في لينة
فتركته مستانسا لرياضة	متسما لرعونه وحزونه
وإذا كتبت إلى التي علقها	أن صار منك بفاشيات شوته
نمقتها بلطفة ودقيقة	وشغفتها بخيئته ودفينه
وإذا امتنعت إلى أخ في زلة	واشكت بين معيله وستينه
فيحور ذنبك عند من أعتبه	عتبا عليك مطالعا يمينه
والقول يحسن منه في مشوره	ما ليس يحسن منه في موزونه

ونقل الراغب الاصبهاني قوله كذلك في الشعر (٢٧) :

انما الشعر ما تحصل من قبل	ظهور الاقوال والاشعار
فأتى لفظه يطابق معنا	بحسن الايراد والاصدار
مطمع مويس قريب إلى الفهم	بعيد الاقوال ، صافي القرار

قد يكون هذان النصان من قصيدته المطولة التي نظمها في أربعة آلاف بيت ، وجعلها في العلوم ، أي جعلها متنا في أصول العلوم ، ومن بيتها علم الشعر . وإذا صح قول ابن خلكان أنها على روى واحد فانا نفترض على الأقل قطعة منها ، ولعلها الاولى التوتمية .

التعليقات

- ١ - نشر دراسته في كتاب بعنوان:
The Life and Writings of Dibil B. ALi
• طبع بمطبعة جامعة كنتكي بالولايات المتحدة الامريكية ١٩٦١ م
- ٢ - يروي بعض المؤرخين أن وفاته كانت ٣٠٣ هـ •
- ٣ - الناشئ الاصغر هو علي بن عبد الله بن وصيف البغدادي توفي ٣٦٦ هـ ،
• راجع معجم المؤلفين ١٤٢/٧
- ٤ - راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢٣٠/١ - ٢٣١ •
- ٥ - يشير ابن كثير في البداية والنهاية الى أنه كان ممترليا بـ ١٠ ص ١٠١ •
- ٦ - وفيات الاعيان تحقيق احسان عباس - طبع دار الثقافة بيروت ٩١/٣ •
- ٧ - البصائر والذخائر ٦٧١/٢ •
- ٨ - المنتظم ٥٧/٦ •
- ٩ - وفيات الاعيان ٩١/٣ •
- ١٠ - ربما كان منها ما جاء بالشعر على ما بيناه في آخر هذا البحث •
- ١١ - البصائر والذخائر ٦٧١/٢ •
- ١٢ - زهر الاداب تحقيق الدكتور زكي مبارك ١٥/٣ •
- ١٣ - المصدر نفسه •
- ١٤ - البصائر والذخائر ٦٧١/٢ •
- ١٥ - هذا النص ورد في البصائر والذخائر وزهر الاداب على خلاف في بعض
الفاظه •
- ١٦ - هكذا في زهر الاداب ٣٩/٣ وفي البصائر ٢٧٣/٢ (ومعل البراعة) •
- ١٧ - في البصائر (ومعل الراهب) •

- ١٨ - راجع تاريخ النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام الجزء الثاني طبع
دار المعارف بمصر ص ١١١ .
- ١٩ - في كتابه العمدة في نقد الشعر ، وراجع المصدر السابق ص ١٢٨ .
- ٢٠ - زهر الآداب ٤٩/٣ .
- ٢١ - راجع عيار الشعر تحقيق د. محمد زغلول سلام طبع التجارية بمصر ص
٩٢ .
- ٢٢ - راجع مقنعة الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاکر طبع دار
المعارف بمصر ص ٧٥ .
- ٢٣ - راجع جواهر الکتب لابن الاثير بتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام طبع
مئذاة المعارف ص ٤٥١ .
- ٢٤ - البصائر والذخائر ٢/٢٦٠ .
- ٢٥ - المصدر نفسه ٢/٢١٩ .
- ٢٦ - زهر الآداب ٩/٣ .
- ٢٧ - معاضرات الراغب الاصبهانی ٣٨/١ .

ومن الشعراء العلماء

العتابي

كلثوم بن عمرو

شاعر من شعراء الدولة العباسية الكبار وعالم كاتب خطيب
من أدبائها المرموقين ، كانت حياته حافلة ، وله آثار باقية في
كثير من الكتب بين أخبار وأراء حكيمة عليمة ، ونوادر تدل على
خبرة بالحياة والناس ، وفكر متفتح غني ، ونشاط متعدد تردده
بين العراق والشام متنقلا في البلاد وبين الامصار الكبرى قنشرين
والري والبصرة وبغداد وغيرها •

والعتابي شاعر عربي خالص العروبة ينتسب الى عمرو بن
كلثوم جده الاعلى وهو تغلبي من أبناء الجزيرة الفراتية ، وكانت
لتغلب كثير من البطون تسكنها • ويبدو أن حياته الاولى كانت
بدوية الطابع ولذلك تركت آثارها على حياته ، وبعض تصرفاته
مما كان مدعاة الى السخرية والتفكه أحيانا •

ومهما يكن من أمر في حياته ، فثقافته الاولى ومعرفتنا بها
قليلة ، بل نادرة ، لقلة اهتمام المصادر بها ، فانتنا نعلم أنه كان
طلعة منذ شبابه الاول وأنه رحل عن بلده قاصدا بغداد أو البصرة
ليلقى أديبها وشعراءها الكبار • ويبدو أنه أعجب ببشار
وشعره ، وكانت شهرته قد طبقت الآفاق كما قال عن نفسه :

قد دفعه هذا الامجاب الى أن يشد الرحال الى البصرة • ويذكر أبو
الفرج أن المعتابي جاء وهو حدث الى بشار فأنشده :

ايصلف من امامة أم يقيم	وعهدك بالصبا عهد قديم
أتول لمستفاد القلب عفى	على عزماته السير العديم
أما يكفيك أن دموع هينى	ثأبيب يفيض بها الهموم
اتسيم فلا ارد الطرف الا	على أرجائه ماء سجوم

قال فمد بشار يده اليه ثم قال له : أنت بصير ؟ قال : نعم • قال :
عجيب لبصير اين زانية أن يقول هذا الشعر • فغجل المعتابي
وقام عنه ، وما زال يروض الشعر ، حتى اشتد عوده فيه ، وطرق
به أبواب الاعيان وكبار الرجال فأجازوه ، وتقدم الى بلاحذ
الخلفاء ، فصار شاعرا يتردد على مجالس هارون الرشيد ويمدحه
بالشعر الجيد ، كما طرق باب المأمون وكان رجلا كهلا • وأجازه
المأمون وأكرمه •

ويبدو أن المعتابي كان قصير القامة من قوله فى بعض شعره :

نهى طراف الغواني عن مواصليتي ما يفجأ العين من شيبى ومن قصرى

وقضى حياته زاهدا يلبس خشن الثياب حتى عيب عليه ذاك ،
وسخر منه أصدقاؤه ورفقاؤه لتعمده الخشونة فى اللبس ، وعدم
رعاية الهندام فى المظهر • روى الحصرى أن يحيى بن خالد
البرمكى عابه على لباسه ، وكان لا يبالي أى ثوبيه أبتذل ، فقال
أبعد الله رجلا مهمه أن يكون جماله فى لباسه وعطره ، إنما ذلك

حفظ النساء وأهل الأهواء حتى يرفعه أكبراه : همته ولبه ، ويعلمو
به مظلما لسانه وقلبه •

ويروى أبو الفرج أن صديقه وتلميذه منصورا النمرى اتخذا
من ابتذاله في لباسه مادة ليمزح معه وليغري الرشيد به •

ولم يتزوج فقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : انى وجدت مكابدة
العفة خيرا من الاحتيال لمصلحة الميال •

ويبدو أنه كان قليل الاقبال على المدح واتخاذة وسيلة للتكسب
اللهم الا اذا اضطره العيش كى يقصد الاعيان وكبار الرجال •
ومما يرويه الحصرى في زهر الآداب أنه قيل له :
أمدحت أحدا ؟ قال : لا ، وليس لى على ذلك قدرة فقيل له : فقد
مدحت الربيع ، فقال ذلك ليوم يستحق فيه المدح فقلت :

ومعضلة قام الربيع ازاءها	ليعمد ركن الدين لما تهلما
بمكة والمنصور رهن كما أتى	أخا الوحي داصى ربه فتقدما
غداة عداة الدين شاحذة للمنى	اليه وتقول الحرب فافخرة فما

وله مع ذلك شعر يسأل فيه العظام ، ولكنه يعزو ذلك الى
الفقر ، وهو يهدم المكارم والآلاء :

انى امرق هنم الاقتار ماثرتى	واجتاح ما بنت الايام من خطرتى
انا ابن عمرو بن كلثوم يسوده	حييا ربيعة والاحياء من مضى
أرومة عطلتنى من مهارمها	كالتقوس عطلها الرامى من الثور

وتذكر من معدوحيه المشهورين ، عبد الله بن هشام بن عمرو
التغلبى من أمراء قبيلته ، وقد ذكره كثيرا فى شعره ورسائله
كما يقول أبو الفرج ، وكان ابن هشام هذا جوادا سمحا وولي
السند (١) .

واتصل بالربيع كما فى الخير السابق ، وبالبرامكة ، وكان
له معهم شأن منقطعا اليهم ، وقد وصفوه للرشيده ووصلوه به .
ذكر ابن المعتز انه كان ممن يختص به جعفر بن يحيى البرمكى
ويقربه ويباشره (٢) .

وذكر ابن هفان أن الرشيد لقيه بعد قتل جعفر بن يحيى
وزوال نعمته فقال ما أحدث يا عتابي ؟ فأنشده ارتجالا :

تلوم على ترك الغنى باهلية	طوى النهر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الكما	منظمة أجيادها بالقلاند
أسرك انى نلت ما نال جعفر	من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وأن اسمي المؤمنين أغصنى	مغصهما بالرهفات البوارد
فرينى تيجنى هيتنى مطمئنة	ولم اتجشم هول تلك الموارد

وكانت لجعفر عليه أياذ ببيضاء ، فقد ذكر أبو الفرج أنه كان
بلغ الرشيد عنه ما أهدر به دمه فخلصه جعفر فقال فيه :

ما زلت فى غمرات الموت مطرحا	يضيق عنى فسيح الراى من جبلى
فلم تزل دائبا تسعى بلفظك لى	حتى اختلست حياتى من يلقى أهلى

(١) الاغانى طبع دار الكتب ١٨٨/١١ .

(٢) ملبقات الشعراء لابن المعتز ٢٤٣ .

كذلك روى أنه جاء يحيى بن خالد فكلمه في حاجة له
كلمات قليلة فقال له يحيى : لقد ندر كلامك اليوم وقل ، فقال
له : وكيف لا يقل ، وقد تكنفنى ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف
الرد . فقال له بحب : لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده .

ولكن صاحب زهر الآداب ذكر أن صلته بهم قد اعترتها فترة ،
وأورد الحمصى بيتين يدلان على ذلك وهما قوله :

ان البرامك لا تتعك انجبة بصفحة الدين من نجواهم ندب
تهرمت حجج متهم ومنصلهم مضرج يدم الاسلام مقتصب

ولا تدري مدى صعة نسبة هذين البيتين اليه ، وإن كانت
الاخبار تفيد يوفائه لهم بعد حتى ان الرشيد أراد أن
يختبره فى الخبر السابق فوجده على عهد .

واتصل بهارون الرشيد ، ومهد البرامكة لهذه الصلة ، فبلغ
عنده كل مبلغ وقد حدثت بينه وبين الرشيد أحداث ، حتى قيل
انه أهدر دمه ، فاستنجد بيحيى بن خالد فمفا عنه الرشيد . وقال
ابن المعتز انه تمكن من الرشيد بعلمه وعزارة أدبه فانه كان يحرا
لا ينزف -

وله فيه كثير من قصائد المديح ، ولعل أشهرها الرائية التى
يختار ابن المعتز منها أبياتا ، وهى التى يقول فيها :

يا لليلة فى حوران ساهرة حتى تكلم فى الصبح العاصف

وفيها يقول :

ماذا عسى قاتل يثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فت المدايح الا أن السنن مستنطقات بما تغفي الضمائر

ويقول فيه :

امام له كف يضم بنائها عصا الدين ممنوعا من البرى عودها
وعين محيط بالبرية طرفها سواء عليه قريبا وبعيدها
وارجع يقطان بيت مناجيا له في الحشا مستودعات يكبلها
وسمع اذا ناداه من ثغر كربة مناه كفته دموع لا يعيدها

وقال فيه :

رعى أمة الاسلام فهو امامها وائى اليها الحق فهو منها
مقيم بمستن الفلا حيث تلتقى طوارق أبقار الخلوب وعونها

وقد كان منصور النمرى فيما يبدو سببا فيما حدث بينه وبين
الرشيد من جفوة ويروى أبو الفرج قصة دخوله على الرشيد
واستهزائه به ، كما يروى الحصرى قصة أخرى جرت بينه وبين
منصور النمرى عرض فيها بالرشيد ، وربما كانت هى السبب فى
تمتبه اياه واهدار دمه .

فيروى أن النمرى مر بالعتابي وكان مخموما فقال له العتابي :
مالك أعزك الله ؟ فقال امرأتى بطلق منذ ثلاث ونحن على يأس
منها . فقال له العتابي : وان دوامها منك أقرب من وجهها ، قل
هارون الرشيد فان المولود يخرج ! ! ، فقال : شكوت اليك ما بي
فأجبتني بهذا ؟ فقال : ما أخذت هذا الا من قولك :
ان اخلف القيث لم تغلف أنامله أو ضاق أصبر ذكرناه فيتسع

ويذكر العصري غضبة الرشيد عليه فيقول : « وكان منصور
النمرى سمي به الى الرشيد فخافه ، فهرب الى بلد الروم » وله
قصائد فيها جيدة مختارة ، وهو يشبه في حسن الاعتذار بالتأبفة
الذي ياتي « ومن جيد اعتذاره :

جعلت رجاء العفو علوا وشبهته	بهية اما غافر او معائب
وكنت اذا ما خفت حادث نبوة	جعلتك حصنا من حذر انتوائب
فانزل بي هجراتك الياس بعنما	حلت بواد منك رعب المشاوب
أغل ومرعائي الجليب مكانه	وأوى الى حافات أكثر ناخب
ولم يشن عن نفسي الردى غير أنها	تسوء بباقي من رجائب نائب
هي النفس محبوس عليك وجاؤنا	مقيلة الآمال دون المطالب
وتعت ثياب الصبر من أن لومة	يقل يسمى مسئلين الجواب
فهي ظفرت منه الليالي بيلة	فأقلعن عنه داميات المخالب
حنانيك اني لم أكن بعت حزة	بذل وحررت المني بالمواهب
فقد سمتني البهران حتى أذقتني	عقوبة ذلاتي وسوء مناقبي
فها أنا مقصى في رضاك وقابض	على حد مصقول الذبايين قاض
ومنتزع مما كرهت وجاعل	هواك مثالا بين عيني وحاجبي

وفيها ما نرى من الندم على ما قدم ، أو يندر منه من خطأ
في حقه أو مساس من بعيد أو قريب بمقامه ، واظهار مدى ما
مسه لهذا الخطأ من البهران والبعد عن جنابه ، وقد كان يجد فيه
كل اطمئنان وهناء ، فهو اليوم في خوف البطش والهلكة في
أنحائها - فيشعر وكان الليالي تطارده في صورة وحش كاسر تعود
الفتك بالفرائس -

ويعود في آخر القول للتوبة معا هذا النفس على أن ينزع عن كل ما يكره ويجعل ذلك نصب عينيه . ويظل العتابي في تودده واعتذاره ولعله لم يجد من الرشيد استجابة أول الامر ، ولما ضاقت عليه الحيل رأى أن يقدم على أن يقف بين يدي الرشيد بنفسه ويتوسل للعفو عنه ، وعلى ما في هذا من الاقدام والمخاطرة الا أنه أثر أن يفعله . وتحايل للدخول على الرشيد ، فيقال انه دخل عليه سرا مع المتظلمين بغير إذن ، فمثل بين يدي الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين قد آذنتي الناس لك ولنفسى فيك ، وردتني ابتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكرك قناعة بغيرك ، ولنعم الصائن لنفسى كنت ، لو أعاننى عليك الصبر . وفى ذلك أقول :

أخفى المقام الفجر ان كان غرتي	سناخذب أو زلت القدمان
أتركتني جلدب المعيشة مقترا	وكفائك من مدام الندى تلقان
وتجعلني سهم الخطايح معلما	بللت يعينى بالنسلى ولسانى

فأعجب الرشيد قوله ، وخرج وعليه الخلع ، وقد أمر له بجائزة ، قال الراوى : وقعا رأيت العتابي قط أبسط منه يومئذ ، (١) .

واتصل حبل ما انقطع ، وعاود التردد على مجالسه ، وعاود الرشيد سماع علمه ومأثور حكمه وأقواله عما خبر وجرب من أمور الحياة ، وما قرأ ومارس من ضروب المعرفة . وذكر الحصرى أنه دخل على الرشيد فقال له : تكلم يا عتابي،

فقال : الایناس قبل الایساس ، لا یمدح المرء بأول صوابه ، ولا یندم بأول خطئه ، لانه بین کلام زوره ، أوعى حصره .

وبعد موت الرشید اتصل حيله بالمأمون ، ولم يذكر فی أخباره اتصاله بالامین ولا یعرف موقفه من النزاع بین الاثنين اثناءه . لكنه فیما یبدو قد ساءه قتل المأمون لأخیه ، وان كان قد التقى به أثناء خلافة أخیه ، ووجوده بخراسان .

وذكر الحصری أنه عاتب المأمون بعد أن لها عنه ولم یأذن له ، وكان قد سأل زيارته ان صار له من الامر شیء بهذه الابیات التي یمرض فیها بقتل أخیه وهدره به أو نکثه لما عقد الرشید . قال :

ما علی ذلك افترقنا بسندا ق ولا هكذا عهدنا الاخاء
لم أكن احسب الخلافة یزدا د بها ذو الصفاء الا صفاء
تضرب الناس بالثقة السمر على غدیرهم وتنسى الوفاء

فلما قرأ المأمون هذه الابیات أمر أن یدخل علیه ، فلما سلم قال : یا عتابی بلفنی وفیادتك فسرتنی ، وقد كانت یلفنی وفاتك فساءتنی ، وانی لحرى بالغم لیعدك والسرور یقربك ، فقال : یا امیر المؤمنین : أو قسم هذا الکلام على أهل الارض لوسعهم عدلا وأعجزهم شکرا ، وان لرضاک غایة المنی ، لانه لا دین الا بك ولا دنیا الا معك . . .

وقال : « وقفت مرة بباب المأمون انتظر مع یستاذن لی علیه فاذا أنا بیحیی بن اکثم ، فقلت استاذن لی حلی امیر المؤمنین . قال

لست بحاجة • قلت : صدقت ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل
معوان • قال : ملكك بي غير سبيلي • قلت : ان الله قد أتحفك بجاه
وهو عليك مقبل بالزيادة ان شكرت ، وبالتقصير ان كفرت • وأنا
لنفسك خير منك لها • أدهوك الى زيادة النعمة وبقائها عليك
فتأبها •

فدخل على المأمون وحكى له ما جرى بيني وبينه فاستحسنه
وأذن لي •

وقيل انه بلغ به من التقديم والاكرام أعلا محل •
واتصلت أسبابه بالمأمون وكانت تدور بينهما مساجلات
كلامية ، يدلى فيها كل بقدرته البيانية وخيرته ومدى علمه ، وكان
المتأبى قد اكتهل ، واتصل برجال دولته الكبار أمثال طاهر بن
الحسين ، وعبد الله بن طاهر •

وقد علا قدره ، واعتزل الحياة في بغداد فيما يبدو بعد أن
هرم ، وقعدت به السن عن السعي ، فالتزم منزله بالرقعة •

قال الحصري واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقعة بمنزل العتابي
فقال : • ليس هذا منزل كلثوم بن عمرو قيل : نعم ، فثنى رحله ،
ودخل عليه ، فالقاء جالسا في بيت كتبه ، فحادثه ، وذاكره ثم
أنصرف • فتحدث الناس في ذلك وقالوا : ان الأمير لم يقصد ،
وأنا اجتاز به فاضطر الى ذلك الزيارة • فكتب اليه :

يا من أفادتني زيارته بعد الغموق بناهة الذكر
قللوا الزيارة خطرة ومجاز خطرک ليس بالخطر
فندفع مقاتلهم بثلاثة تستنقذ المجهود من شركي
لا تجعلن الوتر واحدة ان الثلاث تنمة الوتر

فبعثه الابيات الى أن زاره ثلاثا .

صلاته بشعراء عصره :

وكان للعتابي صلاته المتعددة يكبار شعراء عصره ، ومنهم
بشار بن برد الذي تأثر به في اتجاهه الفني ، وأبو نواس ،
ومنصور النمرى ، والعباس بن الاحنف .

وتروى كتب الادب بعض ما دار بينه وبينهم من مطارحات
شعرية أو مناظرات ومحاورات . وما يروى من ذلك قولهم انه
لقى أبا نواس مرة فقال له : أما تستحي من الله بقولك :

واخفت أهل الشرى حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

فقال له أبو نواس : وأنت أيضا أما استحييت من الله بقولك :

ما زلت في غمرات الموت مطرعا يضيق عني وسع الرأي من جبل
فلم تزل دائما تسعى بلفظك لي حتى اختلست حياتي من بيني أجل

فقال للعتابي : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ، ولكنك
أعددت لكل سؤال جوابا (١) .

وكان الرشيد أمر بحبس أبي نواس حتى يدع الخمر فقال في
الحبس :

قل للخليفة انى حتى أراك بكل باس
من ذا يكون أبا نوا سك أن حبست أبا نواسك
ان انت لسم ترفع به واسا هديت فنصف رأسك

فقال العتايى : ما أحسن نصف رأس الخليفة يرفع ! فقال له :
« جعلنى الله فداك يا أبا عمرو لا تنبههم لهذا فتهلكنى » (٢) •

ومر العتايى بأبى نواس وهو ينشد :

ذكر كرخ نازح الاوطان فبكى صبوة ولات اوان
فلما رآه قام اليه ، وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك ،
وأنت القائل وقد أنصفك الزمان :

قد ملقنا من الغصيب حبالا امتنبا طوارق العدنان

وأنا القائل وقد جار حلى وأساء الى :

لفظتنى البلاد وانطوت الالفباء دولى وملنى جيرانى
والتفت حلقة على من الدهمسمو فعاجت بكل كل وجران
نازعتنى أحداثها مبنية النفس بس وهنت أحداثها أركانى
خاضع للهموم مقترق القلب سب كتيب لثانيات الزمان

وقد توفى أبو نواس قبله ، وعاش بعده العتايى حتى •

وكان ممن عاشره من الشعراء متصور التمري ، وهو شاعر

مشهور من شعراء العباسيين ، من الجزيرة الفراتية ، التقى
بالمعاني فلزمه وتعلم عليه وكان راويته . وذكر أبو الفرج
أنه أخذ عليه وبمذهبه تشبه في الشعر .

وقد فسدت الحال بينهما وتباعدت لأمور لا تعرف تفصيلها
ولكن نقف على آثارها بعضها من نقده شعره من ذلك ما يرويه
الزجاجي في مجالس العلماء قال : قال أحمد بن الحارث الخزاز :
أنشد المعاني كلثوم بن عمرو :

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

فقال له منصور النمرى : العصافير تتكلم ؟ فقال المعاني : نعم
تتكلم وتنطق ، ويقال ذلك لما أعرب عن نفسه بحال ترى فيه
فيقال : أخبرت الدار بكذا ، وتكلمت بكذا فكيف ما له نطق ،
أما سمعت قول كثير :

سوى ذكرك منها إذا الركب عرسوا وهبت عصافير الصريم النواطق

وقبول الكميت :

كانا نطقان العاصفان ت الواسقات من النواثر

قال فسكت المنصور منقطعا (١) .

وسمى منصور النمرى بالمعاني إلى الرشيد ، فغضب عليه
وأحل دمه ، وطلبه فستره جعفر بن يحيى . وما زال يتحایل
للرشيد حتى استل ما في نفسه وأمنه وعاد إليه (٢) .

(١) مجالس العلماء للزجاجي ٢٣ .

(٢) الأغاني ١٢/١١٩ .

وروى أبو الفرج أن منصوراً التمرى شكا العتابي إلى طاهر
ابن الحسين فوجه طاهر إلى العتابي فأحضره ، وأبقى منصوراً في
بيت قريب منهما ، وسأل طاهر العتابي أن يصلحه ، فشكا سوء
فعله به ، فسأله أن يصفح عنه فقال لا يستحق ذلك - فأمر المنصور
بالخروج فخرج وقال للعتابي لم لا أستحق هذا منك - فأنشأ
العتابي يقول :

أصحبك الفضل إلا أنت تعرفه	حقاً ، ولاتك في استصحابه أرب
ثم ترتبطك علي وصلني معافطة	ولا أعاذك مما أعتا لك الإيب
ما من جميل ولا عوف نطقت به	إلا إلى وإن اتكبرت يتنسب

قال فأصلح بينهما طاهر (١) :

بلاغته وأدبه :

واجتمع للعتابي الثقافة والاطلاع ففى الكتب ، ويبدو مما
وصلنا من أخباره أنه كان طلمة محباً للكتب والدفاتر ، فقد مر
عليه بعض جيرانه ذات يوم وهو ينظر فى كتاب فقال : أيش ينضع
العلم والادب من لا مال له ؟ فأنشد العتابي يقول :

يا قاتل الله القوام إذا تقفوا	ذا اللب ينظر فى الآداب والحكم
قالوا وليس بهم إلا نفاسه	أنافع ذا من الافتار والعلم
وليس يدرون أن الخط ما حرما	لناهم الله من علم ومن فهم (٢)

(١) الاغانى ١٣/١١٨ -

(٢) الاغانى ١٣/١١٨ -

كذلك يروى أنه كانت له بمنزله بالسرفة « بيت كتب »
اجتاز به مرة عبد الله بن طاهر فوجده جالسا فيه (١) .

وكان كاتباً عالماً يطرق الكتابة والاقلام وما إليها حتى أن
الاصمعي سأله مرة فقال له : أي الاناييب أصلح للكتابة ؟ وعليها
أصبر فقال - ما تشفى بالهجير ماءه ، وستره عن تلويحه غشاؤه ،
من البرية القشور الدرية الظهور . القضية الكسور . قال : فأى
نوع من البرى أكتب وأصوب . قال له : البرية المستوية
القط . . . الخ (٢) .

وتروى فى بلاغته وقوة يديته ، وقدرته على الترميل والتنظم
أخبار كثيرة متعددة . فالجاحظ يقول : « ومن الخطباء الشعراء
من كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان
الحسن كلثوم بن عمرو العتابي ، وكتبه أبو عمرو ، وعلى ألفاظه
وضروته ومثاله فى البديع يقول جميع من ينكلف مثل ذلك من
شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الانصارى
وأشباههما (٣) .

وقال الجاحظ : « وكان العتابي يحتذى حذو بشار فى البديع ،
ولم يكن فى المولدين أصوب يديما من بشار وابن حرمة والعتابي » .

(٣) زحر الآداب ٦٢١ .

(٤) زحر الآداب ٦١٩ .

(١) البيان والتبيين طبع مارون ٥٠/١ .

وقال الجاحظ : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجلهم فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان - والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشمار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع » (٢) .

كذلك ذكره ابن المعتز فى طبعاته وقال : « وكان العتابى مصورا على الشعر ، عذب الكلام كاتباً جيد الرسائل حاذقاً - وقلماً يجتمع هذا لاجد (٣) » .

وقال ابن المعتز : « ما سمعت كلاماً قط لاجد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى وما رأيت كاتباً تعلو الشعر مع الكتابة الا وجدته ضعيف الشعر غيره ، فانه كان فعل الشعر - جيد الكلام » (٤) .

وقال فيه أبو الفرج : « شاعر مترسل بليغ مطبوع ، منصرف فى فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية » (٥) .

وقال عنه الحمصى فى زهر الآداب : « وكان صاحب بديهة فى المنظوم والمنثور حسن العقل والتميز ، والعرب تقول : من تمنى رجلاً حسن العقل ، حسن البيان ، حسن العلم تمنى شيئاً عسيراً - وقد أصبح ذلك كله للعتابى (٦) » .

(٢) البيان والتبيين طبع هارون ٥٥/٤ .

(٣) طبقات الشعراء المحدثين ٢٦٢ .

(٤) طبقات ابن المعتز ٢٦٢ .

(٥) الاغصان ١٠٩/١٣ .

(٦) زهر الآداب ٦٢٠ .

ومما يروى من كلامه المنثور ، مقتطفات متفرقة يدور معظمها حول تجارب الدهر والحياة ، مسوقة في قالب حكمة ، في أسلوب موجز ، فيه كثير من القدرة البلاغية والالمام بمواطن الكلام حتى أنه قد يعمق أو يفض أحيانا على السامعين .

فمن ذلك قوله : « حظ الطالبين من الدرك يجب ما استصبحوا مع الصبر » .

وكتب يقول : « أما بعد فإنه ليس بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروهيه ومن انتظر بمعالجة الدرك مؤجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته » .

وكتب الى بعض اخوانه (١) : « لو اعتصم شوقي اليك بمثل سلوك عنى لم أبذل وجه الرغبة اليك ، ولم أتجشم مرارة تماديك ، ولكن استخسنتنا حبايتنا فاحتملنا قسوتك العظيم قد مودتك ، وأنت أحق من اقتصص لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من أبطائه » .

وله : « كتبت اليك ونفسي رهينة بشرك ، ولساني علق بالشئام عليك والغالب على شميري لائمة لنفسي ، واستقلال لجهدى فى مكافأتك وأنت أصلحك الله فى عز القنى غنى ، وأنا تحت ذل الفاقة الى عقوبك وليس مع اخلاقك أن تولى جانب النبوة منك من هو عان فى الضراعة اليك » .

وقال : أما بعد . فإنه ما بين مستخلص غضارة عيش إلا من

(١) زهر الآداب ، ص ٩٨٦ .

خلال مكروه ومن انتظر بمماثلة الدرك مؤجلة الاستقصاء سلبته
الايام فرصتها » -

وكتب الى آخر : « من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع
فيك ، وانتجاز الى مؤامريك لم يخش المطنب في الثناء عليك أن
يكون مفرطاً لما لا يأمن من أن يكون مفرطاً فلاعتراف بالعجز
عن بلوغ اسنحقاتك من التفريط أولى من الاطناب الذي غايته
التقصير ومآله الى الحشو » (١) -

وقال يصف رجلاً بليفاً : « كان يظهر ما غمض من الحجة ،
ويصور الباطل في صورة الحق ، ويفهمك الحاجة من غير اعادة
ولا استعانة » قيل له : وما الاستعانة ؟ قال : يقول عند مقاطعة
كلامه : يا هناه ، واسمع ، وفهمت وما أشبه ذلك وهذا من امارات
العجز ، ودلائل النقص ، فانما ينقطع كلامه فيحاول وصله بهذا
فيكون أشد لانتقاطه » (٢) -

وقال في البلاغة : البلاغة هو الكلام بمبانيه اذا قصر ، وحسن
التأليف اذ طال (٣) -

وذكر له الجاحظ أقوالاً في البلاغة قال : « حدثني صديق لي
قال : قلت للحنائي : ما البلاغة قال كل من أفهمك ما فيه من غير
اعادة ولا حبسه ولا استعانة فهو بليغ ، فان أردت اللسان الذي

(١) معجم الادباء من ٧١٥ ج ٦ -

(٢) زهر الاداب ١/١٠٦ -

(٣) زهر الاداب ١/١٢٧ -

يروقه الالسنه ، ويفوق كل خطيب ، فاعلها ما غمض من الحق
وتصوير الباطل صرورة الحق » (١) .

وقال في البلاغة : رسائل المرء في كتبه أول على مقدار
عقله ، وأصدق شاهدا على غيبة لك ، ومعناه فيك ، من اصفا
ذلك على المشافهة والمواجهة » (٢) .

وقال ينخطب : « أما بعد فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق
من تركه تزكية نفسه ولا يعبر عنه في تزكية أصعابه أصدق من
اعتماده برعيته ، وانتمائه إياهم على حرمانه » (٣) .

وقال العتايي : « الشيب تاريخ الكتاب » لان تاريخ الكتاب
يكون في آخره .

وكان لهذه البلاغة والحكمة ، تعتبر أقواله من المأثورات التي
تحفظ ويرويها العلماء والادباء . وقد روى أن يحيى بن خالد
قال لولده : « ان قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتايي
فضلا عن رسائله وشعره فلن تزدا أبدا مثله » (٤) .

شعره :

وأما شعر العتايي فقد اختلف الناس فيه ، فمن قائل أنه

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٢١ .

(٣) البيان ٢/ ١٤١ -

(٤) الاغانى ١٣ / .

فيه كزازة وروى المزياني ذلك فقال : ذكروا العتابي فقال رجل :
هو كز لا رقة له وروى أبو الفرج مثل ذلك ، وقد مدح ابن المعتز
شعره فقال : « واشعار العتابي كلها عيون ليس فيها بيت
ساقط (١) » ، وروى له بعض مختار شعره ومنه قصيدته :

ومي القلب بأس من سليمي فاقصدا . وكان بها هيامة القلب مهندا

وقال ومن شعره :

ودت اليك ندامتي أملي وثني اليك عتابة شكري
وجعلت عتبك عتب موعظة ورجاء عفوك منتهى هلاكي

واستحسن له أيضا :

تجنب دار العارمية انها تكلفه مهد الصبا والكواعب
منازل لم تنظر بها العين نظرة فتقلع الا عن دموع سواك
ولا وصل الا أن تعالج مطية على دارس الاعلام حافي الملاعب
وقال دعبيل : ما حسدت أحدا قط على شعر كما حسدت العتابي هلي
قوله (٢) :

هبة الاخوان قاطمة لاخي الحاجات عن طلبه
فاذا ما هبت ذا أمل مات ما أملت من سببه

وذكر أبو الفرج أن جماعة تناشدوا شعر العتابي فقال
بعضهم : فيه تكلفة ، ونصره بعضهم فقال شيخ ماضر : ويعكم
أن يقال أن في شعره تكلفا وهو القائل :

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ٢٩٤ .

(٢) الاغصاني ١١٦/١٣ .

رسل الغمير اليك تتوى بالشوق ظالمة وحسرى
ما جف للعينين بعدك يا قرير العين مجرى
فاسلم سلمت مبرءا من صبوتى ابدا معرى
ان الصباية لم تلدع منى سوى عظم مبرى
وملزمع عبرى على كبد عليك الدهر جرى

أو يقال أنه متكلف وهو الذى يقول :

قلو كان للشكر شغص يبين اذا ما تأمله الناظر
كمقالاته لك حتى تراه لتعلم انى امرؤ شاكر

ووازنوا بينه وبين بعض شعراء عصره فروى المرزبانى والحصرى
مناظرة أبى أحمد على بن يحيى بن المنجم رجلا يعرف بالثقفة
الموصلى فى العباس بن الاحنف والمفتاوى - فعمل على فى ذلك
رسالة أنقدها اليه .

البحترى

(٢٠٦هـ - ٢٨٥هـ)

هو الوليد بن عبيد الله البحتري الطائى ، ونسبته البحتري الى أحد أجداده بحتري . ولد بمنبح سنة ٢٠٦ هـ بالشام ، وتقع بين الفرات وحلب على مفترق الطرق التجارية القديمة الواصلة بين المشرق والمغرب عبر الجزيرة الفراتية وشمال الشام .

ونسبته الطائى الى قبيلة طيء فقد كان منها والده ، أما أمه فكانت شيبانية ، وأتيحت له نشأة عربية خالصة فى بلده منبح ، وفى باديتها وكان أهل منبح على عهده عربا خلصا ، ويضرب فى باديتها بطون من طيء تصل ما بينها وشواطئ الفرات .

وعاش البحتري معظم شبابه فى بلده ، وتنقل فى مطلع شبابه فى بعض مدن الشام والتقى بأبى تمام فى حمص فسمع منه الشعر وشجعه ، وكتب الى بعض معارفه ومعدوحيه بمعة النعمان وغيرها يقرضه ويقدمه شاعرا .

ويبدو أن البحتري لازم أبا تمام زمنا ، وتخرج عليه فى قول الشعر ، فهو يقر بامتازيته ، واقتدائه به ، وربما اعتمد على شعره فى كثير من لفظه ومعانيه على ما بين بعض النقاد .

وظل تنقل البحتري فى البلاد حتى بلغت به قدمه بغداد

عاصمة الخلافة ، وهناك التقى ببعض العلماء والشعراء ، وحظي
في مجالس السادة من القيادة وكبار الكتاب والوزراء ، وتقدم
بمدائحه اليهم فنال ما تمنى من القربى والمال والشهرة .

وقدّمه أحد ممدوحيه الوزير الفتح بن خاقان الى الخليفة
المتوكل فلقى لديه قبولا وقربه ، وصار شاعره الاثير . يكثر
حضور مجالسه ومتادمته ، وشهد في النهاية مقتله هو ووزيره
على يدى أحد جند الاتراك .

وغادر الباحثى بغداد في رحلات ينتجع بلاد المسلمين طالبا
المطام وقاصدا بشعراء الامراء والولاة . ولقى بمصر خمارويه
الطولوثى فمدحه ، وبقي بجواره زمنا .

واتصاله بالخليفة العباسى وكبار رجال دولته قهر له السبيل
كى يكون شاعر الدولة الرسمى ، وداعية عباسيا . وقد ذكر
الملء أنه كان عباسيا في اتجاهه الرسمى اذا تحدث عن حقهم
في الخلافة والامامة وأشاد بهم ، ونافح عنهم ضد من ينكرون
حقهم ذاك . وفي مدائحه المتوكل تملو هذه النغمة ، فهو عنده
الذى أحبب السنة بعد أن أصبح الناس حيرى بعد أن ضلوا في
رأيه بغلبة الاعتزال وعلم الكلام . فقد نصر المتوكل أهل السنة
على المعتزلة بعد أن غلبوا على بلاط الخلافة منذ زمن المأمون .

يقول :

اسلم أمير المؤمنين لسنة احييتها والناس حيرى ضل

وإذا كانت العباسية هي لونه الرسمي فإن لاقوال العلماء في حقيقته اتجاهها آخر ، ذلك أنهم رموه بالتقلب والتحول ، يكون معتزليا ثم يتغلى عن ذلك ليصبح سنيا • يروى المرزبانى أنه قيل له : ويعك ! أتقول :

ويجرفون كلامه المخلوقا

أصرت قدريا - يعنى معتزليا ؟ - فقال : كان هذا دينى أيام الوثاق ، ثم نزعته عنه أيام المتوكل •

البخترى الرجل :

كان البخترى لا يحسن اختيار بزته ، طويل اللحية ، رث الهيئة • وقد تواترت الاخبار فى ذلك ، واتخذها بعض أعدائه من الشعراء سبة له ، يهاجمونه بها • وقالوا عنه : كان من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة ، وأبتلهم على كل شيء ، وكان له أخ و غلام معه فى داره ، فكان يقتلها جوعا ، فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبيكان فيرمى اليهما يثمن أقواتهما مضيقا مقصرا •

وكان يلزمه غلام له اسمه نسيم لا يطيق فراقه ، أكثر من ذكره فى شعره ومنه قوله :

دعا عبرتى تجرى على الجود والقصد	أظن نسيمًا قارق الهم من بعدى
خلا ناظرى من طيقه بعد شخصه	فيا عجباً للنهر فقد على فقد

وكان نسيم غلاما روميا ليس بحسن الوجه ، وكان قد جعله بابا مع أبواب الحيل على الناس فكان يبيمه ويعتمد أن يصيره الى

ملك بعض أنامل المروءات ، ومن ينفق عنده الأدب فاذا حصل في ملكه شبيب به وتشوقه ومدح مولاه • حتى يهبه له ، فلم ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره •

وكانت هيئة البحتري عند انشاده الشعر تدعو الى السخرية منه • اذ كان من أقبح الناس انشادا • يتشادق ، ويتزاور في مشيه مرة جاثبا ومرة القهقري ، ويهز رأسه مرة ، وفكه أخرى ، ويشير بكفه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله • ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت 19 • هذا والله ولا يحسن أن يقوله أحد •

شاعريته :

وقال البحتري شايا ، وكان يحب غلاما من أهل منبج يقال له شقران لقيه وقد نبتت لحيته فقال :

نبتت لحيته شقرا ن شقيق البقي بعلى
حلقت ! كيف اتته قبل أن ينجز وعلى
ويروى أن هذا أو شعر له قاله • ومن أوائل شعره كما يروى عن ابنه قوله يفتخر :

انما الفى أن تكون رشيدا

وقوله يصف الذئب : سلام عليكم لا وفاء ، ولا عهد

وقد التقى البحتري بعد أن نضج بأبى تمام فعرض عليه

وكان يقدمه ويحترمه ، ويجلس شمره ، وقدمه الى ممدوحيه
استاذيه .

ولما نضج في فنه واشتهر ارتحل الى بغداد يطلب المجد . في
مديح عالية النظم ويعمى النفس ببلاط الخليفة . وقد التقى
ببغداد بكثير من رجال العلم ، والادب وكان يتردد عليه منهم
الميرد . كان يقدم عليه في مسجده الذى يجلس فيه لالقاء دروسه .
وكانت صلاته ببعض أدياء عصره كمبد الله بن الحسين القطريلي
وطيدة . وقد مدحه بقصائد منها :

خان مهدي معاودا خون مهدي

وقوله :

أفلا بذ لكم الخيال المقبل

وقوله :

أنت وهل ألامها لك نافع

ويتصل بالفتح بن خاقان ، ويقترب منه وتطول ملازمته
له ، فيفدق عليه من ماله الكثير ويستغنى مما يخلع عليه ، وله
فيه القصائد ذوات المدد ، والتي تعدو درر شمره مع قصائده في
التوكل .

ويشير النقاد الى اعتذاراته لابن خاقان فيرونها من أجمل
شعر الاعتذارات بعد النابغة ويقول في الفتح :

وانت الذي أمرتني بعد ذلتي فلا القول مفضوض ولا الطرف خاشع
وافيتني من معشر كنت برهة اكافهم من نيلهم واقارع
ملت ابالي جاد بالذي باذل على راغب او ضن بالخير مانع

مكافاة البحتري الشعرية :

كان ابن المعتز يقول : « لو لم يكن للبحتري من الشعر الا
قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى فليس للعرب سنية مثلها »
وقصيدته في وصف البركة :

ميلو الى الدار من ليل نعيها

واعتذاراته في قصائده الى الفتح بن خاقان ، ليس للعرب
بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها . وقصيدته في ابن دنيار
التي وصف فيها ما لم يصفه أحد قبله التي أولها :

ألم تر تفليس الربيع المبكر

ووصفه حرب المراكب في البحر . لكان أشعر الناس ، فكيف
إذا أضيف هذا الى صفاء مدحه ورقة نسيبه في قصائده ؟ !

وكان ابن المعتز كثيرا ما ينشد له ، ويتمجب من جودته .

وكان أبو تمام يرى فيه مغايل شاعرة مبكرة حين التقى به
في بدء قوله الشعر ، وقدمه الى أهل المعرة ، ويقال ان أول لقاء
بينهما كان في حمص .

وكان البحتري كثيرا ما يذكر ابا تمام وفضله عليه كلما
سئل عن أشعر فيهما أهو أم أبو تمام . وروى أنه قيل للبحتري :

الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام . فقال : والله ما ينفعني هذا القول ، ولا يضر أبا تمام . والله ما أكلت الخبز إلا به ، ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكني والله تابع له ، لاأئذ به أخذ منه . نسيمي تركد عند هوائه ، وأرضي تخفض عند سائه .

قال الصولي معقبا على هذا : « وهذا مع فضل البحتري أن يعرف الحق ويقر به ، ويذعن له واتى لأراه ينبع أبا تمام ومعانيه حتى يستعير مع ذلك بعض الفاظه فلا يقع إلا دونه » .

وسئل البحتري : أيكما أشعر أنت أم أبو تمام ؟ فقال : جيده خير من جيدي ، ورديني خير من رديئه قال الصولي : وقد صدق . جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه .

ويروى أنه اجتمع في دار عبد الله بن الحسين القطريلي ، وكان مهمما المبرد وجماعة من الفضلاء فسأله المبرد (وكان ذلك سنة ٢٧٦ هـ) وقد أنشد شعرا : أنت في هذا أشد من أبي تمام . فقال : كلا والله . ذاك الاستاذ الرئيس . والله ما أكلت الخبز إلا به . فقال له المبرد : تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك .

وقيل أن مع فضائله في الشعر سبقه إلى التخرية عن التبت .

أغراضه الشعرية :

وموضوعات شعر البحتري أو أغراضه عامة هي الأغراض الطالبة على الشعر العربي وشعر التكسب أو الاحتراف إذا جاز لنا

هذا التعبير في مجال الشعر . ومعظمه في المديح قصد به الخليفة العباسي وكبار معاونيه من الوزراء والكتاب والقادة والرؤساء .
مديحه :

وفي مديحه يعرف للمعاني العامة التي اعتادها شعراء العرب من اضافة صفات المثال الكامل للرجل ، وأولها بطبيعة الحال صفة الكرم ، والهيبة ، وكريم الشيم ، وتتردد في شعره بصورها التقليدية مع تلوين في المرض بما يناسب المقام .
فيقول :

ملك له في كل يوم كريمة	اقدام ليث واعتزام مجرب
وتراه في ظلم الوغى فتغاله	قمرا يشد على الرجال بكوكب

ويقول :

أعطيتني حتى حسبت جزيل ما	أعطيتنيه وديعة لم توهب
فنبعت من بر لديك ونائل	ورويت من أهل لديك ومرحب

ويمسح محمد بن بندر من معدوحيه فيقول :

بات ابن بندر لنا بدرا نهديه	سد الظلام اذا امتلعت ضياهيه
مناكر لدينيات الامور تقى	يزور عن جانب القعشام ، جانبيه

وقد يذكر البحتري عشيرة الممدوح أو قبيلة ، وهو اذا تناول الخليفة قائما يعرض لبني العباس وشمائلمهم وفضلهم على الخلافة وذ بهم عنها كل معتد أو ضال وخارج . ويذكر حمايتهم للاسلام ، واقامتهم لا علامة وبسطهم لفته وعملهم بين الناس - مع ما يضيفه الله عليهم من جلاله الامامة وبهاء الخلافة .

يقول في المتوكل وهو في مقدمة معدوحيه :

يعلو بقدر في القلوب معظم	ابدا وعز في النفوس جديد
في هضبة الاسلام حيث تكاملت	انصاره من عدة وعديد
احيا الخليفة جعفر بفعاله	افعال ابناء له وجدود
تكتشف الايام من اخلاقه	من هنى مهلى ورشيد رشيد
فاسلم امر المؤمنين ولا تزل	مستقبلا بالنصر والتأييد
نعتد عزك عز دين محمد	ونرى بقاءك من بقاء الجود

ويقول فيه :

خلق الله جنفرا قيم الدنيا — سدادا وقيم الدين رعدا
وشبيه النبي خلقا وخلقا ونسب النبي جدا فجددا

ويليه من معدوحه من رجال الدولة الكبار الفتح بن خاقان ،
وكان مقربا من المتوكل • ويشير البيهقي في مديحه الى مكانته
تلك مع الخليفة ، والى آياديه في حفظ الدولة والذب عنها •
يقول :

سالت دون بني العباس سيفوغي	يدعى وعزما اذا ضرمته ولدا
آثار يأسك في أعداء دولتهم	أضحت طرائق شتى بينهم قيدا
أما قتيل يغرق السيف مهجته	أو نازعا ليس بنوى عودة أبدا
حتى تركت قناة الملك قيمة	بالنصح لا عوجا تشكو ولا أودا

وهكذا تجد البيهقي يكيل الصفات العامة لمعدوحيه ، مثنيا
بما قد يناسب المقام من صفات خاصة تتصل بشخصه ومكانته
في الدولة أو في قومه ، وما يتولى من الاعمال • وهو نهج
سلوك تماوده الشعراء •

ولا جديد في هذه المعانى ، وجميل من البعثرى حسن
ديباجته ، وروثق عرضه لمعانيه القديمة الجارية • ونضرب مثالا
على هذا الجديد فى حسن العرض بوصفه لمهايته الخليفة •

فى المديح (الخليفة المتوكل) :

وللمبحثرى صياغة سلسلة تجرى مجرى الماء رقعة وعدوية ،
يعبر بها عن معناه فى وضوح لا يقدر عليه غيره • فيتناول معنى
من معانى المديح ، مهابة الخليفة ، فيمبر عنه تعبيرا جميلا رائقا
فيقول دون كلفة :

ولا حضونا سدة الائن أخرت	رجال عن الباب الذى انا داخله
تأقضى من قرب الى نى مهابة	الابل يدر الالق حين القابل
الى مسرف فى الجود لو ان حاتما	لديه لاسى حاتما وهو عاذله
بدا الى معمود السجية شموت	سرايطه عنه وطالت حمائله
كما انتصب الرمح الردينى ثققت	أنايبه للطنن ، واهتز عامله
وكالبدر وافته لثم سعوده	وتم سناه واستهلت منازل
فسلمت واعتاقت جناتى هيبة	تنازلنى القول الذى انا قائله
فلما تأملت العلافة وانثنى	الى يبشر آتستنى مغائله
دنوت فقبلت النلى فى يد امرىء	جميل معياه سباط انايه
صفت مثل ما تصفو الدام خلاله	ورقت كما رق للتنسيم عمائله

وقد أعجب النقاد هذا العرض فقالوا لم يقل أحد فى مثل ما قال •

وتتسم قصائد المبحثرى فى المديح بسمات هذا الموضوع فى
الشعر العربى عامة ، وهو موضوع غايته التكسب أى أن يحصل
الشاعر من ورائه على المال ، وتركت هذه الغاية أثرها فيما

يقول ، كالتعريض بالطلب ، أو الشكر الذليل رغبة في زيادة
المطام ، أو الشكوى من الحاجة والفقر ، واللهفة على أن يكون
للشاعر يفضل المدح ما يكفيه ، ويروى غلته ويسد حاجته .

وللبحتري في هذا كثير من الشعر لا يدخل مداخل الفن ،
بل هو أقرب الى السؤال والاستجداء .

يقول للحسن بن سهل :

أتى عليك ثناء من الفتيه ففلا فماد بنعمة موسوما

ويقول للمخليفة المتوكل :

أمنت به الدهر الذي كنت أتقى ونلت به القبر الذي كنت أمله

ولكن قصائد المديح بعد ذلك تكون مجالا - أحيانا - لأن يكشف
الشاعر عن شاعريته وفنه بعد أن يفرغ من غايته تلك .

بناء القصيدة عند البحتري :

يبدأ في القصيدة التقليد بمطالعة التقليدي في النسيب أو
الغزل ، وفي النسيب قد يذكر الديار والنزوح - والفراق ،
ويذكر الشيب والشباب المولى .

يقول مثلا :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله وأبدى الجواب الربيع عما تسائله

أفي ذاك برء من جوى ألهب الحشا توقده واستغزر الوضع جائله

هو الدمع موقوف على كل نعمة تمرج فيها أو خليط تزايله

وهو مفتن في تنويع هذا المطلع ، يمرضه في صور متعددة - كان
يقول مثلا :

عهدى بربك ما نوسا ملاعبه	أشبه أرامه حسنا كواعبه
يشين نلصب في صفو الهوى كثيرا	ان وخط شيب أعدته فوائبه

أو يقول :

لدارك يا ليل سماء تجودها	وانقام ربح كل يوم تمودها
وان خف من تلك الرسوم انيسها	واخلق من بعد الانيس جديدها
منازل لا الايام تعدى على البلى	رباها ولا ادب الخليط يعيدها
وعهدى بهامن قبل ان يحكم النوى	على عينها ان لا تدوم عهدها

والى جانب عرض البحترى للمعاني التقليدية في النسب والغزل من
ذكر للديار ، والدعاء لها بالسقيا وذكر معتادها من الوحش من
العين والظباء ، وذكر الرحيل والفراق وآلامه ، والذكرى ،
واستعدادها واستعادة الايام الخوالى - الى جانب هذا كله نجد
البحترى يهتم بالخيال ، أو حليف محبوبته ، فيسترجع به تلك
الذكرى الماضية ، ولعل هذا الجديد الذى أدخله على هذا المطلع .

يقول :

أرجم في ليل الظنون وأرتجى	أواخر حب خلفتني أوائله
وليلة هو منا على العيس أرسلت	يعطى خيال يشبه الحق ياطله
قلولا بياض الصبح طال تثبتي	بعطى غزال بت وهنا اغاذه
وكم من يد ليل عندى حميدة	وللصبح من خطب تلم قوائله

وقد يبدأ مباشرة بذكر الطيف فيقول :

قد كان طيفك مرة يفرى بي يعتاد دكتي طارقا ووكاسي
فالان ما يزدد غير مغبة ومن الصدود زيادة الاغباب

ثم يبدأ بعدها بذكر الديار فيقول :

جتنا نحبي من اثيلة منزلا جدنا معاليه بنى الانصاب
اقى الى العهد من مرقانه حتى يكاد يرد رجوع جواي

وقد يبدأ بداية تقليدية دون تجديد - كان يقول :

ارسوم دار لم سطور كتاب درست بشاقتها مع الاحقاب
على أن للبحرئى صورا عذبة الوقع رقيقة الخطوط على تقليديته
يقول :

ترنو فتقلب القلوب للمعشها موفى السلو صحاح الوصاب
رفعت من السجف النيف وسلمت ياناسلي منهن درس خصاب
وتعجبت من نوعتى فتبسمت عن واضعلت لو لثمن مذاب

واذا خلص البحرئى من هذا المطلع لم يحسن الانتقال ، وقد أخذ
عليه هذا ، فقال النقاد لم يكن يحسن التخلص الى عرضه -

ومن جديد شعره :

وصف معركة بحرية بين المسلمين والروم - يقول يصف
قائدا مسلما بحريا :

ولا تولى البحر والجود صنوه غدا البحر من اخلاقه بين ابصر
اضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبر

إذا شجروه بالرماح تكسرت
غدون على الميمون صبحا وانما
أطل بمطفيه ومسر كانما
إذا زمجر النوتى فوق علاته
يقضون دون الاشتيام عيونهم
إذا عصفت فيه الجنوب أعتلى له
إذا ما اتكفا في هبوة الماء خلته
وحولك ركايون للهول عاقروا
تميل المنايا حيث مالت أكتهم
إذا رشقوا بالنار لم يك رشتهم
صدمت بهم صهب العثانين دونهم
يسوقون أسطولا كان سفينه
كان ضجيج البحرين رماحهم
تقارب من زحطهم فكانما
قمارمت حتى أجلت الحرب عن طلي
على حين لا تقع تطوحه الصبا
وكدت أين كسرى قبل ذا الويعده
جدحت له الموت الذعاف فعاثه
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها
إذا الموج لم يبلغه أدراك عينه
تعلق بالأرض الكبيرة بعضها

عواملها فى صدر ليث غضنفر
غذا المركب الميمون تحت المظفر
تشرف من هادى حسان مشهر
رأيت خطيبا فى ذؤابسة منبر
وقوف الجمادى للعظيم المؤمر
جناحا عقاب فى السماء مهجر
تلفح فى أثناء يرد محبر
كؤوس الردى من دارعين وحس
إذا أصلتوا حد الحديد المذكر
ليقلع إلا عن شوله مقتر
ضارب كأيقاد اللظى المتسحر
سعائب صيف من جهام ومطر
إذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تؤلف من أحناق وحش منفر
متطعة فيهم وهام مطير
ولا أرض تلقى للصريع القطار
مليا بأن توهى صفاة لين قيصر
وطار على ألواح شطب مسمر
عليه ومن يول الصنيعة يشكر
لنى فى انحدار الموج لعطة أفرد
تنقصه جرى الردى المتعطر

ابن الرومي

(٢٢١هـ - ٢٨٣هـ)

هو الشاعر الكبير الفتيان علي بن العباس بن جريح أو جرجيس ، أو جرجس وكان وفق نظام المجتمع آنذاك مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر ، أحد بني العباس . وينتمي في أصوله إلى العنصر اليوناني ، فجدّه كما هو ظاهر من اسمه منه .

ولد سنة ٢٢١ هـ ببغداد بجوار قصر مولاه عيسى بن جعفر بن المنصور . في بيت كان صاحبه مولى لأمير عباسي كبير . وقد اكتسب جانبا من الجاه والمال من مولاه . وكان العباس بن جريح على ما يبدو مثقفا ، حرص على تثقيف أبنائه وتربيتهم تربية لائقة .

وقد عاصر ابن الرومي في بغداد تغيرات سياسية واجتماعية كبرى في الدولة العباسية . شهد في صباه سيطرة الفكر الاعتزالي ، والفلسفة ، واتجاه العلماء إلى الكلام ، وتغير الخلفاء على أهل السنة والحديث . ثم رأى في شبابه التحول الكبير في عصر المتوكل إلى جانب أهل السنة ، وتعقب المعتزلة والمتوكلين ، وتشريدهم وتمنييهم .

وشاهد كذلك بعض الثورات الشعبية من شطار بغداد وعامتها على القادة والجند الاتراك تارة ، وعلى بعض الخلفاء والوزراء تارة أخرى .

ونضج الشاب ابن الرومي ، فارتاد قصور السادة والامراء
والوزراء من رجال الدولة الكبار وقد عاصر من هؤلاء جماعة من
بينهم سليمان بن وهب ، وعبيد الله بن خاقان من وزراء المعتمد ،
وأبو الصقر سليمان بن بلبل الذي نسب نفسه الى شيبان وكانت
صلة الشاعر به قوية ، بين قريبي وبعد ، مدحه فيها وهجاه ، ثم
تقرب الى آل وهب وعلى الاخص عبيد الله والقاسم ونسب اليه موت
ابن الرومي ، فيما قيل انه دس عليه السم في طعام لاقداعه في
هجائه -

هذا وقد عاش ابن الرومي حياة بغداد في القرن الثالث
الهجري بفرحه وترحه ، مباهجه ومتفصاته ، فكان ترجمانا صادقا
له ، لما رزقه الشاعر من حس صادق - وملكة مصورة ومقدرة
على استخدام اللفظ - مما مكنه من التقاط مشاهد الحياة
وتسجيلها بالكلمة -

ومعظم ما صورده من بيئة بغداد الشعبية ، وقد عيب عليه
في بلاطات الكبراء هذه الصور الشعبية ، بالمقارنة مع صور ابن
المعتز المشرقة بالنعمة والثراء - روى ابن رشيق قال : ان لاثما
لامه فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز ، وأنت أشعر منه ؟ -
قال : أنشدني من قوله الذي استعجزتني في مثله - فأنشده في
صفة الهلال -

فانظر اليه كزورق من فضة قد أثقلت حمله من غير

فقال زدنى - فأنشده :

كان أذريونها والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح : واغوثاء ! - بالله لا يكلف الله نفسا الا وسعها - ذلك انما
يصف ما عون بيته لانه ابن الخلفاء ، وأنا أى شىء أصف ؟
ولكن أنظروا اذا وصفت ما أعرف ، أين يتبع الناس كلهم متى ؟
هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس القمام :

وقد نشرت أيلى السحاب مطارفا على الأرض دكتنا وهى خضر على الأرض
يطرزه قوس القمام بأصفر على احمر فى اخضر وسط مبيض
كاذيال خود أقبلت فى قلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى من قصيدة فى وصف الرقاقة :

ما انس لا انس خباذا مروت به يلحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تتداح دائرة فى لجة الماء يطقى فيه بالبحر

وتقلبت الحياة بأبى الرومى بين حلو ومر ، وكانت له من
شخصيته ، وقلة حظه بين الناس وتوتره ، وتخوفه ، وتشاومه
وطيرته ما مكن لهذا الاحساس فى نفسه ، فأحس بتعاسة واقعة فى
حياة مليئة بالبهجة والسرور ، ينهل الناس فيها ويميلون ، وكانت
تعاوده بين الحين والحين ساعات الطرب ، والنشوة حين تزهو له
الدنيا ، وتوطين له كنفها ولكنها كانت ساعات قليلة يعغنى فيها
فتحس باللذة والمتعة فى كلماته .

ويعصور ابن الرومي حياته تلك الضيقة، التي ألحت فيها عليه
ضروب المعاناة والمنغصات فيشكو متوجها ، يحسد الهائنين قائلا :

حرمت في سنى وفي ميعتى	قراى من دنيا تضيقتها
كم أمة لي قد تاهتها	فيها ، ومن اق تافقتها
أغدو ، ولا حال تسختها	فيها ، ولا حال تردفتها
أوسعتها صبرا على لومها	إذا تقصته تطففتها

وهكذا كانت حال الشاعر في دنياه الجندادية ، بين أمل كبير
في الشهرة وبلوغ المكانة في الشعر وهو جدير بها ، وبين من
الحياة ، وقنوط من بلوغ ما يريد . وقد لازمته شهرة أذاعتها طبع
فطر عليه ، شؤمه وطيرته . ورويت في هذا نوادر تناقلها
معاصروه ، فكانت مادة للمداغبة أو المشاكسة .

قالوا انه يتطير من قطة سوداء تعترضه اذا هم بالخروج من
بيته ، فيرتد ليقبح طوال يومه لا يخادره . وقالوا ان صحبته
تكسب نحسا فتعاشاه الناس وأقربهم اليه . وأثار هذا فيه
غضبا ، وزاده توترا ، فلزمته سوداوية نظر من خلالها الى العصر
وأهله ، قبادرهم بهجاء لاذع مرير ، يصب فيه مرارة نفسه ،
وينفس عن كربته . واتخذ الكلمة سلاحا لتقمته .

وزاد هجاؤه من وحشته وانصراف الناس من حوله ،
وابتمادهم عنه للسانه

وكانت في طبع ابن الرومي حدة وتطرف ، كان اذا أحب

أحببتهم ، وأقبل على من يحب أو ما يحب بكل جوارحه ، وإذا
كره كرهه في عنف ، وأحس فيما يكره وفيمن يكره كل خصائص
الشر والقبح .

وقد أهل ابن الرومي طبع فيه لنقد حال المجتمع ، فأبرز هذا
جليا على غير العهد من شعراء العصر ممن مجدوا الحكام والقادة ،
وتقربوا إليهم بكيل المديح ، والصفات التي لا يمكن أن يكون منها سوى
القليل ، بل لعلمهم يصفونهم على عكس ما يكونون تملقا وطلبا
للمال .

وظهرت أمام عين ابن الرومي الناقدة عيوب مجتمعه وناسه
في مرحلة اضطربت فيها الأحوال ، واختلعت القيم ، فتقدم
العقير ، وتأخر الكبير ، وملك من لا يستحق ، وأهل كل صاحب
حق . قال ابن الرومي :

أتراني دون الأولى بلغوا الأما	ل من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا	بالمنى في النفوس والاحباب
فيهم لكفة النبيط ولكن	تعتها جاهلية الأمراب
غير مقنين بالسيوف ولا الألسن	سلام في موطن ، غناء ذباب
ويظلمون في المناعم والنداء	ت بين الكواعب الاتراب
لهم المسعات ما يطرب الساء	مع والطائفات بالأكواب
وجسوار كأنهن جسوار	يتسللن من مياه عذاب
لابسات من الشفوق لبوسا	كالهواء الرقيق أو السراب
لو ترى القسوم بينهن لاجبرت	صراحا ، ولم تقل باكتساب
من إناس لا يرتضون عبيدا	وهم في مراتب الأرباب

وكان طبيعيا بعد أن يرى هذا الانقلاب الغريب في الاوضاع ،
وسيادة قانون الغاب ، وتمكن من ينتهز الفرص ، أو يملك القدرة
على القربى الرائفة من ذوى السلطان ، كان طبيعيا بعد هذا أن
تزداد أحوال الناس اضطرابا ، لانشغال من يصرفون أمورهم
بأحوالهم وملأهم ويجمع الاموال ، ولا قدرة لديهم على تعريف
شئون الامة وصالح حال المجتمع - يقول :

أصبحوا ناهلين عن شجن النسا	س ، وان كان حبلم ذا اضطراب
فى أمور ، وفى خمور ، وسمر	وفى قاسم ، وفى سنجاب
ونهاويل غير ذاك من الرقم	ومن منمن ومن زريب
عندهم كل ما اشتهو من الا	كال ، والاشريات والاشواب

وكانت هذه صرخة شاعر يحس بالآلام مواطنيه ، ويترجم عن
صيحات الغضب التى تصدر هنا وهناك وتترجم أحيانا الى
انتفاضات فى شوارع بغداد ، ثورات للعامة ، أو العبيد ، أو فى
صورة أعم كثورة الزنج فى جنوب العراق أيام المعتمد والمقتدر
والمعتضد . وفى هذا القرن الثالث نفسه فى نصفه الثانى ،
وقد عاصر هذا كله ابن الرومى ، وراقبه ، وتم شعره عنه .

وقيل أن فى ابن الرومى وشعره روحا علوية ، وتصدى
بعض الباحثين لعلاقته بالعلويين فخرج بعضهم بعلويته عقيدة ،
وسال آخرون الى علوية بالهوى ، ولعل رأى الاخير أصوب ولأن
الاتجاه العلوى فى ذلك العصر كان يحتوى كل الفاضلين والساخطين
على الدولة ، ولما كان هو غاضبا ساخطا فلم يكن غريبا اتجاهه

الى العلوية وانجذابه نحوهم . وقد لاقى ذلك الاتجاه ترحيبا عند بعض مددوحيه مما كانت ميولهم شيعة أو علوية كآل توبخت ، وبعض البيوتات الفارسية الاصل من كبار رجال الدولة .

ويمكن ان يقال ان ابن الرومي عاش معظم حياته في بغداد لم يغادرها الى ما جاورها من البلاد الا في القليل النادر مثل خروجه الى سامرا أو واسط في العراق قاصدا بعض مددوحيه وكان غالبا ما يبعث بقصائده فيهم الى مواطن اقامتهم .

ويسلك في طريقه الى سامرا طريق النهر فيصعد في دجلة ، وكان يخشى الماء وركوب البحر وقد سجل احدى رحلاته هذه النهرية كاشفا عن مخاوفه . يقول :

طواني على روع من الروح واقب	وأما بلاء البحر عنلى فانه
أمر به في الكوز مر العتاب	فايسر اشفاقي من المساء انسى
فكيف بأمنيه على الغل واقب	واخشى الردى منه على كل تارب
له الشمس موبجا طوال لفوارب	اظل اذا هزته ريح بولات
يلعبون نعوى بالسيف القواضب	كأنى أرى فيهن فرسان يهمة

شعره :

وتشر ابن الرومي يدور معظمه من حيث الشكل في موضوعات المديح والهجاء والغزل والوصف ويستغرق المديح جزءا كبيرا ، لانه شاعر محترف يتكسب بالاشعر ، ويقصد به الى حال ليشيروه عليه . وهو يسأل في شعره ، ويلج كثيرا في السؤال . فاذا أعطي رضى وواصل المديح ، وأضفى الثناء ، واذا منح عاتب ، ثم هجا .

ويكشف شعره عن معرفة بالشعر العربي القديم ، كما يبوح بثقافته . وقد جمع أطراف الثقافات في عصره على عمق معرفته بالعربية وآدابها .

وأشار الى بعض صحبته في الدرس فقال :

أيام نسرح في مراد واحد للعلم تنتجع القلوب غريبه
كما ورد في شعره بعض المعارف والاسماء المتداولة في الشعر العربي القديم والعباسي . وفيه اشارات الى الشعراء من أمثال امرئ القيس والنايفه ولييد ، وربما استشهد بيت او بيتين لواحد منهم ، ومن شعراء المحدثين اشار الى أبي نواس ودعبل والحسين بن الضحاك .

• وإطلاعنا على الشعر العربي ، وأخذنا بأسباب الثقافة العربية لم يحرمنا من التجدد في شكل الشعر ، وأساليبه ، وبنائه .

وربما قال الشعر في سن مبكرة ، وراض القول فيه في العشرين أو الحادية والعشرين أي حوالي سنة ٢٤١ هـ .

وأهم ما في شعر ابن الرومي أنه تسجيل لحياته ، وحياة بغداد في عصره ، فشعره صورة حية للحياتين معا . وقارنه يقف أمام صور متتامة لا يستطيع التاريخ أن يوحى بها وإذا تشنها أبيات ابن الرومي وتلقى بها في وجدان القارئ .

ونرى ملامح هذه الشخصية ظاهرا وباطنا ، فشعره به قدر

كبير من الذاتية ، واليوج يمكنونه • وقد كان الشاعر فيما يروى
دقيق الجسد جميل الصورة في شبابه الاول •

يقول :

أنا من خف واستدق قما ينقل أرضاً ولا يسد فضاء
ويكشف عن مكنونه ونوازعه ، وتناقضات رغائبه ورهائبه
فيقول بين آمال الهوى ونوازع الحياة ، وخوف السعي ، ورهبة
المستقبل :

فأصبحت في الاثراء أزهـد زاهد وإن كنت في الاثراء أرغب راغب
حريصاً جباناً ، أشتى ثم انتهى بلعظي جناب الرزق لعظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب

ويكشف عن تردده وتخوفه الذي وسم شخصه في قوله :

هزلت رجلاً رغبة في رقيقة وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب
وخوفه المستقبل في قوله :

ألا من يريني شائتي قبل منهي ومن أين؟ والفاتي بعد المذهب

وفي نفسه سماحة الفنان ، يعفو ، ويقبل العذر ، ويحب ويقبل
على من أحب كذلك هو في كرهه لا يخف •

يقول :

شكوى عتيد وكذلك حقدى للخير والشر بقاء منلى

وله في الاخاء تلك القصيدة الجارية السائرة على اللسان كلما
ذكرت الصداقة •

يا اخي اين عهد ذاك الاخاء

ونفسه نعمة ، وتوازعه النفسية كنوازعه الجسدية عارمة ،
فهو في شهوة الطعام والشراب مضرب المثل تتكشف أبيائه عنها ،
فاذا هو يلتهم ما يحبه بكل جوارحه ، ويتذوقه بكل أحاسيسه ألا
تراه يقول في الموز وكان مفتونه بين الفاكهة :

للغراء احسان بلا ذنوب ليس بمعنود ولا معسوب
يكاد من موقفه المحبوب يدفعه البلع الى القلوب

وحين يصف لك أطايب الطعام والمأكول تشمر وكأن ريقه يتحلب في
نظمه شهوة ونهما - يقول في قطائف :

قطائف قد حشيت بالنوز والسكر المائى حشو الموز
تسبح في أنى دهن الجوز سرت لما وقعت فى حوى
مرور عباس يقرب قوز

وهو شاعر فى نهمه وعلمامه ، لا يأكل ما بين يديه أكل الأبهيمة
لا يدرى ما يقضم ، بل يتأمل ، ويمج ، ويقوم الجمال ، ويشبع
أحاسيسه به قبل أن يملأ بطنه - يقول وهو يرسم صورة العنب ،
وكانه يخط لوحة تعجب ، قبل أن تفتح الشهية للالتهام :

ورازقى مغطف العضور كأنه مخازن البلور
قد ضمت مسكا الى السطور وفى الاعالى ماء ورد جودى
لم يبق منه وهج المرور الا ضياء فى ظنوف نور
لو أنه يبقى على الدهور قرط اذان العسان العور

وابن الرومى فنان يتبع الجمال فى الحياة أنى كان بيصره

وحسه وعاطفته ، يراه في شاهد الطبيعة ، ويسراه في المرأة ،
ويراه في الصوت الجميل .

ويرسم صورة لروضة تفرد طيورها على فتنها المتراقص على
هبات النسيم فيقول :

حيثك عنا شمال طاف طائفها	يجنة فجرت روحا وريحانا
هبت سحيرا فناجي الفصن صاحبه	موسوسا ، وتتأذى الطير اعلانا
ورق تقنى على خضر مهلة	تسمو بها وتمس الارض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب	والعصن من هزه عطفه نشوانا

أو يقول في الربيع وقد تزينت له الدنيا بأنواع الزهر ، وتفتت
طيره ، وامتلات بالحياة فاقتلت ، وتصاروحت :

أصبحت الدنيا تروق من نظر	بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بلاء المطر	فالارض في روض كاهواب العبر
نيرة النوار ، زهرة الزهر	تبرجت بعد حياء وخضر
تبرج الانثى تصلت للذكر	

صور جمال الصورة والشكل ، ونبض الحياة، وتدققها عبر
الكائنات بين الذكورة والانوثة وتلاقيها ليستمر الوجود ، وتتوالد
الاجيال فتري موجات الخلق ، موجة بعد موجة ، واحدة تفتي
لتتولد منها واحدة من جديد وهكذا ... والربيع زهرة الحياة
والخلق تتبرج فيه الدنيا لتتلقى نبض الحياة ، كتبرج الانثى
تتلقى نبض الحياة ... مشابهة ليست في الشكل ولكنها في
المعنى وعمق الاحساس ، وهكذا يخط الشاعر لوحاته ، تنطلق
خطوطه والوانه بعمق احساسه ، وصادق شاعريته .

ويجتمع جمال الحياة بمشاهدتها الطبيعية بجمال الانثى
دائما في وجدان الشاعر وخياله ويصرح بهذا في قصيدة تونيسة
مشهورة يقول فيها :

أحببت لك الوصل اخضان وكثبان	فيهن نوعان تضاح ورمضان
فصون بان عليها الدهر فاكهة	وما الفواكه مما يحمل البان
تجاوزت في فصون لسن من شجر	لكن غصون لها صد وهجران

ويسجل شعر ابن الرومي وقائع حياته كذلك في بيته وبين
أبنائه وعلاقاته بالناس ، كبيرهم وصغيرهم بمن أحب منهم ومن
كره .

وكانت علاقاته بكثير من رجالات عصره ، بين وزراء وكتاب ،
وشعراء وعلماء ، وفي مقدمة من شغل شعره بهم مديحا وهجاء من
الوزراء والكتاب آل صامد بن مخلد ، واسماعيل بن بلبل
الشيواني ، وبيت نوبخت ، وآل المنجم ، وآل وهب - وابن المديرة -
وقد لمب هؤلاء أدوارا في أحداث العصر ، يشير اليها ابن الرومي
في مديحه أو هجائه .

واتصلت الاسباب بينه وجماعة من شعراء العصر المشهورين
كأبي طاهر ، والبحتري . وبعض من لم يشتهر شهرة هذين
الشامريين . وقد استمرت علاقة ابن الرومي بالبحتري زمنا
شايها كثيرا مع التوتر .

وتناول شعره هجاء بعض هؤلاء مثل خالد القحبي

الذى هجاء بأكثر من ستين قصيدة وأبى حفص الوراق الذى سخر
منه كثيرا ، وكانت أهاجيه نصف أهاجيه فى خالد .

وذكر فى شعره بعض نساء العصر ممن كن من المشهورات فى
وسطه ، أو نساءا لمن التقى بهم من الرجال زوجات أو جواري
مغنيات أو عازفات .

ومن أسمائهن عجائب ، وهى جارية تركية ، وجلتار راقصة
على الطبل والصنج وبدعة محظية القاسم بن عبيد الله بن سليمان
ابن وهب ، وبستان جارية زوجة القاسم ، ودريزة ، جارية عازقة ،
وشاجى جارية عبيد الله بن عبد الله ، وكانت موسيقية بارعة ،
ومغنية ، وفيها ينظم قصيدة بديعة

ووحيد التى خلدها بالقصيدة الفريدة ، من الجوارى
المغنيات .

أولئك من استهوين الشاعر بطرفهن أو غنائهن أو رقصهن
وجمالهن وحسن أيقاعهن على الآلات ، وهناك من أثرن سنخه
فهجاهن بلسان حديد - وأفحش فيهن - كشنطف القارئة ، وكانت
مغنية قبيحة الصوت ، وشاغل جارية سلامة بن صاعد ، ومحبة
زوجة أحمد بن صاعد .

ويسجل شعره كذلك وقائع الحياة البغدادية بين لهرها
وجدها ، سرورها وشقائقها - غناها وفقرها - ويتنقل بك فى

مشاهدها ، فى سلسلة من الصور عبر الديوان • وللأحداث مكان
فى ديوانه ، ومن أشهرها أحداث الزنج وما فعلوه بالبصرة ، وقد
صنع فيها قصيدة فريدة •

ولا يقف ابن الرومى مع أحد من شعراء عصره فى اتجاهه
الفنى ، فهو لا يذهب مذهب أبى تمام فى اتخاذ البديع طريقة
فنية للتعبير عن معانيه ، ولا يورغل إيغاله فى اقتناص المعانى وكد
الذهب ورائها ، ولا تحس فى شعره مدى الجهد فى البناء
والصياغة •

كذلك هو لا يذهب مذهب البحتري فى طريقة العرب ، والميل
الى الصياغة السهلة والبناء العربى الديباجة ، دون حاجة الى
إسراف فى استخدام البديع •

فشعر ابن الرومى نسيج وحده ، ويقدر ما وصلنا من شعره
فى مخطوطه القاهرة وأتم تحقيقها الدكتور حسين نصار بضعف
شعر البحتري ، وأكثر من ضعف ما وصلنا من شعر أبى تمام
وربما كانت هذه النسخة شاملة لكل شعره • فقد عرف عنه
كثرة الشعر ، واقتداره على نظم • يروى أحد رفاقه أنه كان
قادرا على نظم القصيدة الطويلة فى الساعات القليلة دون أن يعيد
النظر فيها لتنقيحها •

ويقدر ريفون مست ما ضاع من شعره بثلاثة أرباعه ، وأن
ما وصلنا منه لا يتعدى الربع على ضخامته •

ويصنف ابن الرومي بين الشعراء المطبوعين ، من أمثال السيد الحميري وأبي العتامة وأبان بن عبد الحيد اللاحقي من شعراء المرحلة السابقة في عصر العباسيين . وكما جاء في أخباره أنه كان لا يجهد نفسه في عمل القصائد الطوال ، وكانت قصائده تطول فتبلغ الثلاثمائة بيت تقريبا وتبدأ قصيدة المديح بمقدمة تطول فتبلغ مائة بيت ، وقد تقصر ، ويتنوع موضوعها بين غزل يذكر فيه مفاتن المرأة على ما درج في الشعر التقليدي ، وإن كانت روحه أقرب إلى غزل المصريين من محدثي العباسيين . وقد يمتزج الغزل بوصف الخمر أو الفناء ، أو وصف الطبيعة ومفاتها . وقد يخرج في هذه المقدمة عن الطابع العام إلى موضوعات أخرى كالتعديث عن انقضاء الشباب ، وكبر السن ، أو تقلب الزمن ، أو وصف مهرجان إلى غير ذلك من الموضوعات .

وقد يستغنى عن المقدمة تماما ، ويبدأ في موضوعه دون تمهيد . وتنتهي قصائد المديح غالبا بشكوى الحال ، والتعريض بالسؤال .

ويلي قصائد المديح في العدد والطول قصائد الهجاء ، وقدima قال بشار بن برد : إن الهجاء أخذ يضبع الشاعر ، وهو كذلك ، وسيلة للكسب عى من لا يهزم المديح ، فيخيقهم الهجاء . ولعله أخذ كذلك بنصيحة بشار حين قال : إذا أردت أن تكرم في زمن اللئام فعليك بالهجاء .

وينقسم هجاؤه الى معتدل ومقذع، والمعتدل، يجري فيه على نسق غيره من الهجائيين في كيل صفات القبح ، وسلب المهجو كل فضيلة . والهجاء المقذع يتناول المثالب الشخصية ، ويعرض الميوب الجسدية فيجسمها في سخرية مرة ، كطول اللحية ، وجحوظ العينين ، والحذب ، وقد يفحش القول فيتناول المورات ، والعمل القاضح بصورة تخرج بالشعر الى السباب والتجريح .

ويدور غزل ابن الرومي في المرأة وبعضه في الفلمان ، يعرض فيه لمحاسن المحبوب ، وأحوال حبه معه ، وأثاره في نفسه ، وما يلقاه من الهجر ، والذل ، وقد يدور الحوار بين الحبيب والمحبوب ، أو مع بعض صحابته .

وأشهر من تغزل بهن من المفنيات وحيد وشادي .

ولابن الرومي مقدرة خاصة في الوصف ، وهو يبني صوره الشعرية الوصفية بناءً واحداً مسلسلًا ، يخرج فيه من الاطوار العام الى الخاص ، وما يزال يمعن في ذكر جزئيات الصورة ويتنقل من واحد الى آخر حتى يشفى منها غليله ، ويشبع فنه .

وقد عرف مقدرته على رسم الصور بخطوط بارعة أحسن التعبير عنها لفظًا وإيقاعًا ومن أشهر لوحاته يصف خوفه من المفنيات الموسيقية يحملن آلاتهن الموسيقية أو يحتضنها ، من عود وجنك ويربط :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنها حوان
مطلقات وما حملن جنينا مرضعات ولن ذات لبان

ملقعات اطفالهن ثديا ناهبات كاحسن الرمان
كل طفل يدعى بأسماء شتى عين حود ومزهر وكبران
امه دهرها تترجم عنه وهو بائى الفنى من الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر الا بالتزام من امه واحتضان
أوتى الحكم والبيان صبيبا مثل عيسى بن مريم فى العنان

وقد تأخذ اللوحة أمياتا طوالا كلوحته لوحيد ، والتي يبدوها
بقوله :

يا خليلي تيمنى وحيد فضؤاى بها معنى عميد
أو فى البحر والسفين :

ذكرتك حين ألت بي عصاها التـ سموى يوسا ينهر أبى خبيب
وقد أرسيت بنا فى ضفتيه السـ جوارى المنشآت مع الغيب
وقد تكون الصورة سريعة يرسمها فى خطوط قليلة ملاحه ، كخط
الكاريكاتور يبرز أوضح ملامحها - وهامى صورة الاحدب :

قصره اخادمه ، وفار قداله فكانه متريص أن يصفعا
وكانما صفتت قفاه مرة واحد ثانية لها فتجمعا

وفى وصف مفعلة تجهد نفسها فى الغناء فتبرز عروق رقبتها
ويكان صوتها لا يفادر شفقتها :

تضغط الصوت الذى تشدو به فصة فى حلقها معترضة
فالأختت بدا فى جينها كل عرق مثل بيت الأرضة
ويقول فى صاحب لحية كبيرة :

ولعية يعملها مائق شبه . الشراعي اذا ثمرها

لو قابل الريح بها مرة لم تتبعث من خطوه اصبعها
أو غاص في البحر بها فوصة صار بها حيتانه أجمعها

وقضيلة ابن الرومي التمييزية غير الخيال المحكم والمقدرة
الفائقة على التقاط الصورة وتسجيلها بألفاظ مناسبة سهلة قريبة
مقدرة لغوية ، فضيله بعد هذا لغة قريبة لا وعورة فيها ولا تكلف ،
يشعر القارئ بأنها طبيعية بين يديه لا تعصاه تنساب مع فكره
وخيالاته ومعانيه انسيابا ، ويشقق منها ويلونها صوتا وبناء كما
يريد .

وقاموسه اللفوي من جاري كلام عصره ، مع فصاحة ونقاء ،
أقرب الى لغة الكتاب ولهذا قالوا انه يبني قصائده بناء الرسائل .
وتختلط ببعض الالفاظ الفارسية والرومية من مستعمل اللغة
الذي انتقل مع ألوان الحضارتين ، والثقافتين الى الحياة والفكر
الاسلامي والعربي في هذه المرحلة . وهي بعد لغة بغدادية نقية
من شوائب الغريب البدوي الذي نلحظه في شعر الوافدين على
بغداد من الشام أو أطراف الجزيرة وأواسطها .

يقول ريفون جست :

« ولغة ابن الرومي موجزة محكمة ، والأغازه كثيرة ، ولكن
أسلوبه عامة سهل ، وعربيته كثيرة الشبه بالعربية الادبية في هذه
الايام ، ولذلك يستطيع المثقفون من الناطقين بالعربية الآن فهم
قدر كبير من شعره دون مشقة ، كما يتضح من المقتطفات الكثيرة

التي نشرها من شعره كامل كيلاني والمقاد اللذان قلما شعرا
بحاجتهما الى اضافة كلمة لشرحها للقارئ . . . وهو وان لم
تستعبده التعبيرات غير المألوفة تحتوي قصائده على قدر كبير منها
تضم ألفاظا غير مذكورة في المجامع أسماء وأفعالا . ويستعمل
قليلا من الالفاظ الفارسية التي ربما كانت قد صارت جزءا من
العربية في بغداد آنذاك » (١) .

وقد لاحظ بعض العلماء عليه أخطاء في النحو ، لتساهله في
التعبير ، وقد تمقبه في ذلك الاخفش النحوي ، ولهذا آثار حفيظته
فهجاء .

موقف النقاد من ابن الرومي :

تفاوتت مواقف النقاد منه بين مقرظ ومعترض ، وسادح
وقادح . وكان قدح القادحين للسانه وكثرة هجائه ، مع بعض
ماخذ في لغته وتعبيراته .

ولكن كثرة النقاد من الواعين يقدمونه ويرون فيه شاعرا
كبيرا . وفنانا أصيلا .

يقول المرزباني (٢) : « أشعر أهل زمانه بعد البحتري ،
وأكثرهم شعرا ، وأحسنهم أوصافا وأبلغهم هجاء ، وأوسعهم

(١) ابن الرومي لربيتوى حيث ترجمه حسين نصار ، ص ٨٧ .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٨٩ ، والموشع ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه ، يركب من ذلك ما هو
صعب فتناوله على غيره ، ويلزم نفسه مالا يلزمه ، ويخلط كلامه
بالمناظ منطقية يجعل لها المصانى ثم يفصلها بأحسن وصف ،
وأعذب لفظ . وهو في الهجاء مقدم ، لا يلحقه فيه أحد من أهل
عصره ، غزارة قول ، وخبث منطق .

ولا أعلم أنه مدح أحدا من رئيس ومرءوس الا وعاد عليه
فهجاء ، معن أحسن اليه أم قصر في ثوابه ، فلذلك قلت فائدته من
قول المشمر ، وتحاماه الرؤساء ، وكان سببا لوفااته . وكانت به
علة سوداوية ربما تحركت عليه ففرت منه .

ويقول ابن رشيق (١) : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم
شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتتاحه . وقد غلب عليه الهجاء حتى
شهر به فصار يقال : « أهجى من ابن الرومي » . ومن أكثر من
شيء عرف به . وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ، ولا
أكثر ، ولكن قليل الشر كثير . »

ويقول (٢) : « وكان ابن الرومي ضئيلا بالمعاني ، حريصا
عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يتركه حتى يقلبه ظهرا
لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم

(١) العمدة ١/ ١٩٤ .

(٢) العمدة ٢/ ٢٨٣ .

أن لا مطمح فيه لاحد » . ويقول : « وأنا أقول ان أكثر الشعراء
اختراعاً ابن الرومي » (١) .

ويقول الصندي ان ابن الرومي كان شاعراً فعلاً بعيد القمص
على المعاني - فاذا تناول معنى استقصاه حتى لا يترك منه شيئاً مما
أدى به الى حالة أحياناً - وقال ان تشبيهاته غير عادية وجيدة فاداً
ما راقه أحدها تتبعه وكرره في كثير من قصائده . وذكر رأى
الغالدين (توفيا سنة ٣٥٠ هـ - ٣٨٠ هـ) في أنهما لم يريا مثله
حين ينفرد بمعنى ما ، ولكنه حين يأخذ معنى شاعر آخر يسقط
فيه » .

ويقول بروكلمان : « وشعر ابن الرومي أقل ملئونة ودويا
مع شعر المتنبي ، ولكنه آيّن وأدلق » . وفن ابن الرومي يعتمد
بالمرتبة الاولى على العيان والمشاهدة ، فهو يلحظ بالنظرة الصادقة
النقائص والعيوب الجثمانية على الخصوص عند خصومه فيصوغها
في هجاء مريع لاذع ، بيد أنه يصور بهذه النظرة اللامحة نفسها
صور البهجة والحياة السعيدة كذلك ، لا سيما أعياد رجال الدولة
ولذات المجتمع في القصور » .

ومما يشهد لابن الرومي أيضاً بالقدرة على صياغة الاحاسيس
والعواطف الصادقة رثاؤه لابنه محمد الذي يعده العقاد بحق من
دور الشعر العربي .

وينسج ابن الرومي على منوال الخريمي ، فيجترى أيضا على وصف المواقف التاريخية ، كما في شكايته من غلبة الرنج على البصرة .

ويسير على غرار أبي علي الحمدوني شاعر العامة ، فيجاريه في شعره الذي يصف فيه الطليسان القاسي ويقتفى النماذج الفارسية ، فيعرض نفسه في نظم المناظرات الشعرية ، كما في مناظرته بين النرجس والورد وبين السيف والقلم .

ولكن قد يبعثه أيضا على قول الشعر منظر يراه في الطريق ، كمنظر الخباز يدحو الرقاق ، بل هو ينظم كذلك أوصافا ووصايا للطباخين ليحتذوها في مهنتهم ، فيجمل من نفسه رائدا في هذا اللون الادبي للمأموني البخاري (٣٨٢ هـ - ٨٧٢ م) وأبي اسحاق الشيرازي المتأخر عنه .

وابن الرومي على حق حين يأبى لنفسه أن يفضل عليه البحتري القليل التنوع ، والذي قصر شعره على فن واحد وهو المديح .

وقال حسبت ان نفاذ العرب القدماء اتفقوا على تفضيل البحتري على ابن الرومي ، أما الغربيون فالمرجح أنهم يفضلون ابن الرومي . وربما كان البحتري أجمل لغة ، وأكثر صقلا لالفاظه ، ولكن ابن الرومي أكثر إخلاصا لنفسه ، وأقل ميلا للمواصفات التقليدية في الشعر .

وفى مرثيته لابنه حرارة شعور وعمق احساس لا يمكن
التفوق عليها ، وفى هجائه قدر من الاحتقار والازدراء الحقيقيين
يموضان قدرا من اقتداعه المفحش .

ويظهر فى وصفه قوة ملاحظة بارعة ، ويعطى بعض أوصافه
تأثيرات حية بواسطة لمسات سريعة .

ويقول جست : « ولا يمكن انكار أدبه ، وقد يجب المرء من
براعته فى العثور على أشياء طريفة يقولها حتى فى مدائحه التى
كثيرا ما يطيلها ملولا كثيرا . »

ومن خصائص شعره اللافتة للنظر اتصال الجدل فيه وتماسكه
فى مقابل جدل بعض شعراء العرب الآخرين فى عصره والذين
يقدمون أشياء واضحة ، ولكنها غير متصلة بعضها ببعض الا اتصالا
ملفينا .

والخاصة الاخرى التى نلاحظها جرأته فى صوغ تجاربه فى
صورة موضوعات وألوان من الحوار يدخلها فى المقيدة وفى طرق
التعبير التى قلما ترد فى شعر غيره من شعراء عصره .

ومن مختارات شعره :

جنة المحبين

اجنت لك الوصل أغصان وكتبان	فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذيتك أعناب مهلبة	سود لهن من الظلماء السوان
وتحت ماتيك عناب تلوح به	أطرافهن قلوب القدم فنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة	وما الفواكه مما يعمل ألبان
ونرجس بات ساري القل يضر به	وأقحوان مني النور ريان
الغن من كل شيء طيب حسن	فهن فاكهة شتى وريحان
لما ر صدق اذا عاينت ظاهرها	لكنها حين تيلو الطعم خطبان
بل حلوة مرة ، طورا يقال لها	شهد وطورا يقول الناس ذيفان

+ + +

يأليت شعري وليت غير مجدية	الا استراحة قلب وهو أسوان
لاي امر مراد بالفتى جمعت	تلك الفنون وضمتهن أفنان
تجاورت في غصون نسن من شجر	لكن غصون لها وصل وهجران
تلك القصون اللواتي في أكمتها	نعم وبؤمن وأفسراح وأحزان
يبلو بها الله قوما كي يبين له	ذو الطاعة البر ممن فيه عصيان
وما ابتلاهم لا عنات ولا عيب	ولا تجهل بما تطويه أبطان
لكن ليثبت في الاعناق حجة	ويحسن الضو والرحمن رحمن

+ + +

ومن عجائب ما يعنى الرجال به	مستضعفات لنا منهن أقران
مناضلات بنبل لا تقوم له	كتائب الشرك يزجيهن خاقان
من كل قاتله قتل وأسيرة	أسرى وليس لها في الأرض أمان

يولين ما فيه أغرام وآونة	يولين ما فيه لئمشخوف سلوان
ولا قلن علي عهد لعتاد	اني وهن كما شبيهن بستان
يميل طورا بعمل ثم يعمده	ويكتسى ثم يلقى وهو حريان
حالا فعالا ، كذا النسوان قاطبة	نواكث ديتهن الدهر اديان

* * *

تغزو الفتاة لها خل وان غدرت	راحت يتافس فيها الخل خلال
ما للجان مسيئات بنا ولنا	الى المسيئات طول الدهر تعنان
فان يكن بعهد قلن مندد	انا نسينا وفي ، النسوان نسيان
يكفى مطالبنا بالذكر ناهية	ان اسمنا الغالب المشهور نسوان
لا نكرم الذكر انا لم نسم به	ولا متعناه بل للذكر ذكران
فضل الرجال علينا ان شيمتهم	جود وبأس وأحلام وأذهان
وان فيهم وقاء لا تقوم به	ومن يكون مع النقصان رجحان
صلقن ما شئنا نكسنا تضصنا	منهن عين تلاقينا وادمان
انكى وأذكى حريقا في جوانحنا	خلق من الماء ، والالوان نيران
ماء ونار فقد غادرن كل فتى	لابسن وهو غزير البمع حران
تغسل منهن عين فهي باكية	ويسخر فؤاد وهو هيمان

* * *

يا رب حسانة فيهن قد فعلت	سوءا وقد تفعل الاسوء حسان
تصمي المحب وتكفي وهي شاكية	كالتقوس تعمى الرمايا وهي مرنان
واصلت منها فتاة فسى خلائقها	غدر وفي خلقها روض وغدران
هيفاء تكسى فتيلو وهي مرفقة	خود تعرى فتيلو وهي ميدان
ترتج اردافها والتمن مندمج	والكشج مضطمر والبطن طيان
الوف عطر تذكى وهي ذاكية	اذا اسادت جدار العطر ابدان

نماسة المسك تلتقى وهي نائية	فتأبها بنعيم المسك لقيان
نعيم كل نهار من مجامرها	ويشمن الليل منها وهو ضحيان
كانها ومشار القند يشعلها	شم عليها ضبابات وادجان
شمس أطلت بليل لا نجوم له	الا نجوم لها في البحر اثنان
وتلبس العل مجعولا لها عودا	لا ذئبة ، بل بها عن ذاك فتيان
لله يوم أرائها وقد ليست	فيه شبايا عليها منه ريعان
وقد ترددت على سربال بهجتها	فرعا غذته الفوارى فهو فينان
جاءت ثنتى وقد راح المراح بها	سكرى تغنى لها حسن واحسان
كانها عصن لحن بمروحة	فيه صمانم هاجتجن أشجان
إذا تمايل في ريح تلاعبه	ثلث طرايا لها سجع وارنان



يا عازلى أفيقا انها أبدا	عندى جديد وان الخلق خلقان
لا تلحياني وإياها على ضروى	وزهوها ، فكلا الامرين ديدان
انى ملكك فلي باللق مسكنة	وملكت فلها بالملك طفيان
اذلما كان أصفى نعيم العيش اذميت	نعم تجاورنا والدار نعمان
اذ لا المنازل أحلال نساثلها	ولا القواطع أرام وطسئران
ظلنا تقول وأشباه العسان بها	« سقا لهدك » والاشباه أعيان
بانوا فبان جميل الصبر بعدهمو	فللدمع من العيتين عيتان
لى عد نادا وجنة ربا بمشربها	من عبرتى وقسم ما عشت فلمان

الشكوى من الزمان والفقر وسوء الحظ فى الدنيا :

يقول من أبيات كتب بها الى القاسم بن عبيد الله : (ديوانه

: (٣٢٢/١)

ثم أشكو اليك جدبى والمرعى مريع ، والماء صافى شروب

الك الامر والسياسة ، واسم المعتف بك الصعلوك ، والقروضوب
 ثوبى اثرث ، والثياب طراء وطعامى برغمى العشوب
 وخوانى ملكك وقصامى وبرامى ، فكلها مشعوب
 وجفانى مصدوعة ، وجرارى وقلاى ، فكلها منقوب
 ومجلى عارية وجسدارا ت بيتى ، فكلها منقوب
 ومقيل فى الصيف سخن بلا خيمه من فقلقى يكاد منه ينوب
 ومبيتى بلا ضجيج لدى القصر ، وللوجد شادن رعبوب
 وفى الغف ذو الرقاع او النعسل ، وللعبد سايح يعبوب
 وهمومى محدثاتى ، وبستانى شوك ثماره الغروب
 عكست امرى النعوس فعزى ابدا حائل ، وتيسى حلوب

ويشكو امتهان كرامته وانسانيته لوقوفه طويلا أمام أبواب
 أصحاب الجاه والسلمتان ، ويسوءه أن يضطر الى الوقوف يحجبه
 عن صاحبه حاجب ثقيل ، يعامله معامله غير كريمة ، فيحقر
 نفسه ، ويتولى غاضبا يلعن الحياة والناس ، ويلعن الزمن الذى
 اضطره الى هذا الموقف :

كم تسام الاثى كانا كلاب كم الى كم يكون هذا العتاب
 كلما جئت قاصدا لسلام ردى من ثنائك الحجاب
 ما كنا يفعل الكرام ولا ترضى بهذا قسى مثلقى الاواب
 انا حر ، وانت من سادة الا حراز اهل النجا المصاحى الدياب
 وقبيح بعد الطلاقة واليشر بذى المجد نبوة واحتجاب
 كل ملك يفنى وثبقى على الدهر لاهل التكبرم الاحساب

شكواه مرور الممر : (عند بلوغه الخمسين)

فكرت فى خمسين عاما خلت كانت امامى ثم خلفتها
 تبينت لى اذ قد نبتتها ولسم تبين اذ تانفتها

أجهلتها إذ هي موفورة	ثم قضت عني فرفقتها
ففرحة الموهوب أعدمتها	ونزهة المسلوب أودقتها
لو أن عمري مائة همدنى	تذكرى أنسى نصفها
فكيف والآثار قد أصبحت	ترجف بالعمى إذ قفتها
كبد حياة كان اتفقتة	على تصاريف تصرفها
لا عذر لي في أسفى بعدها	على العطايا ، عفتها ، عفتها

وقال يشكو حاله : (ديوانه ص ٢١٣)

دع اللوم ان اللوم عون النوائب	ولا تتجاوز فيه حد المعائب
فما كل من حظ الرجال بمحقق	ولا كل من شد الرجال بكاسب
وفى السعى كيس والتفوس نقائس	وليس بكيس يبيعها بالرخائب
وما زال مامول البقاء مفضلا	على الملك والارياح دون العرائب
حضضت على حطبي لثاري فلا تدع	سلك الغير - تعذيري شروا المخاطب
واتكرت اشفاقي وليس بمانع	طلابي أن أبغى طلاب المكاسب
ومن يلق مالا حيت في كل مجتنى	من الشوك يزهد في الثمار الاطايب
اذ اقتنى الاسفار ماكره الغنى	الى وأغرائى برفض المطالب
فاصبحت فى الاثراء ازهد زاهد	وان كنت فى الاثراء أرغب راغب
حريصا ، جباناء أشتى ثم انتهى	بلحظى جناب الرزق فعل المراقب
ومن راح ذا حرص وجين فانه	فقير آتاه الفقر من كل جانب
ولما دعانى للمثوبة سيد	يرى المندح عارا قبل بذل المتأوب
تنازعنى رغب ورهب كلاهما	قوى ، وأعيانى أطلاح المفايب
فقلعت رجلا رغبة فى رغبة	وأخوت رجلا رهبة للمعاطب
اخاف على نفسى وأرجو مفازها	وأستار غيب الله دون العواقب

ألا من يرى غايته قيل منهبي؟
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة
وصيرى على الاقتار أيسر معلا
لقيت من البر التباريح بعدما
سقيت على رى به ألف مطرة
ولم أسقها بل ساقها لكيدتى
إلى الله أشكو سخط دهرى فانه
أبى أن يغيث الأرض حتى إذا ارتمت
سقى الأرض من أجل فاضحت مزلة
لتعويق سبرى أو دحوض مطيشي
فملت إلى خان مرث بناؤه
فلم ألق فيه مستراحا لتعب
فما زلت في خوف وجوع ووحشة
يؤرقنى سقف كاسى تعته
تراه إذا ما الطين أثقل منه
وكم خان سفرخان فانتقض فوقهم
ولم انس ملاحيت أيام صحوة
وما زال ضاحى البر يضرب أهله
فان فاته قطر وثلج فانه
فداه بلاء البر عندى شائيا
ألا رب نار بالمضاء اصطليتها
إذا أظلت البيداء تطفو أكامها
فدع منك ذكر البر أنى رأيته

ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب
رهبى اعتسافى الأرض ذات المناكب
على من التفرير بعد التجارب
لقيت من البحر أبيضاض الزوائب
ثبغت لبفضيها بحب المجانب
تعايل دهر جسد بى كالملاعب
يعايننى مذ كنت غير مطايب
برحلى آتاه بالغيوث السواكب
تعايل صاحبها تمايل شارب
واخصاب مزور عن المجد ناكب
مميل غريق الثوب لهفان لاعب
ولا نزلا • أبان ذاك لساغب
وفى سهر يستغرق الليل واصب
من الوكف تحت المدجئات الهواضب
تصر نواحيه صرير الجنائب
كما انتقض صقر الدجن فوق الأرائب
من القر فيه والثلوج الإضاهب
بسوطى عذاب جامد بعد ذائب
رهين بساق تارة أو يخاصب
وكم لى من صيف به ذى مثالب
من الضح يودى لثعها بالعواجب
وترسب فى غمر من الآل ناصب
لمن خاف هول البحر شر المهاب

كلا نزليه ، صيفه وشتاؤه
لهات مميت تحت بيضاء سحنة
يجف اذا ما أصبح الريق عاصبا
ويمنع مني الماء واللوح جاهد
وما زال يبغيني العتوق مواريا
فطورا يفاديني بلص مصلت
الى ان وفاني الله معذور شره
فأقلت من ذؤباته وأسوده
وأما بلاء البحر عندي فانه
ولو ثاب عقي لم أدع ذكر بعضه
ونم لا ولو أقيت فيه وصخرة
ولم أتعلم قط من ذي سباحة
قايسر اشفاقي من الماء اننى
وأخشي الردى منه على كل شارب
أظل اذا هزته ريح ولالات
كانى أرى فيهن فرسان يهمة

خلاف لما أهواه ، غير مصاقب
ورى مبيت ، تحت اسعم صائب
ويغلق لى ، والريق ليس بعاصب
ويفرقنى والرى رطب المجائب
يعوم على قتلى ، وغير موارد
وطورا يمسينى بورد الشوارب
بعزته ، والله أضل غائب
وحرايه أفلات أتوب تائب
طواني على روع من الروح واقب
ولكنه من هولاء غير ثائب
لو أقيت منه القصر اول راسب
سوى الفوص ، والمضغوف غير مغالب
أمر به فى الكوز مر المجائب
فكيف بامتية صلى نفس راكب
له الشمس امواج اطوال الفوارب
يلبحون نعوى بالسيف القواضب

واجب الرومى أمام هموم دهره وصروقه مرغم على الصبر ، ولا
يملك غيره :

أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب
هناك يعق الصبر والصبر واجب
فشد أمر بالصبر كفا فانه
هو المهرب المتجنى لمن أحلقت به
وقد يتظلى الناس أن أساهم
وأنهما ليسا كشىء مصرف

فكيف إلا ثم يكن عنه مذهب؟
وما كان منه كالضرورة أوجب
له عصمة أسبابها لا تقضب
مكاره دهر ليس منهن مهرب
وصبرهم فيهم طباع مركب
يصرفه ذو تكبة حين يتكب

فإن شاء أن يأسى أطاع له الأبي	وإن شاء صبر أجابه الصبر يطلب
يصرقه المختار من قنطرة	يراد فيأتي أو يذاه فيذهب
إذا استج معتج على النفس لم تكذ	على قدر يعنى لها تعتب
وساعدها الصبر الجميل فاقبلت	اليها له طوعا جنائب تجذب
وان هو منها الا باطيل لم تزل	تقابل بالعتب القضاء وتغلب
فتضحي جزوعا ان أصابت مصيبة	وتسمى هلوها ان تعذر مطلب
فلا يظنون التارك الصبر نفسه	بان قيل ان الصبر لا يتكسب

وربما اتخذ ابن الرومي من الشكوى مطالعا لقصائده تحل منها محل ذكر الاطلال ، أو التسيب في القصائد التقليدية . وقد يربط بين الموضوعين رباط نفسي واحد . وقد نهج المتنبي من بعده منهجه . ويمزج أحيانا بين الشكوى والتسيب . قال في الحسن ابن عبيد الله بن سليمان :

ما أنسى لا أنسى هنذا آخر العقب	على اختلاف صروف الدهر والعقب
يروح انتحتنى بسهميها مسالة	تأتي جديداها من أوجه اللعب
وعزتنى بشيب الرأس ضاحكة	من ضاحك فيه أيكاني واضحك بي
قد كنت تسقين خدي مرة وفمي	يا هذ من وشل طورا ومن ثغب
يفل ريقك أنيايبي وآونة	يستن بمعك في خدي كالسرب
فالآن اهزأ بي شيبى وأوبقنى	عيبى، وان كنت لم أويق ولم أعب
بالجلد أنداب هز لست أنكرها	وما بعرضي لعمر الله من ندب
يا ظبية من ظباء كان مكتسها	في ظل ذى ثمر منى وذئ هذب
فيتى اليك فقد هبت مصوحة	أضحى لها مجتنى لهو كمعتطب
سقت نبتنى ثم عادت بعد تهلمنى	حتى رزحت وزوح العود ذى الجلب

واعلمت الرأس لوني دهره ففدا
والدهر يبلى الفتى من حيث يشئ
في هدنة الدهر كاف من وقائمه
فصيت ذلك من قول الى فنق
جوراء في وطف ، فتواء في ذلف
كالشمس مسافرت ، والبدر ما انتقبت
جاءت تدافع في وشى لها حسن
قد حال من دهمة كانت الى شهب
حتى تكر عليه ليلة القرب
والعمر أقدم مبرة من الوهب
تلهو بمكتحل طورا ومختصب
لقاء في هيف ، مجزاء في قبب
تاهيك من مسفر حسنا ومنقصب
تدافع الماء في وشى من العيب

شؤمه وهجاؤه :

وقد تراسى الناس اتهامه بالشؤم لعزوفه عنهم وانكبابه داخل
بيته لا يخرج الا لاسما ، ويتردد في عزمه كللفا فجأة أمر او وقعت
عينه على ما يثير الطيرة في نفسه . ودافع عن نفسه الشؤم الذي
أراد أعداؤه وكائدوه الصاقه به فقال :

كذب الزاعمون انى مشؤ م ومانوا ، والثالب المثلوب
كذب الزاعمون انى مشؤ م قل زعم مكذب مكذوب
بل لي اليمن لا محالة كالصبيح اذا لاح ضوءه المشبوب

وقد أوجر هذا الاتهام صدره ، فأضاف سببا جديدا الى أسباب
كثيرة دفعتة دفعا الى الهجاء والى أن يقذع فيه ، وهو في نفسه ليس
شريرا لكنه خير يحب الناس ، ويألفهم انما الناس يدفعونه الى الشر
والى هجر القوم .

من أناس قد أوسعوني سيا بعد عرفانهم من المسبوب
وأراني مسعرا بهم الحر ب ، وحريري اذا اعتزمت حروب

ولما ذاك أنسى الرجل الشرير منى أنثى ومنى الوثوب
يل للى الانصاف يشفعه الاحسـان ما قارب الالذ الشغوب
عندى العدل كله لصديقى وعلى ظالمى يشور العكوب

وهكذا عاش ابن الرومى معذبا بحاسيته ، ورهافة روحه ،
وتضييق الحياة عليه ، وعدم فهم الناس ، وهو الشاعر المبدع
المصور ، يستخدم اللفظ فى سر ، ويسلسل له القول دون تصنع ،
ويرسم فيجرى فى ملامح الصورة ماء الحياة ، ويعمد الى
الامتناع ، فيشيع فى صوره صنوفا من المتعة ، ويطيع الجمال
فينجذب اليه ويتعقبه فى كل جميل الصورة أو الطعم ، وهو
يستمتع بحواسه جميعا لا يعطل واحدة منها • وعجيب لهذا
الشاعر المفزع من الحياة ، المحب لها الراغب فى المتعة بها أشد
الرغب ، الراهب للخوف أشد الرهب •

أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين الكندي

(ولد سنة ٣٠٣ هـ - وقتل سنة ٣٥٤)

ولد بالكوفة عام ثلاث وثلاثمائة قرب محلة تدعى بمحلة كتندة ، وينسب أحيانا إليها . قال أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصبهاني : حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكتندة بها ثلاثة آلاف بيت بين رواء ونساج .

وروى الخطيب البغدادي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قوله : « كان المتنبي وهو صبي ينزل في جوارى بالكوفة ، وكان يعرف أبوه بعبدان السقاء . . . بقي لنا . . . ولاهل المحلة . وكان عبдан والد المتنبي يذكر أنه من جعفي ، وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من حلماة النساء الكوفيات (٢) » . وتقل هذا الخبر نفسه صاحب الصبح المنى (٣) .

وقال الثعالبي : « ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في كتندة سنة ثلاث وثلاثمائة (٤) » .

(١) الواضع في مشكلات شعر المتنبي ص ٦ - للاصبهاني بتحقيق ابن عاصم طبع تونس .

(٢) ذكرى أبي الطيب ص ٣١ نقلا عن الخطيب البغدادي .

(٣) الصبح المنى ص

(٤) أبو الطيب وما له وما عليه ص ٢١ طبع مكتبة الحسين التجارية .

ولم يذكر الاصبهانى شيئا عن والده ، وكان أقرب الرواة
والعلماء اليه ، لانه حاصره وأخذ من بعض رفاقه كايين جنى ،
بل وحاش فى بلاط عضد الدولة فى شيراز . وربما قيل أنه
تغاضى عن ذكر والده لحقارته . لكن ذلك لا يمكن ان يفهم من
سياق القول ، فانه يستطرد بعد ذلك ذكر مولده فى محلة كندة
التي كانت سكنا للسقائين والنساجين (٥) .

« واختلف الى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلم
دروس العلوية شعرا ولغة وأعرابا ، فنشأ فى خير حاضره ،
وقال الشعر صبييا » .

ولم يكن ليلحق بكتاب فيه أولاد أشراف الكوفة وهو وضع
النسب وابن سقام . وحكاية نسبه الى كندة القبيلة اليمنية ، أو
كندة الحلة المعروفة التي تنزلها كندة بالكوفة وسكنها كثير من
الحشوة ، والعمال الصناع من السقائين والنساج يشوبها شيء من
اللبس .

وقد ذكر البديعى ان ابن لنكك البصرى هجاء لما عرف بتأليب
شعراء بغداد على المتنبى ولم يولهم اهتماما ولا عبا بهم . قال :
ولما بلغ الحسن بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبى من وقعة
شعراء المراق فيه واستخفافهم به كقولهم فيه :

.....

أني فضل لشاعر يطلب القضاء من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع بالكوفة المساء وحيناً يبيع ماء الحيا
وكان ابن لذكك حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجيا آياه ، زاعما
أن آياه كان يسقي الماء بالكوفة - فشمت به وقال (١) :

قولوا لأهل زمان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشيد من جهل بهم وعموا
أعطيتهموا المتنبى فوق منيته فزوجوه برهيم أمهاتكم
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقاء تزدحم

وهاجمه شعراء كثيرون في نسبه ، سواء من ناحية أبيه ، أو
من ناحية قبيلته ، وروى عن أبي فراس قوله له في مجلس سيف
الدولة : ومع أنت يا دعى كندة ؟ -

ولا أخرج هذا كله من حد السباب الذي لا يرقى الى حقيقة ،
انما هو عن حفيظة وحسد لمكانته واقتداره على الكلام ، وأحس
هو بما يكيده الشعراء ويرمونه به من هذا الجانب ، فرد عليهم
بقوله :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا حث والنجل بعض من نجله
وانما يذكر الجدود لهم من نفسروه واتخذوا حيله

ولم يكن المتنبى ليذكر آياه وأجداده لو لم يثره الحاقدون
والحاسدون ، وما كان لشاعر أن يذكر أباه وأمه اللهم الا القليل
ممن كان ذكر الآباء والأمهات ضروريا عندهم في الفخر أو
المهاجاة -

ولم يكن أبو نواس ليذكر أياه وأمه ، ولا كان أبو تمام أو
البيحتري ممن ذكروا آباءهم وأمهاتهم ، وليس لنا أن نقول كما قال
الدكتور طه حسين (٢) بأن إهمال أبي نواس ذكر أبيه وأمه من
هوان ، وأن هذا الهوان قد عقد الشاعر أو أضرب به ، وما كان
أبو نواس ليهتم بقلة شأن أبيه ولا يضعه مكانة أمه جليان رغم أن
الشعراء هاجموا بها وعيروا .

وما كان أبو تمام ذاكرة لأبيه وأمه في الشعر رغم أنه أوخذ
في هذا واتهم بنسبه كذلك من أعدائه والكائدين له .

وكذلك كان البيحتري . وقليل من الشعراء كما قلت ذكروا
الآباء والأمهات وليسوا حجة على الكثيرين ممن لم يذكروا
آباءهم وأجدادهم .

ونخرج من هذا البيت الذي نشأ فيه الشاعر ، سواء أكان
بيتا أصيل النسب في كندة من ذوائبها أو كان من عامتها . وليس
شرطا أن يكون النابيهون من ذوى الانساب ، إنما هي دعوى عربية
وفخفة تشادق بها الناس ، ولم تكن لتعنى عندنا أمرا ذا خطر ،
والإسلام سوى بين الناس ، والنظرة الإنسانية لا ترى فضلا لزيد
على عمرو في الدم فلم تعد في نظر العقل للدماء زرقتها أو حمرتها
شأن في الفضل إنما الفضل بالعمل والكسب . كما قال شاعرنا :

(٢) راجع : مع المتنبي ص ١٤ .

وليفخر الفخر اذا عدون به موقديا خيره ومنتعله
انا الذي بين الاله به ال اقدار والمرء حيثما جعله
جوهره تفرح الشراف بها وغصة لا تسيفها السفله

لقد ولد أبو الطيب اذا طفلا ذكيا موهوبا ، وعرف فيه والده
هذه الموهبة ، فلم يرد أن تظل مدفونة ، بل أراد أن يمهد لها
الطريق كي تنمو ، ولم يدخر وسعا في أن يوفر لابنه العلم
والمعرفة ، وأن يمهد له الصقل والفصاحة ، فبعث به الى البادية
وفي البادية تخرج فصيحنا لسنا .

وأضاف الى هذا التلقين ، وتلك التربية البدوية ، علما ، في
كتاتيب الكوفة أولا ، ولدى مجالس علمائها ثانيا .

يقول الثعالبي : « وأن أباه سافر الى بلاد الشام ، فلم يزل
ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه في
المكاتب ، ويردده في القبائل ، ومغايله نواطق بالحسنى عنه ،
وضوامن النجاح فيه ، حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب
وشعر وبرع (١) » .

وكانت الكوفة آنذاك تقع تحت سيطرة العلوية أو الفكر
الشيعة عامة ، ولا شك أنه تأثر في صباه ببعض معلمى الشيعة
وشيوخهم ، والاصبهاني يقول : « فكان يتعلم دروس العلوية

(١) أبو الطيب ما له وما عليه ، ص ٣٢ -

شعرا ولغة واعرابا ، فنشأ في خير حاضره ، وقال الشعر
صبيا (١) .

ولا ندرى سببا لخروجه من الكوفة وهو صبي ، والثعالبي
يقول أنه غادرها مع أبيه الى بلاد الشام طلبا للعلم . وهناك من
يقول أنه غادرها فرارا من الثورة القرمطية ، ولكنى أشك في
هذا الخير الاخير (٢) .

وقد كان الشاعر في صباه طلعة حافظا ، تروى عن ذكائه ،
وقدرته على حفظ الاخبار والنوادر .

وقد كان لنبوغه أولا ، وكبريائه ثانية ، واعتقاده بعض
الآراء العلوية أو القرمطية ، ثالثا أثر في تعامل كثير من الناس
عليه .

قال الاصبهاني : « وهو في الجملة خبيث الاعتقاد ، وكان في
صفه وقع الى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة ،
فهرسه ، وأضله كما ضل (٣) » .

وأبو الفضل هذا شيخ قرمطي ، قال بعض الباحثين أن
المقنبي تأثر بأرائه وأفكاره وأنه ربما عناه في قوله :
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستعمل دم العجاج في الحرم

(١) الواضح ، ص ٦ .

(٢) راجع : ذكرى أبي الطيب لعبد الوهاب عزام .

(٣) الواضح ، ص ٧ .

وتتبع الباحثون هذه الاتجاهات العلوية في شعره ، وفي صباه خاصة - وفي قصائده التي مدح بها بعض العلوية في الشام .

وللمتنبي الى الشام سقرتان سفره في الصبا الاول ، وهو لم يبلغ الحلم أو كاد ، وقد صحبه فيها والده ، وسفره في شبابه في العشرين من عمره أو بعدها بقليل حوالي سنة ٢٢٢ ، وقد قدم اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة كما يقول البديعي (٢) ، وكان قد نبت شعر عناره ، وأرسل شعر رأسه الى ما بعد شحمته أذنيه .

ولسفرته هذه الثانية بالشام أثر خطير في حياته وشعره ، فقد ذكر الرواة أنه كان شديد الاعتداد بنفسه وأدبه ، وأنه لهذا الاعتداد اتهم بادعاء النبوة ، ولهذا الاتهام أسباب كثيرة في حياته وخلقه وشعره ، منها أنه كان منذ صباه فتى ثائرا ، تعلق ببعض الافكار القرمطية أو العلوية التي ترى الخروج المسلح على الدولة ، وأنه كان يرى تغلب عناصر غير عربية على الخلافة ، وأن هذه الدولة لا بد وأن تعود الى العرب ، وأن الخدم أو عبيد القصر ممن نزلوا الامارة أو ولاية بعض أقاليم الدولة أمثال كافور ، والاشيد أو الخدم الذين سيطروا على الخلافة في بغداد أمثال

(٢) الصبح المنبي ، ص ٥٢ .

مؤنس أو اليوبهين من الفرس ممن كان لهم السلطان الحقيقي .
كل هؤلاء ينبغي أن يجلوا بالسيف وأن تعود الدولة عربية ، وأن
يعود العرب للسيطرة عليها وتولي زمامها .

ولا شك أن اندفاع الصبا ، وهوس الشباب قد خيلا له أشياء
كثيرة ، خاصة وأنه امتلك ناصية البيان ، فليته ارتأى أن يتخذ
من قدرته الشعرية وسيلة إلى أن يجمع من حوله الجمع ، ليصل
إلى غايته ، فيثور بمن يتجمع حوله من مؤيديه ثورة قد يقتنص
بها أرضا بالشام تكون ركيزة له ، وموطنا يتحصن به ليثب مرة
أخرى - - وقد لا يستبعد أن يتخذ من ذكائه وسيلة للعب بمقول
اليسطاء من عامة الاعراب ، فيدعى النبوة أو شيئا قريبا منها -

والاخبار تطرد في نبوءته ، منها ما يؤكد ما ، ويؤكد ادعاءه
بعض المعجزات . وقد روى المعري في رسالة الغفران بعض
أخباره تلك ، ورواها البديعي ، بينما أعرض عن ذكرها كثيرون
كالاصبهاني والثعالبي . واكتفى الأخير بأن صور الامر وكأنه
محاولة للخروج على الخلافة أو الثورة لا ادعاء للنبوة ، فقال :

« وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا إلى بيعته قوما من
رائشي نبلة ، على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين
كاد يتم له امر دعوته تأدى خبره إلى وإلى البلدة . ورفق إليه ما هم به
من الخروج ، فأمر بعيسه وتقييده » (١) .

(١) أبو الطيب المتنبى ما له وما عليه ، ص ٢٢ وراجع الصبح المنبى ص ٥٩ .

وتتبع أخباره يؤكد محاولته الخروج مرتين ، وقيده وحبسه
مرتين ، فأما المرة الأولى فهي في زمن متقدم من مبكر شبابه ،
وقبل أن يذهب الى اللاذقية ، ولعل ذلك كان في بادية العمر أو
قريب منها ، وقد قال فيها قصيدته الدالية المشهورة :

ايا حليم الله ورد الخبود وقد قدود الحسان القيدود

وفيهما يستعطف الوالى الذى قيده وحبسه فيقول :

امالك راسي ، ومن شأنه	هبات اللجين وعنق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا	، ، والموت مني كعبل الوريد
دعوتك لما بثراني البلى	واوهن رجلى ثقل العبيد

يقول :

وقد كان مشيهما في النعمال	فقد صار مشيهما في القيدود
وكننت من الناس في معقل	لها انا في مخفل من قيرود
تجبل في وجوب العبود	وحسنى قبل وجوب السجود

ويشير في البيت الاخير الى صغر سنه مبالغا حتى أنه لا يقع
عليه الحد ، اذ لا يقع عليه التكليف بعد بأداة الصلاة . قال
الشعالبي : « أى انما تجب الحدود على البالغ وأنا صبي لم تجب
على الصلاة بعد » ويجوز أن يكون قد صغر سنه وأمر نفسه عند
الوالى ، لان من كان صبيا لم يظن به اجتماع الناس اليه للشقاق
والخلاف . وكان خروجه هذه المرة في بني عدى ، وقبض عليه

ابن علي الهاشمي في قرية كوتكين (١) - وله أبيات أخرى ذكر فيها السجن ، وخاطب من اسمه أبو دلف بقوله :

اهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت بسرك مي والجوع يرضي الأسود بالجيف
كن أيها السجن كيف ثبتت فقد وطئت للبعوت نفس مقتبرف
لو كان سكنائ فيبك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدق

ولا ندرى متى خرج مرة أخرى وسجن ثانية ، لكن أخبارا تقول أنه خرج في بادية الشام ، وأنه كان هذه المرة الثانية في بني كلب وادعى أنه علوي ، وربما ادعى الإمامة كذلك أو أنه المهدي أو شيئا من هذا القبيل فتبعه منهم خلق كثير . وقيل أن لؤلؤة أمير حمص من قبل الاخشيد في مصر قبض عليه وسجنه هامين ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بالآلا يعود إلى دعوته .

ولا ندرى ماذا قال في هذا السجن الثاني ، فلم يهتم بذكره ، ولم تفصل الاخبار في ذلك ولكننا قد نلتمس بعض الضوء فيما يروى عن تنبئه مرة ثانية فيما فسر به أنصاره هذا الخبر حكى أبو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت أبا الطيب يقول : إنما لقبت بالمتنبى لقولي :

أنا ترب النلق ورب القواشي وسهام العدى وقيظ العصور
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في نمود

وفي هذه القصيدة يقول :

ما مقامى بلرض نخله الا كمقام المسيح بين اليهود

ولا شك أن مرحلة حياته بالشام قبل لقائه بدر بع عمار ،
ثم سيف الدولة كانت مرحلة قلق واضطراب ، وأن أخباره فيها
نادرة غير بيّنة ، مختلطة أحيانا ، وزادها هو غموضا بالسكوت
عنها . وربما كان سكوته عنها ندما ، أو رغبة في أن تصحى من
عمره مرحلة لا يريد ذكرها ، لالها في نفسه ، أو لما لاقاه فيها
من عنت ، أو تشرد ومعاناة .

وإذا كان المتنبى قد عانى في هذه المرحلة آلام السجن ،
واضطهاده الولاية ، وتهديم أياه وتأكيدهم عليه بعدم اللجوء الى
ما ادعى من نبوة أو ما لجأ اليه من جمع الناس من حوله للثورة ،
فإن آثارها باقية في شعره ، صادقة التعبير عن ثورته ورفضه ،
صادقة التعبير عن ميله الى القتل والحرب والضرب . وقد ذكر
الشعالي أن حب الولاية ما زال يدور في رأسه ، فيظهر ما يضمّر
من كامن وسواسه في الخروج على السلطان ، والاستظهار
بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف . ويستكثر من
التصريح بذلك في مثل قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر	فالآن أقسم حتى لات مقتحم
لاتركن وجوه الغيل ساهمة	والعرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها	حتى كان بها ضربا على اللمم
قد كلمتها العوالي فهي كالحة	كانما الصاب مذرور على اللمم
بكل منصت ما زال منتظري	حتى أدلت له من دولة اللمم

والى جانب هذا الهوس بالولاية ، والرغبة المتحرقة الى القتل والاستيلاء بالقوة على البلاد فانه كان يشعر بالمرارة لانه يضطر الى التكسب بالشعر ، والى أن يقصد من لا يستحق منه لبيع الشعر فى سوق الكساد •

قال الاصبهاني : « انه فى تطوافه فى أطراف الشام ، واستقرائه بلاد العرب ، قاسى الضر وسوء الحال ونزارة الكسب ، وحقارة ما وصل اليه بشعره حتى أنه » أخبرنى أبو الحسن الطرائفى ببغداد ، وكان لقى المتنبي دفعات فى حال عسره ويسره - ان المتنبي مدح يدون العشرة والخمسة دنانير (١) » •

وكان كثير الرحلة ، أما فائقا ، أو قاصدا ممدوحا ، يعود منه بالنذر اليسير • قال الثعالبي (٢) : « وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة ، أبعد من أماله ، ويمشى فى مناكب الارض ويطوى المناهل والمراحل : ولا زاد الا من ضرب العراب على صفحة المحراب (٣) ، ولا مطية الا الخف أو النمل كما قال :

لا ناقتى تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان اجهدنا
مراكها كورها ومشقرها زمانها والشموع مقودها

وكما قال فى الاعتداد بالسفر ، والقدرة على الرحلة :

(١) الواضح ، ص ٩ •

(٢) أبو الطيب ، ص ٣٥ •

(٣) المحراب : المنق •

ومهمة جتته على قلعي . تعجز عنه العواسم الذلل

قال الثعالبي : « وكان قبل سيف الدولة يمدح القريب
والقريب ، ويصطاد ما بين الكركي والعندليب » . ويحكى أن عليا
ابن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته فيه التي أولها :
ياي الشموس الجانعات قواربا اللابسات من الحرير جلايبا
ومنها :

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان الى منها تائبا
الا ديثارا واحدا ، فسميت الديثارية .

وقال الاصبهاني : « وأخبرني الحسن الطرائقي قال : سمعت
المتنبي يقول : أول شعر قلته وأبيضت أيامي بعده قولي :
انا لائمى ان كنت وقت اللوانم علمت بما بى بين تلك المعالم
فانى أعطيت بها بدمشق مائة دينار (٦) . »

وذكر في الديوان أن القصيدة في الأمير أبي محمد الحسن
ابن عبد الله بن طلفج الاخشيدي .

وقد حق لابي الطيب بعد هذا أن يضجر وأن يندم هذه الحال
التي اضطرته الى أن يبيع الشعر في سوق الكساد . يقول :

(٤) العواسم : النوق الشديدة ، والدلل جمع ذلول وهي السلسلة القياد .
(٥) أبو الطيب ، ص ٣٦ .
(٦) الواضح ، ص ٩ .

الى كم ذا التغلف والتواني وكم هذا التمدد في التمدد
وشغل النفس في طلب المعالي يبيع الشعر في سوق الكساد

وامتدت هذه المرحلة بالشام خمسة عشر عاما يذرع فيها
البلاد شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، تراه في بادية الشام وحمص
حينا ، ثم في اللاذقية أحيانا ، ويعود الى طبرية فدمشق فالرملة ،
فطرابلس ، فانطاكية . يلتقى من الناس ألوانا ، من القادة ،
والولاة والكتاب ، وأمراء الجيوش ، وزعماء القبائل ، وشيوخ
العشائر ، وكلا يمدح ، وكل يعطى على قدر مروءته أو ثرائه
أو مكانته .

وخلفت هذه المرحلة في شعر المتنبي كثيرا من مظاهر حياته
وحركاته ، ومن مكامن أحاسيسه وانطباعاته ، ومن آرائه في
الحياة والناس .

لقد كان في أول هذه المرحلة ثائرا ، مزيدا ، مرعدا ، يقوده
هوس الشباب وخيلاؤه وتحفزه أوهام الصبي ، ويدفعه تياره
الصاخب الجارف ، فشعره يهدر ، ويتوعد . فيه القتال ، والقتل ،
ووقع الرماح ، وصليل السيوف ، وغبار الكر والفر ، ووقع
الخيول ، ورؤى الدم المراق . . . وفيها الهواجس ، وسوء الظن
والشعور بالعدم ، والرغبة في الاعتداء .

ثم تنغير هذه النغمة بعد السجن ، وتتلون بتلك الألوان
القائمة ، ويكثر من الحديث عن الاعداء والحساد ، والكيد ،

ويتخوف الطريق ، وهو المقدام ، ولكنه يشمر بأن العميون ترصده ،
والكاثدين يدبرون له في كل خطوة أمرا - وهو ينظر اليهم نظرة
تعالى وازدراء ، يقول :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن	يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
واتما نحن في جيل سواسية	أخنى على الحر من سقم على بطن
حولى بكل مكان منهم خلق	تخطى اذا جئت في استنهامها بمن
لا اقتري بلدا الا على ضرر	ولا أمر يعلق غير مضطرب
ولا أعشر من أملاكهم أحدا	الا أحق بضرب الرأس من وثن
انى لاعنهم مما أعنفهم	حتى أعنف نفس فيهم وأنسى

ويقول قيهسا :

قد هون الصبر عندي كل نازلة	ولئن العزم حد المركب الغشن
----------------------------	----------------------------

وقال عن نفسه :

تقرب لا مستعظما غير نفسه	ولا قابلا الا لخالفه حكما
ولا سالكا الا فؤاد عجاجه	ولا واجدا الا لكرمة طمعا
يقولون لي ما أنت ؟ في كل بلدة	وما تبغني؟ ما يتقى جلا أن يسمى
كان بنيتهم عالمون بأننى	جلوب اليهم من معادنه أليتما

ويقول في هذه المرحلة يميته الشهيرة التي يأسى فيها لانه
صاحب همة ، وعبقريه ، ولكن همته لا تبلغ به ما يريد ،
وعبقريته مهانة ، لا يقدرها أحد ، ويحزن هذا في نفسه ، ولا أشد
من أن يشمر العبقري بأنه مهدر في قومه وبين عشيرته ، يقول :

فؤاد ما تسليه السلام	وعمر مثل ما يهب اللثام
ودهر ناسه ناس صغان	وان كانت لهم جنث ضغام

وما أنا متهم بالعيش فيهم ولكن معلن الذهب الرغام

أهو شعور بالغربة اذن ؟ لان الشاعر لم يوفق بين آماله
وواقعه ، ولانه فشل فيما حاول من ثورة ، ولانه يشعر بالاستيـاز
ولا يجد من يقدره حق قدره . بل لقد انقلب الامر عليه ، فصار
ينظر اليه في كل مكان يذهب اليه تظـلرتين نظرة العداء ، والريب
والحسد من جانب الكثرة . والشعراء من حوله مقرون به
يذمونه ويسلقونه بالسنة حداد :

انى وان كنت حاسن فما أكر أنسى عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قديم

ويقول :

ارى المتشاعرين غروا يلـمى ومن ذا يحسد الداء الضالا
ومن يك ذا قم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقالوا ان المتنبي كان يقول ولا يفعل . ولو لم يفعل فقيم هذه
الاخبار ، وقيم سجنه ، لعله لم يبلغ من الفعل النجاح ، أو لـل فعله
كان على قدر ضئيل من الاثر ، لكنه هم على أية حال ، ودعا الناس
اليه وصدقه الناس . وانه ارتحل وضاق بالبقاء والاستقرار ،
وقطع النياقي والقناز بحثا وراء غايته لعله أن يجد فرصة ، أو
تسنع له بادرة يستغلها أو يعثر على من يقدر فيه نبوغه .

أنتقد...

كذلك فان في هذه المرحلة اختمرت فلسفة المتنبي ، ونضج
فكره ، وبدت آثار علمه الذى اكتسب من قبل ، وفي هذه المرحلة

قصائد فيها آثار فكر تشاؤمي رواقى ، وفيها ميل الى الفعوض ،
مع بعض آراء شيعية ، وفكر علوى ، مختلط بصوفية أو غيبية
(ميتافيزيقية) ونقف عند قصيدته الهمزية :

امن ازديارك فى الدجى الرقباء اذ حيث كنت من الظلام ضياء

فنراه يصطنع هذا المنهج الصوفى من حيث الفعوض
والالتواء ، وعدم القصد الى معانيه مباشرة كما كان يفعل فى
شعره السابق عليها .

واتصل بعد بابى العشائر الحسن بن على بن حمدان . قال
ياقوت (١) : « ولم يزل المتنبي بعد خروجه من الاعتقال فى خمول
وضمف حال فى بلاد الشام حتى اتصل بابى العشائر ومدحه بعدة
قصائد أولها :

اتراها لكثرة العشاق تعب النعم خلقة فى الاقاي
وقد أكرمه أبو العشائر ، وعرف منزلته ، وكان والى
أنطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة الى أنطاكية
قدم المتنبي اليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرفه منزلته من الشعر
والادب (٢) . وقال الاصبهاني : « ثم اتصل بابى العشائر ، فأقام
ما أقام ، ثم أهداه الى سيف الدولة .

وعندما التقى سيف الدولة لم يرد أن يماثل معاملة غيره من

(١) ارشاد الأريب ، وراجع المصباح المنبى ، ص ٦٨ .

(٢) المصباح المنبى ، ص ٧١ .

الشعراء ، بل من عليه القوم ممن يقدون على الأمير • قال البديعي :
« واشترط المتنبي على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده
مديحه لا ينشد الا وهو قاعد ، وأنه لا يكلف تقبيل الارض بين
يديه ، فنسب الى الجتون • ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ،
وتطلع الى ما يرد منه وذلك في سنة ٣٣٧ سبع وثلاثين وثلاثمائة ،
وعمره أربع وثلاثون سنة » •

وكان أول ما أنشده قوله :

وفأوكما كالريح أشجاء طاسمه بأن تسعدا والدمع أثقاء ساجمه

قال الاصبهاني : « ثم أقام المتنبي عند سيف الدولة على
التكرمة البليغة في أسناء الجائزة ورقيع المنزلة • ودخل مع
سيف الدولة بلاد الروم في غزواتي المصيبة والفناء » •

وقال البديعي : « وحسن موقعه عنده ، وقربه ، وأجازه
الجوائز السنية ، ومالت نفسه اليه وأحبه ، فسلمه الى الرواض ،
فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، وصحب سيف الدولة في هذه
غزوات الى بلاد الروم ، ومنها غزوة الفناء التي لم ينج منها الا
سيف الدولة بنفسه وستة أنفار منهم المتنبي • وأخذت الطرق
عليهم الروم ، فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وخرق
الصفوف ، وبدد الالوف » •

وقد لبس المتنبي لامة الحرب ، وتعلم الفروسية اذا ، وخاض
معارك سيف الدولة مع الروم • ووصف هذه المعارك وصفا رائعا •

وتروى رواية عن لبسه الدروع فارسا ، حكى ابن جنى قال :
حدثني الصنوبرى قال : خرجت من حلب أريد سيف الدولة ، فلما
برزت من السور اذا أنا بفارس مثلثم قد هوى نحوى برمح طويل
وسدده الى صدرى فكدت أطرح نفسى عن الدابة فرقا - فلما قرب
منى شنى العنان وحسر لثامه فاذا المتنبي وأنشدنى :

نثرنا رءوسا بالاحيدب منهم كما نثرت فوق الفروس الدراهم

ثم قال ، كيف ترى هذا القول ؟ أحسن هو ؟ فقلت له : ويعبك
قد قتلتنى يا رجل - قال ابن جنى : فعكيت هذه الحكاية بمدينة
السلام لابی الطيب فعرفها وضحك لها (١) -

والتقى فى بلاط سيف الدولة بجماعة من العلماء والشعراء ،
وكانت تمقد مجالس الشعر والنقد ، وكان سيف الدولة يشارك
فيها بذوقه وعلمه - ومن اجتمع فى بلاطه غير المتنبي : السرى
الرفاء ، والصنوبرى ، والنامى ، وأبو فراس الحمدانى ،
والرقى - ومن العلماء ابن خالويه -

وبارى الشعراء المتنبي فغلبهم - حكى أن السرى الرفاء حين
قصد سيف الدولة أنشده بديها :

انى رأيتك جالسا فى مجلس قصد الملوك به لديك وقاموا
فكانك الدهر المحيط عليهم وكانهم من حولك الايام

ثم أنشده بعد ذلك ما كان قاله فيه من الشعر ، وبعد ثلاثة

(١) أبو الطيب ، ص ٢٨ -

أيام أنشده المتنبي قصيدة قافية ، فأمر له بفرس وجارية وأول القصيدة :

أيلدئ الربع أي دم أراقا وأى قلوب هذا العى شاقا (٧)

وحكى أن سيف الدولة كان يميل الى أبي العباس النامى الشاعر ميلا شديدا الى أن جاءه المتنبي فقاط ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا به وعاتبه وقال : أيها الأمير لم تفضل على ابن عبدان السقا ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فليج وألح ومطالبه بالجواب ، فقال : لآنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر وقد أخذ اليه غير معتفل

فتنهض من بين يديه مفضيا *

وقرر الأمير سيف الدولة للشاعر جائزة سنوية ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد كل عام حتى أن أبا فراس الشاعر وابن عم الأمير حسده ، ولامه على ذلك * قال : ان هذا المتشدد كثير الادلال عليك ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره *

ولم يسلم المتنبي من كيد الكائدين وحسد العاصدين ، وإنما فتحت لهم بعض تصرفاته سبيل ذلك ، كاعتداده بنفسه ، واقلاله من الشعر مع رغبة سيف الدولة فيه ، وتعمده السخرية من غيره وخاصة من أبي فراس ابن عم الأمير وبعض خواصه كابن خالويه *

ومما يروى من أحداث بينه وبينهم : حضر المتنبي مجلس أبي أحمد بن نصر البازيار وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه القنوي ، فتباريا في أشجع السلمى وأبي نواس البصري فقال ابن خالويه أشجع أشعر إذ قال في هارون الرشيد :

وعلى عنوك يابن عم محمد و« دان ضوء الصبح والافلام
فاذا تنبه رعبه واذا غفا سلت عليه سيوفك الاحلام

فقال المتنبي : لا بى نواس ما هو أحسن فى بنى برمك :

لم يظلم الدهر إذ توالى فيهم مهيئاته ذواكا
كانوا يجيرون من يعانى منه فعاذهم لذاكا

وقد جرت بحضرة سيف الدولة مسألة لغوية بين أبي الطيب اللغوى والمتنبي ساكت ، فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ، فتكلم فيها بما قوى حجة أبي الطيب اللغوى ، وضعف قول ابن خالويه فأخرج هذا من كفه مفتاحا حديدا ليحكم به المتنبي ، فقال له المتنبي : اسكت ويحك ، فانك أعجمي وأصلك حوذي ، فمالك وللعربية ؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح ، فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي من ذلك إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا . فكان ذلك أحد أسباب فراقه سيف الدولة (١) .

وحضر مرة أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا فى

(١) الصبح المتنبي ، ص ٨٧ .

الوقيمة في حق المتنبى ، وانقطع يعمل القصيدة التي أولها :
واحر قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وجاء وانشدها ، وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقه كقوله :

مالي اكتم حبا قد يرى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغوته فليت أنا بقدر الحب نقسم
قد ذرته وسيوف الهند مفصدة وقد نظرت اليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة ادلاله واعراض
سيف الدولة عنه ، فلما وصل في انشاده الى قوله :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشعم في من شعمورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال : ومن أنت يادعى كندة حتى
تأخذ أعراض أهل الأمير في مجلسه - واستمر المتنبى في انشاده
ولم يرد ، وأبو فراس يتعقبه ، ويحرض سيف الدولة عليه حتى
غضب سيف الدولة ، وضربه بالدواة التي بين يديه .

ولم تطب الحياة بعده للمتنبى في حلب ، وعزم على الرحيل
وقد عرض به في ذلك القصيدة حين قال :

لئن تركن ضميرا عن ميامنا ليحدثن لن فارقتهم ندم
وفارقه متجها جنوبا قاصدا مصر ، وراغبا الى كافور ، لعله
أن يجد في رحابه ما عز عليه في جناب سيف الدولة بحلب .

ولقد كانت هذه المرحلة في حلب من أغنى مراحل حياته
وشعره . وقال فيها عيون قصائده ولم يكن سيف الدولة بالنسبة

اليه مجرد ممدوح أمير أو ملك ، بل أنه أحب فيه شخصه وخلاله ،
وتمثل فيه فتوة عربية ، وشهامة ومروءة ، وكفاحا في سبيل
الدولة ، وحفاظا على الارض ضد غزو الروم . فلم يكن غريبا اذا
أن صدق في شعره معه ، وأن جاء فيه بكل رائع فريد . وقد
اقتنى وكثر ماله ، كما ارتفع شعره إذ قيل أنه حصل في مدة
أربع سنوات ٣٥ خمسة وثلاثين ألف دينار (١) .

ومن درره المذكورة فيه قوله :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا مقيم
وقوله :

غيري بأكثر هذا الناس يتخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا
وقوله :

هدينك من ريع وإن زدتنا كريبا فانك كنت الشرق للشعر والغربا
وقوله :

ليالي بعد الظامنين شوكول طوال وليل العاشقين طويل
وقوله :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الضرب في العدا
وقوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وقد بلغت مدائحه فيه ٣٨ قصيدة و ١٥١٢ بيتا في تسع
سنوات مع سنة ٣٣٧ هـ إلى ٣٤٦ هـ ، منها أربع عشرة قصيدة في

(١) الواضح ، ص ١٢ .

حروبه مع الروم ، وأربع في وقائعه مع القبائل العربية ، وخمس عشرة في المدح دون وصف الوقائع ، وخمس في الرثاء ، ومن القطع اثنتان في حوادث الروم ، والاخرى في مقاصد شتى (٢) .

واتصل المتنبي بكافور ، وقد بعث الى والي الرملة محمد بن طنج ليبحث به اليه ، وكانت دولة الاغبيد في مصر منافسة للحمدايين في شمالي الشام . وكانت تبسط نفوذها على جزء كبير من بلاد الشام . وربما كان مقصد المتنبي الى كافور رغبة في الانتقام لكرامته مما لقيه في بلاط سيف الدولة على كره منه . وشتان بين سيف الدولة وكافور ، فهو قاصد لكافور ، مغيظا ، محنقا ، لا مقتنما بسجاياه ، ولا باستحقاقه للمديح . ولهذا بدأه بمديح فيه هذا الجفاء ، وفيه هذا الاحساس بالالم لفراق سيف الدولة . وان حاول الإدارة واصطناع المديح ، لكنه جاء متكلفا ثقيلًا ، أو مصنوعا بين الصنعة ، مبالغًا واضح المبالغة .

قال الاصبهاني : « فلما انتهت مدته عند سيف الدولة استأذنه في المسير الى الطاعسة (١) ، فأذن له ، وامتد باسطا عنانه الى دمشق ، الى أن قصد مصر ملما بكافور فأنزله وأقام ما أقام الا أن أول شعره فيه ، فيه دليل على ندمه لفراق سيف الدولة وهو قوله :

كفى ببلدء ان ترى الموت شاقيا وحسب المنايا ان يكن آمانيًا

(٢) مقدمة الديوان لسيد الوهاب عزام .

(١) الواضع . ص ١٣ .

حتى انتهى الى قوله :

قواعد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ومكث بمصر أربع سنوات ، كانت له مدائح فسي كافور
وأعاج ، ومدائح في فاتك ومرثيته العينية التي قالها عند خروجه
من مصر .

ووقع فاتك من نفسه موقعا حميدا فأعجب به ، ولم يخل
عليه فاتك بالمال . قال الاصبهاني : لقيه المتنبي في الميدان على
رقبة من كافور فقال :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ما لم يسعد الحال

فوصل اليه من أنواع صلاته وأصناف جوائزه ما تبلغ قيمته
عشرين ألف دينار . ثم مضى فاتك لسبيله فرشاه المتنبي ودم
كافورا حيث قال :

أيوب مثل أبي شجاع فاتك : ويعيش حاسده الغصى الأوكع

على أن أحسن ما نظمه أبو الطيب في هذه المرحلة بأثيته :

من الجائر في ذي الامايب «مر الحلى والطايا والجازيب

وميميته في وصف الحمى :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعالة فوق الكلام

وقوله :

بم التعلل لا اهل ولا وطن ولا تدبم ولا كاس ولا سكن

وداليتة في هجاء كافور في ذكرى العيد :

عيد بايسة حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

ويذكر النقاد أن شعره في هذه المرحلة كان أقل جودة من شعره مع سيف الدولة - قال البديعي : « وأحسن قصائد أبي الطيب في سيف الدولة ، وتراجع شعره بعد مفارقتة وسئل عن سبب ذلك فقال : قد تجوزت في قول ، وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان » (١) .

وشعره في مصر عليه سعة الحزن ، والتفكير العميق في حاله وما جرى عليه من الاحداث طوال السنوات التي قضاها في حياة قلقة عاصفة أيام شبابه الاول بالشام وفي عنفوانه مع سيف الدولة ورجاله وشعرائه بحلب . ولاشك أن أبا الطيب قد أضاف الى خبرته في الحياة ، وتمرسه بها وتعامله مع أصناف متغايرة ، ومتنوعة من البشر قد أتاحت له تجارب واسعة يستمد منها معاني غزيرة لشعره ، كما أضاف الى تلك التجارب قراءات واسعة متنوعة أيضا ، فالرجل كان طالعة يحفظ الشعر ويعرف بغريب اللغة ، ويحمل في رحله دائما كتب الادب والمعرفة .

ولقد كان طالبا لكثرة المال حتى يمكن أن يبلغ به الدرجة التي يطلبها لنفسه ، ولعله بلغ من كثرة المال ما أراد أو أكثر مما أراد ، ولكنه لم يسكن ، فطلب المنصب والجاه ، أن يحصل على ولاية ، ورأى أنه جدير بهذا ، وأن أدبه سيلفه المنصب ، وقد حصل مع سيف الدولة على المال ولم يحصل على الولاية ، فأراد أن

(١) الصبح المنبى ، ص ٩٨ .

يجرب حظه مع كافور لعله أن يبلغ به الولاية • وهكذا طلبها
صراحة • فقال :

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فبؤدك يكسوني وشقتك يسلب
يلتمس ولاية صيبداء • فاجابه كافور : لست أجسر على
توليتك صيدا ، لأنك على ما أنت عليه تحدث نفسك بما تحدث ،
فإن وليتك صيدا فمن يطيقك ؟ (٢) •

وهذا التمريض نفسه بما أراد في قوله :

فأرم بي حديث ما أردت فاني أسد القلب ، آدمي الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

ولم يظفر المتنبي مما قصد إليه ، ولا مما أمله على شيء ،
وضاق بالمقام في مصر ، وزاد ضيقه حين أحس بأن كافورا بدأ
يضيق الخناق عليه ، وينشر من حوله العيون ليقيدوا عليه
حركاته •

وبدا هجاءه كافورا ، تنقيسا عن ضيق نفسه ، وعقابا لها
على ما ارتكبت من قصده ، وليس جديرا بقوله ، إنما هي عنجهية
بسببها خيرا إلى شر ، وأهلا لشعره إلى غير أهل • يقول من قصيدة
مطلعها :

أفيقأ ، خمار الهم نفصنى الغمرا وسكوى من الأيام جنبى السكرأ

ومنها :

صعبت ملوك الارض منتبها بهم	وقارفتهم مألن من حلق صدرها
ولما رزيت العبد للحجر مالكا	أييت اياء الحر مسترزا حرا
ومصر لعمري اهل كل عجيبة	ولا مثل ذا المخصى أعجوبة نكرا
يعد اذا عد العجائب اولا	كمايبتدأ في العد بالاصبع الصغرى
فيا هرم الدنيا ويا عبدة الزرى	ويا أيها المخصى من أمك اليفرى

ويقول فيها :

قضاء من الله العلى اراده	ألا ربما كانت ارادته شرا
وبه آيات وليس كهذه	أظنك يا كافور آياته الكبرى
مشرت بسرى نحو مصر قلالما	بها ولما بالسرح عنها ولا عشا
وفارقت خير الناس قاصد شرم	وأكرمهم طرا لآلامهم طرا
فعاقبني المخصى بالفلسر جازيا	لأن رحيلى كان عن حلب غلدا
وما كنت إلا فائل الراى لم آمن	بعدم ولا استصعبت في وجهتى حجرا

ذرائى والفلاة بلا دليل	ووجهى والهجر بلا ثمام
فانى استريح بذى وهذا	واتعب بالاناحة والمقام

أقمت بأرض مصر فلا ورائى	تخب بى الركاب ولا أمامى
وملئى الفسراش وكان جنبى	يسل لقاءه فى كل صمام
قليل عائدى ، سقم فؤادى	كثير حاسدى ، صعب مراسى

ولا ياليت شعر يدى اتمعى تصرف فى عنان أو زمام
وهل لرمى هواى براقصات معالة المقاصد باللفام

• • •

يقول لى الطيب اكلت شيئا وداؤك فى شرايك وانطعام
رما فى عليه أنى جواد أضر بجسمه طول الجمام
تعود فن يغير فى انسرايا ويدخل من ققام فى ققام

وأمكنه بعد هذا الضيق أن يحتال ويدبر الامر ليخرج خفية من مصر .

قال الاصبهانى : « فاحتال بمده فى الخلاص من كافور ، فانتهر الفرصة فى العيد ، وكان رسم السلطان أن يستقبل العيد بيوم تعد فيه الخلع والحملانات ، وأنواع المبار لرابطة جنده ، وراتبة جيشه . وصبيحة العيد يفرق ، وثانى اليوم يذكر له من قبل ومن رد واستزاد . فاهتبل المتنبي غفلة كافور ، ودفن رماحه برا وسار ليلته ، وحمل بغاله وجماله ، وهو لا يألو سيرا ، وسرى هذه الثلاثة الايام » .

ومضى المتنبي فى طريقه هروبا من مصر ومن كافور ، ومن ضيقه يطول المقام ، وشيع مصر وكافورا بقصيدة دالية فى ذلك العيد ، وكان رحيله فى يوم عرفة سنة خمسین وثلاثمائة قال :

عيد باية حال صدت يا عيد بما مضى أم لامر فيك تعديد
أما الاحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيلا دونها بيد

وفيهما يشكوهم نفسه ، وأنه خرج من مصر ورحلته اليها صفر
اليدين ، ولا مال سوى المواعيد الممتولة :

أني بما أنا ياك منه محسود	ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبها
أنا الفنى وأموال المواعيد	أسميت أروح مثر خازنا ويسا
عن القرى وعن الترحال معلود	أشي تزلت بكذابين ضيفهم
من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود	جود الرجال من الأيدي وجودهم

وتنتهى مرحلة من حياة المتنبي وشعره ، غريبة فيما جرى
بها ، غريبة فيما دار حولها ، وما قيل فيها من الشعر ، فكثير من
شعر المتنبي فيها جيد ، صقلته التجربة ، وبدت شخصيته فذة
قوية غلابة ، لم تتضائل ولم تنطو ، لكنها شخصية جديدة ، لم
يكن يطبعها الكبرياء وحده ولا الثورة ، ولا القول فى الحساد
الكاثدين ، فلم يكن بمصر من الشعراء من نافسه كما كان الحال
فى بلاط سيف الدولة ، ولم تكن مجالس يطول فيها القول بين
العلماء ، ويكثر الجدل ، ويطرح شعر الشاعر على بساط النظر ،
فيوجه اليه النقد حيناً فى رفق ، وحيناً فى عنف وتحامل *

كانت حياة المتنبي ساكنة من جميع جوانبها ، لهذا مل هذا
السكون ، ولغة شعره تلفها هذه الوحشة الساكنة ، لم يعد يتدفق ،
فيرعد ويبرى ، بل هو يجتر ألامه وأماله فى نغم هادئ حزين ،
وإن كان نفاذا مريرا *

وتبدأ هذه الرحلة الطويلة من مصر الى الكوفة في يبداء
المغرب ، يعبر فيها صحراء سيناء وتيسه بنى اسرائيل ، ثم صحراء
النقب ، فشرقاً الى الكوفة .

وقد دبر الشاعر خطته في دهاء وحيطه ، واتصل ببعض
رؤساء الاعراب في الشرقية بمصر . وكان منهم واحد يذكره في
ابيات له اسمه عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبيس ياقليم
الشرقية (١) - قالوا : وأخفى طريقه فلم يأخذوا له أثراً ، حتى
قال بعض أهل البادية هيه سار ، فهل محاً أثره ؟ وقال بعض
المصريين : انما أقام حتى عمل طريقاً تحت الارض .

وتبعته البادية والحاضرة ، ومن وثقوا به من الجند ، وكتبوا
الى عمالهم بالحوفية والجفار وغزة والشام وجميع البوادي .
وعبر أبو الطيب في الطرق الوعرة حتى خرج الى ماء على حدود
سيناء يعرف بـ « نخل » فلقى عنده في الليل ركبا وخيلا
صادرة عنه فقاتلوه ، فأخذهم وتركهم ، وسار حتى قرب من
النقب ، فرأى رائدين لبنى سليم على قلوصين فركب وطردهما
حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلها أرسلوهما رائدين ، وأوعده
النزول ذلك اليوم بين يديه ، فاستبقاهما ورد عليهما القلوصين
وسلاحهما ، وسار وهما معه حتى توسط بيوت بنى سليم آخر
الليل ، فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء ، وذبح له .

(١) ديوانه ، طبع مزام ، ص ٤٨٨ .

وغدا فسار الى النقع فنزل ببادية من معن وسنيس ، فذبح
له عفيف المعنى غنما وأكرمه وغدا من عنده وبين يديه لسان من
جذلم يدلّاته في الطريق • فصعد في النقب المعروف بتريان ،
وفيه ما يعرف بمرندل (وهي قرية من أرض السراة بالشام ،
فسار يومه وبعض ليلته • ونزل •

وأصبح فدخل حسمى • وحسمى هذه أرض طيبة ، ثنبت
مائر النبات ، مملوءة جبالا في كبد السماء متناوحة ، ملس
الجوانب ، اذا أراد الناظر الى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها
بشدة ومنها ما لا يقدر أحد أن يصعده ، ولا يكاد القتام يفارقها •

ومن جبالها جبل يعرف بأرم ، عظيم العلو ، تزعم البادية أن
به كروما وصنوبرا ، فوجد بني فزارة به شاتين ، فنزل يقوم من
عدى فزاره •

وبقى في ضيافة فزارة بعض الوقت ، وكانت بينه وبين أمير
بني فزارة حسان بن حكمة مودة وصداقة فنزل بجار للقوم اسمه
وردان من طي أفسد على المتنبي غلمانته ، قيل أنه كان يجلسهم
مع امرأته ، فيسرقون له من رحل المتنبي الشيء بعد الشيء •

وطاب المقام في حسمى للمتنبي فبقى بها شهرا ثم يعكرها
سوى وردان وغلمانته الذين خانوه وسرقوا متاعه • وحاول أحد
عبيده سرقة سيف ثمين له والهرب به ، ولكنه عاجله وقتله ، وحمل
متاعه وعبيده وغادر حسمى متمما رحلته الى الكوفة ، وكانت رسل

كافور دائمة البحث عنه لاقتناصه قبل أن يبلغ غايته (٢) » .

بدأ هذه الرحلة في العاشر من ذي الحجة سنة خمسين ، واستمر طوال ما يقرب من أربعة أشهر حتى بلغ الكوفة في شهر ربيع الآخر سنة احدى وخمسين وثلاثمائة . ونظم في هذه الاثناء بعض قصائده المشهورة ، وأولها الميمية التي يذكر فيها بدء الرحلة ورثاء فاتك ، وهمومه ، ومستقبله الغامض الذي يحاول أن يشق عنه حبيبه . يقول : (يقال أنشدها بالكوفة سنة ٣٥٢ هـ) -

حتام نحن نسارى النجم في الظلام وما سراه على ساق ولا قدم
وفيها يذكر شيبه ، وقد داهمه الشيب مبكرا فسي أخريات
الثلاثينات من عمره وأوائل العقد الرابع ويبدو أن هذا الشيب
تكاثر في رأسه بعد أن قاربت سنة الخمسين ، وشعر بالحاج الزمن
والايام عليه وقد تماقب عليه هجير الرحلة ولازمته الشمس ،
وتماقب الايام ، فسودت هذه وجهه وبيض ذاك شعره . يقول :

تسود الشمس منا يبيض أوجها ولا تسود يبيض العنر واللمم
وكان حالهما في الحكم واحدة لو احتكما من الدنيا الى حكم
ونترك الماء لا ينفك من سفر ما سار في القيم منه سار في الادم

ونقف عند هذا البيت العجيب وهذه المقابلة بين ماء الغمام ،
وماء الحياة ، أو الدم والروث ، ومن ماء الغمام الحياة للنبات
والانسان ، ومن ماء الحياة كذلك ، ولكن هذا يسير في الغمام

(٢) في رحلته هذه ، راجع ديوانه من ٤٨٨ - ٤٩٢ طبع مزاج ، والصبيح

النبى ، ص ١٢٤ - ١٢٦ -

يجود على بلد ويبخل على أخرى وهو ما ينفك سائرا ، وماء الحياة
يسير كذلك ، فى رحلة الانسان على الارض ، والادم ، أو الجلد
يبلى ، وينتهى . . قسره مع الزمن الى البلى والفساد ، الى الموت
والفساد ، الى الموت وهو ماء الحياة . . .
ويقول :

لا أبغض العيس لكى وقيت بها قلبى من الحزن أو جسمى من الصقم
طردت من مصر ايديها بارجلها حتى مرقت بنا من جوش والعلم

وجوش والعلم موضعان قرب جسمى التى أناخ بها بعد أن اطمأن
به المسير ، وابتعد عن منطقة نفوذ كافر ورجالهم فى الشام .
ويذكر ركبته بين غلمانهم وعبيده فى عدة الفتك :

فى غلما اخطروا أزواحهم ورضوا بما لقين، وضا الايسار بالزلم
بيض العوارض طعانون من لعقوا من الفوارس شلالون للنعم

* * *

مازلت أضحك أبلى كلما نظرت الى من اختضبت أخفاها بدم
أسرها بين أصنام إشاهدنا ولا إشاهد فيها عفة العتم
حتى رجعت واللامى قوائلى المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فانما نعن للاسياف كالخدم
أسمعتنى ودوائى ما أشرت به فان غفلت فدائى قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهنلى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

أهى ردة جديدة من المتنبي وعود الى موقفه الاول قبل لقاء
سيف الدولة ، وإيمانه بالسيف والحرب والضرب والقتال ، ووجد
للشمر قوله ، وقدرته فى أن يبلغ الانسان مطلبه فى الحياة ؟ . .

أم هي ضجرة جديدة ، وعيشية متشائمة ، جناها ، أو أثارها من
مكائنها في نفسه رحلة الصعراء ، وما لقي فيها من لقاء مع
الاحداث والاختار وجهها لوجه ، وسيفه بيده ، يقتحم المهالك
والاختار ، ويطرده للصوم ، والفتاك ، ويفضبه ما يريد ،
ويحوزه ولا رقيب ولا سلطان عليه ٠٠ أهى شريعة القوة والفتك ،
والحق لم يلب ٩ ! ٠

لقد صب المتنبي تجاربه ثانياً في هذه الرحلة (١) في
قصيدته المقصورة القافية :

ألا كل ماشية الغيزلي	فدى كل ماشية الهيدبي
ضربت بها التيه ضرب القمار	فاما لهذا واما لهذا
إذا فرغت قنمتها الجياد	ويغفر السيوف وسمر القنا
فبرت بنخل وفي ركبها	عن العالمين وعنه ضنى
وامست تغبرنا بالتغاب	ووادى المياه ووادى القرى
وقلنا لها أين أرض العراق ؟	فقاتل ونحن بتربان : ها
وهبت بجسمي هبوب الديور	مستقبلات مهب الصبا
فلما أنغنا ركزنا الرماح	فسوق مكارمنا والعمل
ويتنا نقيبل أسياقنا	ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق	ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنسى وفيت وأنسى أبيت	وأنسى عتوت على من عتا
وما كل من قال قولا وفى	وما كل من سيم خفا أبى

واستقبل بالعراق مرحلة جديدة من حياته ، وهو في الخمسين من عمره ، غلب البياض على لحيته ، وحنكته التجارب ، وسقلت شعره الايام والستون ، وفي عودته الى العراق عودة الى الدرس والمناظرة ، وعودة الى الحضر والاستقرار ، وكان سميته قد تردد في الخافقين وسبقه الى العراق ، وجاءه وهو مدرك لهذا ، وبين يديه حصيلة كبيرة من الشهرة والمقدرة ، وبين يديه قدر واخر من المال ، وكان طبعيا أن يلقي الناس بين مرحب به متمن للقاءه والانتفاع بعلمه والافادة من شعره ، وبين طالب مدح ، ليذكره الناس كذاكرهم ومدوحيه الكبار أمثال سيف الدولة وابن عمار وفاتك وغيرهم ، أو طالب شعره ليتأدب به ويزود نفسه ان كان من اصحاب الادب أو علماء اللغة ، وفريق آخر ممن لقيه لم يكونوا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء انما هم من المتشاعرين ، أو العاقدین الذين سامهم أن يبلغ هذا الرجل ما بلغ من المكانة حتى تهافت عليه الملوك يرجون مديحه ، وهو يدل عليهم باقتداره واغرابه فضلا عن براعته واعجازه .

وهكذا بلغ الكوفة ، وبقي بها بعض الوقت ، وغادرها الى بغداد ، فأقام زمنا ، التقى فيها بجماعة من مشاهير الادباء والنقاد والعلماء من أمثال العاتمي ، الذي لقيه لقاء عاصفا سجله في رسالة اعترض فيها على بعض عيوبه في شعره وسماها الموضعة (١) . وكان العاتمي في أول لقاءه بالمتنبي غاضبا

(١) نشرت الرسالة مرتين ، مرة باسم « العاتمية » ومرة ثانية باسم الموضعة .

عتيفا ، ولكن اللقاء هدهد من غضبه وهذا من ثورته ، فقلل من حملته على الشاعر واعترف بفضله ، وألف فيه رسالة ثانية تبين معارضته لارسطو في بعض حكمه (١) وفلسفته * وكان قد ترفع في بغداد عن مدح وزيرها المهلبى ، فحرض عليه كما قيل الحاتمي (٢) *

قال الحاتمي :

« كان أبو العليب عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة ، يخيل له أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر لا يفترف عذبه غيره ، ولا يقتطف نواره سواه ، ولا يرى أحدا الا ويرى نفسه مزية عليه ، حتى اذا تخيل أنه تسبيح وحده ، وأنه مالك رق العلم دون غيره ، وثقلت وطأته على أهل الادب بمدينة السلام ، وطأطأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، واطمأن على التسليم جأشه ، وتخيل أبو محمد المهلبى أنه لا يتمكن أحد من مساجلته ومضارعتة ، ولا يقوم لمجادلته والتعنق بشيء من مطاعنه ، وسام معز الدولة أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولم يكن بمملكته أحد يماثله فيما هو فيه ، ولا يساويه في منزلته ، يبدى لهم عواره ، ويكفى آثاره ، ويهتك أستاره ، ويمزق جلابيب مساويه * فتوخيت أن يجمعنا مجلس أجرى أنا وإياه في مضماره ليعرف السابق من المسبوق ، فلما لم يتفق ذلك قصدت

(١) الحاتمية الثانية سبق نشرها *

(٢) راجع الثعالبي في أبو الطيب ما له وما عليه *

مجلسه ، فوافق مصري اليه حضور جماعة يقرءون عليه شيئا من شعره ، فعين استؤذن لي نهض من مجلسه ودخل بيتا الى جانبه ونزلت عن بغلتي وهو يراني ، ودخلت الى مكانه ، فلما خرج الى نهضت اليه فوفيته حق السلام غير مشاح له في ذلك •

وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لي عند الدخول اليه •

وليس سيمة اقبية ملونة • وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف ، وأحق بتخفيف اللبس ، فجلس ، وأعرض عني ساعة لا يمرني طرفا ، ولا يكلمني حرفا ، فكدت أتميز غيظا وأقبت أستخف رأيي في قصده ، وأعاتب نفسي في التوجه الى مثله ، وهو مقبل على تكبيره ملتفت الى الجماعة الذين بين يديه ، وكل واحد منهم يوميء اليه ، ويوحى بطرفه ، ويشير الى مكاني ، ويوقظه من سته جهله ، ويأبى الا أزورارا ونفارا ، جريا على شاكلة خلقه ، ثم توجه الى ، فوالله ما زادني على قوله :

— أي شيء خبرك ؟

فقلت — ما جنيته على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي من السعي الى مثلك • ثم انحدرت عليه انحدار السيل •

وقلت — ابن لي عاكاك الله ما الذي يوجب ما أنت عليه من العظمة واليكريام ؟ • هل هنا نسب يورثك الفخر ، أو شرف توجهت به دون أبناء الدهر ، أو علم أصبت فيه علما يقع

الايماء اليه ، أو مورد تقف الهمم عليه ؟ • وهل أنت الا
وتد بقاع في شر البقاع ؟ واني لاسمع جمجمة ولا طحن •

فامتنع لونه ، وجمل يعتذر عن جنائته •

وأقول له - يا هذا اذا أتاك شريف فلي تسبه تجاهلت عليه ، أو
عظيم في أدبه صفرت قدره أو مقدم عند سلطانه لم
تعرف موضعه • هل العز تراث لك دون غيرك ؟ • • كلا
والله ، ولكنك مددت الكبر سترا ، وضربته رواقا دون
جهلك •

فعاد الى الاعتذار • وأخذت الجماعة في تليين جانبي ، والرغبة
في قبول عذره ، واعمال مياسرته ومسامحته • ويحلف بالله أنه لم
يعرفني • فأقول : يا هذا ألم يستأذن عليك باسمي ونسبي ؟ • •
أما كان في الجماعة من يعرفك بي ان كنت تجهلني ؟ • • وهب كان
ذلك ، ألم ترتحتي بغلة رائحة ، يعلوها مركب ثقيل ، وبين يدي
عدة غلمان ، أما شاهدت لباسي ؟ أما شممت نثري ؟ • • أما راعك
شيء من أمري أتميز به عن غيري ؟ - وهو خافض جناح الذل •
وقد زال عنه ما كان فيه ، وأقبل على ، وأقبلت عليه •

ويروى الاصبهاني مجلسا آخر له في بغداد بعصرة المهلبى :
قال : « فلما حصل المتنبي ببغداد نزل ريش حميد ، فركب الى
المهلبى ، فأذن له فدخل وجلس الى جنبه وصاعد خليفته دونه ،

وأبو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الاغانى - فأنشدوا هذا البيت :

بقى الله امواها عرغت مكانها جراما وبلكوما ، ويذر فالغمر

وقال المتنبي : هو « جرابا » - وهذه أمكنه قتلتها علما ، وانما الخطأ وقع من النقلة ، فأنكره أبو الفرج الاصبهاني - قال الشيخ : هذا البيت أنشده أبو الحسن الاخنش صاحب سيبويه فى كتابه جراما بالميم ، وهو الصحيح - وعليه علماء اللغة -

وتفرق المجلس على هذه الجملة ، ثم عاوده اليوم الثانى ، وانتظر المهلبى انشاده فلم يفعل وانما صده ما سمعه من تصاديه فى السخف ، واستهتاره بالهزل ، واستيلاء اهل الخلاعة والسخافة عليه - فلما كان اليوم الثالث أغروا به ابن الحجاج حتى علق لجام دابته فى صينية الكرخ ، وقد تكايس الناس عليه من الجوانب ، وابتدأ ينشده :

يا شيخ أهل العلم فينا ومن يلزم أهل العلم توفيره
فصبر عليه المتنبي ، ساكتا ، ساكنا ، الى أن أنجزها ، ثم خلى عنان دابته - وانصرف المتنبي الى منزله وقد ثيقن استقرار أبى الفضل ابن العميد بأرجان وانتظاره له ، فاستعد للمسير (١) -
وهجاء شعراء العراق - قال الثعالبي :

« ولما قدم أبو الطيب من مصر بغداد وترفع عن مدح المهلبى

(١) الاصبهاني - الواضح ، ص ١٥ -

الوزير بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبى ، فأخبرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه ، وتباروا فى هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة ، والحاتصى ، وأسموه ما يكره ، وتماجنوا ، وتمادوا عليه ، فلم يجيبهم ، وقيل له فى ذلك فقال :
أنى فرغت من اجابتهم بقولى لمن هم أرفع منهم طبقة :

أرى المشاعرين غروا بتمى . ومن ذا يعمد الداء العضالا
ومن يك ذا قم مر مريض . يجد سرا به الماء الزلالا

وقسولى :

أفى كل يوم تحت ضبتي شوير . ضيف يقاويني ، صغري يطاول
لسانى ينطقى هامت عنه عادل . وقلبي يصمتى ضاحك منه هازل

وبلغ أبا الحسين بن لنكك البصرى الشاعر ما جرى على المتنبي من وقعة شعراء بغداد فيه ، واستعثارهم له ، وكان حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجيا إياه ، فشارك فى الهجوم والذم .
وقد كان ما ناله المتنبي من الثراء ، وما عاش فيه من بحبوحة العيش مما زاد حسد الناس له ، وحقد الشعراء عليه . وذكر ذلك أبق لنكك حين قال :

ما أوقع المتنبي . فيما جتى رادعاه
أبيح مالا عظيما . حتى أباح قضماء
يا سائل عن فتاه . من ذلك كان غناه

يريد أن يتهمة بالتدلل لمن يقصده بشعره فى سبيل الحصول على المال ..

ومهما يكن من أمر فإن وجود المتنبي بالعراق قد أكسب
النقد حركة ، كما أثار في الشعر ثورة أن تكن كلها مستهدفة
الشاعر وشعره ، فأنها قد أفادت الادب ، وخلفت لنا تراثا طيبا
حول الشاعر وشعره ، وحصيلته هذا كله قصائد كثيرة وإن تكن في
الهجاء ، وكتب ومحاورات في جيد شعره وقبحه ، وفي معانيه
ومراميه ، وسرقاته ، وما حاكي فيه الحكماء أمثال أرسطو ، وما
انفرد به من وحشي اللغة وغريبها لفظا وتركيبا .

وتقترب آثاره في هذا المجال من آثاره في حلب مع شعرائها
وعلمائها في بلاط سيف الدولة .

وإن يكن النقد قد أفاد فإن الشعر لم يظفر من أبي الطيب
بقصائد من قرائده . ولم تطل إقامته ببغداد ، فسرعان ما حث
الركاب إلى الشرق .

ولا نذكر له في العراق سوى قصيدة لامية يمدح بها قائدا
جاء إلى الكوفة يعين أهلها على بعض الخوارج الذين ألبسوا بها
وأصابوا مقاتل من أهلها ، وشارك المتنبي في الدفاع عنها ،
وقابل القائد أبا الفوارس دليز بن لشكروز وأنشده أياها في
الميدان . قال :

كسواء كل يدعى صعة العقل : ومن ذا الذي يرى بما فيه من جهل

« وحمله دليز على فرس بمركب ذهب » (١) .

(١) الواحش ، ص ١٣ .

وقصد أبو الطيب أبا الفضل ابن العميد في أرجان • قال
الاصبهاني :

« وكان السبب في قصده أبا الفضل ابن العميد على ما أخبرني
علي بن شبيب القاساني ، - وكان أحد تلامذتي ، ودرس علي
بقاسان سنة ٣٧٠ ثلاثمائة وسبعين - أن المعروف بالمطوق الشاشي
كان بمصر وقت المتنبي ، فعمد إلى قصيدته في كافور :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وجعل مكان أبا المسك « أبا الفضل » • وسار به إلى خراسان -
وحمل القصيدة عن المتنبي إلى أبي الفضل ، وزعم أنه رسوله ،
فوصله أبو الفضل بألفي درهم • واتصل هذا الخبر بالمتنبي
ببغداد فقال : رجل يعطى لحامل شعري هذا ، فما تكون صلته
لي ؟ ... »

وكان أبو الفضل ابن العميد يخرج في السنة من الري
خروجين إلى أرجان يجبي بها أربع عشرة مرة ألف ألف درهم فنا
حديثه إلى المتنبي بحصوله بأرجان •

قال الثعالبي : « ثم إن أبا الطيب اتخذ الليل جملا ، وفارق
بغداد متوجها إلى حضرة أبي الفضل ابن العميد مراغما للمهلبى
الوزير ، فورد أرجان ، وأحمد موده (٢) •

(٢) أبو الطيب ، ص ٤٢ •

قال ابن جني (٣) عن علي بن حمزة البصري قال : كنت مع المتنبي لما ورد أرجان ، فلما أشراف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال : تركت ملوك الأرض وهم يتعبدون لي ، وقصدت رب هذه المدرة ، فما يكون منه ؟ ثم وقف بظاهر المدينة ، وأرسل غلاما علي راحلته إلى أبي الفضل ابن العميد ، فدخل عليه وقال : مولاي أبو الطيب خارج البلاد . وكان وقت القيلولة وهو مضطجع في دستانه ، فثار من مضجعه أبو الفضل ، واستثبته ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب ، واستركب من لقيه في الطريق ، ففضل عن البلد بجمع كثير ، فتلقوه وقضوا حقهم ، وأدخلوه البلد ، فدخل على أبي الفضل فقام له من الدست قياما مستويا ، وطرح له كرسي عليه منخدة ديباج . وقال أبو الفضل : مشتاق اليك يا أبا الطيب ، ثم أقاض المتنبي في حديث سفره ، وأن غلاما له احتمل سيفا وشذ منه .

وأخرج من كفه عقيب هذه المفاوضة درجا فيه قصيدته :
يا دمهوات صيرت أم لم تصيرا وبكاد أن لم يجر نعلك أو جرى
وقيل أنه ورده بأرجان في ربيع الأول سنة أربع وخمسين
وثلاثمائة .

فوحى أبو الفضل إلى حاجبه بقرطاس فيه مائتا دينار ،

وسيف فشاؤه فضة وقال : هذا عوض عن السيف المأخوذ • وأفرد له دارا تزل بها ، فلما استراح من تعب السفر كان ينشئ أبدا الفضل كل يوم ويقول : ما أزورك أكيا يا أبا لشهوة النظر إليك ، ويؤاكله • وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ، ويتعجب من حفظه وغرارة علمه •

وأظلم النيروز ، فأرسل أبو الفضل بعض تدمائه إلى المتنبي ليقول : كان يبلغني شعرك بالشام والمغرب وما سمعته دونه • فلم يجر جوابا إلى حضرة النيروز وأنشده مهتئا ومعتذرا :

هل لعذري إلى الهمام أبي الفضل	قبول سواء عيني مدانه
ما كفاني تقصير ما قلت فيه	من علاه حتى ثناه انتقانه
انسي أعيد البزاة ولكن	اجل التجسيم لا اصطباذه
ما تودت أن أرى كأي الفضل	وهذا الذي أتاه اعتياده

ومطلع هذه القصيدة :

جاء نوروزنا وانت مراده وورث بالذي أراد زناذه
قال الاصبهانى : فأخبرنى البيهقى سنة ثلاثمائة وسبعين أن المتنبي قال بأرجان : الملوك ترود يشبه بعضهم بعضا ، لا على الجودة يحطون •

وكان حمل إليه أبو الفضل خمسين ألف دينار توابها • وهو من أجاد زمان الديلم •

وأثار المتنبي في حضرة ابن العميد نقاشا حول شعره بين

المعجبين والمعترضيين - قيل أنه بعد ما أشد رأيته فيه - تنازع
ندماء ابن العميد في البيت الأخير وهو قوله :

فتسرى الفضيلة لا تبرد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كنهورا
فقال أثبتوه حتى أتأمله فأثبت البيت ووضع بين يديه ،
فأطرق مليا يفكر فيه ، ثم قال : هذا يمطلنا عن المهم ، وما كان
الرجل يدرى ما يقول •

وهكذا أتيح للمتنبي ناقد من ممدوحيه مرة أخرى يسمع
الشعر ويجرى فيه البحث والنظر وأشار الى تعقب ابن العميد
لشعره ونقده في قوله :

هل تلمزى لى الهمام أبى الفضل قبول سواد عيني مداده
انما من شدة الحياء عليل مكرمات المعالي عواده
* * *

رب مالا يعبر اللفظ عنه والفى يضمير الفؤاد اعتقاده
وقصيدة في النبروز من أربعين بيتا بعث بها اليه ، هدية في
هذا العيد ، كما اعتاد الناس الهدايا - وكان من عادة الفرس في
ذلك اليوم حمل الهدايا الى ملوكهم فقال أبو الطيب :

كثر الفكر كيف تهدي كما اهد ت الى ربها الرئيس مباده
واللى مدنا من المال والغنى ل فمنه هباته وقيامه
فبعثنا بأربعين مهار كل مهر ميدانه انشاده
عده عشته يرى الجسم فيه أربا لا يراه فيما يزانه
فارتبطها فان قلبا نماها مربوط تسبق الجياد جياده

قال البديعى (١) : « وهذا من احسان أبى الطيب ، واحتج
عن تخصيص أبياته الاربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة ،
وهي أنه جعلها كعدد السنين التى يرى الانسان فيها من القسوة
والشباب ، وقضاء الاوطار مالا يراه فى الزيادة عليها ، فاعتذر
بألف اعتذار فى أنه لم يزد القصيدة على هذه العدة » .

وكان بين مؤيديه والمنتصرين له أبو الفتح ابن العميد ابن
أبى الفضل ، وكان بالسرى ، ونسخت القصيدتان اللتان مدح
يهما الشاعر والده ، فعاد الجواب يذكر شوقه الى أبى الطيب ،
وسروره به . وانفذ أبياتا طعن فيها على المعترضين لقول الشعر .
فقال أبو الطيب والكتاب بيده ارتجالا :

يكتب الانام كتاب ورد	فدت يد كاتبه كل يد
يعبر عما لنا عنده	ويذكر من شوقه ما نجد
فأفرق رائيه ما قد رأى	وأبرق ناقده ما انتقد
إذا سمع الناس الفاظه	خلقن له فى القلوب العسد
فقلت وقد فرس الناطقين	كذا يفعل الاسد بن الاسد

وقد أتيج للمتنبى فى هذه المرحلة المشرقية من حياته جماعة
من العلماء والادباء والرؤساء نقدوا شعره ، وتعقبوا سقوطه ،
وهولوا ، وملأوا الجو ضجيجا . وعيبا .

وأولهم الاديب الوزير الناقد صاحب بن عباد . وقصته مع

(١) الصبح المنبى ، ص ١٥٥ .

أبي الطيب ، قصة كل حاقه رأى أمامه الفضل فتمناه لنفسه فلما
عزّه ، حمل عليه ، وأزرى به .

قال الثعالبي (٢) : « يحكى أن صاحب أبا القاسم طمع في
زيارة المتنبي إياه بأصبهان ، وأجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء
الزمان ، وهو اذ ذاك شاب ، وحالة حويلة ، ولم يكن استوزر بعد ،
وكتب اليه يلاطفه في استدعائه ، وتضمن له مشاطرته جميع
ماله ، فلم يقم له المتنبي وزنا ، ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده » .

ولم يهتم أبو الطيب بأمر هذا الفتى ، بل كان رده عليه
تعاليا واحتقارا لشأنه . وروى البيهقي أن المتنبي قال لأصحابه :
ان غنيما معطاء بالرى يريد أن ازوره وأمدحه ، ولا سبيل الى
ذلك .

وغادر حضرة ابن العميد الى شيراز حيث الأمير البويهى عضد
الدولة . قال الاصبهاني (٣) : « ثم ان أبا الطيب المتنبي لما ودع
أبا الفضل بن العميد ، ورد كتاب عضد ليستدعيه ، فعرّفه أبو
الفضل ، فقال المتنبي : مالي وللديلم ، فقال أبو الفضل : عضد
الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعاف ما كنت وصلتك به .
فأجاب بأنى ملقى من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد ،
وأملكهم شيئا يبقى بقاء النيرين ويمطوننى عرضا فانيما ، ولي
صحرات واختيارات فيعوقوننى عن مرادى ، فاحتاج الى مفارقتهم

(١) أبو الطيب ، ص ٤٢ .

(٢) الواضع ، ص ٣٠ .

فكاتب أبو الفضل عضد الدولة بهذا الحديث ، فأجاب بأنه
مملك مراده في المقام والطمع .

فسار المتنبي من أرجان ، فلما كان على أربعة فراسخ من
شيزار استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ . (أحد علماء
اللغة عنده) فلما تلاقيا وتسايرا استنشده ، فقال : الناس
يتناشدون فاسمعه فقال أبو عمر أنه رسم له ذلك عن المجلس
العالي ، فبدأ بتصديده التي فارق مصر بها :

إلا كل ماشية الخيزل فدا كل ماشية الهيد بي
ثم دخل البلد فأنزل دارا مفروشة .

ورجع أبو عمر الصباغ الى عضد الدولة وأخبره بما جرى ،
وأنشده أبياتا من كلمته وهي :

فلما أنغنا ركزنا الرماح حول مكارمتنا والعللا
وبقتا ثقبيل أسافنا ونسحها من دماء العلى
لتعلم مصر ومن العراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأتى وفيت وأنى أبيت وأنى متوت على من عتى

فقال عضد الدولة : هو ذا يتهددنا المتنبي .

ثم لما نفّض غيار السفر واستراح ، ركب الى عضد الدولة ،
فلما توسط الدار انتهى الى قرب السريز مصادمه فقبل الارض
واستوى قائما ، وقال : شكرت مطية حملتني اليك ، وأملا وقف
بى عليك .

ثم سأله عضد الدولة عن مسيره من مصر وعن علي بن حمدان -

فذكره • وانصرف وما أنشد • وروى عن القاضي عبد العزيز بن يوسف الجرجاني ، وكان كاتب الانشاء في بلاط عضد الدولة عظيم المنزلة منه (١) أنه قال : لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه ، أتبعه بعض جلسائه ، وقال له : سله كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الامراء الذين لقيهم منا ؟ قال : فامتثلت أمره ، وجاريت المتنبي في هذا الميدان ، وأطلت معه عنان القول ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه مني أن قال : ما خدمت عيناى قلبى كاليوم •

ولقد اختصر اللفظ ، وأطال المعنى ، وأجاد فيه • وكان ذلك منه أوكد الاسباب التى حظى بها عند عضد الدولة •

ويقال أن أول قصيدة أنشدها اياها قوله (٢) :

أوه بديل من قولتى وأما • لمن نأت والبديل ذكرها
أنشدها سنة أربع وخمسين وثلاثمائة •

ولكن الاصبهانى يذكر أن قصيدة الشعب التونية هي أول ما أنشده (٣) • قال الاصبهانى أنه بعد أيام من وصوله شيراز حضر سماط عضد الدولة ، وقام بيده درج فأجلسه عضد الدولة وأنشد :

(١) المصباح المنبى ، ص ١٦١ •

(٢) هكذا في المصباح المنبى وديوانه ، طبع عزام ، ص ٥٥٢ •

(٣) أبو الطيب ص ٤٠ •

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

فلما أنشدها وفرغوا من السماط حمل اليه عضد الدولة من
أنواع الطيب في الاردية والامنان من بين الكافور والعتبر والمسك
والعود ، وقلد قمره الملقب بالمجروح - وكان اشترى له بخمسين
ألف شاة (عملة فارسية) ، وبدره دراهما عدلية ، ورداء حسوه
ديباج رومي مفصل ، وعمامة قومت خمسمائة دينار ، ونصلا
هنديا مرصع التجاد والجفن بالذهب » .

ويحكى الثعالبي (٢) : أنه لما أنشد المتنبي عضد الدولة
قصيدته هذه ، وانتهى الى قوله :

وأتقى الشرق منها في ثيابي دنائرا تفر من البنان
قال عضد الدولة : لاقرنها في يدك - ثم فعل -

القريب الى المنطق رواية الاصبهاني ، لان المتنبي حين بدأ
القصيدة بوصف شعب يوان وكان في طريقه الى شزار كان
يجري على عادة شعراء العرب في وصف الرحلة الى المدوح ،
والمقول ان يصف رحلته اليه بعد زمن يقضيه في جنايه ثم ان
روح القصيدة ، وما فيها من جو التفاؤل يتبين بهذا .

قال الاصبهاني : « وبعد ذلك كان ينشده في كل حدث يحدث
قصيدة الى أن حدث يوم ثرا لورد ، فدخل عليه والملك على السرير
في قبة يحضر البصر في ملاحظتها بأبواب ، والامراك ينثرون

(٢) الواضح ، ص ٢١ .

الورد ، قمثل المتنبي بين يديه وقال : ما خدمت عيني قلبي قبل
اليوم وأنشد يقول :

قد صدق الورد في النثر زعما أنك صبرت نشره ديمما
كانما مائج الهواء به بحر حوى مثل مائه عنما
فحمل على فرس ومركب ، وألبس خلعة ملكية ، ويدرة بين يديه
محمولة .

وكان هذا اليوم من أعيادهم ، وكان عضد الدولة جلس
للشراب ، وطاق به غلمانه من الاتراك ينثرون عليه الورد .

وطابت له الإقامة بشيراز ، ولقى الترحيب والاكرام ، والتف
حوله العلماء والنقاد فمنهم المعجب المخلص له كابن جنى ، وعلى
بن حمزة الاصبهاني ، والقاضي على بن عبد العزيز صاحب
الوساطة ، ومنهم الناقد العائب مثل أبي على الفارسي ، ومحمد بن
أبي اليثاب البغدادي .

وكان شعره في بلاط شيراز أجود من غيره من الشعر الذي
قاله قبل في أرجان ، وإن لم يبلغ درجة شعره عند سيف الدولة ولا
في مصر ، ولا في رحلته منها الى الكوفة ، ولعل عضد الدولة لاحظ
هذا أو لعل أحدا من مجالسيه من العلماء لفت نظره اليه .

قال الاصبهاني : وقال عضد بشيراز : المتنبي قال جيد
شعره بالعرب - فأخبر المتنبي به فقال : الشعر على قدر البقاع .
وفي هذا القول نغمة تعصب للعرب ومحبة لاهله ووطنه ،

وقد لازمه هذا الشعور طوال بقائه في فارس سواء في أرجان أو
شيراز - وثم عنه شعره في عضد الدولة خاصة حين يقول :

أوه ممن لا أرى محاسنها وأصل واهما وأوه مراها
شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظرى محياها

إلى أن يقول :

أحب حصصا إلى خناصره وكل نفس تحب محياها
ويقول في قصيدة الشعب :

مثنائى الشعب طيبا في الثفاني بمنزلة الريح من الزمان
ولكن الفتى العريس فيها قريب أوجه واليد واللسان

ويقول :

ولو كانت دمشق ثنى عنائي لبيق الثرد ، صيني الجفان
وكان قد كره الذهاب إلى هؤلاء الملوك بالشرق ، وقال لابن
العميد وهو يخبره بالذهاب إلى شيراز مالى والديلم ؟ - لكنهم ألحوا
عليه وأخذوا المال والمطايا ، فلم يجد مندوحة من الذهاب ،
طمعا في المال ، ورغبة في الشهرة - ولعله اتخذ موضوع المديح
داعيا للقول ، وسببا إلى الثراء ، لكن طبعه كان يفيض بالشعر
لأنه شاعر ، ولأنه يريد أن يرضى الأديباء والعلماء ممن ينتظرون
كل جديد منه ، ويتلهفون على سماعه -

حدث ابن جنى عن علي بن حمزة الاصبهاني قال : كنت حاضرا
بشيراز وقت عرضه لهذه القصيدة : (يعنى شعب بوان) وقد
سئل عن معنى هذا البيت :

وكان ابننا عبدو كائسراه له ياءا حروف انيسيان
قال فالتفت الى (المتنبي) وقال : لو كان صديقنا ابن جنى
حاضرا لفسره . قال ابن جنى وقال لي يوما : أتظن أن عنايتي
بهذا الشعر مصروقة الى من أمدحه به ؟ ليس الامر كذلك . لو
كان لهم لكفاهم منه البيت ، قلت : فلمن هو ؟ قال : هو لك
ولا شياهمك .

وكانت زورته لمضد الدولة ناجحة بما جنى من الثروة
والشهرة ، ولقاء أفاضل الادباء والعلماء ممن اهتموا بشعره
وقدروه حق قدره ، أو من حسدوه وحقدوا عليه ، وكان حسدهم
مدعاة للحديث عن شعره ، ذموه ، فزادوه شهرة ، وتحدثوا عنه
فنشروا محاسنه كما قال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر قصيدة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

قال البيهقي (١) :

« ولما أتجعت سفرتي ، وربعت تجارتني بحضرة عضد الدولة ،
ووصل اليه من صلاته أكثر من مائتي ألف درهم أمتأذن في المسير
عنها ، ليقتضى حوائج في نفسه ، ثم يعود اليها ، فأذن له ، وأمر
بأن يخلع عليه الخلع الخاصة ، وتماد صلته بالمال الكثير ،
فامتثل لذلك ، وأنشده هذه القصيدة :

(١) الصحيح المتنبي عن حبيبة المتنبي ، ص ١٦٧ ، وراجع أبو الطيب للشمالي ،
ص ١٤٢ .

فلو انى استطعت خفضت طرفى فلم أبصر به حتى أراكا
وقال الاصبهانى (٢) :

« فلما أقام مدة مقامه ، وسمع ديوان شعره ارتحل وسار
بمراكبه ، وظهوره ، وأثقاله وأحماله الى أن نزل الجسر
بالاهواز » .

وكان أبو الفتح ابن أبى الفضل ابن المميد قد بعث اليه
بكتاب من الرى ، ومضمونه الشوق الى لقاء المتنبى وتشوقه الى
تطرقه عليه ، فأجابه المتنبى :

يكتب الانام كتاب ورد فبت يد كاتبه كل يد
إذا سمع الناس ألفاظه خلقن له فى القلوب الحسد
فقلت وقد فرس الناظرى من كذا يفعل الاسد بن الاسد

فلما أعاد الجواب الى أبى الفتح جعل الابيات سورة يدرسها
ويحكم للمتنبى بالفضل على أهل زمانه (٣) .

وكان أبو الفتح يتمصب للمتنبى ، لكن الشاعر لم يجد فرصة
للقائه ، وكان فى عجلة من أمره حينئذ الى بلاده ، وربما ساقه
حينئذ ، واستعجله أجله .

وكان غروجه من شيراز الى الاهواز رحلته الاخيرة فى الحياة .

(٢) الواضح ، ص ٢٤

(٣) الواضح ، ص ٢٣ .

قال البيهقي : « فلما قارق أعمال فارس حسب أن السلامة تستمر
به كاستمرارها في مملكة عضد الدولة فقتل » .

وترك المتنبي شيراز في رمضان سنة ٣٥٤ هـ وبلغ مدينة
واسط بالاهواز ، وعند ضيعة هناك قرب مكان يقال له دير
العاقول خرج عليه فاتك الاسدي ، وكان من الفتاك المشهورين
وكان موتورا منه لان الشاعر هجا من يقال له (ضبة) في أثناء
مقامه بالكوفة ، وتعرض فيها لامة . وكانت أخت فاتك هذا ،
فاقسم لئن اكتحلت عينه به أو جمعته وإياه بقعة ليسفكن دمه .

وما زال يترصد له حتى علم بخروجه من عند عضد الدولة
متجها الى الاهواز . وبلغ أبو الطيب المكان ليلا ، ومعه رحله
وولده وعبيده ، فخرج عليه فاتك ومعه سبعون رجلا من الاعراب
الفتاك ومن أبناء عموته ممن كانوا يضررون للشاعر ما يضره
لتشهيره بابتة مهمم وقتلوا كل من كان في صحبتته ، وحمل فاتك
على المتنبي وطلعته ، فوقع من فوق فرسه . ونهبوا ماله وكل ما معه
حتى دقاتره .

وكان لمقتله أثره المروع في نفوس محبي شعره ورثاء
الشعراء والعلماء مرآتي فيها فجيرة الفقد .

والمتنبي في الشعر العربي يمثل شخصية جبارة ، لها
خصائصها المميزة التي تكشف عن نفسها وقلما نجد في الشعر
العربي من ظهرت شخصيته في شعره ظهور شخصية أبي الطيب .

وأول ما يلقانا من هذه الشخصية قوة الذات ، وارتفاع
نبوة الانسا . فيقول :

أنا الذى بين الاله به الاقــــــــــــــدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح اشرافى بها وغصة لا تسيغها السفلى

هذا الاعتداد بالنفس كان فيما يبدو خلقه فيه وعززه
موهبة الشعرية ، وذلكاء مفرط الى دهسار ربما صرفه الى غير
الخير ، أو للعبث بمقول الناس والسخرية منهم .

قال ابن قورجة : « كان المتنبي داهية ، مر النفس ، وخيل
اليه منذ حداثته أنه مخلوق ممتاز ، يفوق الناس جميعا ، ولا
يروق له أحد منهم ، ولا يسمو اليه وأنه انما بلغ ما بلغ خلقه
وطبعا لم يأته التفوق وراثه عن آبائه وأجداده :

لا بقوى شرفت ، بل شرفوا بى وبتفنى فخرى لا يجدوى
وبهم فخر كل من نطق الضما د وعوذ الجاني وغوث الطريد
أن اثنى متجيا فمجب عجب ثم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا رب التلى ورب القوافى وحمام المدى وغيث العسود
أنا فى امة تداركها الله فريب كصالح فى ثمود

وهذا العجب ، وتلك الكبرياء ليس عجيبا منه ، لانه هو
نفسه عجيب ، وظاهرة فريدة فى وسط قومه وعصره ، ولهذا فهو
غريب بين قول لا يدركون فضله ، ولا يحسنون فهمه ولا يقدرونه
قـبـدـرـه .

ويحمل بين جنبيه همّة عالية ، جاءت من طبيعه ، وحساسيته ،

وشعوره بالتفوق ويبالغ في التعبير عن تلك الهممة في شبابه ، وعن غايته ما هي ؟ ... ويجب عن تساؤل الناس من هو ؟ وماذا يعني ؟ :

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله	ويجهل علمي أنه بي جاهل
ويجهل أني مالك الأرض معسر	وأنى على ظهر السماكين راحل
تعسر عندي همتي كل مطلب	ويقتصر في عيني المدى المتناول

ويقول :

أعط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد عوفي ولا أحد مشي

ويقول :

تقرب لا مستعظما غير نفسه	ولا قابلا إلا لخالفه حكما
يقولون لي من أنت في كل بلدة	وما تبغني، ما ابتغى جل أن يسمي

غربة في الزمان ، غربة بين الناس ، تعال وشعور عارم بالتفوق ، يدفعه الى التعالي ، والتعالي حتى على نفسه :

واقفا عند أخمصي قدر نفسي واقفا عند أخمصي الانعام

لاشك أن هذه النفس الكبيرة المارة ، فقدت تكيفها مع المجتمع من حولها ، وبدأت آثار غربتها في مظاهر عدة يحكمها الملل والقلق ، وعدم الرضا بالإنسان ، ولا مكان ، زمان تحكمها الثورة ارادة التغيير ، والمنف فتبدو الرغبة في الهدم والقتل ، ويبدو التعطش الى الدم - ويحكمها الغضب ، والمرارة ، وعدم الرضا بالإنسان ، ولا مكان ، ولا زمان تحكمها الثورة ارادة التغيير ، والمنف فتبدو الرغبة في الهدم والقتل ، ويبدو التعطش الى

الدم • ويحكمها الغضب والمرارة ، وعدم الرضا بنعيم العيش ، ولا
الركون الى الدعة ، والتنعم بالملاذ ومطاييب الحياة من نساء
وخمر ولعب ، يحكمها النظرة الى كل شيء من حل ، فيرى كل شيء
صغيرا ، حقيرا ، الناس ، والدنيا ، والزمن والحياة •

اذا تبعث عن هذه النفس المتعالية ، والاحساس بالغربة
صفات غلبت على شعره منذ صباه الى وفاته •

فاما احساسه بالغربة ، وبأنه منفرد في هذا الزمان ، وبأنه
وحيد ، فتجده فيما عرضنا من شعره في احساسه بالامتياز ، وبأنه
عجيب قل هذا يشعر الناس بعجبه ، وهو يحب لانه يرى في نفسه
ظاهرة غريبة ، وهو غريب كغربة صالح في ثمود ، وكغربة التبر
في التراب •

وهو لا يهتم بأن يتجاهله الناس أو يجهلونه ، فذلك لا يغير
من جوهره ، والدر در برغم من جهله :

ويظهر الجمل بي وأعرفه والدر در برغم من جهله

وظاهرة القلق ، ظاهرة طليمية لهذه النفس التي لا تطمئن
الى الحياة ، ولا تجد من يقدرها ولا تجد في الارض مثوى ، فكل
أرض تضيقها تنفضها ، وكل منزل تنزله تلفظه •

أرق على أرق ومثل يارق	وجوى يزيد وعبرة تترق
جهد الصبابة ان تكون كما أرى	مبين مسعدة وقلب يخفق
ملاح برق أو ترنم طائر	الا انثيت ولى فؤاد شيق

أبيات في الفزل والنسيب ، وشكوى الحب في ظاهرها ، لكن
حبه ذاك ، هو همه ، أو ما تتطوى عليه نفسه ، ولا يجد السبيل
إليه -

عذيري من عذاري من أمور سكن جوانعي بادل الخدور
ومبتسمات هيجانات عصر عن الأسياق لسن من الثغور
ركبت مشمرا قدمي إليها وكل عذافي قلق الضفور

وهكذا القلق يدفعه إلى الرحلة دائما ، وعدم الاستقرار في مكان :

أوانا في بيوت البدو رحلى وأونة على قتب البحر
أعرض للرماح الصم نعري وأنصب حر وجهي للهجر
واسرى في ظلام الليل وحدي كاني منه في لمر منير

ويقول في رغبته في الرحلة وقلقه :

ألفت ترحلي وجعلت أرضي فتودي والغريرى الجلالا
فما حاولت في أرض مقاما ولا أزمعت عن أرض زوالا
عل قلق كان الريح تعنى أوجهها جنوبا أو شمالا

وهذا الهم ، أو الامل الذي يأخذ عليه مجامع نفسه يتخايل له
دائما ، فيصوره في صور مختلفة ، فهو في مطلع قصائده حبيبة
بعيدة المنال ، ويوموس له هاجسه بأنه لن ينالها حتى الموت ،
ولعله يموت دون لقاءها :

يا حادبي غيرها واحبني أوجد ميتا فيل أقدمها
قفا قليلا بها على فلا أقل من نظرة أزودها
ففى فؤاد المحب نار جوى أحر نار العجيم أبردها
شاب من البحر فرق لته فصار مثل الدمقس أسودها

ويقول :

أبعد نأى المليحة البغل فى البعد مالا تكلف الا بطل
ملولة ما قدوم ، ليس لها من ملل دائم بها ملل

ويقول :

بقائى شاء ، ليس هم ارتحالا وحسن الصبر ذموا لا الجمالا

ويقول :

فى الغد أن عزم الغليط رحىلا مطر تزيد به الغدود معولا
فى مطلع قصيدة يمدح بها بدر بن عمار - ويقول قسى مطلع
قصيدة يمدح سيف الدولة ، ويذكر غزوة له فى أرض الروم :

ليالى بعد الفاعنين شكون طوائف ، وليل العاشقين طويل
يبن لى البدر الذى لا أريده ويغفان بنوا ما اليه سبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة ولكننى للنائبات حمول
وان رحىلا واحدا حال بيتنا وفى الموت من بعد الرحيل رحيل
اذا كان شم الروح أدنى انيكم فلا برحتنى روضة وقبول
وما شرقى بالماء الا تذكرنا لماء به أهل العبيب نزول
يخرمه لمع الاسنة فوقه فليس لقلمان اليه وصول
أما فى النجوم الساريات وفيرها لعينى على ضوء الصباح دليل
ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتى فتظهر فيه دالة ونحول

ففى هذه المقدمة يضمن المتنبي أحاسيسه ومشاعره ، هو
يحب حبيباً ، وينطوى صدره على هوى كبير عظيم ، يعرى جسده
ويضنيه ، ضنى من الشوق ، وضنى من الرحلة هواه مرتحل لا
يقيم ، وشوقه وجسده وراءه فى رحيل غير مقيم ، هواه كذلك

بعيد بعيد ، عزيز ، منيع * * وهو مع ذلك لا يعمل ، وإنما يسمى
إليه رغم ما يلقي من متاعب وآلام .

وقد يترامى له هذا الهوى ، أو الهم بعيدا بعيدا * تحوطه
الظلال ، والمتاهات ولا يتبين طريقه إليه ، ويبدر وكأنه يساير
النجم فى الظلم ، ويتساءل :

حتم نحن نسارى النجم فى الظلم وما سراه على ساق ولا قلم
فهو دائب الرحلة يرافقه النجم فى الظلم ، والنجم يلقي إليه
بنوره الامل ، بصيصا منه ، لكن الظلام من حوله داكن ، وهو فى
رحلة الدهر ، ومسيرة الايام لا يلقي غير ضنى وحرب لا تهدأ -
هو الغاسر فيها :

تسود الشمس منا بيض أوجهننا ولا تسود بيض العذر واللمم
فالايام تمضى ، وهى تأخذ منه شبابه ، وتحيل لون أديمه ،
وكم فى الدنيا من متناقضات :
أطاعن خيلا من قوارسها الدهر وحيدا وما قولى كذا ومعنى الصبر
ويجمل الايام عدوه ، والدهر متربصا به ، والحرب بينهما على
ساق :

ومن لم يعشق الدنيا قديما ؟	ولكن لا سبيل الى الوصال
نصيبك فى حياتك من حبيب	نصيبك فى منامك من خيال
رمانى الدهر بالارزاء حتى	فؤانى فى غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتنى سهام	تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايما	لانى ما انتفعت بأن أبالى

فهو يستهين بالدهر لانه لم يعد يخشاه فقد لقي كل ما يمكن أن يلقي من مصائبه ، وبلاء بكل ما يمكن أن يبتلى الناس ، وهو يناضله ، ولا يستسلم ، ولكنه مع ذلك يعترف فيما بينه وبين نفسه أن غاية كل هذا الفناء والعدم ، فلا بقاء مع الايام - وقد تبدو في بعض لحظاته مشاعر تشاؤمية أو كما قيل آثار فلسفة رواقية سوداء كقوله في هذه الابيات :

أبني أينما نحن أهل منازل أبدا غراب البين فيها ينحق
نبتى على الدنيا وما من مشر جمعهم الدنيا ولم يتفرقوا
أين الاكاسرة الجبابرة الا كنزوا التكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق القضاء بعيشه حتى ثوى فعواه لحد ضيق
والناس أبناء هذا الدهر ، أمثاله :

ودهر ناسه ناس لتمام وان كانت لهم جثث ضغام
ويتمنى أن يتمثل له الدهر انسانا ، أو هو يقول أنه لو تمثل له انسانا لقتله ، وتمنى أن يقتل من الناس من يكره :

ولو برز الزمان الى شخصا لغضب شعر مفرقه حسامي
فهو ثائر عليه وعلى الناس لا يرضى بأن ينقاد له ، ولا لاحد ممن يملكهم الزمام ، فهو لا يلقي زمامه لاحد :

وما بلغت مشيتها الثليالى ولا سارت وفي يدها زمامي
ويسلك الناس مع الزمان ، فهو غاضب عليهم وعليه :

اقم الى هذا الزمان أهيله فاعلمهم قدم وأحزمهم وفد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم واشهدهم فهد وأشجعهم قرد
ومن تكذ الدنيا على الحر أن يرى عنوا له ما من صداقته بد

فقلبه مليء بالحقد على الناس ، لانهم خاسرون ، مخطئون ،
كاذبون ، خادعون ، منافقون ، جبناء ، ويدعون الشجاعة ،
ويغسلون الكرم :

أفاضل الناس أغراض لنا الزمن	يخلو من ألقم أخلاهم من الفطن
وانما نحن في جيل سواسية	أخنى على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق	تخطى إذا جئت في استقامها بمن
لا اقترى بلدا الا على غرر	ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاش من أملاكهم أحدا	الا أحق بضرب الرأس من وثن

والدنيا ، أو الزمن والدهر لا يقيم مقاييس عادلة ، بل الحال
فيها حائل ، والاضاع متقلبة لا تعطى بمقدار ما يستحق
الانسان من طبع أو خلق ، أو قدرة ، أو علم ، أو ذكاء :

ولو لم يعمل الا ذو محمل تعالى الجيش وانعط العتصام
ويقول :

ودهر ناسه ناس صفار	وان كانت لهم جثث ضغام
أرانب غير أنهم ملوك	مفتحة عيونهم نيام

ويقول :

وقبه الشيء متجذب اليه وأشبها بدنيانا الطفام
فأبو الطيب تائر على الدهر اذا وعلى الناس ، ولا دواء لثورته ،
ولا شفاء لنفسه الا القوة - ففلسفته القوة ، هى عقيدته فى
الحياة ، فالدنيا لمن غلب :

الموت أعزنى والصبر أجمل بى والبر أوسع والدنيا لمن غلبا
والموت فى سبيل الحق أمر محيب لدى الرجال ، ولا يخافه سوى

الرعيدي الجبان ، وان حياة الدعة تورث الخذلان ، والاستسلام :

ولعله بذلك يستثير هم العرب ، وقد رأى فيهم التخاذل
أمام الشموبية المارمة ، وتسلبت العناصر غير المربية على الدولة ،
فارتفعت مقاديرهم على حساب أصحاب الامر ، وملك العبيد أمور
السادة ، وغلب الخدم على الارباب والملوك - وتراه يخاطب العربي
في نفسه أو يخاطب نفسه ويريد العربي الابسى لا المطلوب على
أمره :

الى أي حين أنت في زى محرم	وحتى متى في شقوة والى كم
والا تمت تحت السيوف مكرما	تمت وتقاسى الدل غير مكرم
فنب واثقا بالله وثبة ماجد	يرى الموت في الهيجا حتى النعل في القم

وازاء هذه النفس المارمة المتعالية ، فان الاشياء والشخوص
تتضائل وتتضاغر وهو يشمخ ويسمو ، فلا يجد ما يدانيه مكانة
أو يساويه قدرا :

أي منبل ارتقى	أي عظيم اتقى
وكل ما خلق الله	وما لم يخلق
محتقر في همتي	كشجرة في مفرقي

لقد أوردته هذه النفس موارد التهلكة ، في الفعل والعقيدة ، وان
جراته في الجهر بما يعتقد وتسرع لسانه الى ما يجري ، ويثور
في خلده جر عليه كثيرا من الشرور والآثام - وأثار حفاظ
الناس عليه ، فكادوا له وأوغروا الصدور من حوله ، وكثر
أعداؤه وكائده ، وكثر حساده وغائظوه ، فتمثل في كل خطوة

عدوا ، بل لقد تمثل في كل أكمة متربصا ، وخلف كل ريسوة
رصدنا أو عينا ، يخاطب الدهر :

عدوى كل شيء فيك حتى نلت الاكم موفرة الصلوة
فلو انى حسنت على نقيس لجنت به لنق الجد العثور
ولكنى حسنت على حياتى وما خر العينة بلا سرور

أحب المتنبي المجد ، واقتخر بالقوة ، واعتز بالشجاعة والاقدام
والكرم ، وكره ما ضد هذا كله كره الضعة ، والذل ، والضعف ،
والجبن والبخل .

فماذا حقق المتنبي في نفسه من هذا كله ، لقد عشق المجد
وحاول تحقيق شيء ما لنفسه في صورة اغتصاب للامر بالقوة ،
أو بالنبوة ، اذا صح هذا . ولقد تروى الروايات عن ادعائه
النبوة ، ولئن لم تصدق كلها فقد يصدق بعضها ، ولعله لم يدع
نبوة كاملة ، بل لعل شبابه خيل له امرا ما ، قد يكون ادعاء
الامامة ، أو المهديّة أو شيئا من هذا القبيل ولقد رأى في نفسه
قدرة ، وذكاء ، وعبقريّة في البيان . قالوا انه ادعى تقليد
القرآن . ولم ينف أبو العلاء بعض أخبار تنبؤه .

ولقد بلغ من المجد ما مكنه من أن ينشد الملوك والامراء وهو
جالس اليهم ، بل أن بعض ممدوحيه كابن طاهر العلوي أجلسه
مجلس الممدوح وجلس اليه بين يديه ينشده ولقد راسله الملوك
يطلبون مديحه ، بعد أن سار شعره في الأفاق ، وخشى بعضهم
أن يمر بهم متجاهلا اياهم ، فلا يخلدون في التاريخ ، ولا تتناقل

الالسنه اسماءهم - وكان منهم من لم يعبا بهم أبو الطيب استصناراً
لشأنهم كالمصاحب بن عباد ومنهم من جاملهم كأبى الفضل بن
العميد - ولقد كان ابن العميد يخشى أن يعبر به ولا يزوره
فبقي ذلك عارا يلصق به أبدا الدهر -

لقد بلغ اذا من الشهرة مبلغا ، وأحب القوة ، واستخدام
السيف ، لقد عشق الفروسية منذ شبابه الأول ، ولم يرض حياة
الدعة والترف في الدور والقصور ، لقد كره كل مظاهر الخنوع
والضعف حتى هذه الضفيرة الصغيرة من الشعر التي ترسل للنصي
كرها لما فيها من مظاهر التذليل - وقال :

لا تحسن الوفرة حتى ترى مشورة الضفرين يوم القتال

ويمتخر بأنه لا يدع سهوة فرسه ، ولا يخلع لامة العرب :

مقرشي سهوة العصان ولكن قميصي مسرورة من حديد

وعندما ذهب الى سيف الدولة تعلم الفروسية ، وفنون القتال ،
وشارك سيف الدولة في بعض حملاته ، وصمد في بعض غزواته
بأرض الروم - وقابل في رحلاته بعض المتاعب من الاعراب أو
رجال الصحراء فلقبهم بالقتال ، وكان فاتكا ، داهية ، ولا يطمئن
في فروسيته تغلب فاتك الاسدي عليه وقتله اياه - وانه لم يجبن
عن لقاءه ، بل تقول الروايات أنه حذر من اتخاذ الليل رداً
لرحلته الى الاهواز ، وخوف من ترصد عدوه لكنه لم يعبا ، وغامر
بالخروج ، لكن فاتكا تغلب عليه بكثرة عدده ومفاجأته في كمين
لم يستمد له -

لم يكن أبو الطيب إذا جرىء اللسان متخاذل الجنان كما حاول أن يصوره بعض ناقديه أو الحاقدين عليه . وقد يختلف الناس معه في عقيدته أو طباعه ، ولكن هذا الخلاف لا ينبغي أن يؤدي إلى قلب الحقائق أو تصويرها في صور مزرعة ، تحيل فضائله رذائل أو رذائله فضائل .

ربما كان في بعض تصرفه غريبا أو متناقضا مع نفسه أو مع ما شاع من خلقه ، ولعلنا ندلس بعض صور الضعف في مواقف بعينها في حياته كذلك الموقف في سجنه حين تصاغر أو ادعى صغر السن اعتذارا والتماسا للحقو . وكلجونه إلى كافور وهو عبد محتقر عنده وقد ارتضى لنفسه سؤاله وتعرضه به ، وربما رأى بعض الناس في هذا مذلة أو مهانة . ولكنه كان يدرك في أعماقه أنه قصد من لا يليق قصده ، وأن يدل شرا بخير ، وأراد أن يعاقب نفسه ونطق شعره بهذا العقاب ، خاصة وأنه لم يبلغ منه مراده .

غرض بالطلب في قوله :

فاني أغتسى منذ حين وتشرّب
ونفسي على مقدار كفيك تطلب
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

أبا المسك هل في الناس فضل الله
وهبت على مقدار كف زماننا
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية

وعاتب نفسه في قوله :

بها ولما بالسير عنها ولا عشا
وأكرمهم طورا لألامهم طورا

عثرن بسرى نحو مصر قللما
وفارقت خير الناس قاصد شرم

فما قيني المنهى بالفلسر جازيا لأن رحيل كلن من حلب غدرا
وما كتبت إلا قاتل الرأى لم اعن بعزم ولا استصحب في وجهتي حجرا
وأحب المتنبي الفنى وسمى فى سبيل جمع المال ورأى أنه لا مجد
فى الدنيا لمن قل ماله :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه وجلاه ، والشوب جلده
وتكن قلبا بين جنبى ماله مدى ينتهى بي فى مراد أحده
وقالوا أنه جعل همه جمع المال ، ولم يقنع بما أتبع من الثروة ،
والفنى ، وقد حصل كثيرا من المال .

قال البديعى : قال ابن فورجه : كان المتنبي داهية ، مَرَّ
النفس ، شجاعا حافظا للادب عارفا بأخلاق المنوك ، ولم يكن فيه
ما يشينه ويسقطه إلا يخله وشره بالمال .

وقال أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريتى
الشاعر قال : بلغنى أنه قيل للمتنبي : قد شاع عنك من البخل فى
الآفاق ما قد صار سمرا بين الرفاق ، وأنت تمدح فى شعرك
الكرم وأهله ، وتذم البخل وأهله . ألسنت أنت القائل :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مغافة فقر قائلنى فعل الفقر
ومعلوم أن البخل قبيح ، ومنك أقبح ، لأنك تتعامل كبر الفضل ،
وعلو الهمة ، وطلب المال . والبخل يتنافى سائر ذلك . فقال :
ان ليخلى سببا ، وذلك أنى أذكر وقد وردت فى صباى من الكوفة
الى بغداد ، فأخذت خمسة دراهم فى جانب متديلى ، وخرجت

أمشى فى أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ،
فرايت عنده خمسة من البطيخ باكورة • فاستحسنتها ونويت
أشترىها بالدرهم التى مئى ، فتقدمت اليه وقلت : بكم تبيع هذه
الخمسة البطاطيخ ؟ ، فقال بغير اكثراث : اذهب ، فليس هذا من
أكلك ، فتماسكت معه : أيها الرجل دع ما يفيض واقصد الثمن •
فقال : ثمتها عشرة دراهم • فلشدة ما جبهنى به ما استطعت أن
أخاطبه فى المساومة • فوقفت حائرا ، ودفعت له خمسة دراهم ،
فلم يقبل • واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ، ذاهبا الى
داره ، فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه ، ودعا له وقال : يا
مولاي ، هذا بطيخ باكور ، بأجازتك أحمله الى منزلك ، فقال
الشيخ : ويحك بكم هذا ؟ • قال : بخمسة دراهم • فقال : بل
بدرهمين • فباهه الخمسة بدرهمين ، وحملها الى داره ، ودعا له ،
وعاد الى دكانه مسرورا بما فعل • فقلت له : يا هذا ، ما رأيت
أعجب من جهلك ، استمت على فى هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك
التى فعلت ، وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم ، فبمته
بدرهمين محمولا • فقال : اسكت • هذا يملك مائة ألف دينار •
فعلت أن الناس لا يكرمون أحدا اكرامهم ممن يعتقدون أنه لا
يملك مائة ألف دينار • وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع
الناس يقولون : ان أيا الطيب قد ملك مائة ألف دينار (١) •

ولا ندرى مدى صحة هذه القصة ، ولكن أخبار بخله كثيرة •

(١) الصبح النبى ، ص ٩٦ •

وقد يكون حريصا ، ولكنه لم يبلغ هذه الصورة الذميمة للبخل
ودناءة النفس التي صورها بعض ناقل أخباره (١) .

وكان أبو الطيب جادا ، حرا ، لا يميل إلى اللهو ، عزوفا عن
النساء وشرب الخمر والسماع . حكى علي بن حمزة البصري
قال : بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة ، وتلك أنه ما كذب
ولا زنى ، ولا لاط (٢) .

ويقول (٣) :

في الناس أمثلة تدور ، حياتها	كمماتها ، ومماتها كحياتها
هبت الفكاح حذار نسل مثلها	حتى وفرت على النساء بناتها

ويقول :

ولا تعسبن المجد زفا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
ويرى أن خلقه بما يجمع من المروءة والفتوة والأيام كمنعه من
أن يتدنى إلى اللهو الرخيص أو التشاغل بالذات عن الخمر
والنساء :

وترى المروءة والفتوة والأيام	في كل مليحة ضرائها
هن الثلاث المانعات لذنى	في خلوتي لا الخوف من تبعاتها
ومطالب فيها الهلاك اتبتها	ثبت العنان كأننى لم أتها

(١) راجع الصبح المنبى ، ص ٩٢ وما بعدها . وأبو الطيب ما له وما عليه

للحالبي ، ص ٣٩ .

(٢) الصبح المنبى ، ص ٩٤ .

(٣) ديوانه ، ص ١٧٤ .

ورأيه في المرأة لم يكن بالرأي فهي عنده مثال للخلفه بالوعيد ،
والتقلب ، وجمال المظهر مع سوء المنبر :

ومن خبر الفواني فالفواني ضياء في بواطنه ظلام

وأكره ما يكره من النساء الحضريات ، وقد علي كراهيته بأن
حسنهن حسن مصنوع ، ولكن البدويات ذوات حسن طبيعي ، وهو
يحب البداوة ، ويكره الحضرة ففي الحضرة تمثل الاخلاق التي
ينفر منها : التملق ، والمداينة ، والكذب :

من الجائر في زى الاعارب حمر العلي والمطايا والجلابيب

يقول :

ما أوجه الحضرة المستحسنة به	كاوجه البلديات الرعابيب
حسن الحضرة مجلوب بتطرية	وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الأرام ناظرة	وغير ناظرة، في العسن والطيب
أقنى ظباء قلاة ما مرفق بها	مضغ الكلام، ولا صيغ الحواجيب
ولا يرزن من الحمام مائلة	أوراكن ، صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة	تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصلق في قول وعادته	رغبت من شعر في الوجه مكنوب

- ٣ -

لقد ظهر الشاعر المتنبي ، فحجبت شهرته الشعراء في عصره ،
وتلفف الناس قصائده ، وتركوا قصائد غيره - وأتيح له من
الحظ ما لم يتح لغيره ، ولقد بلغ من أمره ما أراد من قوله :

وتركك في الدنيا دويما كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وعرف قدر أدبه في النفوس • فقال :

أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي واسمعت كلماتي من به صمم
أنام من جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراحها ويشتصم

ويقول مرة أخرى معتدا :

ولقد خيات من الكلام سلافة وسقيت من نأمت من جرياله
وأذا تعشرت الجياد بسله برزت غير معتر يجياله

فهو مالك ناصية البيان ، لا يصعب عليه الشعر مهما حزن أو
عزب ، وأنه ليأتي بكل عجيب فيه - ويترك الناس حياهه حائرين -

قال عنه الثعالبي : « تادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر في
صناعة الشعر ، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب اليه ، المشهور
به - اذ هو الذي جذب بصنيعة ، ورقع من قدره ، وثقق شعر
شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس
والقمر ، وسافر كلامه ، في البدو والحضر ، وكادت الليالي
تنشده ، والايام تحفظه ، كما قال وأحسن ما شاء :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغنى مفردا •

وكما قال :

وي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا
وعندي لك الشرد السائرا ن لا يختصمن من الارض دارا
اذا سرن من مقول مسرة وتبين الجبال وخضن البحارا

قال الثعالبي : فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب

- من مجالس الانس ، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن
الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوانين أشغل به من كتب
المؤلفين والمصنفين . وقد الفت الكتب في تفسيره وحل مشكلة
عويصة ، وقصرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه . وتكلم الافاضل
في الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن أبقار كلامه
وعونه . وتفرقوا فرقا في مدحه والقبح فيه والنضح عنه ،
والتعصب له وعليه - وذاك أول دليل دل على وفور فضله ، وتقديم
قدمه وتفردته عن أهل زمانه ، يملك رقاب القوافي ، ورق المعاني -
فالكامل من عدت سقطاته والسميد من حسبت هفواته (١) .

وقد كان أبو الطيب من أئمة اللغة في القرن الرابع
الهجري (٢) - يقول الاصبهاني (٣) : جملة القول في المتنبي
أنه من حفاظ اللغة ، ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب
مستقي من الغريب المصنف ، سوى حرف واحد هو في كتاب
الجمهرة ، وهو قوله :

واطوى كما يطوى المجلدة العقد

وأما الحكم عليه وعلى شعره ، فهو مريح الهجوم على المعاني ،
ونعت الخيل والحرب من خصائصه وما كان يراد طبعه في شيء
مما يسمع به ، يقبل الساقط الرذل ، كما يقبل النادر البديع ،
وفي مثنى شعره وهي ، وفي الفاظه تعقيد ، وتمويش -

(١) أبو الطيب ، ما له وما عليه ، ص ٣١ .

(٢) مقدمة ديوانه ، ص (لا) -

(٣) الواضح ، ص ٢٩ -

وكان المتنبي يحفظ كثيرا من الشعر الحديث ، وأعجب
بشاعرين كبيرين من المحدثين هما أبو تمام والبحتري ، وأضاف
اليهما بعض العلماء ابن الرومي (١) . قال الاصبهاني : « وكان
المتنبي يحفظ ديواني الطائيين ، ويستصحبهما في أسفاره ،
ويمجدهما ، فلما قتل توزعت دفاثره فوق ديوان البحتري الى
بعض الدارسين وعليه خط المتنبي ، وتصحيحه فيه (٢) » .

ومن هنا اتهم أبو الطيب بأخذ بعض معانيه منهما -
الطائيين - وروى أنه قيل له : معنى بيتك هذا أخذته من الطائي
- أبي تمام - فأجاب : الشعر جادة ، وربما وقع حافر على حافر .

وذكر العلماء مأخذه من أبي تمام ، وعدوها سرقات ،
واتهموه بأنه اعتمد عليه كثيرا وانكر ذلك الاعتماد . وألف ابن
الدهمان في القرن الخامس كتاب « المأخذ الكندية من المعاني
الطائية » (٣) .

قال ابن رشيق (٤) : « وقال بعض من نظر بين أبي تمام
وأبي الطيب : انما حبيب كالمقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ،
ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر ، والبحث عن البيئة ، أو

(١) الصبح المنبي ، ص ١٨٦ .

(٢) الواضح ، ص ١٠ .

(٣) استدرك عليه ضياء الدين بن الاثير في كتاب سماه « الاستدراك في الاخذ
على المأخذ الكندية من المعاني الطائية » .

(٤) العمدة ٩٣٢/١ .

كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ، ويتعرج خوفا على دينه • وأبو الطيب كالملك الجبار ، يأخذ ما حوله قهرا ، وعنوة أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريد لا يبالي ما لقي ، ولا حيث وقع •
واهتم العلماء بشعر المتنبي بين شارحي الديوان ، أو مفسري مشكله ، أو متتبعي حسناته وسقطاته ، ومقيدى سرقاته ، وبدأ الحديث فيه بالحائمي في رسالتيه - الموضحة في المأخذ ، وما شابه فيه أرسطو ، والصاحب بن عباد في كشف مساوئه ، وابن وكيع التقيسي في سرقاته ، والقاضي عبد العزيز الجرجاني في الوساطة بينه وبين خصومه ، وابن الدهان في مأخذ من أبي تمام ، وابن الاثير في الاستدراك عليه ومعارضته ، والاصبهاني أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن في توضيح مشكلاته والرد على ابن جني ، والواحدى النحوى في بيان مشكل أبياته •

ومن شراح ديوانه : ابن جني ، وأبو العلاء المعرى في كتابي : « اللامع المزيى » ، ومعجز أحمد ، والواحد ، والتبريزي في الموضح ، وعبد القاهر الجرجاني ، وأبو منصور السمعاني ، وأبو القاسم ابراهيم بن محمد الاقليلي الاندلسي (توفي سنة ١٤٤ هـ) ، والاعلم الشنتمري ، وابن الانباري ، والمكبري ، وأبو اليمن الكندي (توفي سنة ٦١٣ هـ) ، وعبد الواحد بن زكريا ، وابن فورجه في كتاب « التجنى على ابن جني ، والفتح على أبي الفتح له أيضا • وكثيرون غير هؤلاء •

قال البديعى (١) : « ولم يسمع بديوان شعر فى الجاهلية ولا الاسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول على ألسنة الادباء فى نظم ونثر أكثر من شعر المتنبى » .

ولابى الطيب المعانى البديعة ، والمحاسن البارعة التى فاق بها السابقين ، ومنها حسن مطلع القصائد ، كقوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتماعا لنفس حرة بلغت من الملياء كل مكان

وكقوله :

أعلا المعالك ما يبنى على الاسل والظمن عند محييهن كالقبل

وكقوله :

قواد ما تسليه المدام - وعمر مثل ما تهب اللثام

وكقوله :

أفاضل الناس أغراض لنا الزمن يغلو عن الهم أخلاهم من الضمن

ومما يتصل بحسن المطالع براعة النسيب - على قلة اهتمامه به ، وتطلعه الى المرأة - مثل مطلع الغزلى :

من الجادر فى زى الاعاريب حمر العلى والمطايا والجلابيب

ومطلع الغزلى :

ايلدى الركب أى دم اراقا وائى قلوب هذا الحى شاقا
لنا ولاهله ايذا قلوب تلاقى فى جسم ما تلاقى

وفى هذا الغزل يقع بيته الجميل الرقيق فى معنى :

فليت هوى الاحبة كان عدلا فعمل كل قلب ما اطاقا

ومنها معانيه الرائعة يسوقها فى صور من التشبيه أو الاستعارة
فتقع مواقعها فى النفوس كقوله :

ترنو الى عين الظبي مجشعة وتمسح الظل فوق الورد بالنعيم
وقوله :

واستعار العديد لونا وألقى لونه فى ذوائب الاطفال
وقوله فى الحمى :

وزانرتى كان بها حياء فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارق والحشايا فعانتها وباتت فى عظامي
وكقوله :

وانما نحن فى جبل سواسية شر على الحر من سقم على البين
حولى يكل مكان منهم خلق تخطى اذا جثت فى استقامها بين

وقد أحسن التصرف فى معانى الشعر ، كمعانى المديح ، وخاصة
فى سيف الدولة ، فقد اتخذ من لقبه واسمه مادة لصوغ معانى
مديحه كقوله :

تهاب سيوف الهند وهى حداثد فكيف اذا كانت نزاريه عربا
وكقوله :

اتحسب بيض الهند أصلك أصلا وانك منها ، ساء ما تنوهم
اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى أعمادها تبتسم

وكقوله فى معنى المديح بالكرم وعلو الشأن :

تمشى الكرام على آثار فيهم وانت تخلق ما تالى وتبدع
من كان فوق محل الشمس موضعه : فليس يرفعه شيء ولا يضع

وامتاز المتنبي بقدرته على أن يسوق المعانى الفلسفية ، سوق
الحكمة والمثل ، فى صياغة رائعة رصينة ، فتصبح جارية على كل
لسان ، كقوله :

ذل من يفبط الدليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايسلام

وكقوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكقوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقال يمدح سيف الدولة سنة ٣٤٢ هـ :

ليالى بعد الظاعنين شكول علوأل وليل العاشقين طويل
بين لى البدر الذى لا أريله ويخفين بدوا ما اليه سبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة ولكننى للخائبات حمول
وان رحىلا واحدا حال بيتنا وفى الموت من بعد الرحيل رحيل

• • •

إذا كان شم الروح يدنى اليكم فلا برحتنى روضة وقبول
وما شرقنى بالماء الا تذكروا لماء به أهل الحبيب نزول
يحرسه لمع الاسنة فوقه فليس لقلمان اليه وصول
أما فى التجوم السانرات وغيرها لعيتى على ضوء الصباح دليل

الم ير هذا الليل عينيك رؤيتي
لقيت بدرب القلة العجر لقية
ويوما كان الحسن فيه علامة
وما قبل سيف الدولة آثار عاشق

✽ ✽ ✽

ولكنه يأتي بكل غريبه
رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا
شوائل تشوأل العقارب بالقنا
وما هي إلا خيرة عرضت له

✽ ✽ ✽

همام إذا ما هم أمضى هوميه
وخيل يراها الرقص في كل بلدة
فلما تجل من دلك وصيعة
على طرق فيها على الطرق رفعة

✽ ✽ ✽

لما شعروا حتى راوها مضرة
سعائب يطرن الحديد عليهم

وقال يمدح سيف الدولة :

لا العلم جاد به ولا يمثاله
إن المعيد لنا المنام خياله -
بتنا يتاولنا المدام بكفه
نجنى الكواكب من فلاند جيده
بتتم عن العين القريعة فيكم
فدنوتم ، ودنوكم من عنده
أنى لا يقض طيف من أحبيته
لولا أذكاء وداعة وزياله
كانت أعادته خيال خياله
من ليس يخطر أن نراه بباله
ونسال عين الشمس من خلقاله
وسكنتم ظن الفؤاد الواله
وسمحتم وسماحكم من ماله
أذ كان يهجرنا زمان وصاله

مثل الصباية والكأبة والاسى
وقد استقدت من الهوى وأنقته
فارقتك فحدثني من ترحاله
من عفتي ما نقت من بلباله

• • •

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة
تلقى الوجوه من الكلام سلاقه
وإذا تعثرت الجياد يسهله
وحكمت في البلد العراء بتاعج (١)
يمشي كما عدت المطى وراه
وتراعى غير مقلان حوله
فقد النجاج وراح في أخفافه
وشركت دولة هاشم في سيفها
عن ذا النئ جرم الليث كماله
وتواضع الامراء حول سريره
تستجفل الضرغام عن أشباله
وسقيت من نادت من جرياله
برزت غير معثر بجاله
معتاده ، محتايه ، مفتاله
ويزيد وقت جماله ، وكلاله
قيوتها متجفلا بعقاله
وغدا المراح وراح في أرقاله
ونققت خيس الملك عن رباله
ينسى القريسة خوفه بجماله
وتوى المحبة وهي من آكاله (٢)

وقال في عتاب سيف الدولة :

أنشدها إياه في محفل من العرب والحجم :

واحر قلباه ممن قلبه شيم
مالي أكنم حبا قد برى جسدي
ان كان يجمعنا حب لغرتيه
قد زرتيه وسيوف الهند متعلمه
فكان أحسن خلق الله كلهم
ومن بجسمى وحالى عنده سقم
وتدعى حب سيف النولة الامم
فلم تانا بقدر الحب نقتسم
وقد نقرت اليه والسيوف دم
وكان أحسن ما فى الاحسن الشيم

• • •

يا أعدل الناس الا فى معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

(١) التاعج الناقة الخفيفة السريعة ، أو الفعل من الابل السريع .

(٢) الأكل : التطنع ، واحدها أكل .

اعيدها نظرات منك صابغة
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
أنام ملء جفونى من شواردها
إن تصيب الشعم فيمن شحمورم
إذا استوت عفه الأنوار والظلم
وأسمعت كلماتى من به صمم
ويسهر الخلق جراحها ويختصم

* * *

وجاهل منه فى جهله ضحكى
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
ومهجة مهجتي من هم صاحبها
رجلاه فى الركض رجل واليدان يد
حتى أتته يد قراسة وغم
فلا تظنن أن الليث يبتسم
أدركتها بجواد ظهره حرم
وفعله ما تريد الكف والقلم

* * *

ومرهف سرت بين الجحفلين به
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى
صحبت فى القلوات الوحش منفردا
يا من يعز علينا أن نفارقهم
ما كان إخلقنا منكم بتكرمة
إن كان سركم ما قال حاسدنا
وبيتنا لو رعبتم ذاك معرفة
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
حتى ضربت وموج الموت يلتطم
والحرب والضرب والقرطاس والقلم
حتى تعجب منى القصور والأكم
وجد أننا كل شيء بعدكم علم
لو أن أمركم من أمرنا أمم
فما لجرح إذا أرضاكم ألم
إن المعارف فى أهل النهى ذمم
ويكره الله ما تاتون والكرم

* * *

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى
ليت القمام الذى عثلى صواعقه
أرى النوى تفتضيتى كل مرحلة
لئن تركن ضميرا من ميامتنا
أنا الثريا وذان الشيب والهرم
يزيلهن الى من عنده الديم
لا تستقل بها الوخاذة الرسم
ليحدثن لمن ودمتهم نظم

إذا ترحلت عن قوم وقد قلدوا
 شر البلاد بلاد لا صديق بها
 وشر ما فنصته راحتى قنص
 باى لفظ تقول الشعر زعنفة
 هذا متابك الا انه مقه
 ان لا تفارقهم فالراحلون هم
 وشر ما يكسب الانسان ما يصم
 شهب البراة سواء فيه والرخم
 تجوز عندك ، لا عرب ولا صم
 قد ضمن الدر الا انه كلم

وقال فى كافور :

من الجائر فى زى الاعارب
 ان كنت تسأل شكا فى معارفها
 سواتر ربما سارت هواجها
 وربما وختت أيدى المطى بها
 كم زورة لك فى الاعراب خافية
 أزورهم وسواد الليل يشفع لى
 حمر العلى والمطايا والجلابيب
 فمن يلاك بتسويد وتمذيب
 منيعة بين مطعون ومضروب
 على نجمع من الفرسان مصبوب
 أوهى، وقد رقدوا، من زورة النيب
 وانتفى وبياض الصبح يغرى بى

قنوا فقا الوحش فى سكنى مراتها
 جيرانها وهم شر الجوار لها
 وخالفوها بتقويض وتطنيب
 وصعبها وهم شر الاصحاب

فؤاد كل محب فى بيوتهم
 ما أوجه العضر المستحسنات به
 حسن الحضارة مجلوب يتطرية
 اين المعيز من الأرام ناظرة
 ومال كل أخيف المائل معروب
 كالوجه البدويات الرعايب
 وفى البداوة حسن غير مجلوب
 وغير ناظرة ، فى الحسن والطيب

أفلى ظباء فلاة ما عرفن بها
 ولا برزن من العمام مائلة
 ومن هوى كل من ليست مموهة
 ومن هوى الصلق فى قولى وعادته
 مضغ الكلام، ولا صبح الحواجيب
 أوراكن صقيلات العرافيب
 تركت لون مشيبي غير مغضوب
 رغب عن شعر فى الوجه مكتوب

ليت الحوادث باعتنى التي اخلت	منى بعلمي الذي اعطت وتجريمي
فما العداثة من حلم بما نعة	قد يوجد العلم في الشبان والشيب
ترعرع الملك الاستاذ مكتها	قبل اكتهال ، اذيبا قبل تاديب
مجربا قهما من قبل تجربة	مهذبا كرما من قبل تهذيب
حتى اصاب من الدنيا نهايتها	وهه في ابتداءات وتشيب
يدبر الملك من مصر الى عدن	الى العراق فارض الروم فالنوب

وقال في مصر يشكو طول الاقامة بلا طائل ، وقد اصابته الحمى :

ملومكما يجعل عن الملام	ووقع فعاله فوق الكلام
ذواني والفلانة بلا دليل	ووجهي والهجير بلا لثام
فاني استريح بنى وهذا	واتعب بالاناقة والهام
عيون رواحلي ان حرت عيني	وكل بغام رازحة ينامي

فقد ارد المياء بغير هاد	سوى على لها برق الغمام
يذم لهجتي ربي وسيفي	اذا احتاج الوحيد الى النمام
ولا امسى لاهل البخل ضيفا	وليس قري سوى منح النمام
ولما صار ود الناس خيا	جزيت على ابتسام بابسام

وصوت اشك فيمن اصغفيه	لعلمي انه بعض الانام
يعب العاقلون على التصافي	وحب الجاهلين على التوسام
واتف من اخى لابي وامى	اذا ما لم اجده من الكرام
ارى الاجساد تغلبها كثيرا	على الاولاد اخلاق اللتام
ولست بقانع من كل فضل	بان اعزى الى جد همام

اقمت بأرض مصر فلا ورائي	تغب بي الركاب ولا امامي
وملئى الفراش وكان جنبى	يميل لقاءه في كل عمام
قليل عائلتي ، سقم قبواي	كثير حائلتي ، صعب مرامي

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

* * *

وزانرتي كان بها حياء
بلذت لها المطارف والعشايا
يضيق الجسم عن نفسي وعنهما
اذا ما فارقتني غسلتني
فليس تزور الا في الظلام
فعاقتها وباتت في عظامي
فتوسعه بأنواع السقام
كانا عاكفان على حرام

* * *

كان الصبح يطربها فتجري
تراقب وقتها من غير شوق
ويسدق وعدها والصدق شر
ابنت الكهر عندي كل بنت
منامها باربعة سجام
مراقبة المشوق المستهام
اذا التاك في الكرب العقام
فكيف وصلت أنت من الزحام

* * *

جرحت مجرحا لم يبق فيه
الا ليت شعر يدي أتمى
وهل أرمي هواي براقصات
فربتما شفيت غليل صلبي
مكان للسيوف ولا السهام
تصرف في عنان أو زمام
محلاة المقادير باللقام
يسير أو قناة أو حسام

* * *

وضاقت خلة فخلعت منها
وفارقت الحبيب بلا وداع
يقول لي الطيب اكلت شيئا
وما في طبه اني جمواد
خلاص الغمر من نسج الفدام
وردعت البلاد بلا سلام
وداؤك في شرايك والطعام
أضرب بجسه طول الجمام

* * *

تعود أن يغبر في السرايا
فامسك لا يطال له فيرمي
فان امرض فما مرض اصعباري
ويلخل من لقام في قتام
ولا هو في العليق ولا اللجام
وان احمم فما حم اعتزامي

وان اسلم فما أبقي ولكن
تمتع من سهاد أو رقاه
فان لثالث الحالين معنى - سوى معنى انتباهك والمتسام

ويقول :

منى كن لي أن البياض خضاب
ليالي عند البيض فوداي فتنة
تكيف أدم اليوم ما كنت أشتهى
جلا اللون عن لون هدى كل صلب

✽ ✽ ✽

وفي الجسم نفس لا تشيب لشيبه
لها ظفر ان كل ظفر أعده
يغير مني الدهر ما شاء غيرها
وأني لفجم تهتلى صعبتي به

✽ ✽ ✽

غنى عن الاوطان لا يستغنى
وعن ثملان العيس ان سامحت به
وأصدي فلا أبدي الى الماء حاجة
ولسر منى موضع لا يناله

✽ ✽ ✽

وللتود منى ساعة ثم بيننا
وما العشق الا ضرة وطباعة
وغير فوداي للفوانى رمية
تركنا لا طراف انقنا كل شهوة

قلاة الى غير اللقاء تجاب
يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير يناني للزجاج ركاب (١)
فليس لنا الا يهن لعباب

(١) معنى زجاج الكؤوس .

تصرفه للعلن فوق حواضر (١) قد انقضت فيهن منه كعاب
اعز مكان في الدنيا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

ويقول في مناسبة العيد وقد عزم على الرحيل من مصر يوم عيد
الاضحى سنة ٣٥٠ هـ :

عيد بآية حال علت يا عيد بما مضى؟ ثم لامر فيك تجديد
أما الاحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيذا دونها يبيد
لولا العلاء لم تجب بي ما أجوب به وجناء حرق ولا جرداء قيلود
وكان أطيب من سيقى مضاجعه أشباه رونقه القيد الاماليـد
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا تيممه عين ولا جيد
يا ساقبي أخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما هم وتشهيد
أصغرة أنا سالي لا تحركسى هذى المدام ولا هذى الإغاريـد
إذا أردت كميت اللون صافية وجدتها وحيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبه أتى بما أنا بأك منه محسود
أسميت أروح مثر خازنا ويدا أنا الفنى وأموالى المواعيد

ج د ج

أنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال معنود
جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان قالا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسم نفوسهم الا وفى يله من تقنها عود
من كل رخو وكاء البطن منفتق لا فى الرجال ولا النسوان معنود
أكلما اغتال عيد السوء سيده أو خاته ، فله فى مصر تمهيد
صار الغصى أمام الإقباض بها فالعر مستعبد والعبد معبود
نامت نواظر مصر عن تعالبيها فقد بضمن وما تقنى العنايد
العيد ليس لعر صالح ياخ لو أنه فى ثياب الحر مولود

(١) يعنى غيلا تحدر الطعن -

لا تشتري العبد الا والعصا معه
ما كنت احسبني احيى الى زمن
ولا توهمت ان الناس قد فتنوا
ان العبيد لانجلس مراكيد
يسوء لى فيه كلب وهو معمود
وان مثل أبى البيضاء موجود

وقال يصف رحلته من مصر سنة ٣٥١ هـ :

الا كل ماشية الغيزلى
وكل نجاسة بجاوية
ولكنهن حبال العياسة
ضربت بها التيه ضرب القمار
اذا فرغت قلمتها الجياد
فمرت بنخل وفي ركبها
وامست تخبرنا بالنقاب
وقلنا لها اين ارض العراق ؟
وهبت بعسمى هبوب الدبور
فدى كل ماشية الهيدى
خوف وما بى حسن المشى
وكيد العداة وبسط الاذى
اما لهذا ولما لنا
ويض السيوف وسمر القنا
عن العالمين وعنه غنى
وادمى المياه وادمى القرى
فناث ونحن بتربانها
مستقبلات مهب الصبا

• • •

فلما انخنا ركزنا الرماح
وبتنا تقبل اسياقنا
لتعلم مصر ومن العراق
وانسى وفيت وانسى ابيت
وما كل من قال قولا وفى
نوق مكارمنا والعللا
ونمسحها من دماء العدى
ومن بالعواصم اتى القتي
وانى عتوت على من عسى
وما كل من سيم خسفا ايبى

وقال وقد غادر مصر يرثى فاتها الاخشيد سنة ٣٥٢ هـ :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم
ولا يحس بأجفان يحس بها
تسود الشمس منا بيض أوجهنا
وما سراه على ساق ولا قدم
فقد الرقاد غريب بات لم ينم
ولا تسود بيض العطر والمم

وكان حالهما في الحكم واحدة
ونترك الماء لا ينفك من سفر
لا أبغض العيس لكني وقيت بها
صردت من مصر أيديها بارجلها
تبري ثهن تمام السدر مسرجة
في غللة أخطرأ أرواحهم ورضوا
تبدو لنا كلما ألقوا مماثمهم
بيض العوارض، طعانون من لحقوا
قد بلغوا يقتاهم فوق طاقتهم
في الجاهلية إلا أن أنفسهم

• • •

ما زلت أضحك أبلي كلما نظرت
أسرها بين أصنام (شاهداها
حتى رجعت وأقلامى قوائلى
اكتب بنا أبنا بعد الكتاب به
اسمعتنى وشفائى ما أشرت به
من اقتضى بسوى الهندى حاجته
توهم القوم أن المعجز قربنا

• • •

هون على بصر ما شق منظره
وقال فى عضد الدولة ، ويصف شعب يوان :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى
ولكن الفتى العربى فيها
بمثلة الربيع من الزمان
قريب الوجه واليد واللسان

(١) يسخر من ينصبون أقدامهم بالصنام

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لساير بترجمان
طبت فرساننا والخيول حتى خشيت وان كرم من العيران

✽ ✽ ✽

خدونا تنفض الاغصان فيه على اعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبت الشمس عني وجتن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي دنائرا تفر من البنان
لها ثمر يشي اليك منه باشرية وقفن بلا اوانسى
وامواه تصل بها حصاهها صليل الحبل في ايدي الفوانسى

✽ ✽ ✽

متازل لم يزل منها خيال يشيعني الى النوبيلد جان
اذا غنى الحمام الورق فيه اجابته اغاني القيان
ومن بالشعب احوج من حمام اذا غنى وناج ، الى البنان
وقد يتقارب الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان
يقول بشعب يسوان حصانى اعن هذا يسار الى الطعان
ايوكم اثم سمن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

✽ ✽ ✽

القسم الثالث

جماعة من الكتاب

الجاحظ

أبو عثمان عمرو بن بحر

مولده ونشأته :

لم يتفق المؤرخون على السنة التي ولد فيها بل ان أكثرهم لم يذكر سنة مولده ، وذكر سنة وفاته ، وقالوا انه نيف على السبعين .
وينفرد ياقوت بقوله ان الجاحظ قال : أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة - ١٥ هـ وولد في آخرها . وذكر ياقوت تاريخين آخرين لمولد أبي نواس سنة ١٤٥ هـ وسنة ١٢٦ هـ .

الا أن الراجح من أقوال المؤرخين والادباء أنه ولد في السنوات العشر الأولى من النصف الثاني من القرن الثاني ، أو حوالي سنة ١٥٦ هـ .

واسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، كنانى ليثى ، نسبة الى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة - وقالوا انه كان مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكنانى ثم الفضيصى وقيل انه كنانى صليبة لا ولاء .

وكان جده أسودا يقال له قزارة ، كان جمالا لعمرو بن قلع الكنانى -

وقد ولد الجاحظ أسود اللون كآبائه ، جاحظ العينين ، لذلك لقب بالجاحظ لبعوضهما . كما لقب بالحدقي أيضا ، ولم يكن

الجاحظ مقرطاً في الطول ، بل ربعة وقد تنذر يقبح صورته
فقال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأني استبشع
منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفت .

أدب الجاحظ

ثقافة الجاحظ :

ربما غلبت على ثقافته في مرحلة إقامته بالبصرة العربية
من اللغة والشعر والحديث والتفسير . مع بعض الثقافات
الكلامية المتأثرة بالفلسفة والعقليات مع أساتذته من المعتزلة .
ويرجع شارل بللا قراءته لكتب اليونانيين في المرحلة
البغدادية (١) .

معرفة الفارسية :

ويرجح معرفته للفارسية وليس أجادته لها ، وقد واثقه هذه
المعرفة بحكم صلته بالوسط البغدادى في القرن الثالث ويفترض
أن يكون هذا الوسط وخاصة طبقة الخاصة فيه واقعا تحت تأثير
الفرس ، والثقافة الفارسية متداولة فيه ، ولا يبعد أن تتداول
بعض اللفاظ - ويقول بللات : « أغلب الظن - ولا مجال هنا
للتأكيد - أن الجاحظ قد أشبع رغبته بمطالعة الكتب المترجمة

(١) بللات : « الوسط البصرى وأثره في تكوين الجاحظ » ، ص ١١٤ . وراجع

« الجاحظ معلم الفقل » لشفيق جبرى ، ص ٧٦ .

عن الفارسية التي وصلت اليه . ولم تكن هذه عديدة ولكنها كافية
لاعطائه معلومات عامة عن تاريخ الفرس يمكن افهامها
بمعلومات شفهية لم يحرم الجاحظ نفسه منها » .

أساقينه :

فى اللغة والنحو : أبو عبيدة والاصمعي وأبو زيد
الانصارى ، وأبو الحسن الاخفش وفى الحديث : أبو يوسف بن
ابراهيم القاضى ويزيد بن هارون والسرى بن عبدوية والحاج
ابن محمد بن حماد بن سلمة . وشمامة بن وس الذى لازمه فى
بغداد . وأخذ الكلام عن ابراهيم بن سيار النظام .

ولا شك أن الجاحظ تعرف على النظام فى البصرة فى حلقة
أبى الهذيل العلاف وصحبه الى بغداد وصار من مريديه . وروى
الخطيب البغدادي ما يفيد هذا المعنى قال عن لسانه : « اجتمع
أبو شمر ، وتمامة ، وعلى بن هيثم وابراهيم النظام وخرجوا الى
باب الشماسية فنظروا الى موضع استطابوه فاجتمعوا فيه ووجهوا
بى لاشترى لهم من السوق ببغداد ما يحتاجون اليه ، (١) . ويرجح
أنه صاحب النظام ببغداد منذ سنة ٢١٠ هـ . وقد كان يكبر
أستاذه بعشرين عاما الا أن الامتاز كان يتمتع لا ريب بمنزلة
عالية فى علم الكلام وبمكانة اجتماعية رفيعة .

الجاحظ ورواية الشعر :

كان يروى عن رواة الشعر الكثيرين الذين يترددون على

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ج ٦ ، ص ٩٨ .

البصرة آنذاك كما أخذ على علمائه الكبار المعاصرين من أمثال
الاصمعي وأبي عبيدة - قال :

« ... وقد أدركت المسجدين والمريدين • ولن لم يرو
أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، والأرجاز الأعراية القصار ،
وأشعار اليهود والأشعار المنصفة فانهم كانوا لا يعدونه من
الرواة ، ثم استبرئوا ذلك كله • ووقفوا على قصار الحديث
والقصائد ، والنقر والنتف من كل شيء • ولقد شهدتهم وما هم
على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الاحنف ، فما هو إلا
أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في
شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ثم رأيتهم منشد
سينات وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ
في طلب الشعر أو فتياي متغزل • وقد جلست إلى أبي عبيدة
والاصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من
جلست من رواة البغداديين فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في
النسيب فأنشده • وكان خلف يجمع ذلك كله •

ولم أر غاية المتحدثين إلا كل شعر فيه أعراب ، ولم أر غاية
رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى
الاستخراج • ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد
والمثل • ورأيت عامةهم - وقد طالت مشاهدتي لهم - لا يقفون إلا
على اللفاظ المتميزة والمعاني المنتخبة وعلى اللفاظ العذبة وعلى
كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور

عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الاقلام على مواطن اللفاظ ، وأشذرت الى حسان المعاني .
ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعنى السنة حذاق الشعراء أظهر ، ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب اشعاراً من أفواء جلسائه ليدخلها في باب التمنظ. والتذاكر وربما خيل الى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يتولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الأباء .

ولولا أن أكون عياباً ثم للعلماء خاصة لسورت لك في هذا الكتاب ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة » (١) .

وكان بين الجاحظ والاصمعي الراوية صلات كثيرة ، وربما وقف منه الاصمعي مواقف المعارضة والمخاضة أحياناً .

ذكر ياقوت (٢) : حدث أبو المنياء قال : قال الجاحظ كان الاصمعي منا . فقال له العباس بن رستم : لا والله ، ولكن تذكر حين جلست اليه تسأله ، فجعله يأخذ فعله بيده ، وهي مخصوفة بحديد ويقول : نعم فناع القدرى . فعلمت أنه يعنيك » .

يريد الجاحظ أن يقول أن الاصمعي كان يأخذ بأراء المعتزلة ، ولكن صاحبه نفى ذلك وذكره بهجومه عليه في مجلس معه ، وحملته على القدرية « المعتزلة » .

(١) البيان والتبيين ٢/٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) معجم الادباء ، ٥٦/٦ .

رحلاته :

وكانت رحلاته ، مصدرا من مصادر معرفته وعلمه ، فقد سافر أولا من البصرة الى بغداد وتردد بينهما كثيرا ، وسافر الى الشام ، وحل بدمشق ، وصحب بها الوزير الفتح بن خاقان ، تحدث عن جامع دمشق الكبير ، كما تحدث عن براغيث دمشق وربما ذهب الى أنطاكية ومصر .

الجاحظ والاعتزال وعلم الكلام :

تتلذذ الجاحظ في مذهب الاعتزال على النظام وتأثر به . وأعجب به ، وترى أثر الاعجاب ياديا في مواضع كثيرة من كتبه . ولم يكن هذا الاعجاب مع ذلك داعيا لان يسلم الجاحظ لاستاذه بكل آرائه ، بل ، لقد وقف منه أحيانا موقف المناقشة والمعارضة .

ومن أمثلة ما جاء في كلام الجاحظ من اجلال وتعظيم للنظام قوله : « الاوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحا ، فهو أبو اسحاق النظام » وقال مرة أخرى : « ما رأيت أحدا أعلم بالكلام والفقه من النظام » .

وذكر تأثيره في الاعتزال وجماعة المعتزلة فقال : « أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » .

وقال في معرض نقده أحيانا :

« كان ابراهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيف في باب

الصدق والكذب - ولم أزعم أنه قليل الزينغ ، على أن ذلك قد كان يكون منه وان كان قليلا ، بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء ، وأنت لست تريد حياء البتة » .

وانما عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجسودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاص ، ولكنه كان يظن الظن ، ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فاذا اتفق ذلك أيقن ، جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه . ولكنه كان لا يقول : سمعت ، ولا رأيت . وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرتة » .

وانفرد النظام بأراء خاصة فى اعتزال تبعه فيها جماعة من تلاميذه واتباعه عرفوا بالنظامية ، وهى فرقة من المعتزلة كما يذكر الشهرستاني .

وكان أهم ما يأخذ به النظام نفسه فى علمه العقل والقياس . وكان كثير الشك والسخرية بأصحاب الحديث والاثر من المفسرين . كان يقول لأصحابه :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين ، وان نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا فى كل مسألة فان كثيرا منهم يقول بغير دراية ،

على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب أنيهت .
وليكن عندكم عكرمة والكلبي ، والسدي ، والضحاك ، ومقاتل بن
سليمان وأبو بكر الاصم في سبيل واحدة . فكيف أنق بتفسير ،
وأسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله عز وجل « وان المساجد لله »
ان الله عز وجل لم يمن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلى فيها ، بل
انما عنى الحياة وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة
وأنف وثغنة . وقالوا في قوله تعالى : « أفلا ينظرون الى الايل
كيف خلقت » انه ليست الجمال والنوق ، وانما يعنى السحاب .

وكان يأخذ في منهجه الفكرى بالشك أولا ثم يبحث منه عن
الحقيقة حتى يصل اليها . ومن أقواله : « الشاك أقرب اليك من
الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من
اعتقاد الى غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

واهتم النظام بعلوم الفلسفة والكلام ، وعلوم الطبيعة ،
وتأثر فيما يبدو بأرسطو ومنهجه العقلى .

وانتقلت آراء النظام الى تلميذه الجاحظ ، فآمن بالعقل .
ولم يسلم الى المفسرين ، بل عاداهم كثيرا وسفه آرائهم ، كما
عارض اللغويين الذين يأخذون بظاهر النص ولا يتعمقون وراء
المعنى .

ويرى الجاحظ انه لولا المتكلمين والمعتولة خاصة ، لضل
الناس ، وأن العالم الذى يتصدى لأمور العقيدة ينبغي أن يلم

بعلوم العقل والطبيعة حتى تتسع مداركه . يقول (١) : « ولا يكون المتكلم جامعاً لاقطار الكلام متمكناً في الصياغة ، يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذي يجمعها » .

وأنتم الجاحظ ثقافته بالاطلاع على كثير من الكتب التي وقعت له ، وكان رجلاً طلعته لا يكف عن القراءة . وكان معاصروه يعرفون فيه هذا الشغف الشديد بالكتاب . قال أبو هفان : « ولم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كأننا ما كان ، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

وقد وقف على كثير من كتب اللغة والادب التي عرفت في عصره ، وقرأ في كتب الفلسفة والطبيعة ، قرأ كتاب المنطق لأرسطو طاليس وبعض كتب أفلاطون ، وكثيراً مما ترجمه السريان أو القوة في هذا المجال . وقد نقل عن ما سرجويه وأفليمون وحنين ابن اسحاق وتتبع الدكتور العاجري نقول الجاحظ في كتاب الحيوان .

وأحب الكتاب حياً بدا في مواضع كثيرة من مؤلفاته ، ومنها قوله في كتاب الحيوان : « والكتاب نعم النخر والعمدة ، ونعم الجليس والعمدة ، ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ،

(١) كتاب الحيوان ، ١٣٤/٢ .

ونعم الانيس لساعة الوحدة - ونعم المعرفة ببلاد الغربه - والكتاب وعاء ملء علما وظرف خشى ظرفا (١) » .

ووقف الجاحظ على ثقافات بعض الامم التي خالطت الفكر العربي في عصره - كالفارسية واليونانية - وكان يقول : ان الامم التي فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم أربع هي : العرب ، والهند ، وفارس ، والروم - يعنى اليونان .

ويرى أن العرب تفضلها جميعا في البيان « لانهم أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والامثال التي ضربت فيها أجود وأسير ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاص بها » .

وكتب الجاحظ ورسائله العديدة دليل على ثقافته الواسعة المتعددة ، المصادر وهي حافلة بمعارفه الكثيرة الواسعة ، وتنم رسائله « التربيعة والتدوير » من قدرته على الخوض في مواضيع شتى ، وتمطينا برهانا على مدى اتساع معارفه (٢) .

موقف الجاحظ من الاتجاهات الاجتماعية والمذاهب الدينية في عصره :

موقفه من الشعوية :

يقول : « واعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوية

(١) العيون ، ج ١ .

(٢) شارل بيلات : بيئة البصرة وأثرها في الجاحظ ، ص ١١٠/١١١ .

ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصيباً ،
ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة • وقد شفى الصدور منهم طول
جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنان في قلوبهم وغليان
تلك المراحل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة •

وَأَلَّفَ الجاحظ بعض كتبه يرد على الشعوبية والطلائع على
العرب ، وأولها كتاب « البيان والتبيين » لان البيان خاصة العرب
والميزة التي عرفوا بها ونزل بها كتاب الله في لغتهم ليكون بياناً
للناس هادياً لهم • ويقول في الجزء الثاني من البيان والتبيين :

« أردنا - أيقاك الله - أن نبتدىء صدر هذا الجزء الثاني من
البيان والتبيين بالرد على الشموعية وطمعهم على خطباء العرب
وملوكتهم ، اذ وصلوا ايمانهم بالمخاطر ، واعتمدوا على وجه الارض
بأطراف القسي والعصى ... » •

كذلك فان كتاب البخلاء أراد أن يسخر فيه من البغل والبخلاء
لانه ضد الكرم طبيعة العرب ومفاخرهم • وصدر كتابه هذا
برسالة لسهل بن هارون ، فيها التمدح بالبغل وذم الكرم • وأخذ
على بعض الموالي ومن جاراهم ممن يدينون بالشموعية اتصاف أهل
قارس بالبغل وخاصة أهل خراسان ، بل أنه خصص للشموعية
كتاباً أشار اليه في « البخلاء » • يقول :

« ... وهذا الباب يكثر ويطول • وفيما ذكرنا دليل على

ما قصدنا اليه من تصنيف الحالات - فان أردته مجموعا فاطلبه في كتاب « الشعوبية » ، فانه هنالك مستقصى » (١) -

ووقف من بعض اتجاهات عصره موقف العداء والسخرية ، كموقفه من الجهمية والمشيئة وأصحاب الظاهر ، والمفسرين والمحدثين ، والذين يروون الاخبار ويفسرون بعض آي القرآن بنفي علم ولا تعقل .

يقول في تفسير قوله تعالى : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله » .

فذهب الجهمية (أتباع جهم بن صفوان) ومن أنكر ايجاد الطيائع مذهبيا ، وذهب ابن حائط ومن لف لفه من أصحاب الجهالات ، مذهبيا ، وذهب ناس من غير المتكلمين ، واتبعوا ظاهر الحديث ، وظاهر الاشعار ، وزعموا أن الحجارة كانت تعقل ، وتنطق ، وانما سلبت المنطق فقط - قاما الطير والسباع فعلى ما كانت عليه -

قالوا : والوطواط ، والقرد ، والضفدع مطيعات ومثابات ، والعقرب والحية والحدأة والغراب والوزع والكلب ، وأشباه ذلك عاصيات معاقبات .

(١) راجع كتاب « الجاحظ » ، حياته وإثاره . للدكتور طه العاجري ، ص ٣٠٠ .

ولم أقف على واحد منهم فأقول له : « أن الوزعة التي تقتلها على أنها تضرم النار على ابراهيم أم هي أولادها ؟ فمأخوذة هي يذنب غيرها ؟ » أم تزعم أنه في المعلوم أن تكون تلك الوزع لا تلد ولا تبيض إلا من يدين بدينها ويذهب مذهبها ؟ »

وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الاحاديث ، وأى ضرب منها يكون مردودا وأى ضرب منها يكون متأولا ، وأى ضرب منها يقال : ان ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل . ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام ، واختطقت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون « (١) »

وقد ضايق هذا الموقف جماعة المحدثين ، وأئمة أهل السنة فوقفوا من الجاحظ موقف المداء ، والهجوم واتهموه بالمروق لأنه يعيث بالحديث وأصحابه ، ولأنه يأخذ بالعقل والفلسفة والرأى . وهو منهج يخالف مناهجهم يقول ابن قتيبة الفقيه وعالم أهل السنة المعاصر له . (توفي سنة ٢٦٧ هـ) : « وتجدد يتصد في كتبه للمضاحيك والسب ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم . وهو مع هذا من أكذب الامة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » (٢) »

(١) الحيوان ، ٢٨٧/٤ — ٢٨٩ .

(٢) تأويل مختص الحديث ، ص ٧٢ .

موقفه من الزنادقة :

قال الجاحظ : « الزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها ملكت مملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

وهو يعنى أن الزندقة شيع متفرقة من الناس لا تجمعهم على كلمة واحدة ، ولا أمة واحدة كالامة الاسلاميه ، وأنهم لخروجهم عن حدود الدين ومعارضتهم لامور الشريعة وقواعدها ، ولتهجمهم على مقدسات العقيدة يحاربون وينبذون ويعاقبون بالقتل والمطاردة .

وقد تعقب الجاحظ الزنادقة والملحدون تعقبه للخارجين المارقين ، وجادل المفكرين منهم أو أصحاب الزندقة الفكرية ، لانه من المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عن هذا الدين الاسلامى وعن عقيدة الاسلام وعن الكتاب القرآن الكريم بالرأى والحجة .

وتتبع الزنادقة من الادباء والشعراء ، وحمل عليهم وأزرى بهم ، سواء من تزندق منهم زندقة فكرية أو كان فى زندقته خارجا عن قواعد المجتمع وعرف الحياة الاسلاميه وأصول الدين . ومن بين من عرض لهم فى مؤلفاته من شعرائهم حماد عجرد ، ذكر أبياتا له فى هجاء عمارة بن حربية يقول فيها :

لو كنت زنديقا عماد حبوتنى	أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتني	كائنصر أو أقيت كابين المقعد
أو كابين صماء ربينة دينكم	حبيل وما حبيل الغوى بمرشد

كنتي وحلت لربي مغاصا فبشوتني بغضا لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت والارض خالقها لها لم يمهد
والنسم مثل الزرع أن حصانه منه الحصيد ومنه ما لم يعصد

قال الجاحظ : « وحماة أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الابيات وأما قوله : وحبوت من زعم السماء تكونت » . البيت : فليس يقول أحد أن الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه » .

ويذكر أبيات أبي نواس في هجاء أبان بن عبد الحميد اللاحقي ، والتي يقول فيها :

جالست يوما أبانا لا تر در أبسان
ونحن خسر رواق الامير بالنهر وان
حتى اذا ما صلاة الى اولى دنوت لاوان
فقال : كيف شهدتم بلذا بغير صيان
لا أشهد الدهر حتى تعايسن العيسان
فقلت : سبحان ربي فقال سبحان ماني
فقلت : عيسى رسول قتال من شيطان
فقلت : موسى كريم الهيمين انسان
فقال : ربك ذو مقالة اذن ولسان انسان
فقتله خلقه ام من ؟ فقامت مكاني
عن كافر يتبرى بالكفر بالرحمن

يقول الجاحظ : « وتمجني من أبي نواس ، وقد كان جالس المتكلمين أشد من تعجبي من حماد حين يحكى عن قوم من هؤلاء قولاً لا يقوله أحد ، وهذه قرة عين المهجو » . والذي يقول سبحان

مانى ينظم أمر عيسى تعظيما شديدا ، فكيف يقول أنه من قبيل
شيطان • وأما قوله : فنفسه خلقتة أم من ؟ فإن هذه المسألة نجدها
ظاهرة على السنن العوام • والمتكلمون لا يحكمون هذا عن أحد •
وعاد الجاحظ في موضع آخر فاتهم أبا نواس بالخروج
والكفر عندما عرض لقوله :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة . قم سيدى نعص جبار السماوات
قال : هذا البيت مع كفره مقيت جدا • وكان يكثر فى هذا
الباب •

وقد تعدت عن الزنادقة فى أكثر من موضع بكتابه «الحيوان»
وذكر عجيب اعتقادهم وفرقهم •
كتبه :

وعرف الجاحظ بكثرة تأليفه ، فقد نقل أنه ألف كثيرا من
الكتب ، وذكر جماعة من المؤرخين قوائم لمؤلفاته ، يختلف بها
ما ليس له ، وقد يسقط منها بعض ما ألف وتردد ذكره فى مصادر
مختلفة ، ككتابه فى الشعوبية الذى لم يذكره ياقوت فى قاعة
كتبه مع أنه جمع له عددا وافرا من الكتب والرسائل •

وأشهر قائمتين لمؤلفاته فى كتابى «الفهرست» لابن النديم
و «معجم الادباء» لياقوت الحموى •

ونشر ودرس عدد كبير منها فى مقدمتها :

١ - كتاب الحيوان فى ٧ أجزاء بتحقيق عبد السلام هارون •

٢ - كتاب البخلام بتحقيق الدكتور محمد طه العاجري .

٣ - كتاب البيان والتبيين بتحقيق عبد السلام هارون .

٤ - مجموعات من رسائله تم تحقيقها أكثر من مرة وجمع مجموعة منها عبد السلام هارون ، في جزئين ، وأشهرها :

رسالة (العثمانية) ، و (مناقب الترك) ، و (فخر السودان)
و (رسالة في القيان) و (التربيع والتدوير) و (وحجج النبوة)
و (المعادو المماش) و (الجند والهزل) و (القول في البغال)
و (التبصر بالتجارة) و (طبقات المفنين) (١) .

وهناك بعض الكتب الهامة التي فقدت وأشار إليها هو في مؤلفاته ككتاب « نظم القرآن » ، أو أشار إليها بعض العلماء مثل رسالته في مدح مصر التي أشار إليها القلقشندي في « صبح الاعشى » .

ونسبت بعض الكتب إليه خطأ مثل كتاب (التاج وكتاب (المعاصم والاضداد) وكتب الجاحظ تؤلف موسوعة علم ووثائق للحياة الاجتماعية والفكرية في عصره . ففى كتاب « البيان والتبيين » نجد الرسالة الشهيرة التي بحث بها عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعري ، كذلك يعوى قائمة بأسماء النساك والقصاص الاوائل .

(١) نشر مجلة المنتقد ، مجلد ٢ ، ج ٨ .

(٢) طبع بعناية أحمد زكى باشا .

(٣) طبع بتحقيق المستشرق فان فلورن في لندن سنة ١٨٩٧ م .

ويقيدنا كتاب « الحيوان » بأوسع المعلومات التي أقاد منها
المستشرقون أحيانا عن بعض الفرق الدينية والمذاهب كالزنادقة
والدهريين -

ويقول شارل بللات (٤) : ويسكننا كتاب البغلاء من النقاط
مظاهر الفعالية الاجتماعية في البصرة بسرعة ، ومشاهدة
برجوازية المال فيها -

ونسطيع كذلك عن كتبه أن نلم بكثير من المعارف عن حياة
الجاحظ وفكره ، فهو يتجلى فيما يكتب ، فنكاد تنطق كلماته بروحه
وتبدى سطره رسم شخصه -

ونهج في تأليفه نهجا مغايرا لنهج معاصريه ، فمال بكتبه
ورسائله الى الوضوح والبساطة والصدق - وكان يأخذ على بعض
علماء عصره التعميد في كتبهم ، فقد ذكر في كتاب الحيوان أنه
سأل أبا الحسن الاخفش العالم التعوى :

أنت أعلم الناس بالنحو ، فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟
وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ - وما بالك تقدم بعض
العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ -

قال - أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله - وليست هي من كتب
الديع - ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني اليه قلت حاجاتهم

الى فيها - وانما كانت غايتى المنالة - وأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم خلاوة ما فهموا الى التماس ما لم يفهموا - وأنا قد كسبت فى هذا التدبير اذ كتبت الى التمسك ذهبت - ولكن ما يال ابراهيم النظام وقلان وقلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم اكثرها (١) -

ولكن الجاحظ اختلف عن هؤلاء ولعله كان « اول من اتخذ التأليف صناعة له يبرز بها نفسه ، ويظهر فيها مواهبه ، ويستجيب بها لنزوعه الفنى » ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظى نمطا جديدا فى التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، ويتجه الى جمهرة القراء على اختلاف قواهم ومداركهم لا الى طائفة خاصة منهم (٢) - فهو عامى خاصى ، يقول فى صفة الكتاب :

« وليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى افهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية - ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الاعراب ووحشى الكلام ، وليس له أن يهذبه جسدا - وينقحه ، ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى حذف فضوله وأستطت زوائده ، حتى عاد خالصا لا شوب فيه ، فانه فعل ذلك لم يفهم عنه الا بأن يجدد لهم أفهاما مرارا وتكرارا ، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

(١) الحيوان ٩١/١ - ٩٢ -

(٢) الجاحظ للحاجرى ، ص ١٨٠ -

وذكر أبو حيان التوحيدى الجاحظ وكتبه ورسائله و نقل
عن أحد علماء عصره صفته لها بقوله : « وكتبه رياض زاهرة ،
ورسائله أفنان مشمرة » .

وقال عنه : « جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ،
وبين الرأى والادب ، وبين الذكاء والفهم » طالع عصره ، وفشت
حكيمته ، وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه وتهادوا آدبه ،
وافتحروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به . لقد أوتي
الحكمة وفصل الخطاب » .

وقال أبو حيان : « قلت لأبى محمد الأندلسى - يعنى عبد الله
أبو حمود الزيدى ، وكان من عدد أصحاب السيرافى : قلت اختلفت
أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ وأبى
حنيفة الديتورى صاحب التنبات ووقع الرضا بحكمك ، فما
قولك ؟ »

فقال - أنا أحقر نفسى عن الحكم لهما وعليهما .

ف قيل له - لا بد من قبول .

قال - أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة .
ومعانى أبى عثمان لائقة بالنفس سهلة فى السمع . ولفظ أبى
حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب .

قال أبو حيان : « والذى أقول واعتقد وأخذ به أنى لم أجد
فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقيلان على تفریطهم

ونشر فضائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم أحدهما هذا الشيخ أي أبو عثمان عمرو بن بحر ، والثاني أبو حنيفة الدينوري والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخي .

ولو تناصرت إلينا أخبارهما - يعني أبا حنيفة الدينوري وأبا زيد البلخي - لكنا نعب أن نفرّد لكل واحد منهما تقرّظاً مقصوراً عليه ، وكتاباً منسوباً إليه كما فعلت بأبي عثمان .

وكان الجاحظ يعمد في كتبه إلى مزج الفكاهة بالجد ، فيخرج بالقارئ من ملل إلى انتماش ، وهو يسوق إليه النادرة في طي الكلام ليرفه عنه ، ويجدد نشاطه ويبعث الحياة من جديد في ذهنه .

ولا يتعفف الجاحظ عن إيراد نواتره بأساليب العامة ملحونة أحياناً ، يرويها كما هي كما قيلت دون أن يصرفها بالفصحى وذلك أطرى بالندرة وأملح وقفاً في النفوس عنده .

وتمتاز كتبه كذلك بتنوع الموضوع والاستطراد والخروج من معنى إلى آخر في كثير من التشويق والامتناع وإن بدا في نظر بعض المعاصرين تشعيثاً في الأفكار واضطراباً في النهج .

وقد يكون هذا الاختلاط الذي دخل إلى بعض كتبه كالحيوان أو البيان والتبيين راجعاً إلى اشتداد الملّة عليه مما لم يمكنه من التيسيق وضم الفصول بعضها إلى بعض كما أشار هو بنفسه .

لكن كتبه ورسائله على أية حال رياض للنفوس ، وواحات

للمقول تستجم بها وتتزود بعديد من المعارف . وفيها رياضة
للفكر فيما يشغل بال الناس في عصره من قضايا سياسية وعقدية
ودينية أو اجتماعية أو أدبية .

يقول عنه شارل بللات : « انه ليس هناك كاتب معاصر أو
لاحق يشبه الجاحظ » . ويقول ، وقد ظهر الجاحظ كمجدد حقيقي
يجيد استعمال اللغة بمهارة فائقة . يجمع على ذلك أصدقاؤه
وخصومه . ويقول عنه المسعودي : « وكتب الجاحظ تجلو صدا
الاذهان وتكشف واضح البرهان لانه نظمها أحسن نظم ووصفها
أحسن وصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان اذا تخوف
مثل القارئ وسأله السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة
بليغة الى نادرة طريفة » (١) .

أسلوبه :

وللجاحظ في كتبه أسلوب امتاز به وعرف بين معاصريه
ولاحقيه ، فيه السهولة والوضوح ، والأبتعاد عن التعقيد في
المعاني وحوشي اللغة . لا يعمد الى التقدير أو التباهي بالمعرفة .
وأكسب كلامه ضرويا من التلوين المعنوي واللفظي .

فهو يعمد الى خاصية المزج بين الجد والهزل ، والى الاستطراد
عن موضوع الى آخر ، معتمدا على تداعي المعاني والافكار ، أو
تواصل الموضوعات ، ويزاوج القول في التعبير عن المعنى الواحد

(١) البصرة وتكوين الجاحظ ، ص ٣ - وراجع مروج الذهب ٢٤/٨ .

فيورده مرددا مزاجاً أو ملونا بلون من الصياغة فيه ايقاع
موسيقى تطول فيه الفقرات وتقصّر توارد المعاني ، واتصالها
أو انفصالها .

ولا يميل الى السجع الرتيب ، لكنه مع ذلك يوفر لفقراته
ضرباً من الموسيقى تأتيه طواعية دون تكلف .

وقد يبدو في تلك المزاوجة مسرفاً في القول ومطنباً أو لا
يقصد المعنى مباشرة بل يدور حوله ، مما قد يسهه بعدم الدقة ،
مع كونه آخذاً منهج أصحاب الفلسفة والمنطق ، لكنه أديب لا يكتفى
بأن تؤدي العبارة المعنى وحسب ، بل لابد من الايقاع في الاداء ،
ولهذا فهو يحب التعبير المشرق الجميل وان بدا مطيلاً أو غير دقيق
في آدام معانيه .

وبالرغم من هذا كله فانه يبرأ مما يعيب بعض أساليب كتاب
العربية ، وهو رغم ما يضمن كتبه ورسائله من قضايا عقلية ، وجدل
منطقي ، وتعقب لبعض الافكار العلمية الجافة فانه لا يعدم
الطلاوة والتشويق بما أشرنا اليه من عناصر تشد القارئ أو
السامع .

وهكذا نجح الجاحظ في أن يحتفظ باهتمام قرائه الى حد
يجعل جميع كتبه ورسائله تقرأ بلذة على الرغم من التكرار ،
وفقدان النهج المنطقي ، وعدم تسلسل الافكار ، وكثرة
الاستطرادات التي تعطى أسلوبه طابعه وطعمه الخاصين .

وان هذا الاسلوب الذى يبدو فى ظاهره بسيطا سهلا مرصلا
طلقا ، يخفى فى طياته كثيرا من القضايا الغامضة والافكار
المتجددة التى تستمد مادتها من الدين *
أهم موضوعات كتبه :

القضايا والجوانب الاجتماعية :

« لعل اهتمامه بقضايا المجتمع فى عصره دعا بعض المستشرقين
الالمان الى مقارنته بقولتير Voltaire الكاتب الفرنسى الاجتماعى
المشهور ، كما يمكن مقارنته بالكاتب الانسانيين Humanistes ، بل
لعله يستحق أكثر من أى كاتب عربى قديم آخر هذا اللقب (١) » .
وتناول بعض الباحثين فى أدب الجاحظ هذا الجانب فى
دراساتهم أمثال شارل بللات فى كتابه « بيئة البصرة وأثرها فى
تكوين الجاحظ » (٢) والدكتورة وديعة طه النجم فى كتاب :
« الجاحظ والحاضرة العباسية » (٣) .

ويعرض الجاحظ فى كتبه لكثير من قضايا المجتمع ، ومنها
الخلافات السياسية بين المذاهب والفرق المختلفة ، مثل ما يدور
فى رسالة « المثمانية » ، فيتعرض لوجوه الخلاف بين العلوية
والعثمانية وأقوال كل منهم ورد الطرف الآخر عليها . ولكن

(١) بللات ، ص ٥ .

(٢) نشر هذا الكتاب بفرنسا ، باريس .

(٣) الجاحظ والحاضرة العباسية ، طبع بغداد سنة ١٩٦٥ .

يميل ميلا واضحا على العلوية ، ويفند الفضائل التي ينسبونها الى
الامام على رضى الله عنه .

ورسالة بنى أمية (١) ، وهي تمثل صورة من الجدل السياسى
والمذهبى الذى كان سائدا فى عصره بين المعتزلة وأهل الحديث
حول الحكم على معاوية وبنى أمية ، فأهل الحديث يتأثمون
ويتخرجون ويرون التوقف فى الحكم ، وأما جمهور المعتزلة
فيعلنون التبرأ منه . ويمثل الجاحظ فى هذه الرسالة رأى المعتزلة
الذى أخذ به المأمون فى عصره والذى قال الطبرى أنه أمر مناديا
فنادى : « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بغير أو فضله على أحد من
أصحاب رسول الله عليه وسلم » .

وارتبط المحدثون بالدفاع عن معاوية ، وبذلك كانت قضية
مع مسائل الخلاف الرئيسية بينهم وبين المعتزلة .

والرسالة الثالثة فى هذا الموضوع « امامة بنى العباس » (٢)
وتدعو الى اثبات حق العباسيين فى الخلافة من ناحية الوراثة ،
ومناقشة الآراء المختلفة التى كانت تثيرها هذه المسألة (٣) .
وتأتى بعد ذلك مجموعة من الرسائل تترى فى الامامة ،
ووجوبها ومن يستحقها (٤) والامامة عند الشيعة ، والرافضة
والزيدية .

(١) من مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٢٩٢ .

(٢) بقيت منه قطعة فى مجموع رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٣٠٠ - ٣٠٣ .

(٣) الجاحظ للدكتور العاجرى ، ص ١٩٣ .

(٤) فى مجموع مختارات فصول الجاحظ رسالة بعنوان « استحقاق الامامة »
ص ٢٤٠ - المنطق البريطانى .

وتظهر بعض جوانب التعصب القبلي والعرقى فى إنتاجه ،
كالمصراع بين القحطانية والمدنانية يقول فى آخر كتابه
« النابتة » : « وقد كتبت - مد الله فى عمرك - كتبا فى مفاخرة
قحطان وفى تفضيل عدنان ، وفى رد الموالى الى مكانهم فى الفضل
والنقص » . »

وقال مرة أخرى فى مقدمة الحيوان : « .. وعبئنى بكتاب
القحطانية ، وكتاب المدنانية فى الرد على القحطانية » . وذكرت
أنى تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية وأنى لم أصل الى
تفضيل المدنانية الا بتقصى القحطانية (١) . »

ويعرض لمشكلة الصراع بين الموالى والعرب فى كتاب آخر
أشار اليه أكثر من مرة هو « العرب والموالى » يقول فى مقدمة
الحيوان كذلك : « وعبئنى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى
بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم (٢) » .

ويعرض لبعض الأقوال فى هذه القضية التى قال فيها
الشعوبية كثيرا ، وتعاملوا على العرب وفضلوا الفرس خاصة .
ومنها ما قاله فى مواضع من كتاب « النابتة » : « وقد نجمت عن
الموالى ناجمة ونبتت منهم نابتة تزعم أن المولى يولائه قد صار

(١) راجع الجاحظ لعله العاجزى ، ص ٢٢١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

عريباً ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (مولى القوم منهم)
ولقوله : (الولاء لحمه كلحمه النسب ، لا يباع ولا يوهب) .

وذكر ابن عبد ربه في المقدم جزءاً من الكتاب في كتاب
« الشيعة في التسبب وفضائل العرب » . وجزءاً آخر في كتاب
« الياقوتة الثانية في الالكان واختلاف الناس فيه » . ويبدو من
كلام ابن عبد ربه أن الجاحظ تكلم عن بعض شعراء الموالى مثل
أبى تواس وقرظ شعره وأحسن الاختيار منه . قال فيه : « ومن
الموالى الحسن بن هانىء ، وهو من أقدر الناس على الشعر وأطعمهم
فيه » . وكتابات الجاحظ تمكس موقفاً جديداً للموالى ، فبعد أن
كانوا شعوبية متعصبين صدر الدولة العباسية وطوال أيام المأمون
بدأوا في التخفيف من حدة هذه العصبية ضد العرب ، وبدأوا
يغامرون بالولاء للعرب كذلك فسان المنتصرين للعرب بدموا
يهدئون من غلوائهم في الهجوم ، لسيطرة الفرس على الدولة
وخاصة في عصر المأمون والواثق .

وإذا كان سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون زعيم
الشموية في عصره ، وألف كتباً كثيرة في التعصب للفرس ضد
العرب (١) فإن العرب وجدوا من الجاحظ وابن قتيبة من يتصدى
للرد على هؤلاء . وقد افتتح الجاحظ كتاب البغلاء برسالة سهل
بن هارون هذا . وتولى في الكتاب كله الرد عليها .

(١) يلات ، ص ٣١٢ ، وراجع جولد شهر : العقائد والشرعية في الاسلام

وقريب مع هذه القضية العرقية أو فيما يدور حولها من موضوعات الاجتاس ومواقفها فى المجتمع الاسلامى فى ذلك تجرى بعض رسائله مثل « كتاب الصرحاء والهبتاء » (١) و « فخر السودان على البيضان » .

ويذكر السودان فى كتابه الاول على أساس أنهم « السمر » ويعنى بهم العرب فى مقابلة العمران وهم العجم من روم وصقالية وفرس وخراسانية . ويذكر ما يقال فى ذلك أيامه من مثل سائر هو : ما يخفى ذلك على الاسود والاحمر ، أى العربى والعجمى ، ويكرره المبرد .

وفى الكتاب الثانى يعنى بالسودان الزنج من أهل النوبة والحبشة ومن اليهم وهو السودان الاصليون ويضاف اليهم أهل الهند والسند وسكان جزائر البحر الجنوبى (بحر العرب والمحيط الهندى) .

وقد كان للسودان أدوار فعالة فى التاريخ الاسلامى . تبدأ فى يوم حنين حين قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك فى جيش بنى المعيرة تستعين بهم ؟ فرفض الرسول هذا العرض . ثم كانت ثورتهم بالمدينة أيام أبى جعفر المنصور ، اضطروا واليه عليها الى الفرار ، وما زالت عناصر السودان تعمل حتى بلغت ثورتهم الكبرى فى القرن الثالث ، واستشعار الجاحظ لقوتهم فى مجتمع

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور الحاجرى . ص ٢٤٠ .

البصرة وخطورتهم آنذاك مما حفزه على كتابة هذه الرسالة . وقد كان للسودان كما كان لغيرهم من العصبيات والطوائف شعراء ذكر بعضهم الجاحظ في هذه الرسالة ، ويذكر منهم كبار الرجال ومشاهير الامة ممن قاموا بأدوار هامة في الجاهلية والاسلام أمثال عنترة بن شداد ، وسليك بن السلكة وبلال بن رباح مؤذن الرسول وأخيه وعمار بن ياسر وآل ياسر الذين لاقوا من العذاب أشده في سبيل رسالة الاسلام أول أمره . ومنهم كذلك سعيد بن جبير ، وهو من هو في صدق الايمان وصفاء البصيرة وقوة العزيمة . وعمير بن الحباب ، والحجاف بن حكيم وقد أقاما الدولة الاموية وأقعداها . الى غير هؤلاء من أبطال الحرب ورجال الدين والعلم . ويقول في هذه الرسالة (١) :

« . . والناس مجمعون على أنه ليس في الارض أمة السخاء فيها أعم . وعليها أغلب من الزنج . وهاتان الغلتان لم توجدا قط الا في كريم »

وهي أطبع الخلق على الرقص الوقع الموزون ، والضرب بالطبل على الايقاع الموزون ، من غير تأديب ولا تعليم .

وليس في الارض أحسن خلقا منهم ، وليس في الارض لغة أخف على اللسان من لغتهم ولا في الارض قوم أذرب ألسنة ، ولا أقل تمطيظا منهم .

(١) رسائل الجاحظ ، طبع عبد السلام هارون ج ١ ، ص ١٩٥ .

وليس في الارض قوم ألا وأنت تصيب منهم الارث (١) ،
والفأفأ ، والعين ، ومن في لسانه حبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع
الشمس الى غروبها ، فلا يستعين بالتفاته ولا بسكته حتى يفرغ
من كلامه .

وليس في الارض أمة في شدة الايدان وقوة الاسر أعم منهم
فيهما . وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة
من الاعراب وغيرهم . وهم شجعان أشداد الايدان ، أسخيام .
وهذه خصال هي الشرف » .

ويقول عنهم في الرسالة نفسها في موضع آخر :

« قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا ، منها الغالية ، وهي
أطيب الطيب ، وأفخره ، وأكرمه ومنها النعش وهو أستر للنساء ،
وأهون للحرم ، ومنها المصحف ، وهو أوفى لما فيه ، وأحصن له
وأبهى له .

قالوا : ونحن أهول في الصدور ، وأملأ للعيون ، كما أن
المسودة أهول في العيون وأملأ في الصدور من المبيضة ، وكما أن
الليل أهول من النهار .

قالوا : ودهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن

(١) الارث الذي في لسانه مقبة وحبة .

وأبهى ، وجلودها أثمن وأنقى ، والحرر السود أثمن وأحسن وأقوى - وسود الشام أدسم ألبانا ، وأكثر زهدا ، والدبس أغزر من الحرر (١) -

وليس من الثمر شيء أحلى حلاوة من الاسود ، ولا أعم منفعة ، ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع -

قالوا : وأحسن الخضرة ما ضارع السواد - قال الله جل وعلا : (ومن دونهما جنتان) ثم قال لما وصفهما وشوق اليهما (مدهامتان) قال ابن عباس : خضراوان من الرى سوداوان -

وليس فى الارض عود أحسن خشبا ولا أغلى ثمنا ، ولا أثقل وزنا ، ولا أسلم من القوادح ولا أجدر أن ينسب فيه الخط من الأبنوس - وقد بلغ من اكتنازه والثامه ، ملوسته وشدة تداخله ، أنه يرسب فى الماء دون جميع العيدان والخشب ، وقد غلب بذلك بعض الحجارة ، اذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب -

والانسان أحسن ما يكون فى العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الانسان حدقتاه ، وهما سوداوان - وأكرم الاكحال الاثمد ، وهو أسود - ولذلك جاء أن الله يدخل جميع المؤمنين الجنة جردا مردا مكحلين -

وأنتفع ما فى الانسان له كبده التى بها تصلح معدته -

(١) الدبس : الحرر المشوية بالسواد -

وينتهضم طعامه ، ويصلح ذلك قام يده ، والكبد سوداء •

وأتنفس ما في الانسان وأعزه سويداء قلبه ، وهي عنقة
سوداء تكون في جوف فؤاده تقوم في القلب مقام الدماغ في
الرأس •

ومن أطيب ما في المرأة وأشبه شفتاها للتقبيل ، وأحسن ما
يكونان اذا ضارعتا السواد • وقال ذو الرمة :

لياء في شفتيها حوة لعن وفي اللثة وفي أتيابها شنب

وأطيب الظل وأبرده ما كان أسود • وقال الرازي :

سود غرابيب كاطلال العجر

وقال حميد بن ثور :

ظللت الى كهف وظلت ركابنا الى مستكفات لهن غروب

الى شجر الى الظلال كأنها رواهب أحر من الشراب عنوب (١)

ومن حلقات هذه الدراسات في الاجناس رسالة « مناقب
الترك » (٢)، وقد وجهها الى الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل،
والذي قتل منه سنة ٢٤٧ هـ ، وعنوان الرسالة كاملا « مناقب الترك
وعامة جند الخلافة » - ومعروف أن الخليفة الممتصم كان قد بدأ
يكثر من العناصر التركية في جيشه • والاتراك جنس كله يعيش
في مشارق أرض الخلافة شمال شرق خراسان وفي البلاد الواقعة
شرقي بحر قزوين •

(١) عنوب جمع عاذب وهو الذي لا يأكل ولا يضرب •

(٢) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٨ •

وفى الرسالة حوار أو مناظرة ومفاخرة بين عناصر مختلفة
كالعرب والخراسانية كذلك ويبدو من حديثه أنه استعمر ما كان
يستمر بين تلك العناصر من الخلاف والمناظرة ورأى خطرها
فأراد أن يعرف لكل عنصر حقه وفضله يقول :

« وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التى كانت
مختلفة ، ولتزيد الألفة ان كانت مؤلفة ولتخير عن اتفاق
أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا
يعرف منهم موضع التفاوت فى النسب ، وكم مقدار الخلاف فى
الحسب ، فلا يفر بمضهم مفر ، ولا يفسده عدو بأياطيل معوثة
وشبهات مزورة (١) »

وتراه يعود الى نفعته السائدة فى مثل هذه الرسائل والكتب
وهى نعمة المؤاخاة بين العناصر المؤلفة للمجتمع العربى الذى يظله
الاسلام بظله ويمد عليه جناحيه فلا يفرق بين زنجى وفارسى
وعربى وتركى والجميع عرب ومسلمون ، ما داموا يقرءون
القرآن بالعربية ، ويتملمون علوم العرب ، وينظمون ويؤلفون
باللغة العربية :

« وقد جعلوا اسماعيل وهو ابن عجميين عربيا ، لان الله تعالى
فتق لسانه بالعربية المبينة على غير النشوء والتقدير ، وبلغ طباعه
من طبائع المعجم ، ونقل الى بدنه تلك الاجزاء ، وركبه اختراعا

على ذلك التركيب ، وسواء تلك التسوية ، وصاغة تلك الصياغة
ثم حياء من طبائهم ومنحه من خلاقهم وشمائهم ، وطبعه من
كرمهم وانفتهم وهمهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلامها ،
وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلاً على نبوته ، فكان أحق بذلك
النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جعل إبراهيم أبا لمن يلد ، فالبنوى خراساني من جهة
الولادة ، والمولى عربي من جهة المدعى والعاقلة .

ويقول ان الله خلق المباد وله أن يجعل من عباده من شاء
عربياً ، ومن شاء عجمياً ومن شاء قرشياً ، ومع شام زنجياً (١) .
ويقول : « وما الذي قسم الله - عز اسمه - بين الناس . . . ألا
كما صنع في طينة الارض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر
ياقوتاً ، وبعضه ذهباً ، وبعضه نحاساً ، وبعضه رصاصاً وبعضه
حديداً أو بعضه تراباً ، وبعضه فخاراً . . . ومع يحصى عدد أجزاء
الارض وأصناف الفلز ؟ »

وإذا كان الامر على ما وصفنا فالبنوى خراساني ، وإذا كان
الخراساني مولى ، والمولى عربي ، فقد صار الخراساني والمولى
والمولى والمربي واحداً .

وأوفي ذلك أن يكون الذي فيهم من خصال الوفاق غامراً ما
فيهم من خصال الخلاف بل هم في معظم الامر وفي أكبر الشأن

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٣٢ .

وعمود النصب متفقون • والاتراك خراسانية • • فقد صار
التركي الى الجميع راجعا ، وصار شرفه الى شرفهم زائدا (١) •
واذا عرف سائر ذلك سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ومات
الضيق ، وانقطع سبب الاستثقال ، فلم يبق الا التناقض والتحاسد
الذي لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة والمجاورة •

على أن التوازر والتسالم في القرابات وفي بني الاعمام
والعشائر أفشى وأعم من البعداء • وهو حين يذكر مناقب الترك
فانما يقتصر على ذكر محاسنهم وفضائلهم ولا يعرض لمثالب غيرهم
يقول : • وان كان لا يمكن ذلك فسي مناقب الاتراك الا يذكر
مثالب سائر الاجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب • • ولكل نصيب
من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل الناس بكثرة
المحاسن وقلة المساوئ ، فاما الاشتغال على جميع المحاسن ،
والسلامة من جميع المساوئ ، دقيقتها وجديها ، وظاهرها وخفيها ،
فهذا لا يعرف • وقد قال النابغة :

ولست بمستيق أخا لا تلعبه على شعث ، أي الرجال المهذب
وقال قريش السعدي :

أخ لي كأيام الحياة أخاؤه تلون ألوانا على خطوبها
إذا عبت منه خلة فتركته دمتني اليه خلة لا أعيبها

وقال بشار :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقتك لم تلق الذي لا تعاتبه

ففتش واحدا اوصل اخاه فانه
الما انت لم تشرب مرارا على القذى
مقارن ذنب مرة ومجانبه
فتمتت ، وای الناس تصفو مشاربہ
وبدا أبو عثمان في التمریف بفضائل الترك ، وطباعهم ، وخاصة
في القتال -

يقول : • والتركی يرمى الوحش والطير والبرجاس (١) ،
والناس ، والمجتمعة ، والمثل الموضوعة ويرمى وقد ملأ قروج دابته
مدبرا ومقبلا ، ويمنة ويسرة ، وصعدا وسفلا • ويرمى بعشرة
أسهم قبل أن يفوق الخارجى سهما واحدا ، ويركض منحدرًا من
جبل ، أو مستفلا الى بطن واد يكثر مما يمكن الخارجى على بسيطه
الارض •

وللتركی أربعة أعين : عينان في وجهه ، وعينان في
قفاه • • والتركی في حال شدته معه كل شيء يحتاج اليه لنفسه
وسلاحه ، ودابته وأداة دابته •

فأما الصبر على الخيب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى
وقطع البلاد ، فعجيب جدا • • ولو حصلت عمر التركى وحسبت
أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر
الارض • والتركی يركب فحلا أو رمكة (فرسا) ، ويخرج غازيا
أو مسافرا ، أو متباعدا في طلب صيد ، أو سبب من الأسباب
فتتبعه الرمكة وأفلاؤها ، ان أعياه اصطياد الناس اصطياد الوحش ،

(١) البرجاس : هدف في الهواء على رأس رمح أو نحوه •

وان أخفق أو احتاج الى طعام قصد دابة من دوابه . وان عطش
حلب رمكة من رماكه ، وان أراح واحدة تحته ركب أخرى من غيره
أن ينزل الى الارض .

وليس في الارض أحد الا يدانه ينتفض على اقتيات اللحم
وحده غيره ، وكذلك دابته تكتفى بالمنقر (القصب) والعشب
والشجر ، لا يظلها من شمس ولا يكتنها من برد (١) .

ومن قضايا الحياة والمجتمع التي عرض لها أبو عثمان ضروب
المعاش واختلافها وتنوعها ، وأسباب كسب الرزق من تجارة
وصناعة وزراعة وغيرها - ويعرض لنا كتاب التبصر بالتجارة
صورة لهذه الحرفة التاريخية القديمة قدم الانسان ، وقد ألم بها
الجاحظ ، وعرف بأسرارها لنشأته في البصرة ، وهي وسط تجارى
ممتاز . ومنها رسائله (التبصر بالتجارة) و (المعاش والمعاد)
و (غش الصناعات) و (كتاب الزرع والنخل والزيتون
والاعناب (٢) ، ورسالة مدح التجار ودم عمل السلطان (٣) .

التبصر بالتجارة ، ومدح التجار :

وتعلم أن الجاحظ نشأ في وسط تجارى هو البصرة ، بل
عمل هو نفسه يبيع بعض الاشياء الصغيرة أى يائما جائلا على نهر

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٤٨ .

(٢) نشرت بالمجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٢٢ م ، وبالقاهرة ١٩٣٥ م .

(٣) الجاحظ للدكتور المايجرى ، ص ٢٨٤ ، وتوجد منها قطعة في مجموعة رسائل

الجاحظ للسندويى ، ص ١٥٥ .

سبحان ، واتصل بأحد كبار التجار وهو محمد بن عبد الملك الزيتي الأديب الشاعر الكاتب والوزير الخطير في عهد المتوكل وكان صديقا له بعث إليه بالرسائل ، ومؤلف وخص رسالة « مدح التجار » بالاشادة به وبمهنة التجارة وشرقها ، لأنه ، أي ابن الزيتي - لقي كثيرا من السخرية والاستهزاء بمهنته بعد توليه الوزارة ، وكان الجاحظ أراد أن يرد إليه اعتباره ، وأن يرفعه بشرف المهنة .

وقد بقيت لنا من هذه الرسالة قطعة تتألف من أربعة فصول . يدافع عن التجارة فيقول : « . . . وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهي مولهم ، وعليهما معتمدتهم ، وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم . . . وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم برهة من دهره تاجرا ، وشخص فيه مسافرا ، وباع واشترى حاضرا . والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولم يقسم الله مذهبا رخصيا ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا ، إلا وحظه منه أوفر الحظوظ ، وقسمه فيه أجزل الأقسام . ولشهرة أمره في البيع والشراء قال المشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) فأوحى الله إليه : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) . فأخبر أن الأنبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات .

وذكر أن التجارة لا تمنع صاحبها من علم ، ولا تحجبه عن

أديب • يقول : « فأى صنف من العلم لم يبلغ التجار فيه غاية ، أو يأخذوا منه بنصيب ؟ أو يكونوا رؤساء أهله وعليتهم ؟ • هل كان في التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل ؟ • وقد كان تاجرا يبيع ويشترى ، وهو الذي يقول : ما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضوان الله عليهم قضاء الا وقد علمته • وكان أعبر الناس للرؤيا ، وأعلمهم بأنساب قريش » •

وكتاب التبصر بالتجارة محاولة من الجاحظ لعرض بعض أسرارها وصنوفها ، وما يجلب على البلاد المختلفة منها • • الى غير ذلك مما يتعلق بها • وهى معلومات تفيد كثيرا من الناس الذين يتصلون بهذه المهنة ، ولا بد لهم من التعرف عليها كالمحتسبين ، فالمحتسب وظيفته قريبة الصلة بالاسواق والتجارة والمكائيل والموازين ، لانه الرقيب عليها جميعا ، والمنفذ للشريعة وأصولها ، والراعى لمصالح الامة بين التجار والصناع فى الاسواق • وقد ألف كثير من العلماء فى الحسبة ، واتصلوا من قريب بأصول التجارة وأسرار السوق ، ودخائل كل حرفة وصناعة ، حتى لا يغيب شئ عن يلى هذه الرتبة ، وليطبق حدود الله ، ويحفظ حق الناس ، ويردع كل من تسول له النفس غشا أو تدليسا أو كسبا حراما غير مشروع •

ومما يتصل بكتابات الجاحظ فى الموضوعات الاجتماعية ما يتعلق بحياتهم فى لهوهم وملاذهم ، وقد كتب فى ذلك جملة من

رسائله ، فضلا عما تخلل كتيبه من فصول متنوعة • وأولى هذه الرسائل « رسالة الثقيان » ، والمفاخرة بين الجوارى والفلمان وكتاب « طبعات المغنين » •

ورسالة الثقيان محاولة لعرض حال الغناء والمغنيات فى ذلك العصر، ويمرض فيها للجوارى عامة ، ولوقوف النساء ، وعلاقات النساء بالرجال ، والقول فى العشق والحب يقول :

والحب اسم واقع على المعنى الذى رسم له ، ولا تفسير له غيره ،
لانه قد يقال : ان المرء يحب الله ، وان الله جل وعز يحب المؤمن ،
وان الرجل يحب ولده ، والولد يحب والده ويحب صديقه وبلده
وقومه ، ويحب على أى جهة يريد ، ولا يسمى ذلك عشقا ، فيعلم
حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به فى معنى العشق حتى تضاف اليه
العلل الاخر ، الا أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه حب الهوى ، فربما
وافق الحق والاختيار وربما عدل عنهما •

وهذه سبيل الهوى فى الادب والبلدان وسائر الامور • ولا
يميل صاحبه عن محبه واختباره فيما يرى • ولذلك قيل : « عين
الهوى لا تصدق » وقيل : حبك الشئ يعنى ويصم ، يتخذون
أوثانهم أربابا لاهوائهم ، وذلك أن العاشق كثيرا ما يعشق غير
النهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة
والرشاقة ، ثم ان سئل عن حجه فى ذلك لم تقم له حجة •

ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقا ، فيكون ذلك

فى الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفرش والدواب .
فلم نر أحدا منهم يستقم بدنه ولا تتلف روحه من حب بلده ولا
ولده ، وان كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحترق .

وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه
بداء العشق . فعلم أنه اذا أضيف الى الحب والهوى المشاكلة ،
أعنى مشاكلة الطبيعة ، أى حب الرجال النساء وحب النساء
الرجال ، المركب فى جميع الفحول والاناث من الحيوان ، صار
ذلك عشقا صحيحا ، وان كان ذلك عشقا من ذكر لذكر فليس الا
مشتقا من هذه الشهوة ، والا لم يسم عشقا اذا قامت الشهوة .

ثم لم نره يكون مستحكما عند أول لقياء حتى يعقد ذلك الالف ،
وتغرسه المواظبة فى القلب فينبت كما تنبت الحبة فى الارض
حتى تستحكم وتشتد وتثمر ، وربما صار لها كالجنح السموق
والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقد فصار فيه بوار الاصل ،
فاذا اشتعل على هذه الحبل صار عشقا تاما . ثم صارت قلة العيان
تزيد فيه وتوقد ناره . والانقطاع يسعره حتى يذهل العقل
وينهك البدن ويشغل القلب عن كل نافعة ويكون خيال المعشوق
تصب عين العاشق والغالب على فكرته ، والتخاطر فى كل حالة على
قلبه .

واذا طال العهد واستمرت الايام تقضى على الفرقة ، واضمحل
على المطاوعة ، وان كانت كلومه وتدوبه لا تكاد تعرف آثارها ولا
تدرس رسومها ، وكذلك الفلفر بالمعشوق يسرع فى حل عشقه .

والعلة في ذلك أن بعض الناس سرع الى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب في الرقة والقسوة ، وسرعة الالف وابطائه ، وقلة الشهوة وضعفها •

وقل ما يظهر العاشق للممشوق عشقا الا عداء بدائه، ونكت في صدره وشغف قواده ، وذلك بين المشاكلة ، واجاية بعض الطبائع بعضا ، وتوقان بعض الانفس الى بعض وتقارب الارواح ، كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به فينمى ، وكالمتثائب يراء من لا تتأوب به فيفعل مثل فعله ، قسرا من الطبيعة •

وقل ما يكون عشق بين اثنين يتساويان فيه الا عن مناسبة بينهما في الشبه في الخلق والخلق ، وفي الظرف ، أو في الهوى ، أو في الطباع • ولذلك ما نرى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحب الحسن • ويختار المختار الاقبح على الاحسن ، وليس يرى الاختيار في غير ذلك فيتوهم الغلط عليه ، لكنه لتعارف الارواح وازدواج القلوب • •

وهكذا يعرض الجاحظ فلسفة الحب والمحبة ، أو الالف والآلاف ، ودرجات الحب وأنواعه وربما كان الجاحظ أول كاتب عربي طرقت هذا الموضوع على تلك الصورة المبسطة محللا لهذه العلاقة بين الرجل والمرأة • وقد تبعه في ذلك بعض الكتاب ، كابن حزم في كتاب « طوق الحمامة » وصاحب «تزيين الاشواق» وابن الجوزي في «ذم الهوى» ، كما طرقت أبو حيان التوحيدي الموضوع في

مواضع من كتبه . وعرض للصدّاقة في كتاب الصداقة والصديق
على اعتبار أنها رابطة مسجلة وألف يجمع بين اثنين .

كذلك عرض لها الوشاء في كتاب « الموشى » في الظرف
والظرفام .

وعرض الجاحظ في كتاب القيان طباع القينات ، المغنيات
خاصة ، والجوارى عامة وأحوالهن مع المترددين على بيوت القيان
التي عرفت واشتهرت في المجتمع العباسي وكان الناس يقصدونها
لقضاء أوقات من المتعة في السماع واللهو .

يقول الجاحظ :

« .. ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون
النفوس اليهن ، وأنهن يجمعن للآسان من اللذات ما لا يجتمع
في شيء على وجه الأرض .

« .. وإذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغنى حدى إليها الطرف ،
وأصغى نحوها السمع وألقى القلب إليها الملك ، فاستبق السمع
والبصر أيهما يؤدي إلى القلب ما أفاد منها قيل صاحبه فيتوافيان
عند حبة القلب ، فيقرعان ما وعياه ، فيتولد منه السرور حاسة
الملمس ، فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في
شيء قط ، ولم تؤد إليه الحواس مثلها ، فيكون في مجالسته للقينة
أعظم المتعة ، لأنه روى في الاثر : « اياكم والنظرة فإنها تزرع
في القلب الشهوة » . وكفى بصاحبها فتنة ، فكيف بالنظر
والشهوة إذا صاحبهما السماع ، وتكانفتهما المفاصلة .

ان القينة لا تكاد تخالص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ،
لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك للمتريعين ،
ليقتحموا في أنشطتها • فإذا شاهدها المشاهد رامت باللحظ ،
وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت بأقتراحاته ،
ونشطت بالشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ،
والصباية لسرعة عودته ، والحزن لفراقه • فإذا أحست بأن
سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد تعقل في الشرك ، تزدت فيما كانت
قد شرعت فيه ، وأدهمته أن الذي بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته
تشكو اليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها ، وبلت
السحابة بريقتها ، وأنه شجنها وشجوها في فكرتها وضميرها ،
في ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواء ، ولا تؤثر أحدا على هواه ،
ولا تنوى انحرافا عنه ، ولا تريد له ماله ، بل لنفسه • ثم جعلت
الكتاب في مسدس طومار ، وختمته بزعفران ، وشددته بقطعة
زير (وتر العود) ، وأظهرت سترة عن مواليتها ، ليكون المغرور
أوثق بها • وألحت في اقتضاء جوابه ، فان أجيبته عنه ادعت أنها
صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته وأنشدت :

وصعيفة تعكس الضمير مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤاد بطول ما استبطاتها
فضعكت حين رايتها وبكيت حين قرأتها
عيني رأت ما أنكرت فبادرت عبراتها
أظلمت نفسي في يديك ، حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ :

بات كتاب العبيب نلما نسي معدنى تارة وريعانى

اضحكى في الكتاب أوله ثم تهادى به قابكاني

ثم تجنت عليه الذنوب ، وتفايرت على أهله ، وحيتته النظر
الى صواحبيها ، وسقته أنصاف أقداحها ، وجمشته بفضوض تفاحها ،
وتحية من ريمانها ، وزودته عند أنصرافه خصلة من شعرها ،
وقطعة من قرطها ، وشظية من مضرايها ، وأهدت اليه في الثيروز
تكة وسكرا وفي المهرجان خاتما وتفاحة ، ونقشت على خاتمها
اسمه ، وأيدت عند العشرة اسمه ، أغنية اذ رآته :

نظر المحب الى العبيب نعيم وصدوده خطر عليك عظيم

ثم أخبرته أنها لا تنام شوقا اليه ، ولا تهتأ بالطعام وجدا
به ، ولا تمل - اذا غاب - الدموع فيه - ولا ذكرت الا تنفصت ،
ولا هتفت باسمه الا ارتاعت ، وأنها قد جمعت قنينة من دموعها
من البكاء عليه . . . »

ويعرض الجاحظ لجوانب من حياة مجتمعه وأخلاق الناس
فيه ، فيبدى من مساوئ السلوك ومقايح الخلق عند الناس ،
وينصح لهم بالسداد وسلوك الطريق القويم في الحياة ، وربما
كانت رسالة المعاد والمعاش صورة لهذا اللون من كتابته .
رسالة المعاد والمعاش : أو الاخلاق المحمودة والمنحومة :

كتب بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد يقول
له فيه : « قرأيت أن أجمع لك كتابا من الادب جامعا لعلم كثير
من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الاشياء ، وأخبرك بأسبابها
وما اتفقت عليه معاصن الامم . . . »

ويقول : « فآلفت لك كتابي هذا اليك ، وأنا واصف لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون والى وجودها في أنفسهم مضطرون وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون » -

يقول فيها :

« اعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستغل في الدين وتستعمل في الدنيا وإنما وضعت الآداب على أصول الطبائع ، وإنما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين » . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط . والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقل بذلك العقل ، فيقدر جهله بالدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر ، لأن هذه شاهدة وتلك غيب ، فإذا جهل ما شاهد ، فهو بما غاب عنه أجهل » -

ويقول :

« اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجترار

المنافع ، ودفع المضار ، وبفض ما كان بخلاف ذلك • هذا فيهم طبع مركب وحيلة مغلورة • لا خلاف بين الخلق فيه ، موجود في الانس والحيوان • لم يدع غيره مدع من الالين والآخرين • ويقدر زيارة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء • فنقصانه كزيادته تميل الطبيعة منهما كميل كفتى الميزان ، قل ذلك أو كثر •

وهاتان جملتان داخل فيهما جميع محامد العباد ومكارمهم • والنفس في طبعها حب الراحة والدعة والازدياد والعلو ، والعز والغلبة ، والاستظراف والتفوق وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة ، والروائح العابقة والطعوم الطيبة ، والاصوات الموقمة ، والملابس اللذيذة ومما كراهيته في طباعهم أشداد ما وصفت لك وخلافته •

فهذه الخلال التي تجمعها خلتان خرائز في الفطر ، وكوامن في الطبع ، حيلة ثابتة وشيئة مخلوقة • على أنها في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة الا الذي دبرهم • قلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الارض أرزاقهم ، وجعل في ذلك ملاذا لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم وتطلعت اليه أنفسهم ••

وعلم الله أنهم لا يتعاطفون ، ولا يتواصلون ، ولا يتقادون الا بالتأديب ، وأن التأديب ليس الا بالامر والنهي ، وأن الامر والنهي غير ناجعين فيهم الا بالترهيب والترهيب اللذين في

طبايعهم ، فدعاهم الى جنته ، وجعلها عوضا مما تركوا في جنب طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار عن معصيته ، وخوفهم بمقايها على ترك أمره • ولو تركهم جل ثناؤه والطباع الاول جروا على سنن الفطرة ، وعادة الشيمة •

ثم أقام الرغبة والرغبة على حدود العدل وموازن التصفة . وعد لهم تعديلا متفقا ، فقال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) •

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل في تدييره الخل ، ولا جائز عنده المعايمة ، ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده ، وواعده ، فتملقت قلوب العباد بالرفقة والرغبة ، فاطرد التدبير ، واستقامت السياسة ، لموافقتها ما فى الفطرة ، وأخذهما بمجامع المصلحة •

ثم جمل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تلذ • ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : (حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات) •

ويقول : واحفظ هذه الابواب التى يوجب بعضها بعضا • •
المنفعة توجب المحبة ، والمضرة توجب البغضاء . والمضادة توجب العداوة ، وخلاف الهوى يوجب الاستئصال ، ومتابعته توجب اللفة ، والصدق يوجب الثقة ، والكذب يورث التهمة ، والامانة توجب الطمانينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ،

والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة ، وسوء الخلق
يوجب المباداة ، والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب
الوحشة ، والتكبر يوجب المقت ، والتواضع يوجب الثقة ، والجود
بالقصد يوجب الحمد ، والبخل يوجب المذمة ، والتواني يوجب
التضييع ، والجِد يوجب رخاء الاعمال والهويناء تورث الحسرة ،
والحزم يورث السرور ، والتفريط يوجب الندامة ، والحذر يوجب
المندر ... » .

ويقول :

واحذر كل الحذر أن يخذلك الشيطان عن الحزم فيمثل لك
التواني في صورة التوكل ويسلبك العذر ، ويورثك الهوينا
باحالتك الى الاقدار ، فإن الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع
الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الاعتذار ، بذلك أنزل كتابه ،
وأمر سنته فقال : (خذوا حذركم) و (ولا تلقوا بأيديكم
الى التهلكة) .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعقلها وتوكل » . وسئل
ما الحزم فقال : الحذر . واعلم أن تدمير المال آلة للمكارم ، وهون
على الدين ، ومتألف للاخوان ، وأن من قد فقد المال قلت الرغبة
اليه والرغبة منه . ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان
الناس بقدره فاجهد الجهد كله الا تزال القلوب معلقة منك برغبة
أو رهبة ، في دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ولا تدمير معه لقليل ، ولا

تصلح عليه دنيا ودين • وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه
فقال : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط
فتتقدم ملوما محسورا) • • وقالت الحكماء : القصد أبقى
للجسام •

فداوم حالك وبقاء النعمة بتقديرك أمورك على قدر
الزمان ، وبقدر الامكان • فقد قال الشاعر :

من سابق الدهر كبا كبوة لم يستقلها من خطي الدهر
فاخط مع الدهر على ما خطا واجر مع الدهر كما يجري

ويقول :

« واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء ،
فقال بها الجاهل في نفسه ، المختلط في تدبيره مالا ينال الحازم
الاريب العذر • فلا يدعونك ما ترى من ذلك الى التضييع
والاكتال على مثل تلك الحال • فان الحكماء قد أجمعت أن من
أخذ بالحزم وقدم الحذر فجاءت المقادير بخلاف ما قدر كان
عندهم أحمد رأيا وأوجب عذرا ممن عمل بالتقريط وان اتفقت
له الامور على ما أراد • ولعمري بان كان ذلك يجيء الا في
أقل الامور •

ولا تكون لشيء مما في يدك أشد ضنا ، ولا عليه أشد حذبا
منك بالآخ الذي قد بلوته في السراء والضراء ، فعرفت مذاهبه ،
وخبرت شيمه ، وصح لك غيبه ، وسلمت لك ناحيته ، فانما هو
شقيق روحك ، وباب الروح الى حياتك ، ومستمد رأيك ،

وتوام عقلك • ولست منتفعا بديش مع الوحيدة ولابد من
المؤانسة ، وكثرة الاستبدال تهيج بمصاحبه على المكروه - فان صفا
لك أخ فكن به أشد ضنا منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدك
فيه أن ترى منه خلقا او خلقين تكرههما ، فان نفسك التي هي
أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف بنفس
غيرك ؟ وبحبسك أن يكون لك من أخيك أكثر • وقد قالت
الحكماء : « من لك بأخيك كله » - « وأى الرجال المهذب » •

ويتصل بهذه الرسالة في الموضوع رسالته في « كتمان السر
وحفظ اللسان » •

حب الاوطان : أو « رسالة في الحنين الى الاوطان » :

(مجموعة رسائل الجاحظ لهارون ج ٢ / ٢٨٤) قال :

« لقد قالت العجم : من علامة الرشد أن تكون النفس الى
مولدها مشتاقة ، والى مسقط رأسها تواق » وقالت الهند : حرمة
بلدك عليك مثل حرمة أبويك لان نظرائك منهما وعداهما منك •
وقال آخر : احفظ بلدا رشحك غذاؤه وارح حمى أكنك فناؤه •
وأولى البلدان بصبايتك اليه بلد رضعت مامه ، وطعمت غذاؤه •

يقول : « ومما يؤكد ما قلنا في حب الاوطان قول الله عز
وجل حين ذكر الديار ، يخبر عن مواقمها من قلوب هياده • فقال :
(ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما
فعلوه الا قليل منهم) فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من

ديارهم • وقال تعالى : (وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله ، وقد
أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) •

وقال عمر رضي الله عنه : (عمر الله البلدان يعجب الاوطان) •
وكان يقال : لولا حب الناس الاوطان لخسرت البلدان •
وقال عبد الحميد الكاتب يذكر الدنيا : نفقتنا عن الاوطان ،
وقطمتنا عن الاخوان -

الموضوعات الدينية والكلامية في كتبه ورسائله :

وشملت كتبه ورسائله كذلك موضوعات دينية متنوعة ،
منها كتاب « حجج النبوة » و « كتاب نظم القرآن »
وكتاب « آي القرآن » وكتاب « مسائل القرآن » وكتاب « خلق
القرآن » وكتاب « الرد على المشبهة » وكتاب « الرد على النصارى »
وكتاب « الرد على اليهود » •

ويمعكس الجاحظ في هذه الكتب والرسائل أرامه الخاصة في
أطار فلسفته الاعتزالية العامة •

ومما قاله في اليهود من كتاب الحجة (١) :

« ومتى أحببت أن تعرف في بنى اسرائيل ونقص أحلام
القبط ، ورجعان عقول العرب ، وأحلام كثافة ، فانظر بواديهم
ورباعهم ، وانظر الى بيثتهم وبقاياهم كما نظرت الى غى بنى

(١) الجاحظ للدكتور طه الحاجرى ، ص ٣٦٧ •

اسرائيل ونقص بين من مضى من القبط تعتبر ذلك وتعرف ما
أقول : ٠٠ وكيف لا تقضى عليهم بالغي والجهل ولم تسمع لهم
بكلمة فاخرة أو معنى نبيه ، لا ممن كان فى المبدأ ، ولا ممن كان
فى المحضر ، ولا من قاطنى السواد ، ولا من نازلى الشام ، ثم
أنظر الى أولادهم مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا ، هل غير ذلك
من أخلاقهم وشمائلهم وعقولهم وأحلامهم وآدابهم وفطنتهم ؟ فقد
صلح بنا كثير من أمور النصرارى وغيرهم ، وليس النصرارى
كاليهود ، لان اليهود كلهم من بنى اسرائيل الا القليل ، فلم
يغرب فيهم غيرهم ، لان مناكحهم مقصورة فيهم ، ومحبوسة
عليهم فقصور أولهم مؤداه الى آخرهم ، وعقول أسلافهم مردودة على
أخلاقهم ، ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام : (اجعل لنا الها
كما لهم آلهة) حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم
يعبدونها .

وكقولهم : (أرنا الله جهرة) ، وكمكوفهم على عجل صنع من
حليهم يعبدونه من دون الله بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم ،
وكقولهم : (اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون) .
وكذلك ما وعد محمد صلى الله عليه وسلم بتار الابد كوعيد موسى
بنى اسرائيل بالقاء الهلاك على زرعهم ، والهم على أفئدتهم ،
وتسليط الموتان على ماشيتهم ، وبأخراجهم من ديارهم ، وأن
يظفر بهم عدوهم ، فكان تعجيل المذاب الادنى فى استدعائهم

واستمالتهم وردعهم ، كتأخير العذاب على غيرهم ، لان الشديد المؤخر لا يزجر الا اصحاب النظر في العواقب ، واصحاب العقول التي تذهب في تلك المذاهب » .
مثل من تفسيره للقرآن :

وهو يعرض لآيات الكتاب لتفسيرها ، لا يأخذ بالظاهر ولا بمجرد المدلول المحدود للفظ ، يستبطن المعاني ، ويجول جولة مع السياق ومع غاية التعبير القرآني وينشد أثره النفسي ، والعقلي ، ويكشف الجاحظ عن اقتدار في اكتشاف أسرار التعبير . فانظر الى تفسيره لقوله تعالى : (قال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعل آتيكم منها بخير) وقال مرة أخرى (بشهاب قبس) .

وان المسافر في هذا البيد المترامي من العرب لا يدري طريقه ، والرمال من تحته ممتدة على مرمى البصر ، والسماء فوقه لا تريم متى يصل بأمان الى مخيم ، قد يخطيء ظنه وتقديره ، ويفقد زاده ، وينضب ماؤه ، ويفقد الطريق ، ويضل السبيل ، فيضرب بلا هدى ، ولا تسل عن حيرة هذا المسافر الضال ، وعن مدى ما يشعر به من وساوس وهواجس ، ثم ما يداعب به نفسه من آمال وبينما هو غارق في هواجسه وآماله ، والليل مغلق عليه ، والابل تثط من التعب والضنى ، وبطنه الطاوئى يكاد يلتصق من السغب ، وريقه يكاد يجف من العطش ، وهو فى منامة لا تبصر العين فيها أثرا لحياة ، لا تسل عن حال هذا الضال وسعادته كيف يلقي قبسا من النار يطلع له من الافق

البعيد طلوع الامل الجاسم يناديه ، ويفتح له الطريق أمام حياة
يمد أن كاد يفقد الامل ، وتعمى السبل فيهرول وهو يمنى النفس
يشبع وري ، وراحة وانس .

هذا ما أراد به الجاحظ من تفسيره للآية ، وما أراد أن
يعلمه حين نقل قول أبى عقيل فى قوله تعالى : (وقال موسى لاهله
امكثوا انى آنست نارا لعل آتيكم منها بشهاب قبس) فقال أبو
عقيل لم يعرف موقع النار من أنباء السبيل ومن الجائع
المقرور (١) .

والقرآن استخدم اللفظين « بخير » و « بشهاب قبس »
والمعنى واحد ، والاختلاف فى اللفظ . والنار فى الحالين هى
القصد ، فمتمدها الخير بما يجب السائرون السبيل وفيها القرى
والدفء له . والمعترض ها هنا - وأغلب الظن أنه من الموالى غير
العرب - لم يحس بما للنار فى البوادي لأنه لم يعى حياة العرب
الباديين ، ولم يسمع منهم عن شأنها وقدرها . فانكر أن يفير
القرآن اللفظ على لسان موسى ، وحسب أن المعنى اختلف ، وأن
التنزيل خالف نفسه وهو الذى لم يفهم قصد التنزيل ، ولم يلم
بالمعنى المراد الماسا شاملا ، فوقع فى الخطأ ، ويحسب أنه قد
ظفر على القرآن بحجة فى تناقض نظمه .

ويمرض الجاحظ للتفسير المجازى للقرآن ، والذى لا يؤخذ

(١) البيان والتهنئ ، طبع هارون ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

فيه بظاهر القول فيواجه الظاهرية والمعترضين بالحجج البينة ،
وينالهم بالسخرية اللاذعة ليسفه آراءهم فيقول مثلاً في قوله
تعالى : (ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فكهون) •

• وأصحاب الجنة لا يوصفون بالشغل ، وإنما ذلك جواب
لقول القائل : خبرني عن أهل الجنة بأى شيء يتشاغلون ؟ أم لهم
فراغ أبدا ؟ فيقول المجيب : لا ، ما شغلهم الا افتضاض الابكار
وأكل فواكه الجنة وزيارة الاخوان على نجائب الياقوت •

وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس ، حين أقبل من جهة
الحلبة وهو بالشام - من سبق ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قيل فمن صلى : قال أبو بكر • قال : إنما أسألك عن الخيل
قال : وأنا أجيبك عن الخير • وهو كقول المفسر حين سئل عن
قوله : (لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فقال : ليس فيها بكرة ولا
عشي • وقد صدق القرآن وصدق المفسر ، ولم يتناكرا ولم
يتناقيا ، لان القرآن ذهب الى المقادير ، والمفسر ذهب الى الموجود
مع دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها (١) •

وفي قوله تعالى : (حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال
لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم
وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة
العذاب على الكافرين) • فجعل للنار خزائن ، وجعل لها خزنة ،

(١) البيان ، ٢٧٦/٦ •

كما جعل في الجنة خزائن وجعل لها خزنة • ولو أن جهنم فتحت أبوابها ونحى عنها الخزنة ، ثم قيل لكل لص في الأرض ولكل خائن في الأرض دونك فقد أبيضت لك لما دنا منها • وقد جعل لها خزائن وخزنة ، وانما هذا على مثال ما ذكرنا • وهذا كثير في كلام العرب •

وقال في قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) وقال تعالى : (وجعلناها رجوما للشياطين) • ونحن لم نجد قط كوكبا خلا مكانه • فما ينبغي أن يكون واحد من جميع هذا الخلق من سكان الصحارى والبحار ومن يراعى النجوم للاهتداء ، أو يفكر في خلق السماوات أن يرى كوكبا واحدا زائلا ، مع قوله وجعلناها رجوما للشياطين •

قيل لهم : قد يحرك الانسان يده أو حاجبه أو أصبعه فتضاف تلك الحركة الى كله ، فلا يشكون أن الكل هو التعامل لتلك الحركة • ومتى فصل شهاب من كوكب ، فاحترق وأضاء في جميع البلاد ، فقد حكم كل انسان بإضافة ذلك الاحراق الى ذلك الكوكب • وهذا جواب قريب سهل •

ومنهج الجاحظ في تفسيره يميل الى الاعتدال ، فلا يأخذ بظاهر القول ، وغريبه ، ولا يتأول أو يذهب بعيدا كفعل الباطنية انما يفسر القرآن على ما يفهمه العرب أصحاب اللغة التي نزل بها ، أخذنا في اعتباره ما يجوز فيها من وجوه التعبير

المختلفة كالمجاز والتشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير وما إليها .
وفي تفسير قوله تعالى في سورة النحل : (يخرج من بطونها شراباً) يقول : « فالعسل ليس شراباً ، وإنما هو شيء يحول بالماء شراباً ، أو بالماء نبيذاً كما ترى شراباً إذا كان يجرى منه الشراب » . وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جلوت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً

زعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط .

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها . ومن حمل اللفظة على هذا المركب لم يفهم من العرب قليلاً ولا كثيراً . وهذا الباب هو مقعر العرب في لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسخت . وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة ، وهذيل ، وضواحي كنانة . وهؤلاء أصحاب العسل . والأعراب أعرف بكل صيغة سائلة ، وعسلة ساقطة . فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب ؟ أو طعن عليه ؟ من هذه الجهة (١) .

وكذلك الإيجاز وترك الفضول ، لجأ إليه القرآن في مثل قوله تعالى : (لا يصدعون عنها ولا ينزقون) في صفة خمر أهل الجنة . وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا . وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة (لا مقطوعة ولا ممنومة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك الممانس وفسى

التشبيه قوله تعالى : (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعتها كأنه رءوس الشياطين) فزعم ناس أن رءوس الشياطين شجر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كرية - والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا : انما عنى رءوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم - فقال أهل الطعن : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره ففتوهمه ، ولا وصفت لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق .

وسخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة ، والتفريع منها ، على أنه لو كان شيء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره - فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لا يقزعون الا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صور لهم - واصف صدوق اللسان بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ، ولا صورها لنا صادق . وعلى أن أكثر الناس من هذه الامم التى لم تعاين أهل الكتابين ، وحملة القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ، ولا يقزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما ؟ قلنا : وان كنا نحن لم نر شيطانا قط ، ولا صور رءوسها لنا .

صادق بيده ، ففى اجماعهم على ضرب المثل بقبيح الشيطان ، حتى صاروا يضمنون ذلك فى مكانين ، أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان ، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا ، على جهة التطير له ، كما تسمى الفرس الكريمة « شوها » ، والمرأة الجميلة حمام وقرنام وخنساء وجرباء وأشياء ذلك على جهة

التطير لها ، ففى اجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل يقبح الشيطان دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من قبيح (١) .

وهكذا نجد الجاحظ فى تفسيره انما ينظر الى القرآن نظرة بيانية وعقلية ، لا يأخذ بمأثور الكلام والخبر ، أو بأراء المحدثين والمفسرين ، انما يعمد الى تحليله للآيات وفق ما تقتضيه أصول البيان العربى ، ووفق ما يعتقده من آراء المعتزلة والمتكلمين .

البيان والنقد والبلاغة :

وكان اهتمام الجاحظ فى كتبه بالبيان عدل اهتمامه بقضايا الفكر والحياة والدين ومعلوم أن المعتزلة اهتموا بالبيان ، وعلموا ناشئتهم البلاغة ووصفوا لهم أصولها ، وفى صحيفة بشر ابن المعتز فى البلاغة التى رواها الجاحظ دليل على ذلك .

وينخصر الجاحظ كتابا كبيرا من كتبه لهذا الموضوع « البيان والتبيين » يبحث فيه البيان العربى فى صورته المختلفة من خطايه وشعر ورسائل ومثل وحكمة ، وإن كان اهتمامه منصبا على الخطاية وحدد الجاحظ البيان ، ووجوهه ، كما عرف بالبلاغة وعناصرها ، وحاول أن يوقف متعلما البيان طرق التبيين وأصوله .

ولم يقتصر حديثه فى البيان ، و لانظراته البينانية والبلاغية

على كتاب البيان والتبيين بل تعددت في مواضع كثيرة من كتبه ،
كلما تعرض ل تفسير آية أو بيت شعر أو مثل أو حكمة ويضع
مقياسا عاما للحسن في البيان فيقول :

« وأحصر الكلام ما كان قليله يفنيك عن كثيره ، ومعناه في
ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وفشاه من
نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان
المعنى شريفا بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ،
ومنزها عن الاختلال مصوناً من التكلف صنع في القلوب صنع
النيث في الثربة الكريمة (١) »

ويدور البيان عند الجاحظ على عنصرى اللفظ والمعنى
بمدلولاتهما القريبة ، المفردة والمركبة ، فقد يعنى اللفظ النطق
أو العبارة أو الكلمة الواحدة . وقد يعنى المعنى المضمون
والموضوع ويعنى العبارة والمعنى القائم في النفس والمعنى
المحدود ، والمعنى الجزئى للكلمة ، والمعنى المجازى والمعنى
اللفوى .

وللجاحظ آراء كثيرة في النقد والبلاغة (٢) مفرقة تتعرض
لبناء العبارة في الشعر والكلام وما ينبغي أن تتصف به البليغة

(١) البيان والتبيين ، ٢/ ٧٣ .

(٢) راجع أثر القرآن في تطور النقد العربي « للدكتور محمد زغلول سلام » ،
: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور إبراهيم سلامة ، ص ٥٤ - ٥٧ ،
والبيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر للدكتور طه حسين ، في مقدمة
نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر .

منها من التلاؤم والقرن (١) ، كما يتحدث عن السرقات والمأخذ
المعنوية في الشعر (٢) ، والصدق والكذب في البيان (٣) ، وأن
الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من
اللسان لم تجاوز الأذان (٤) . ويتحدث عن الطبع والصنعة في
الشعر (٥) .

روح الفكاهة والسخرية في أدب الجاحظ :

يقول ابن قتيبة عن الجاحظ أنه يلجأ في كتبه الى المضحك
والعيب .

وروح الفكاهة والسخرية سمة دالة في كتاباته ، وربما
كانت من أبداع خصائص فنه الكتابي ، فالفكاهة اقتدار وجة
مع عند الله ، وهي تدخل على نفس القارئ النشاط وتروح
عنه .

ومن أجمل ما كتب متضمنا روح الفكاهة والسخرية كتابه
الخالد « البخل » ورسائله « الترييع والتدوير » وبعض فصول
في كتاب الحيوان ، وفي رسائل أخرى متفرقة .
وتراء في البخل يسخر منهم ويعرض حرصهم على طعائمهم

(١) راجع البيان والتبيين ، ٢٠٥/١ .

(٢) البيان ، ١٥٤/١ .

(٣) البيان ، ٥٠/١ .

(٤) البيان ، ٨٣/١ .

(٥) البيان ، ٢٠٠/٢ - ٢٠ .

بصور مضحكة كقوله في أحد بخلائه وقد دعاه هو وبعض أصحابه
الى طعام كان خبزه قليلا ، على قدر كل واحد رقيق :

« وكنت أنا وأبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وقطرب
التحوى وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن
فلان والخوان من جزمة ، والفضار صيني ملمع أو خلنجيه
كيماكية ، والالوان طيبة شهية وغذية قدية ، وكل رغيف في
بياض الفضة كأنه البدر ، وكأنه مرآة مجلوة ، ولكنه على قدر
عدد الرموس ، فأكل كل انسان رغيفه الا كسرة ، ولم يشبعوا
فرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشيء فيتموا أكلهم والأيدي معلقة ،
وانما هي في تنقيز وتنتيف .. »

ويقول في آخر :

« .. قد رأيتاه ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم في كل
يوم ، وعنده في كل يوم عرس ولان يطمئن طاعن في الاسلام
أهون عليه من أن يطمئن في الرغيف الثاني ، ولشق عصا الدين
أشد عليه من شق رغيف . لا يعد الثلثة في عرضه ثلثة ، ويعدها
في ثريدته من أعظم النقم .. »

وفي رسالة التوبيخ والتدوير نرى الجاحظ يفتن في رسم
صور ساخرة هزلية لشخص محمد بن عبد الوهاب الذي أدار حوله
الرسالة . وهي تعد من أبرز رسائل الهجاء في أدبنا النثري ،
وقد شرح بها للناشرين من بعده طريقا ، اقتحموه ، وتفاوتوا في
في سلوك دروبه ونواحيه .

كتاب الحيوان ، بين الادب والجدل الدينى والاجتماعى :

يمثل كتاب الحيوان للجاحظ صورة واضحة متنوعة الجوانب لشخصية الجاحظ الادبية والمذهبية والفكرية والاجتماعية .
فهو كتاب جامع لهذا كله . وان بدا مختصا بموضوع الحيوان .

١ - منها أن موضوع الحيوان يشمل الحديث فى الحياة وأسرارها ، وفيها عناصر البحث عن الخالق وقدرته ، والدليل على وحدته ، وعدله ، وحكمته ، فهو موضوع جليل لكشف حقائق الايمان ، وتدعيم جدل المعتزلة . او يمكن أن يستمد هؤلاء منه مددا كبيرا لافكارهم وحججهم لهم على معارضيهم . وقد أشار الجاحظ الى اهتمام بعض المتكلمين فى عصره بالكلب والديك والمناظرة بينهما (١) .

٢ - ومنها أن موضوع الحيوان كان تراثا دينيا أو هو فى وجدان كثير من الشعوب التى دخلت الاسلام يتلون بألوان عقائد الاسلاف التى تحيط بالحيوان بضروب من الافكار ، والعقائد انحدرت اليهم من ماضيها السحيق حين كانت تقدر الحيوان وتجعل منه آلهة للخير أو الشر . وتحول حوله الاساطير والخرافات لتثبيت هذه العقيدة أو تلك . ويشير الى هذه العقائد والاساطير فى مواضع كثيرة من

(١) راجع الجاحظ للدكتور طه العاجزى ، ص ٤٩٣ والحيوان ١/ ١٠٠ / ٢١٩ :

الكتاب - كما أكد هذه الحقيقة في المجتمع العباسي في عصره
ما رواه الحصري في أخبار أبي نواس قال الحصري :

« لما حبس الامين ابا نواس دخل عليه خال الفضل بن
الربيع وكان يتمهد المحبوسين ويسأل عنهم ، وكانت فيه غفلة ،
فأتى ابا نواس فقال : ما جرمك حتى حبست في حبس الزنادقة ؟
أزندق أنت ؟ - قال : معاذ الله - قال : أتعبد الكباش ؟ قال :
ولكني أكله بصوفه - قال : أتعبد الشمس ؟ - قال : والله ما
أجلس فيها من يقضها - فكيف أعبدها ؟ - قال : أتعبد الديك ؟
قال : لا والله بل أكله ولقد ذبحت ألف ديك ، لأن ديكا نقرني
مرة ، فحلفت ألا أج ديكا الا ذبحته (١) -

وقد اتصل حديث الديك والاعتقاد الديني فيه بالاسلام ،
فأحدث الناس حوله بعض الاحاديث كذلك الحديث الذي رواه
الطبراني في معجمه :

« ان لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه موشيان
بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق وجناح بالمغرب -
ورأسه تحت العرش ، وقوائمه في الهواء ، يؤذن في كل سحر ،
فيسمع تلك الصيحة أهل السماوات ، وأهل الارض الا الثقلين
الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الارض ، فالأدنا يوم
القيامة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ضم جناحيك وفض صوتك ،

(١) - جميع الجواهر للحصري ، من ١٣٤ طبع الرحمانية .

فيعلم أهل السموات والأرض إلا الثقلين أن الساعة قد
اقتربت (١) *

وقد ارتبط هذا المعنى الديني في الديك عند المسلمين
لصباح الديكة قرب طلوع الفجر ، والفجر عندهم موعد قريضة
الصلاة الأولى (الصبح) * وربما ارتبط المعنى الديني عند
ثوية القرم لأنه مبشر بالضياء وخروجه من الظلمة *

ويشير الجاحظ في غير موضع من كتابه إلى اعتقاد الناس
في تقسيم أنواع الحيوان إلى شرير وخير ، وربما كان ذلك أثرا
مع آثار بعض عقائد القرم القدماء من المجوس خاصة في أن
الحيوان قسمة بين الهى الخير والشر ، بعضه من خلق اله الخير
هرمز ، والآخر من خلق اله الشر اهريمان * ويتصل الاعتقاد في
الحيوان كذلك فيما يتطير منه أو يتفعل به من الحيوان ببعض
عقائد الكلدانيين *

٣ - أن موضوع الحيوان كان من عناصر الحياة الشعبية اليومية
في المجتمع العباسي المعاصر فقد شغل بعض الناس بضروب
مع الحيوان ، في لهوهم ، فاتخذوا منه أداة لقضاء الوقت
وشغل الفراغ أو أداة للعبادة والمبارزة ، كاعتنائهم
بالديكة المهارشة ، والكباش ، والخمائم وغيرها *
وكتمصبتهم عرقيا لهذا الحيوان أو ذاك * ومنه تعصب
العرب للبحير الناقة ، والقرم ، والهند الغيل مثلا *

(١) راجع الجاحظ للدكتور طه العاجز ج. ١ ص ٤٠٥ *

٤ - ان هذا الموضوع نفسه كان موضوعا فلسفيا ، طرقه من قبل فلاسفة اليونان ، والى فيه فيلسوفهم أرسطو (٢) كتابا ، أظلم الظن أن الجاحظ وقف عليه ، لكنه اختلط لنفسه طريقا آخر مغايرا له .

أما الدور الاجتماعي للحيوان ، وان كان مختصلا بوسائل متينة ببعض العقائد والاساطير الدينية ، الا أن هذا الاتصال اليومي بين الحيوان والانسان فى الحياة ، والمشاركة فى بعض أعبائها جعل الروابط بينهما مدعمة لضروب من التقمص ، أو الاساطير .

ويختلف الحال فى بعض المجتمعات التى يظلم عليها نوع خاص من الحيوان على بعضها الآخر فترى مجتمع البادية وحيوانه ، وعلاقة الناس والحيوان بعضهم ببعض يختلف عن مجتمع البلاد البحرية . أو الزراعية وعلاقات الناس والحيوان فيها بالضرورة .

والمجتمع المباسى فى عصر الجاحظ يجمع عناصر عديدة من مجتمعات بدوية صحراوية أو زراعية ريفية ، وجبلية ، وبحرية ، تتعدد بيئاتها ويعتمد حيوانها .

وتتخلط علاقات الناس بأنواع الحيوان ، لاختلاف بيئاتهم ، فحيوان الصحراء كالبعير والكلب والكنيس ، قريب الى نفوس

(٢) توجد ترجمة له غير منسوبة بالمتحف البريطاني مخطوطة - ويشير ابن النديم الى ابن البطريق ترجم كتاب الحيوان لأرسطو .

البدو أثر لديهم ، لانه يشاركونهم أعباء الحياة فيها ويتحمل معهم
عنائها ، فيحملهم ويصبر على الرحلة ، أو يدفع عنهم شر
الغريب ، وينبهم الى القارة أو يذود عنهم غواصى الحيوان
المفترس كالذئب والسميع ، أو يمدهم بالطعام ، من لبن ولحم
وحيوان البحار كالحوت والاسماك ، وطيور البحر لها كذلك
علاقات بأبناء الجزر ، والثور وقد كان بالبصرة موطن الجاحظ
جماعة كبيرة من البحريين * روى كثيرا من القصص عن حيوان
البحار ، ولاحظ الجاحظ عليهم التزيد والاغراب * ومنها ما
يرويه أولئك من صداقة بين بحارة السفن وبعض الطيور التى
تدئهم على الشاطئ * .

يقول الجاحظ :

« ويزعم البحريون أن طائرين يكونان ببلاد السفالة ،
أحدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهم قبل أن يمكن البحر من
نفسه لخروجهم فى متاجرهم فيقول الطائر : « قرب آمد » *
فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا ، وأن الامكان قد قرب * قالوا :
ويجيء طائر آخر وشكل آخر فيقول : سمارو ، وذلك فى وقت
رجوع من قد غاب متهم ، فيسمون هذين الجنسين من الطير
« قرب » و « سمارو » * فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين
لا يطير أحدهما الا فى اناث ، وأن الآخر لا يطير أبدا الا فى
ذكورة (١) » .

وربما كان من وحى أحاديث هؤلاء البحريين التي روى
الجاحظ طرائف منها حول الحيوان نبيع قمص الف ليلة وليلة
التي تدور في البحار من أمثال قصص السندباد والرخ وما إليها .

والحيوان موضوع « فلسفي » ، واهتم به الجاحظ ، من
باب اهتمامه الفلسفي ، والعلمي وقد قرا في كتب الفلاسفة
والاطباء عن الحيوان ، فأراد أن يحيط علما بهذا العالم الذي
تعطي المعرفة به زادا علميا وفكريا عظيما . ويشير الجاحظ الى
ما جاء من مصارف عن الحيوان عن طريق العرب وأخبارهم
وأشعارهم وما جاء عن طريق العلم والمعرفة من فلاسفة وحكماء
وأطباء .

« وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة .
وقرأناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه أو قريبا
منه في أشعار العرب والاعراب ، وفي معرفة أهل لغتنا
وملتنا (١) » . فالإمام بأنواع الحيوان ، وطبائمه ، وتوالده ،
وحياته من أمور المعرفة أو العلم الضرورية للفيلسوف والعالم .

وقد مال الجاحظ في هذا الجانب من كتاب الحيوان أحيانا
إلى التجريب والملاحظة البصرية والمعاينة ، أو الاتصال بالتجربة
اتصالا مباشرا .

ولا يصدق الجاحظ - مدفوعا بهذا الروح العلمي - كل ما

(١) الحيوان ، ٤٩/٧ .

يقع لسمعه من أخبار حول الحيوان ، وطبائعه ، وعيشه وتناسله ،
فهو يضمها موضع المناقشة والشك والتجريب والنظر ، فما ثبت
منها لهذا كله أخذ به ، وما لم يثبت أنكره ، ونفاه حتى لو وقع له
فى الكتب أو من أفواه العلماء .

يقول مثلاً :

« وما لا أكتبه من الاجناس المجيبة التى لا يجسر عليها إلا
كل وقاح ، أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب ، يقرأها
ويدارس أهل البصرة ، ويتحفظها ، زعموا أن الضبيع يكون عاماً
ذكراً وهاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة ، منهم من لا أستجيز
تسميته » . ثم يقول : « وأولئك بأعيانهم هم الذين يزعمون أن
النمرة تضع فى مشيمة واحدة جرواً وفى عنقه أفعى قد تطوقت
به » .

ويجد كتاب الحيوان من آخر ما ألف من الكتب ، وهو يشكو فيه
علته التى مات بها وتظهر عليه آثار الاضطراب لهذه العلة ، وإن
وسسته سمات التضرع والتجارب المديدة فى رحلة حياته
الطويلة ، ومن نخبة فكره العاقلة المنوعة .

ابن قتيبة في عصره

١ - نشأته

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (١) ، كان والده فارسيا من مرو الروز (٢) وتختلف المصادر في البلد الذي ولد فيه ابن قتيبة ، فيذكر ابن النديم أنه الكوفة (٣) ، ويذكر الخليل البغدادى أنه بغداد (٤) . ويبدو أنه ولد بالكوفة ، ولم يقم بها كثيرا فانتقل في صباه على الأرجح إلى مدينة السلام ، فطالت إقامته بها حتى عد من أبنائها .

وقد أثرت حياة بغداد في نشأته الفكرية ، إذ أنه تلقى العلم على جماعة من علمائها الاجلاء ، فأخذ الحديث عن أئمة المشهورين فيه مثل اسحاق بن راهوية ، وتلقى النحو عن جماعة من علماء الكوفة والبصرة ، مثل أبي حاتم السجستاني .

وتأثر في شبابه بما كان يدور في أوساط العلماء من جدل وتناظر بين المعتزلة وأهل السنة ، ولمس في فجر حياته غلبة

(١) ديسور : ودينهور في المصادر السريانية مدينة من أهم مدن جبال
يرجع تأسيسها إلى الجاهلية وكانت في عهد الخليفة عمر أمير مدينة في إقليم
همدان وقد سلمها الوالي الفارسي للعرب عقب وقعة نهاوند العاسية مباشرة
(حوالي عام ٢١ هـ) وقد ازدهرت أيضا ازدهارا كبيرا في عهد الامويين
والعباسيين .

(٢) (الاثرية) لمحمد كرد علي - ص ١ .

(٣) (الفهرست) طبع أوروبا .

(٤) (تاريخ بغداد) ١٠ ، ١٧٠ .

المعتزلة على الحياة الفكرية ، فأعجب - على ما يبدو - بأرائهم كما يحكى فى « تأويل مختلف الحديث » (١) .

وقد اختير قاضيا لمدينة الدينور ، وهى بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين كان بها جماعة من العلماء والمحدثين والمشايخ المشاهير (٢) ، وقضى بالدينور زمنا اتصل فيه بأولئك المحدثين والفقهاء ، وتدارس أمور الدين والفقه ، ثم عاد الى بغداد ، وهناك وجد شمس المعتزلة آخذة فى الاقول بعد أن تولى الخلافة جعفر المتوكل ، وساعد أهل الحديث والسنة على الظهور على منافسيهم . فتقدم هو ليبدى بدلوه ، وينتصر للسنة ، ويجمع من الأراء والكتب ما يمينه على ذلك .

واتصل ابن قتيبة فى بغداد برجال الدولة كمادة فيرد من العلماء والادباء وعرف منهم فى ذلك الوقت الوزير أبا الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابنه المعتمد (٣) وأهدى اليه كتابه « أدب الكاتب » .

واستمرت حياته العلمية ببغداد ، فاشتغل بالتدريس للناس زمنا (٤) ، وكان يقرأ كتبه على تلاميذه ، ومن بينهم جماعة من

(١) (تأويل مختلف الحديث) ص ٧٤ .

(٢) قرميسين : تشمل الاراضى السفلى من جبال قرميسين أما دينور . فتشمل الاراضى العليا منها .

(٣) الانساب - ٢٣٨ ط أوروبا .

(٤) ذببات الاعيان - ٢/٢٤٦ ط مطبعى الدين .

العلماء الذين نبهوا بعد ذلك وكان لهم نتاج معروف مثل ابنه أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذي حدث بكتب أبيه في مصر حين ولي القضاء بها ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الكاتب الفارسي صاحب « أدب الكتاب » .

وقد شارك مشاركة جديّة في معارضة نزعات الشك والفلسفة التي غلبت على العقول في ذلك الوقت ، وسيتضح هذا عند تناول اتجاهاته المختلفة في كتبه . وقد توفي ابن قتيبة بعد أن قضى حياته في خدمة الدين والأدب سنة ست وسبعين ومائتين على الأرجح (١) ، وكانت وفاته فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ثم أغمى عليه ، ومات . وقيل أنه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه إلى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ .

٢ - ثقافته وآراؤه وعقائده

ذكرنا عند الكلام عن ثقافة العصر أن المعتزلة أثاروا حركة فكرية واسعة في عصر المأمون والمعتصم ، وأن كثيرا من الكتب اليونانية وغيرها من مختلف الثقافات قد نقلت إلى العربية وأثرت تأثيرا عظيما في ثقافة العصر وثمراته الباقية ، وأشرنا إلى النضال الفكري بين المعتزلة وأهل السنة ، ولما كان ابن قتيبة

(١) اختلفت المصادر في سنة وفاته بين ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ .

راجع (ابن خلكان) طبع باريس ٣٥٤/١ و (تاريخ بغداد) طبع السعادة

١٩٣١ ، ١٧٠/١٠ - ٦٧١ .

أحد أبطال ذلك النضال ، فينبغي أن نقف عنده . لنتعرف الى جوانبه .

اتجه ابن قتيبة في مطلع حياته الى علم الكلام ، واجتذبه أضواءه ، فجلس الى كثير من علماء المتكلمين وأخذ عنهم واغتر بكلامهم فقد قال : « وقد كنت في عنقوان الشاب وتطلب الآداب أحب أن أتعلم من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه يسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتريهم طامع ان أصدر عنه بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدي لرشد ، فأرى من جراتهم على الله تعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظام لطرده القياس أولئلا يقع انقطاع ، ما أرجع معه خاسرا نادما (١) » -

وقد أفاده اطلاعه على آراء المتكلمين في جدله معهم ، اذ قارعهم الحجة بالحجة وكال لهم بالكيل الذي كالوا به لاهل السنة والحديث ، وتأثر ابن قتيبة بأراء أبي حاتم السجستاني وشيخه المحدث اسحاق بن راهويه ودافع عنها (٢) .

ويبدو أنه كان ملما بالفارسية (٣) ، مطلعا على كثير مما جاء في الكتب السماوية مترجما فقد استشهد في كثير من آرائه بما جاء في التوراة والانجيل .

وفي كتبه دلائل كثيرة على الملمة بالفلسفة ، منها ما يثقله

(١) تأويل مختلف الحديث - ص ٧٤ .

(٢) تأويل مختلف الحديث - ص ٦٥ .

(٣) كنيها ما يذكر في كتبه (قرأت في كتب المعجم كذا وكذا) .

عن أرسطو صاحب المنطق كما ينقل عنه بعض المعلومات فى الطليمة كأن يقول « وكيف لا يعجبون من حجر يجذب الحديد من بعد ويطيحه حتى يذهب به يمينا وشمالا بذهابه ، وهذا حجر المغناطيس وكيف صدقوا بقول أرسطاطاليس فى حجر المستقبل انه اذا ربط على بطن صاحب الاستقساء تشق منه الماء ... » الخ (١) - كما أنه يذكر فى تأويل مختلف الحديث « أنه اتصل بأيوب المتطبيب ، وحنين بن اسحاق .

واختلطت دراساته الفلسفية ، والمنقولة عن المعجم واليونان بأرائه الدينية ، ومع أنه كان من المنتصرين لاهل السنة المدافعين عن مبادئهم وآرائهم ، فقد اتهمه بعضهم بالخروج . قال الذهبي (٢) : « وقال الحاكم أجمعت الامة على أن القتيبي كذاب ، واتهم بأنه كان خبيث اللسان يقع فى كبار العلماء (٣) » . كما اتهم بأنه منحرف عن العثرة ، وأنه يميل الى التشبيه ، ويرى رأى الكرامية الذين يغالون فى التشبيه والتجسيم . قال الذهبي : « قال البيهقي كان يرى رأى الكرامية » (٤) .

ولم يرض عنه أنصار الفلسفة ، وساء لهم هجومه عليها . وتقليله من شأنها ، فاتهم بالجهل بها وعدم المعرفة .

(١) أدب الكاتب ، وشرح أدب الكتاب - للبغليوسي - ص ٤٢٨ .

(٢) مقدمة « الاثرية » لمحمد كرد علي - ص ٢ .

(٣) نفس المصدر - ص ٥ .

(٤) ميزان الاعتدال -

ولكنه على الرغم من تلك الاتهامات التي وجهت اليه ظل محتفظا بمكانته العلمية الرفيعة . وظل يمثل الجاحظ في أهل السنة ، ولم ينس فضله جماعة من فضلاء المؤرخين فأشادوا به . ومن هؤلاء الخطيب البغدادي ، والعافظ الذهبي ، والسيوطي . وقد سخر من قول الحاكم « اجتمعت الامة على أنه كذاب » فقال : « وما أعلم الامة اجتمعت الا على كذب الدجال ومسيلمة (١) » . وقدره ابن تيمية حق قدره ، ووضعه في المكان اللائق ونفى عنه ما وجه اليه من طعن وتجريح ودافع عنه تهمة التشبيه وقوله بأراء الكرامية واعترف بأنه أمام أهل السنة في زمن كان الجاحظ فيه امام المعتزلة وخطيبهم قال : « وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقية فسي ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه (٢) » . وذكر يوهان فك في « العربية » أنه أبرز الادباء المثلين للتجديد السني (٣) .

ويعتبر ابن قتيبة كاتب أهل السنة في النصف الاخير من القرن الثالث ، فقد ألف كثيرا من الكتب تناول فيها قضية السنة والحديث ، وما وجه اليهما من اتهامات على أيدي المعتزلة ، وانتصر للمذهب ، وللمحدثين ومناهجهم في العلم والعقيدة ، وأظهر هذه الكتب وأسرها كتاب « تأويل مختلف الحديث » .

(١) بغية الوعاة .

(٢) تشريح موزة الاخلاص لابن تيمية - ص ١٢٢ ط النجدة بمصر / ح ١٢٥٢ .

(٣) العربية - ص ١٢١ .

« والاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشيبة » و « المسائل والاجوبة » -

والاساس الذي تقوم عليه آراؤه هنا لا تتضح حتى نعرض لما كان يوجهه المعتزلة لاهل السنة من اتهامات ، فقد عرف المعتزلة بأنهم اهل التوحيد والعدل لانها اصل عقيدتهم الفكرية أو الدينية ، والتوحيد عندهم أن الله واحد منزّه عن الخلق لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، وكل ما يمس هذا الاعتقاد من قريب أو بعيد عندهم فهو باطل مشكوك فيه ، ويتفرع على هذا أن الله تعالى لا تنفصل صفاته عن ذاته ، ولا يجوز أن يشبه خلقه في شيء من تلك الصفات ، لذلك تناولوا ما جاء في القرآن من الفاظ قد توحي بغير عقيدتهم . ويرى اهل السنة التسليم بما جاء في القرآن والحديث كما هو لا يتأولونه ، وهم وراء هذا يرون أن صفات الله تعالى منفصلة عن ذاته ، فالله عالم يعلم وقادر بقدره . وقد يوضح هذا الخلاف ما ذكره الطبري في تفسير قوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداء مبسوطتان) قال : وقد اختلف اهل الجدل - وهم المتكلمون - في تأويل قوله تعالى : (بل يداء مبسوطتان) قال بعضهم عنى باليد النعمة أو القوة أو الملك ، وقال آخرون : بل يد الله صفة من صفاته ، هي يد غير أنها ليست بجارحة ، واستدلوا على استحالة المعنى الاول بأدلة منها قالوا : وذلك أن الله - تعالى ذكره - أخير عن خصوصية آدم بما خصه به من خلقه

اياهم بيده ، وكان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم ، اذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ، ومشيتته في خلقه نفسه ، وهو لجميعهم مالك . قالوا : واذا كان - تعالى ذكره - قد خص آدم بذكره خلقه اياه بيده دون غيره من عباده ، كان معلوماً أنه إنما خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق ، واذا كان كذلك بطل قول من قال : معنى اليد من الله القوة أو النعمة أو الملك « (١) » .

وأما مبدأ العدل أن الله عادل لم يخلق الناس وهو مقدر لما يعملون من خير أو شر ، والا ما كان ثواب الجنة وعذاب النار ، فأعمال الانسان في الحياة باختياره ، ليس من العدل نسبتها للقدر . وإنما غاية الامر أن الله تعالى يصطفى من عباده الاخيار ممن يرضى عنهم فيهبهم اللطف الذي يعينهم على السير في طريق الخير ، ويحببهم عن عبادة الذين لا يرضى عنهم فيسيرون كما توحى لهم أنفسهم .

ويرى أهل السنة عكس ذلك ، وأن القدر يتدخل في أعمال الانسان، لذلك سموا المعتزلة بالقدرية ، لانهم نسبوا القدر الى أنفسهم .

ذلك هي الاصول ، وأما الفروع فما اختلفوا فيه منها القول في اعجاز القرآن ، فقد خرج النظام على جماعة المسلمين برأى في الاعجاز مؤداه أن القرآن معجز لان الله صرف الخلق عن الاتيان

(١) تفسير الطبري - وراجع - مذاهب التفسير - لجولان تسيهر - ص ٤٩٩ .

يمثله قال الشهرستاني : « انه كان يرى أن اعجاز القرآن من حيث الاخبار عن الامور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتمجيذا ، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلافة وقصاحة ونظما (١) » -

وقال الجاحظ تلميذه : ان النظام واصحابه كانوا يزعمون ان القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس بمرمان (٢) -

ويرى أكثر المعتزلة وأهل السنة أن القرآن معجز ببيانه وأسلوبه الرائع الذي لا تستطيعه العرب ، والذي ظهر عجزهم عنه منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم - يقول الجاحظ أن معجزة النبي في القرآن كانت قاطمة ، وكان موقعها في العقل كموقع فلق البحر بالنسبة للعين (٣) كما يذكر أن العرب لم يقدروا على الاتيان بمثله عجزا ووهنا ، لا تهاونا ولا تخافلا لان الاتيان يمثل أصفر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم شر قتل الانفس والاولاد - ثم يرى أن الاعجاز متصل بالنظم وحده ، أي الاسلوب ، بصرف النظر عن معانيه (٤) -

(١) الملل والنحل - طبع ليزج - ص ٣٩ -

(٢) رسائل الجاحظ ، طبع السندوي - ص ١٤٧ -

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ -

(٤) أثر القرآن في تطور النقد - احمد زغلول سلام - ص ٧٥ -

وتعرض كثير من العلماء في عصر الجاحظ لاعجاز القرآن من ناحية نظمه وبيانه وتعرض ابن قتيبة من وجهة نظر أهل السنة لهذه المسألة في كتابه « مشكل القرآن » على ما سنعرض له عند تحليل الكتاب .

وكان الخلاف بينهم حول تفسير ما جاء في القرآن من آيات المجاز والتشبيه والاستمارة وما يماثلها كذلك في الحديث : قال الجاحظ في تفسير قوله تعالى : (انها شجرة تنبت في أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين) ، وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك . رجع بالإيعاء والتنفير ، وبالأخافة والتقريع الى ما قد جمعه الله في طباع الاولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن (١) . وقال : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير » وقال النظام : لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين .

واختلف ابن قتيبة مع المعتزلة والجاحظ ، فانه كان يرى كما قلنا رأى مذهبه ولا يحاول أن يبعد في التأويل ، بل يفسر

(١) الحيوان - ٣٩/٤ .

(٢) نفس المصنوع - ٢١٢/٦ .

في حدود النص تفسيراً لغوياً محدوداً على قدر ما تسمح به معاني
الالفاظ الظاهرة - وقد اتهم بالتشبيه والتجسيم ، ولعل ذلك
راجع الى بعض ما أورده في كتابه « تأويل مختلف الحديث »
ولكنه أوضح موقفه بصورة ناضجة في « تأويل مشكل القرآن » ،
فهو فيه معتدل لا يأخذ بمذهب أصحاب الظاهر مع اللغويين ، كما
ينفي تفسير المشبهة ، ويعرض في كتاب « الرد على الجهمية
والمشبهة ما انزلق اليه هؤلاء مع أخطاء »

وعارض المعتزلة المحدثين حول ما يمكن الاعتماد عليه من
الحديث ، فكان عمرو بن عبيد لا يثق بهم (١) - وقد ذكر ابن
قتيبة أنهم اتهموا أهل الحديث بالكذب والتناقض وأن النظام
أنكر حجية الاجماع ، وغلب عليه القياس المنطقي ، والجواز
العقلي ، كما أنهم نالوا من المحدثين بالسخرية والالتهام بالجهل
وقلة المعرفة بالشعر واللغة ، أو بأنهم « أجهل الناس بما يحيطون
وأندر الناس حفظاً فيما يطلبون » وقالوا في ذلك :

زوامل في الاشعار لا علم عندهم يجيدها الاكظم الابعار

لمرك ما يدري البعر اذا غذا بأجماله ، أرواح ، ما في الغرائر

- وأنهم قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه .
ورضوا بأن يقولوا : لعلنا عارف بالطريق راوية للحديث ،
وزهدوا في أن يقال : عالم بما كتب أو عامل بما علم (٢) .

(١) اثر القرآن في تطور النقد - ص ٦٧ .

(٢) تأويل مختلف الحديث - ص ١٠ - ١١ .

ويرد ابن قتيبة على هذه الآراء ردا شاملا جامعاً فيرى : « أن معاني الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطرفة والتولد والمرض والجوهر ، والكيفية والكمية ، واللايتية ، ولو ردوا المشكل منها إلى أهل العلم بها ، وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج (١) » . وعنده أن إطلاق الأمر للرأي والقياس في المسائل الدينية الدقيقة مثل صفات الله تعالى ، وقدرته ، ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يدعو إلى الخلاف والزيغ والاحسن فيها أن تلجأ إلى الحديث ونؤمن بما جاء به متعلقا بها ، لأنها في رأيه « أمور لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى (٢) » .

وبالرغم من دفاع ابن قتيبة عن الحديث ، فإنه لم يكن محدثاً بالمعنى المعروف قال الحافظ الذهبي : « أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية (٣) » ، وقال : « ابن قتيبة من أوعية العلم ، لكنه قليل العمل في الحديث (٤) » وله كتاب في « غريب الحديث » وآخر في « اصلاح الغلط في غريب الحديث لابن عبيد » .

وكان يذهب في الفروع مذهب أحمد بن حنبل : فقد

(١) تأويل مختلف الحديث - ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر - ص ٧٧ .

(٣) ميزان الاعتدال - ٧٧/٢ .

(٤) تذكرة الحفاظ - ١٨/٢ .

عاصره وأخذ عنه ، قال ابن تيمية : « ابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد » (١) .

٣ - بين ابن قتيبة والجاحظ

ذكر ابن قتيبة أنه أخذ عن الجاحظ وأنه أجاز له ببعض كتبه (٢) ، وقال ابن تيمية : ويقال هو لاهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فانه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة . وقد ذكر محمد كرد علي في مقدمة كتاب « الاثرية » ما كان بين ابن قتيبة والجاحظ ، وكيف أنه عنف في ردوده على الجاحظ ، واتهمه بالكذب ، وكان فيما يبدو مندفعاً في حمية الذود عن آرائه وآراء شيوخه وأصحابه ، فأفلتت منه عبارات فيها عنف وتجريح لعالم جليل وأستاذ من أساتذة الفكر العربي . قال في شأنه : « ثم نصير الى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استشارة ، وأشدهم تعلقاً بتمظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويعتج لفضل السودان على البيضان وتراء يعتج مرة للمثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل علياً رضي الله عنه ، ومرة يؤخره ، ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتبعه قال الجمار وقال اسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحي » ،

(١) تفسير سورة الاخلاص - ص ١٢١ .

(٢) عيون الاخبار - ج ٢ - ص ١٩٩ .

ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر في كتاب ذكرنا فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر وسطرين ، ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز في الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النييد ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم - وهو مع هذا من أكذب الامة وأضعفهم لحديث وأنصرهم لباطل (١) » -

٤- تأثره وتأثيره

وتنوعت دراسات ابن قتيبة اللغوية ، وقد سبق ذكرنا لاسانذته في هذا الميدان - ولعل من أبرزهم أبا حاتم السجستاني تلميذ الاصمعي ، وروى عن الكوفيين ، وأخذ عن البصريين وخلط بين المذهبين - قال ابن التديم : « انه كان يخلو في البصريين الا أنه خلط في كتبه عن الكوفيين وكان صادقا فيما يرويه عالما باللغة والنحو (٢) » . وكان البطلاني يقول انه ذو مذهب ضعيف في النحو (٣) ، وهو مع ذلك - كما عده السيوطي - من النحويين (٤) ويعتبر اماما لمدرسة بغداد التي مزجت بين آراء الكوفة والبصرة (٥) .

(١) تأويل مختلف الحديث - ٧١ - ٧٢ .

(٢) الفهرست - ص ٧٧ - ٧٨ .

(٣) الاقتضاب في شرح أصب الكتاب - ٢٣ .

(٤) بغية الوعاة - ٢٩١ .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية - م ٢٦٠ .

والباحث في كتبه يرى أنه يستشهد بأراء علماء المدينتين ،
ويختار لنفسه مذهباً بينهما وتارة يفضل أراء علماء أحد
الفرقتين ، وترى هذا كثيراً في كتبه ، فهو يفضل أنا رأى أبى
حاتم ، وأنا آخر رأى أبى السكيت ، وتارة يأخذ بما قال الفراء ،
وتارة بما قال السكاكي .

وذكر الأزهري ما ألفه ابن قتيبة في اللغة ، وما رده
على علمائها ، فقال : « وأما أبو محمد عبد الله بن مسلم
الدينوري ، فإنه ألف كتباً في مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب
« غريب الحديث » ، وكتاباً في الانواء ، وكتاباً في أدب الكتبة ،
ورد على أبى عبيد حروفاً في غريب الحديث سماها « اصلاح
الغلط » ، وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التي غلط
فيها ، وعلى الأكثر الذي أصاب فيه . فأما الحروف التي غلط
فيها فأنى أثبتها في مواقعها من كتابي ، ودلت على موضع
الصواب فيما غلط فيه . وما رأيت أحداً يدفعه عن الصدق فيما
يرويه عن أبى حاتم السجستاني ، والعباس بن الفرج اليرباعي ،
وأبى سعيد المكفوف البغدادي . فأما ما يستبد فيه برأيه ، من
معنى غامض أو حرف من علل التصريف والتحو مشكل ، أو حرف
غريب ، فإنه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة .
والفقيه يحدث بالظن فيما لا يعرفه ولا يحسنه ، ورأيت أبا بكر
ابن الأنباري ينسبه إلى الغفلة والغباء وقلة المعرفة ، وقد رد
عليه قريباً من ربع ما ألفه من مشكل القرآن (١) » .

ويذكر الازهرى فيما يذكر أنه قيل عن ابن قتيبة أنه يروى
عن سيبويه والاصمعي وأبى عمرو وهو لم ير منهم أحدا ، ولم
ير في هذا نقصا أو انحرافا لأنه أخذ عن جماعة ممن حضروا
عليهم (١) .

وقد ترك لنا في مجموعة كتبه ما يشهد على علو كعبه في
اللغة رواية ودراية ، ومنها « كتاب غريب الحديث » ، و
« اصلاح الغلط في غريب الحديث لأبى حنبل » ، و « تفسير
غريب القرآن » « وكتاب الانواء » ، وكتاب « أدب الكاتب » .

وكان الى جانب علمه باللغة أدبيا واسع الاطلاع ، صاحب
ذوق وبيان ، جامعا لعلوم الادب بمعناه العام ، راوية للشعر
وأخباره ، ملحا بدقائقه ، محيطا بكثير من المعارف العامة التي
ينبغي للاديب أن يتزود بها ، وكان في كتبه الادبية رجلا ذواقة
يحسن الاختيار (٢) ، ينظر في الشعر برأى صائب ، ولم يحب
تحكيم المتطق والمقل كما لم يمل للتعنت اللغوي ، بالصورة
التي كان يلقي بها اللغويون شمر المحدثين ، وكان ذوقه الادبي
رائده في تفسير المشكل من آيات القرآن ، فكان يرجع للذوق
العربي ولا يحكم القياس .

وقد جمع الى جانب هذا وذلك كثيرا مما يتصل بثقافة

(١) راجع مقدمة « مشكل القرآن » بتحقيق السيد أحمد صقر - ص ٢٨ .

(٢) قيل في حسن الاختيار :

قد هزناك باختيارك اذكنا ن دليلا على اللبيب اختياره

الكاتب والاديب من معارف عامة وسار على الدرب الذي انتهجه من قبل ابو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الديتورى ، ولذلك كان كثير من كتبه الادبية يدور حول تربية الملكة المربية و « تحبيب اللغة الى الدارسين والشادين (١) » وكان يقصد من ورائها الى ارشاد طبقة الكتاب وتعليمهم ، ووضع ثمرات فاضحة بين أيديهم يسهل عليهم هضمها والافادة منها ، ولعل كتابه « أدب الكاتب » خير ما يمثل هذا الاتجاه الداعى الى ثقافة الكتاب . يقول فى مقدمته « فانى رأيت كثيرا من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطايوا الدمة واستوطاوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير . . الخ ولهذا يقول : « فلما رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت أن يذهب رسمه ، ويمحو أثره جعلت له حظا من غاييتى وجزءا من تأليفى ، فعملت للمفصل التسايب كتبا خشيفا فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيت من التطويل والتثقيب لانشطة لتحفظه ودراسته (٢) » .

وقد أعجب الناس بكتبه الادبية ، ذكر السمعاني أن الامير أبا نصر الميكالى قال : « تذاكرنا المتنزهات يوما ، وابن دريد حاضرا ، فقال بعضهم : أنزه الاماكن غومة دمشق وقال آخرون : بل نهر الابله . وقال آخرون : بل سقند سمرقند ، وقال بعضهم : نهر وان بغداد وقال بعضهم : شعب سوان بأرض فارس ، وقال

(١) محمد كرد على فى مقدمة « الاشوية » - ص ٦ .

(٢) مقدمة « أدب الكاتب » .

بعضهم: نوبهار بلغ فقال هذه متنزهات الميرون ، فأين أنتم من
معنزهات القلوب ؟ .. قلنا : وما هي يا أبا بكر ؟ قال عيون
الاعخبار للقتيبي والزهرة لابن داود (١) .

وقد عد ابن خلدون كتابه « أدب الكاتب » من دواوين الأدب،
الرابعة .

وكثرت مؤلفات ابن قتيبة في مختلف علوم الدين واللفظة
والادب حتى أربت على الخمسين في قول كثير من العلماء ، وزادها
بعضهم الى ستين ونيف وبلغ بها آخرون زهاء ثلاثمائة (٢) .

(١) « الاثرية » نظم محمد كرد علي - ص ٩ .

(٢) تفسير سورة الاخلاص - ١٢٠/١٢١ .

أبو حيان التوحيدى

على بن محمد العباسى

يعد أبو حيان من كتاب العربية المشهورين فى القرن الرابع الهجرى ، وهو من الادباء الموسوعيين الذين جالوا فى شتى ميادين المعرفة .

ولد أبو حيان فى بغداد فى العشر الاول من القون الرابع الهجرى (سنة ٣١٠ هـ) من أبوين فقيرين ، وقد صممت مصادر التاريخ والتراجم عن أخبار أسرته ونشأته ، واضطربت فى عام ولادته ، والاهمال الذى لاقاه التوحيدى من العلماء والادباء أمر يدعو الى العجب فهو على علو قدره ، مجهول الذكر . قال ياقوت : « لم يذكر التوحيدى أحد فى كتاب ولا دمجته ضمن خطاب (١) » . وكم من نابه من رجال الفكر أسدلت عليه ظلال النسيان وحجبته السنون ، وأفقلت ذكره الصحف ، لأمر ما ، يصعب تحديده أحيانا ، وقد نجد العلة فيه ونعثر على السبب فى انكاره . والشاعر ابن الرومى مثال واضح على تجنى المؤرخين ، واهمال المؤلفين .

ومهما يكن من أمر فان ما بقى من أنباء عنه ، وما حفظته الايام من كنبه يمكن أن يرسم لنا صورة وان لم تتضح معالمها لشخصه ، وحياته ، وصورة طيبة أكثر وضوحا وبيانا لفكره وأدبه .

(١) معجم الادباء .

عاش أبو حيان في بغداد بالعراق في القرن الرابع الهجري ،
والخلافة تظلمها الدولة البويهية الفارسية الشيعية ، وتفرض
عليها حمايتها . وغلب على هذا العصر الفتنة والاضطراب وكثرة
المنازعات والحروب الداخلية بين عناصر الدولة ، وأمرائها
وقادتها ، وكان العراق في شماله وجنوبه مضطربا بين منازعات
رؤساء القبائل وزعماء الطوائف في الجنوب ، وانتفاضات كثير
من الفئات الكادحة كثورة الزنج بالبصرة ، ومنازعات الحمدانيين
وبعض الأمراء في شمالي العراق وبعض أقاليم الشام .

ورغم هذا الاضطراب السياسي ، والفوضى الاجتماعية التي
سادت القرن الرابع في العراق ، فإن عصر ازدهار حضارى في
جوانب الفن والعلم والادب كان يظلل القرن لأنه كان عصر حصاد
للماضى الطويل المجيد، الذى بنى فيه العرب والمسلمون أركان
دولتهم ، ودعموا أسس حضارتهم ، حتى استحصدت وأثمرت في
هذا القرن الرابع بعد أن ازدهرت في القرن الثالث فى عصور
الخلفاء العظام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .

ومن مظاهر هذا النضج الحضارى ، تنوع الحياة الثقافية
بجوانبها ، من فلسفة وعلم وأدب ولغة ، وظهور جماعة من كبار
العلماء والادباء ، والشعراء ، كان لهم دور واضح فى تاريخ
الثقافة العربية والإسلامية على مدى العصور أمثال ابن سينا ،
وابن مسكويه وأبى سعيد السيرافى ، وأبى الحسن الأشعري ،
وابن العميد ، وأبى على الفارسي وابن جنى ، وأبى الطيب المتنبي،

وأبي حيان التوحيدى ، والحاتمى ، وأبى الحسن الرمانى ، وأبى بكر الصولى ، والمرزبانى ، وأبى هلال العسكري والقاضى الجرجانى وابن تباته السعدى ، والسرى الرفاء ، وأبى بكر الصنوبرى ، وأبى فراس الحمدانى .

وكانت دور العلم من مدارس ، ومساجد ، ومجالس فى القصور مجالا للدرس والبحث والمناظرة ، كما كانت دكاكين الوراقين ، وأماكن السمر واللهو منتديات للادب والفن تجمع بين الفكر والفن ، وكم اهتم الشعراء بقضايا الفكر ، والمعانى ، والتجارب الانسانية اهتمامهم بالفن من غناء وطرب ، وجمال بناء ، وزينة ورياض .

ففى شعر شعراء العباسيين والبيداديين خاصة صور بيئة لهذا كله ، ففى شعر ابن عبد القدوس والوراق وأبى العتاهية وبشر ابن المعتز من الفلسفة والحكمة ، والالهيات والزهد ، كما فى شعر أبى نواس ، والبحتري ، ومسلم بن الوليد وابن الرومى وابن المعتز من وصف لمظاهر الحضارة الزاهرة كمجالس الطرب والانس ، وجميل الرياض ، وأدوات الشراب والطعام ، من كثوس الذهب والفضة ، والقصور الفارحة الشاهقة ، والبرك ، والبساتين والتماثيل وما اليها مما يمكن جمعه وتصور الحياة الناعمة من خلاله تصورا حيا نابضا ، يختلف عن تصورها من خلال التاريخ . ومضى الادب فى القرن الرابع مرتبطا بالفكر والفن جميعا ، وإذا كان كتاب القرن الثالث من أمثال الجاحظ وابن قتيبة وسهل

اين هارون يجمعون بينهما فيتحدث الجاحظ عن قضايا الفكر في الحيوان ، ومشكلات الحياة والمجتمع في رسائله فخر السودان ، والتجارة ، فانه عرض للحياة الفنية كذلك من خلال كتاباته الاجتماعية وخصها بالحديث في أكثر من فصل ورسالة مثل رسالته في القيان .

وتابع الادباء في القرن الرابع الحديث في الفكر والفن والحياة ، فكانت رسائل الصابي ورسائل اخوان الصفا ، وكتاب الموشى للوشاء ، وكتابات أبي حيان التوحيدي في مؤلفاته من كتب ورسائل فضلا عن مسكويه وابن سينا وأبي سعيد السيرافي .

وشارك الشعر في هذا الاتجاه ، فكان صورة للحياة الفكرية والفنية الزاهرة .

نشأ التوحيدي اذا في هذا القرن الرابع في بغداد ، فكان طبيعيا أن يتم تكوينه في هذه البيئة ، فيأخذ منها بعض ملامحه ، أو تؤثر فيه البيئة ببعض معالمها أو كلها .

وأول المؤثرات في أبي حيان هو المكان والمجتمع ، وما كان يضطرب فيه من الاحداث والقيم . ولعله في ذلك كان مستجيبا للمجتمع استجابة الجاحظ ، وان اختلفت الصورة .

اهتم التوحيدي منذ طفولته وصباه الاول بالدرس والقراءة ، وصرفه الاهتمام بالقراءة والدرس عن الزواج ، فلم يعرف عنه أنه تزوج و رزق أبناء .

وتردد في درسه على كثير من مجالس العلم وعدد من الشيوخ
وكبار العلماء ، ولم يقنع في طلبه بلون من ألوان المعرفة ، بل
أراد أن ينوع مصادرها ، وأن يزود فكره بزيادة غنى ، فآلم من كل
علم بطرف -

وقد كان أبو حيان رجلاً طليعة ، وكان « شخصية فلسفية طليعة
تستخلص الاسئلة من كل ما يقع أمامها ، سواء أكانت خلقية أو
اجتماعية ، و لغوية أو اقتصادية أو نفسية » .

ومن أساتذته النابيين أبو سليمان المنطقي : محمد بن طاهر
ابن يهرام السجستاني الذي كان فيلسوفاً ومنطقياً ، ولفوياً ،
وصاحب نظر عميق في اللغة والأدب -
قال عنه أبو حيان (١) :

« أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً ، وأقهرهم غوصاً ،
وأصفاهم فكراً وظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الضرر ، مع تقطع
في العبارة ، ولكنه ناشئ مع المجمة وخلة نظر في الكتب ، فرط
استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للمويس ، وجراءة على تفسير
الرمز ويغل بما عنده في هذا الكتز » -

وكان أبو حيان يتردد على مجلس أبي سليمان بمنزله ، وكان
يؤمه معه جماعة من العلماء والأدباء وسجل أبو حيان بعض ما دار
في ذلك المجلس من مناقشات ومحاورات -

وقرظه أبو الفتح ابن العميد في رسالة بعث بها إليه قائلاً :

(١) الامتاع والمؤانسة - ٢٢/١ طبعة القاهرة ١٩٣٩ .

« فله درك ودر زمان أنت من أهله (١) » ووصفه أبو حيان في موضع آخر لابي سعيد السيرافي :

« ان شيخنا ابا سليمان غزير البحر ، واسع الصدر ، لا يفلق عليه في الامور الروحانية والانباء الالهية ، والاسرار الغيبية ، وهو طويل كثير الوحدة ، وقد اوتي مزاجا حسن الاعتدال ، وخاطرا بعيد المثال ، ولسانا فسيح المجال » .

وظلت علاقته بأستاذه أبي سليمان قائمة ردحا طويلا من الزمن ، وألف له كتاب امتاع المؤانسة ، لخص المجالس التي كان يحضرها عند الوزير ابن سعدان ، وتجمع كثيرا من رجال العلم والادب ويدور فيها حديث طويل حول موضوعات شتى .

وأخلص أبو حيان لأستاذه أبي سليمان، فظلت العلاقة بينهما طيبة ، وبقيت آثاره في كثير من كتبه واتصل بأستاذ جليل آخر هو الشيخ أبو سعيد السيرافي (٢٨٤ هـ - ٣٦٨ هـ) ، وكان أبو سعيد عالما جليلا في اللغة والنحو على مذهب البصريين ، وكان السيرافي يدرس النحو ويفتي بمجلس الرصافة مدة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة ، وقال ياقوت ، فما وجد له خطأ ، ولا عثر على زلة (٢) . وأتقن علوم القرآن من القراءات ، والتفسير ،

(١) مثالب الوزيرين تحقيق د. ابراهيم الكيلاني - ص ٢٩٨ - طبع دمشق ١٩٦١ .

(٢) معجم الادباء د. ج. ف. ١٥٠/٨ .

والاحكام ، كما اتقن علوم اللغة والادب كالبلاغة والشعر
والعروض والقوافي *

وعظم صيته ، وتعدت شهرته حدود بغداد ، فأصبح يستفتى
في كثير من قضايا الدين والمعرفة واللغة والادب *

وكانت له في النحو آثار واضحة ، ونهج خاص ، فهو فضلا
عن اهتمامه بمذهب البصريين فقد شرح كتاب سيبويه شرحا
مفصلا ، وكان كلامه في النحو - على رأى أبي حيان - مفهوما على
غير كلام الرماني الذي لم يكن مفهوما *

ونقل ياقوت أنه كان يقال : النحويون في زماننا ثلاثة :
« واحد لا يفهم كلامه ، وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه ،
وهو أبو علي الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ ، وهو
السيرافي » (١) *

ووصفه أبو حيان في المقابسات بقوله : « أبو سعيد السيرافي
شيخ الشيوخ ، وإمام الاثمة ، معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر
والعروض والقوافي والقرآن والقرائن والحديث ، والكلام ،
والحساب والهندسة ، أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على
مذهب أبي حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عثر منه على زلة ، وقضى
ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطه في
السليمانى ، فما جازاه فيه أحد ، ولا سبقه الى اتماعه انسان *

هذا مع الثقة في الديانة والامانة في الرواية (٢) *

(١) مجمع الادبيات ١٤ / ٧٥ *

(٢) المقابسات - ص ٥٨ *

وقد كان السيرافى فضلا عن هذا العلم الواسع المتنوع على قدر عظيم من الخلق والدين والخشوع والتقوى ، وقد وصف بأنه « ما قرئ على أبى سعيد ذكر الموت والقبر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار ، والوعد والوعيد ، والعقاب والمجازاة ، والثواب والانتذار ، والاعذار ، وذم الدنيا ، وتقليها بأهلها ، وتغيرها على بنائها ، الا وبكى منها وجزع عندها ، وربما نفص عليه يومه وليلته ، وامتنع من عاداته فى الاكل والشرب (١) » .

وكان يذهب الى التزهد ، ويأخذ نفسه بسلوك الصوفية ، وربما تلقى أبو حيان دروسه الاولى فى التصوف على يديه - رأى ذلك ما سينيون فقال : « علم تلميذه فى سن مبكرة أمرار علم التصوف (٢) » .

وأثر فيه من هذه الناحية الروحية أثرا واضعا لازمه طوال حياته .

وكان أبو سعيد السيرافى يأخذ فى منهجه الفكرى بأراء المعتزلة ، وربما كان اتجاه التوحيدى الى الاعتزال متأثرا بأرائه وكثرة قراءاته للمحافظ وتعلقه به .

ومع أساتذته فى اللغة والنحو أبو الحسن على بن عيسى الرمانسى (٢٧٦ هـ - ٣٨٤ هـ) ، والاختيد الوراق ، وقد كان

(١) معجم الادباء ١٧٢/٨ .

(٢) نقله د . ابراهيم الكيلانى - ص ١٤ نوابغ الفكر العربى - أبو حيان

التوحيدى وراجع أبو حيان لأوكريا ابراهيم - ص ٣٣ .

وقد كان اماما في علوم اللغة وغيرها ، فضلا عن أخذه بالاعتزال وطريقة المعتزلة ، وذكره التوحيدى بين العلماء الذين يفضلون الجاحظ ، قال :

« ومنهم على بن عيسى الرماني ، فإنه لم ير مثله بلا تقيه ، ولا تحاش ولا اشمزاز ولا استيعاش علما بالنحو ، وغزارة في الكلام ، وبصرا بالمقالات ، واستخراجا للمويعص وايضاها للمشكل ، مع تاله وتنزه ، ودين ويقين وفصاحة ، وفقاهة وعقافة ، ونظافة (١) » .

وكان في طبقة أبي على الفارسي وأبي سعيد السيرافي في علوم اللغة والنحو ، واتفرد بالبلاغة والتفسير .

وقدره أبو حيان حق قدره حين قال في حقه :

« ... وأما على بن عيسى فعلى الرتبة في النحو واللغة والكلام والمروض والمنطق وعيب به ، إلا أنه لم يسلك طريق صاحب المنطق ، بل أفرد سناعته ، وأظهر براعة » . وقد عمل في القرآن كتابا نفيسا ، هذا مع الدين اليتيم والمقل الرزين (٢) .
وقد تخرج التوحيدى عليه في علم النحو ، وروى عنه في « المقايسات » بعضا من مقالات الرماني .

وأخذ الفلسفة عن الفيلسوف النصراني يحيى بن عدي

(١) معجم الادباء ١٤/٧٦ .

(٢) الامتاع والمؤنة ١/١٣٣ .

(ت سنة ٢٦٤ هـ) ، وقد كان ملهما بعلوم اليونان وفلسفتهم كثير القراءة في كتبهم ، وقد تخرج ابن عدى على عالم كبير ومترجم من ترجمة المناظرة تمت على يديه ترجمة بعض الكتب اليونانية الى العربية وهو بشر بن متى بن يونس . وكان يحيى كثير النسخ للكتب . وترجم بعض كتب أرسطو من السريانية الى العربية ، ولخص بعض مؤلفات الفارابي ، وألف كثيرا في الفلسفة نقل أبو حيان في « المقاييسات » بعض آرائه فيها . كالقول في « الحركة والزمان » ، « العلة والمعلول » ، « الصورة والمادة » ، « الكون والفساد » ، « الامكان والاستحالة » .

وكانت عبارته العربية رديئة ، كما يقول التوحيدى ، وكان مشوه الترجمة .

وأخذ من يحيى بن عدى علوم الاوائل من الفلسفة والعلم الطبيعي .

وأخذ علوم الحقن على شيخه المروزي أبي حامد أحمد بن بشر (ت ٢٦٢ هـ) . وكان فقيها شافعي (١) ، وأتم أبو حيان تكوينه الفكري بالقراءة ، فقد قرأ كثيرا من الكتب ، وهيا له عمله بالورقة هذا الاطلاع .

وخبر الحياة بتقلبه في البلاد ، وكان كثير الرحلة ، فأضاف الى علمه ، خبرته .

(١) راجع تأثره بالمروزي في كتاب « أبو حيان التوحيدى » لتركيا إبراهيم من ٣٦ - ٤١ .

ووصلت أسباب الحياة بين أبي حيان وبعض أعيان الدولة .
وكبار رجالها ، وكانت صلته بالوزير المهلبى - وزير معز الدولة -
قصيرة ، انتهت الى نفيه عن بغداد .

وحاول الاتصال بالمصاحب بن عباد ، فلم يلق عنده قبولا .
فأدار له ظهره وألف فيه وفى أبى الفضل ابن العميد رسالتيه
« مثالب الوزيرين » - وهى رسالة هجاء ، صنعها كما صنع
الباحظ رسالته الترييع والتدوير فزاد عليه .

وخرج التوحيدى كما قال يافوت حقا : « متفنا فى جميع
العلوم من النحو واللفظ والشعر والادب والفقه ، والكلام على
راى المعتزلة » .

وآلف عديدا من الكتب رغم حياته المضطربة غير المستقرة .
اذ عاش فقيرا معظم حياته ، شاعرا بصدى التقدير من الناس ،
متهما فى رأيه ودينه ، مشردا ، لم ينعم بالطمأنينة فى الجسد وذا
العقل ، ولا النفس .

لقد كان كثير الشكوى ، حتى ان أستاذه عاب عليه هذا ،
وكان هجاء ، حاد اللسان ، صريحا ، لا يدارى ، وان بدت فى
طباعه صفات ضعف أخذها عليه الناس كالتذلل بالسؤال وتدنيه
نفسه ، وإباحة عرضه للقاذفين .

وآلف رغم هذا كله كتباً ورسائل غللت خالصة فى الادب
والفكر العربى ، وان رساه النابى بالباطل ، واختلفوا فيه اختلافا

كبيراً • فقد عد عند المعائبين من زنادقة الاسلام الثلاثة ابن
الراوندى وأبو العلام المعرى وأبو حيان التوحيدى •

وعد عند المنصفين من كبار المفكرين والمبدعين حتى عادلوه
بالحافظ •

بلغت آثاره ستاً وعشرين أثراً بين موسوعات يبلغ أجزاؤها
المشرة ورسائل صغيرة فى صفحات •
وأهم كتبه :

١ - الامتاع والمؤانسة ، فى ثلاثة أجزاء طبع ١٩٣٩ -
١٩٤٢ - ١٩٤٤ بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين • ويتضمن
أحاديث شتى سامر بها التوحيدى الوزير المهلبى ابن سعدان وجمله
أربعين ليلة • وقال عنه القفطى : هو كتاب ممتع على الحقيقة •

٢ - الصداقة والصديق ، طبع سنة ١٣٠١ هـ باستانبول
بمطبعة الجواثب ، ومرة أخرى بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ • وجمع
فيه كل ما عرف مما قيل عن الصداقة شعراً ونثراً منذ الجاهلية
الى عصره •

٣ - الهوامل والشوامل ، وطبع بالقاهرة سنة ١٩٥١ م ،
وهو أسئلة مطلقة فى موضوعات عدة أدبية وفلسفية وأخلاقية
ولغوية وجهها أبو حيان الى مسكويه وأجابه عنها •

٤ - البصائر والنخائر ، وهو كتاب ضخمة ، موسوعة علم
وأدب ، وثمره تجارب واسعة لصاحبه ، أودعها ما رآه وسمعه

وحفظه في المجالس والدروس والكتب التي قراها . فهو كقوله :
« ثمرة العمر ، وزبدة الايام » .

٥ - مثالب الوزيرين ، كتاب في هجاء أبي الفضل بن
العميد ، والصاحب بن عباد وطبع حديثا سنة ١٩٦٠ م .

٦ - المقابسات ، من كتبه الفلسفية الطائفة ، وهي مجموعة
آراء لكبار علماء عصره أمثال يعقوب بن عدي ، وأبي سليمان
المنطقي ، طبع سنة ١٣٠٥ هـ بالهند وسنة ١٩٢٩ م بمصر .

٧ - الاشارات الالهية . وهو كتاب صوفي يضم مجموعة
من المواعظ والاوراد الصوفية ، طبع بتحقيق الدكتور عبد الرحمن
بدوي .

وعبرت مؤلفاته عن شخصيته ، وعبر المستشرق آدم متز عن
امجابه به وبكتبه فقال : « لم يكتب في النثر العربي بمد أبو حيان
ما هو أسهل وأقوى وأشد تميرا عن شخصية صاحبه مما كتب
أبو حيان (١) » .

ويمكن تتبع كتبه بتتبع تاريخ حياته ، وتجد بينها تناظرا
واضحا ، ففي مراحل حياته الاولى اذ هو مشغول بالتحصيل
والجلوس الى أساتذته من العلماء ، نجد كتبه مليئة بآراء هؤلاء
الاساتذة ويطبعها السؤال من أبي حيان والجواب من الاساتذة ،

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع - ص ٤١٦ .

وتكاد أن تختفى شخصيته فيها الى جانبهم . ومن أمثلتها كتاب
« المقاييسات » .

وفي حالات قضيه وثورته عقب فشل رحلته الى المشرق وعدم
توفيقه في رفقة الوزيرين الكبيرين والصاحبين الادبيين ابن العميد
والصاحب ابن عباد يمبر كتابه « مثالب الوزيرين » عن ذلك
الغضب والهجم لهما على سوء معاملتهما اياه .

وفي مرحلة رضاه مع الوزير ابن سمدان بعد عودته الى
بغداد ، وقد اكتملت شخصيته الادبية والعلمية ، وركن اليه
الوزير ، وقربه ، وطلب اليه معاصرته بطرائف رأيه وغزير علمه
وأدبه ويؤلف الكاتب « الامتاع والمؤانسة » ، يجمع فيه تلك
المجالس ، وتظهر شخصيته واضحة ، فهو دائما الذي يجيب برأيه
أو بعلمه ، أو بروايته وحفظه ، وإذا عز عليه الجواب طلب مهنة
ليسأل بعض أساتذته أو العلماء فيما لم يعلم أو لم يتقن .

وفي مرحلة حياته الاخيرة اذ تتقدم به السن ، وينظرها بن
يديه فاذا هو هباء والخطى تسير به الى النهاية ، فتتمو عنده
مشاعر صوفية ، ورغبات زهد دقينة ونزعات رقص للحياة كانت
تستكن وتبدو - فينهي حياته بذلك الاتجاه الصوفي ويندرج كما
قال المؤرخون في سلك الصوفية وشيوخهم ، بل يصبح شيتا له من
الاتباع والمريدين ويؤلف لهم ولتنفسه مجموعة من الادعية
والاوراد والمواظظ يضمنها كتابه « الاشارات الالهية » .

نصوص من أدب أبي حيان التوحيدي

أولا : : « من كتاب الامتاع والمؤنسة » :

« فضل العرب واللغة العربية » .

قال في الليلة السادسة :

« وقد سمعنا لغات كثيرة - وان لم نستوعبها - من جميع
الامم ، كلفة أصحابنا العجم والروم والهند ، والترك وخوارزم ،
وصقلا ب ، وأندلس ، والزنج ، فما وجدنا شيء من هذه اللغات
نصوع العربية ، أعنى الفرج التي في كلماتها ، والقضاء الذي
نجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي
نتذوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها ، وإذا
شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم فالخط عرض
اللغات الذي هو بين أشدها تلبسا وتداخلا ، وترادفا وتماظلا ،
وتعسرا وتموسا ، وإلى ما بعدها مما هو أسلس حروفا ، وأرق
لفظا ، وأخف اسما ، وألطف أوزانا ، وأحضر عيانا وأجلى مخرجا ،
وأجل منهجا ، وأعلى مدرجا ، وأعدل عدلا ، وأوضح فصلا ، وأصح
وصلا ، إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهي إلى العربية ، فأنك
تحكم بأن المبدأ الذي أشرنا إليه في الفوائس والإغصاض ، مبرر
قليلا حتى وقف على العربية في الافصاح والإيعاض » .

وهذا شيء يجده كل من كان صحيح البنية ، بريئا من الآفة ،
متنزها عن الهوى والمصيبة ، محبا للانصاف في الخصومة ،

متحريرا للحق في الحكومة ، غير مسترق بالتقليد ولا مغدوخ بالالف ، ولا مسخر بالعادة ، واني لاعجب كثيرا ممن يرجع الى فضل واسع وعلم جامع ، وعقل شديد ، وأدب كثير ، اذا أبى هذا الذى وصفته ، وأنكر ما ذكرته ، وأعجب أيضا فضل عجب من الجيهاني (١) فى كتابه وهو يسب العرب ، ويتناول أعراضها ويحط من أقدارها - ويقول يأكلون اليرابيع والضباب ، والجرذان والحيات ، ويتماونون ، ويتساورون ويتهاجون ، ويتفاحشون وكأنهم قد سلخوا من فضائل البشر ، ولبسوا أهب الخنازير -

قال : ولهذا كان كسرى يسمى ملك العرب « سكان شاه » أى ملك الكلاب -

قال : « وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجرائها ، والقطباء وأملائها » -

وكلاما كثيرا من هذا الصوب أرفع قدره عن مثله ، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله - أثراء لا يعلم لو نزل ذلك القفر ، وتلك الجزيرة ، وذلك المكان الخاوى ، وتلك القيافى والموامى ، كل كسرى كان فى الفرس ، وكل قيصر كان فى الروم ، وكل بلهور كان فى الهند وكل تقفور كان بخراسان ، وكل خاقان كان بالترك ، وكل أخشاد كان بفرغانة ، وكل صيهبد كان من أسكنان

(١) هو محمد بن أحمد الجيهاني ، وكان وزيرا للسامانيين . وكان ادبيا من رؤساء المتكلمين يظهر ويطن الزندقة -

وأردوان ما كانوا يمدون هذه الاحوال ، لان من جاع أكل ما وجد
وطعم ما لحق ، وشرب ما قدر عليه ، حيا للحياة ، وطلبا للبقاء ،
وجزعا مع الموت وهربا من الفناء ، أتري أنوشروان اذا وقع الى
فيافي بني أسد ، وبر وصفوح طيبة ورمل بيرين ، وساحة هبير ،
وجاع وعطش وعري ، أما كان يأكل اليربوع والجردان ، وما
يشرب بول الجمل وماء البئر ، وما آمن في تلك الوهادت ؟ أو ما
كان يلبس البرجد (١) والخميصة (٢) والسمل من الثياب (٣) ،
وما هو دونه ، وأخشن ؟ • بلى والله ، ويأكل حشرات الارض ،
ونبات الجبال ، وكل ما حمض ، ومر ، وخيث ، وضر • هذا جهل
من قائله ، وحيف من منتحله •

على أن العرب - رحمك الله - أحسن حالا وعيشا اذا جادتهم
السماء وصدقتهم الانواء ، وازدانت الارض ، فهدلت الثمار ،
واطردت الاودية وكثر اللبن والاقط (٤) ، والجبن واللحم ،
والرطب والتمر ، والقمح • وقامت لهم الاسواق ، وطابت المرافق
وفشا النصب ، وتوالى النتاج ، واتصلت البرة ، وصددق
المصاب (٥) ، وأرفخ المنتجع (٦) وتلاقت القبائل على المحاضر ،

(١) البرجد : كساء غليظ من صوف أحمر • وقيل هو كساء ضخم مغطى يصلح
للخباء وغيره •

(٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان •

(٣) السمل : من الثياب الخلق البالي •

(٤) طعام يتخذ من لبن الغنم ويطبخ •

(٥) المصاب ، المقصد ، من صاب يصوب أى يتجه •

(٦) أرفخ له المعائن وسعه •

وتقاولوا ، وتضايضوا وتماقيدوا ، وتعاهدوا ، وتزاوروا ،
وتناشدوا وعقدوا الذمم ، ونطقوا بالحكم ، وقروا الطراق ،
ووصلوا العقاة ، وزودوا السابلة وأرشدوا الضلال ، وقاموا
بالحملات (١) ، وفكوا الأسرى ، وتداعوا الجفلى ، وتعاقوا
الثقري وسافسوا في أعمال المعروف ، هذا وهم على مساقط
دعوسهم ، بين جبالهم ورمالهم ، ومناشئ آبائهم وأجدادهم ،
وموالد أهلهم وأولادهم ، على جاهليتهم الأولى والثانية .

وقد رأيت حين هبت ريحهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ،
وانتشرت دعوتهم بالملة وعزت ملتهم بالنبوة ، وغلبت نبوتهم
بالشرعية ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونضرت خلافتهم بالسياسة
الدينية والدنيوية ، كيف تحولت جميع محاسن الأمم اليهم ، وكيف
وقعت فضائل الأجيال عليهم ، من غير أن طلبوها ، وكبحوا
في حيازتها . أو تعبوا في نيلها بل جاءتهم هذه الخاقب والمناخر .
وهذه التوارد من المآثر عفوا ، وقطعت بين أطناب بيوتهم سهوا ،
دهوا .

وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوقيقه ، وساقه الى أهله
بتأييده ، وجلى مستحقه باختياره . ولا غالب لامر
الله ، ولا مبدل لحكم الله . ولذلك قال الله تعالى : (قل اللهم
مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتمن
من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير) .

(١) الحملات ، الديارات والغرامات .

ولله في خلقه أمرار ، تتصرف بها دوائر الليل والنهار ،
وتنلله مجارى الاقدار حتى ينتهى بمحبوبها ومكروهها الى
القرار .

عز الهامعبودا ، وجل ربا محمودا مقصودا .

وبعد ، فالذى لا شك فيه من شأن العرب ، ولا جاحد له من
حالها أنه ليس على وجه الارض من الثامن يتزلون القفر .
وينتجعون السحاب والقطر ، ويحالجون الايل والخيول ، والفنم ،
وغيرها ، ويستبدون فى مصالحهم بكل ما عز وهان ، ويكل ما قل
وكثر وبكل ما سهل وعسر ، ويرجون الخير من السماء فى صوبها ،
ومن الارض فى نباتها مع مراعاة الاوان بعد الاوان ، وثقة بالحال
بعد الحال ، وتبصره فيما يفعل ويجتنب ، ما للعرب فيما قدمنا
وصفه ، وكررها شرحه من علمهم بالخصب والجذب ، واللين
والقسوة والحر والبرد والرياح المختلفة والسحاب الكاذبة
والمخايل الصادقة والاتواء المحمودة والمذمومة والاسباب الغريبة
المجيبة .

وهذا لانهم مع توحشهم مستأنسون ، وفى بواديههم حاضرون .
فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات ومن أخلاق
البادية أظهر الاخلاق .

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المدن ، وأرباب
الحضر لان الدناءة والرقة ، والكيس والهيئ ، والخلافة والخداع

والحيلة والمكر والرعب تغلب على هؤلاء ، وتملكهم لان مدار أمرهم
على المعاملات السيئة ، والكذب فى الحسن ، والخلف من الوعد .

والعرب قد قدسها الله عن هذا الباب بأمره ، وجبلها على
أشرف الاخلاق بقدرته ، ولهذا تجد أحدهم وهو فى بت حافيا (١) ،
حاسرا يذكر الكرم ، ويفتخر بالمحمدة وينتحل النجدة ، ويحتمل
الكل ، ويضحك فى وجه الضيف ، ويستقبله بالبشر - يقول :
أحدثه ان الحديث من القرى .

ثم لا يقنع ببث العرف ، وفعل الخير ، والصبر على النوائب
حتى يحض الصغير والكبير على ذلك ، ويدعو اليه ، ويستنهضه
نحوه ، ويكلفه مجهوده وعفوه .

وقد قيل لرجل منهم فى يوم شات وهو يمشى فى سمل : أما
تجد البرد يا أخا العرب ؟ فقال أمشى الخيزلى ويكفينى حسي .

والفارسي لا يحسن هذا النمط ، ولا يذوق هذا المعنى ، ولا
يعلم بهذه اللطيفة وكذلك الرومى والهندي ، وغيرهما من جميع
المجم .

ومما يدل على تحضرهم فى جميع باديتهم ، وتبديهم فى
حاضرتهم ، وتحليهم بأشرف أحوال الامرين ، أسواقهم التى لهم

(١) بت ، البت كساء غليظ النسج من صوف أو وبر . قال الشاعر :

من يك ذا بت فهذا بتى مقيظ مريع مضمضى

في الجاهلية ، مثل دومة الجندل (١) بقرى كلب وهي النصف بين المراق والشام ، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الاول فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء ، والاخذ ، والعطاء ، وكان يمشرهم (٢) أكيدر دومة وربما غلبت على السوق كلب فيمشرهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم الى آخر الشهر ثم ينتقلون الى سوق حجر (٣) - وهو المشقر (٤) في شهر ربيع الآخر . فتقوم أسواقهم وكان يمشرهم المنذر بن ساوى من بني عبد الله بن دارم ، ثم يرتحلون نحو عمان ، فتقوم سوقهم بديار دبا ، ثم بصحار ، ثم يرتحلون فينزلون أرم وقرى الشعر ، فتقوم أسواقهم أياما ، ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين - ومن سوق عدن تشتري اللطائم (٥) ، وأنواع الطيب - ولم يكن في الارض أكثر طيبا ، وأخذت صنعا للطيب من عدن - ثم يرتحلون فينزلون الرايية من حضر موت - ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها - ومنها كانت تجلب آلة الخرز والادم ، والبرود ، وكانت تجلب اليها من معافر (٦) - وهي عدن البرود والحبر ،

(١) دومة الجندل ، سوق ، في موقع حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طسوة .

(٢) أكيدر ، اسم صاحب دومة .

(٣) قاعدة البحرين ، وقبل ناحية البحرين كلها حجر .

(٤) المشقر حصن هناك بهجر قديم لواحدة من قبائلهم من عبد القيس .

(٥) اللطائم الطيب ، والمسك ، وأحدثها لطيمة .

(٦) مكان باليمن تنسب اليه الثياب المعافرية .

ثم يرتحلون الى عكاظ ، وذى المجاز فى الاشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ، فيتناشدون ويتحاجون ويتحادون ، ومن له أسير يسعى فى فدائه ، ومن له حكومة ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة من بنى تميم . وكان آخرهم الاقرع بن حابس . ثم يقيمون معرفة ، ويقضون ما عليهم من مناسكهم ، ثم يتوجهون الى أوطانهم .

وهذه الاسواق كانت تقوم طوال السنة ، فيحضرها من قرب من العرب ، ومن بعد . هذا حديثهم وهم حمل لا عسر لهم الا بالسؤدد ، ولا معقل لهم الا السيف ولا حصون الا الخيل ، ولا فخر الا بالبلاغة .

ثم لما ملكوا الدور والقصور ، والجنان والاوادية ، والانهار ، والمعادن ، والقلاع والمدن والبلدان ، والسهل والجبل ، والبحر والبحر لم يقعدوا عن شأو من تقدم بألاف السنين ، ولم يحجزوا عن شيء كان لهم ، بل أبروا عليه وزادوا ، وأغربوا وأفادوا . وهذا الحكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ، ليس الى مرده سبيل ، ولا لجاحده ومنكره دليل .

(ب) « من الليلة الثامنة » :

حديث الشعراء :

قال ابن سعدان : فصل حديثك . . . بحديث أصحابنا الشعراء . صف لي جماعتهم ، واذكر لي بضاعتهم ، وما خص كل واحد منهم .

قلت : لست مع الشعر والشعراء في شيء ، وأكره أن أخضع
على دحض (١) ، وأحتسئ غير محض .

قال : دع هذا القول ، فما خضنا في شيء الى هذا الوقت الا
على غاية ما كان في النفس ، ونهاية ما أفاد مع الانس ، فكان مع
الوصف :

أما السلامي (٢) : فهو حلو الكلام ، متسق النظام ، كأنما
يبسم عن ثغر الفمام ، خفي السرقة ، لطيف الاخذ ، واسع المذهب ،
لطيف المفارص ، جميل الملابس ، لكلامه ليطه بالقلب وعيث
بالروح ، ويرد على الكبد .

وأما الحاتمي (٣) : فغليظ اللفظ ، كثير المعقد ، يحب أن
يكون بدويا قحما ، وهو لم يتم حضريا ، غزير المحفوظ ، جامع
بين النظم والنثر ، على تشابه بينهما في الجفوة ، وقلة السلاسة ،
والبعد عن السلوك ، يادى العورة فيما يقول ، كأنما يبرز ما
يخفي ، ويكدر ما يصفى . له سكرة في القول اذا أفاد منها خمر ،

(١) دحض مزلة ومزلة للاقدم .

(٢) السلامي : شاعر من أهل العراق ، عربي الاصل من بني مغزوم . ولد بالكرخ
ببغداد سنة ٢٣٦ هـ واتصل بالصاحب ابن عباد وعضد الدولة البويهى وبسجدة .
ترجم له صاحب الميمنية ، وروى بعضا من شعره وتوفى سنة ٢٩٤ هـ .

(٣) الحاتمي : علي بن الحسن ، الكاتب الاديب اللغوي الشاعر الناقد ، عاش
في بغداد ، واتصل بالوزير المهلبى ، وانتفى بالمتنبي عند وروده بغداد سنة
٣٥٠ هـ وصاؤه في شعره ، والف فيه وفي شعره رسالتين ، أحدهما في معانيه ،
والاخرى في موافقة شعره أرسططاليس ، توفى سنة ٢٨٨ هـ .

وإذا خسر مدبر (١) ، يتطلوول شاحصا ، فيتضاملك متفاحصا ، إذا
صدق فهو مهين ، وإذا كذب فهو مشير *

وأما ابن جليات (٢) : فمجننون الشعر ، متغاوت اللفظ ،
قليل البديع ، واسع العيلة ، كثير الزوق (٣) ، قصير الرشام (٤) ،
كثير الفشام ، غره نفاقه (٥) ، ونفقه نفاقه *

وأما الخالع (٦) : فأديب الشعر ، صحيح النعت ، كثير
البديع ، مستوى الطريقة متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة المتحير ،
قريب من فرصة المتخير ، كان ذو الكفايتين يقدمه بالرى ويقبله
على النشر والطنى *

وأما ابن نباتة : فشاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول الا حاسدا ،
أو جافلا ، أو معاتدا قد لحق عصاية سيف الدولة ، وعدا معهم
ووراءهم ، حسن التحذر على مثال سكان البادية لطيف الاشتمام
بهم ، خفى المقاص في واديههم ، ظاهر الاطلال على ناديههم ، هذا
مع شعبية مع الجنون ، وطائف من الوسواس *

وأما ابن الحجاج (٧) : فليس من هذه الزمرة بشيء ، لا

(١) سدر : تعير ولم يسأل *

(٢) هو أبو القاسم علي بن جليات من شعراء اليتيمة ج ٢ / ٢٧٠ *

(٣) الزوق : الزيتة *

(٤) الرشام : الجبل الذي يصل الدلو اذ يلقي به في البئر *

(٥) النفاق : بفتح النون الرواج *

(٦) الخالع : أبو علي الحسن بن علي من شعراء المشرق * أورده صاحب اليتيمة *

(٧) ابن الحجاج هو : أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، شاعر مأجور من شعراء

سختيف الطريقة ، يبيد من الجذ ، قريح في الهزل ، ليسى للمعقل بين شعير منال ، ولاله في قرضه مثال • على أنه قويم لللفظ سهل الكلام ، وشماثله ناثية بالوقار عن عاداته الجارية في الخسار ، وهو شريك ابن سكره في هذه الخرامة ، واذا جد أقمى • واذا هزل حكى الاقمى •

وله مع ذي الكفایتین مناظرة طيبة •

قلت : لما ورد ذو الكفایتین (١) سنة أربع وستين ، وهزم الاتراك مع آفتكين ، وكان من الحديث ما هو مشهود سأل عن ابن حجاج - وكان متشوقا له ، لما كان يقرأ عليه من قوافيه فأحب أن يلتقيه ، لانه ليس الخبر كالمائة • والمسموع والمبصر كالانثى والذكر ينزع كل واحد منهما الى تمامه (بالآخر) ، فلما حضره أبو عبد الله احتبسه للطعام ، وسمع كلامه ، وشاهد سمته واستغلى شماثله ، فقام من مجلسه ، فلما خلا به قال : يا أبا عبد الله لقد والله تهت عجباً منا ، فأما عجبى بك فقد تقدم " لقد كنت أقلى ديوانك ، فاتمنى لقاءك ، وأقول من صاحب هذا الكلام أظيش طامش ، وأخف خفيف ، وأغرم غارم • وكيف يجالس من يكون في هذا الاهاب ؟ وكيف يقارب من يتسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب

== بغداد في القرن الرابع الهجرى ، اتصل بالوزير المهلبى ، وعضد الدولة ،
الصاحب بن عباد وابن العميد ، وهما الثنبى وترجم له صاحب الشيعة •
توفى سنة ٣٩٦ هـ •

(١) ذو الكفایتین أبو الفتح ابن العميد ، الكاتب الوزير الاديب الشاعر •

الآداب • حتى شاهدتك الآن ، فتهاكت على وقارك ، وسكون
أطرافك ، وسكوت لفظك وتناسب حركاتك وفرط حيائك ،
وناضر وجهك ، وتبادل كلك وبعضك • وانت لمن عجائب خلق
الله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ،
مع هذا التناقض الذي بين شعرك وبينك في جديك •

فقال أبو عبد الله : أيها الأستاذ • وكان عجبى منك دون
عجبك منى ، لو تقارعتا على هذا لفلجت عليك بالتمجيب منك •
لأنى قلت : إذا ورد الأستاذ فسألنى منه خلقا جافيا وفضا غليظا ،
وصاحب رواسير ، وأكل كوامخ (١) ، وجبليا ، ديلميا ، متكاثبا
متعاطما ، حتى رأيتك الآن ، وأنت ألفت من الهواء ، وأرق من
الماء ، وأغزل من جميل بن معمر ، وأعزب من الحياة ، وأوزن من
الطود ، وأغزر من البحر ، وأبهى من القمر ، وأندى من الغيث ،
وأنتطق من سحبان ، وأسخر من الغمام وأنفذ من السهام ، وأكبر
من جميع الأنام •

فقال أبو الفتح وتبسم : هذا أيضا من ودائع فضلك ، وبواعث
تفضلك • ووصله وعرفه •

(١) كوامخ ، جمع كامخ ، والكامخ ، وهو أدام يؤقلم به ، وخصه بعضهم بالغللات
التي تستعمل لتفتيح الطعام •

ثانيا : من البصائر والذخائر (١)

الجاحظ

يقول :

« وأبو عثمان الجاحظ ، فأنك لا تجد مثله ، وإن رأيت ما رأيت ، رجلا أسبق في ميدان البيان منه ، ولا أبعد شوطا ، ولا أمد نفسا ، ولا أقوى منه - إذ جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهود ، وكل لسان المسعقر الصبور ، وانتفخ سحر العارم الجسور - »

ومنى رأيت ديباجة كلامه رأيت حوكا كثير الوشى ، قليل الصنعة ، بعيد التكلف ، حلو المجنى مليح المثل ، له سلاسة الملام ، ورقة كريقة الهواء ، وحلاوة كحلاوة الناطل وعزة كعزة كليب وائل - فسبحان من سخر له البيان ، وعلمه ، وسلم في يده قصب الرهان وقدمه ، مع الاتساع العجيب ، والاستمادة الصائبة ، والكتابة الثابتة والتصريح المغنى ، والتعريض المبني ، والمعنى الجيد ، واللفظ المفخم ، والطلاوة الظاهرة ، والحلاوة الحاضرة -
ان جد لم يسبق ، وان هزل لم يلحق ، وان قال لم يعارض ، وان سكت لم يعرض له - »

(١) الجزء الاول من ٢٢٠ -

فهرست الموضوعات

رقم الصحيفة

الموضوع

القسم الاول

تقديم

شعراء من القرن الثاني

البيئة - المكان والعصر والمجتمع

المجتمع العباسي

الشموبية

الزندقة

الجوارى والحياة

بشار بن برد - حياته وشعره

غزله وموقفه من المرأة

مجاؤه

سائر فنونه الشعرية

أبو تواسن - المجدد المقتن

أساتذته في الشعر

شعره - دراسة موضوعية

شعره في النثر

نصوص من عمرياته

حالة المطربين والمنشدين وآلاتهم

غزله في المرأة

شعراء بصريون

٨

١٤

١٧

١٩

٢١

٢٣

٤٥

٥٥

٥٦

٦٣

٦٨

٧٤

٨٣

٩٤

١٠٥

١١٣

١٢٥

رقم الصفحة	الموضوع
١٢٧	المطبوعون - السيد الحميرى
١٢٩	آيان بن عبد الحميد اللاحقى
١٣٣	مطيع بن ايامن
١٤١	النمط الامرابى
١٤٣	شعراء الفزل - العباس بن الاحنف
١٤٦	شعراء الحكمة والزهد - صالح بن عبد القدوس
١٥١	أحمد بن المعتدل
١٥٢	أبو العتاهية
١٥٩	اصحاب الدير - مسلم بن الوليد
١٧٣	القسم الثانى - شعراء من القرنين الثالث والرابع
١٧٥	القرن الثالث - الامار السيسى
١٨٤	الحياة الاجتماعية
١٩٢	الحياة الفكرية والثقافية
٢٠٤	الشعر والشعراء - الاتجاهات الفنية
٢١٩	شعراء المذاهب - من اهل السنة على بن الجهم
٢٢١	من العلوية - دعلج بن على
٢٢٩	أبو تمام حبيب بن اوس
٢٤٥	محمد بن داود الاصفهائى
٢٤٩	أبو العباس النافى
٢٧٥	العتابى - كلثوم بن عمرو

الموضوع	رقم الصفحة
البحرئ - الوليد بن عبيد الله	٢٩٦
ابن الرومي - علي بن العباس	٣١٠
أبو الطيب المتنبي - أحمد بن الحسين	٣٤٣
القسم الثالث - جماعة من الكتاب	٤٢٣
الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر	٤٣٥
موقفه من الامتزال	٤٤٠
موقفه من عصره واتجاهاته الدينية والفكرية	٤٤٤
موقفه من الزنادقة	٤٤٨
أسلوبه	٤٥٦
أهم موضوعات كتبه ورواياته	٤٥٨
رسالة التبصر بالتجارة	٤٧١
رسالة التبيان	٤٧٤
رسالة المحامد والمآثر	٤٧٩
حب الوطن	٤٨٥
الموضوعات الدينية في كتبه ورسائله	٤٨٦
البيان والنقد واليلامة	٤٩٤
روح الفكاهة والسخرية	٤٩٦
كتابه الحيوان بين الادب والمجدل الديني	٤٩٨

الموضوع	رقم الصفحة
ابن قتيبة	٥٥٩
ثقافته وآرامؤه وعقائده	٥٥٧
ابن قتيبة والجاحظ	٥١٧
أبو حيان التوحيدى - حياته	٥٢٢
أمازيغه	٥٢٦
كتبه	٥٢٢
نصوص من أدبه	٥٢٧

تم بعمد الله

طبع بمطبعة التقدم

عبد القادر المتونى

٢١ شارع سيزوستريس - الاسكندرية ت : ٨٠٦٠٥٥

Bibliotheca Alexandrina



0355479